الفرقان

في تفسير القرآن بالقرآن

الجزء الثالث عشر

آیة الله العظمی الدکتور محمد الصادقی الطهرانی

[www.hakim-elahi.mihanblog.com](http://www.hakim-elahi.mihanblog.com)

الفرقان في تفسير القرآن بالقرآن، ج‏13، ص:7

الجزء الثالث عشر

[بقية سورة التوبة]

[سورة التوبة (9): الآيات 25 الى 36]

لَقَدْ نَصَرَكُمُ اللَّهُ فِي مَواطِنَ كَثِيرَةٍ وَ يَوْمَ حُنَيْنٍ إِذْ أَعْجَبَتْكُمْ كَثْرَتُكُمْ فَلَمْ تُغْنِ عَنْكُمْ شَيْئاً وَ ضاقَتْ عَلَيْكُمُ الْأَرْضُ بِما رَحُبَتْ ثُمَّ وَلَّيْتُمْ مُدْبِرِينَ (25) ثُمَّ أَنْزَلَ اللَّهُ سَكِينَتَهُ عَلى‏ رَسُولِهِ وَ عَلَى الْمُؤْمِنِينَ وَ أَنْزَلَ جُنُوداً لَمْ تَرَوْها وَ عَذَّبَ الَّذِينَ كَفَرُوا وَ ذلِكَ جَزاءُ الْكافِرِينَ (26) ثُمَّ يَتُوبُ اللَّهُ مِنْ بَعْدِ ذلِكَ عَلى‏ مَنْ يَشاءُ وَ اللَّهُ غَفُورٌ رَحِيمٌ (27) يا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا إِنَّمَا الْمُشْرِكُونَ نَجَسٌ فَلا يَقْرَبُوا الْمَسْجِدَ الْحَرامَ بَعْدَ عامِهِمْ هذا وَ إِنْ خِفْتُمْ عَيْلَةً فَسَوْفَ يُغْنِيكُمُ اللَّهُ مِنْ فَضْلِهِ إِنْ شاءَ إِنَّ اللَّهَ عَلِيمٌ حَكِيمٌ (28) قاتِلُوا الَّذِينَ لا يُؤْمِنُونَ بِاللَّهِ وَ لا بِالْيَوْمِ الْآخِرِ وَ لا يُحَرِّمُونَ ما حَرَّمَ اللَّهُ وَ رَسُولُهُ وَ لا يَدِينُونَ دِينَ الْحَقِّ مِنَ الَّذِينَ أُوتُوا الْكِتابَ حَتَّى يُعْطُوا الْجِزْيَةَ عَنْ يَدٍ وَ هُمْ صاغِرُونَ (29)

وَ قالَتِ الْيَهُودُ عُزَيْرٌ ابْنُ اللَّهِ وَ قالَتِ النَّصارى‏ الْمَسِيحُ ابْنُ اللَّهِ ذلِكَ قَوْلُهُمْ بِأَفْواهِهِمْ يُضاهِؤُنَ قَوْلَ الَّذِينَ كَفَرُوا مِنْ قَبْلُ قاتَلَهُمُ اللَّهُ أَنَّى يُؤْفَكُونَ (30) اتَّخَذُوا أَحْبارَهُمْ وَ رُهْبانَهُمْ أَرْباباً مِنْ دُونِ اللَّهِ وَ الْمَسِيحَ ابْنَ مَرْيَمَ وَ ما أُمِرُوا إِلاَّ لِيَعْبُدُوا إِلهاً واحِداً لا إِلهَ إِلاَّ هُوَ سُبْحانَهُ عَمَّا يُشْرِكُونَ (31) يُرِيدُونَ أَنْ يُطْفِؤُا نُورَ اللَّهِ بِأَفْواهِهِمْ وَ يَأْبَى اللَّهُ إِلاَّ أَنْ يُتِمَّ نُورَهُ وَ لَوْ كَرِهَ الْكافِرُونَ (32) هُوَ الَّذِي أَرْسَلَ رَسُولَهُ بِالْهُدى‏ وَ دِينِ الْحَقِّ لِيُظْهِرَهُ عَلَى الدِّينِ كُلِّهِ وَ لَوْ كَرِهَ الْمُشْرِكُونَ (33) يا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا إِنَّ كَثِيراً مِنَ الْأَحْبارِ وَ الرُّهْبانِ لَيَأْكُلُونَ أَمْوالَ النَّاسِ بِالْباطِلِ وَ يَصُدُّونَ عَنْ سَبِيلِ اللَّهِ وَ الَّذِينَ يَكْنِزُونَ الذَّهَبَ وَ الْفِضَّةَ وَ لا يُنْفِقُونَها فِي سَبِيلِ اللَّهِ فَبَشِّرْهُمْ بِعَذابٍ أَلِيمٍ (34)

يَوْمَ يُحْمى‏ عَلَيْها فِي نارِ جَهَنَّمَ فَتُكْوى‏ بِها جِباهُهُمْ وَ جُنُوبُهُمْ وَ ظُهُورُهُمْ هذا ما كَنَزْتُمْ لِأَنْفُسِكُمْ فَذُوقُوا ما كُنْتُمْ تَكْنِزُونَ (35) إِنَّ عِدَّةَ الشُّهُورِ عِنْدَ اللَّهِ اثْنا عَشَرَ شَهْراً فِي كِتابِ اللَّهِ يَوْمَ خَلَقَ السَّماواتِ وَ الْأَرْضَ مِنْها أَرْبَعَةٌ حُرُمٌ ذلِكَ الدِّينُ الْقَيِّمُ فَلا تَظْلِمُوا فِيهِنَّ أَنْفُسَكُمْ وَ قاتِلُوا الْمُشْرِكِينَ كَافَّةً كَما يُقاتِلُونَكُمْ كَافَّةً وَ اعْلَمُوا أَنَّ اللَّهَ مَعَ الْمُتَّقِينَ (36)

الفرقان في تفسير القرآن بالقرآن، ج‏13، ص: 9

لَقَدْ نَصَرَكُمُ اللَّهُ فِي مَواطِنَ كَثِيرَةٍ وَ يَوْمَ حُنَيْنٍ إِذْ أَعْجَبَتْكُمْ كَثْرَتُكُمْ فَلَمْ تُغْنِ عَنْكُمْ شَيْئاً وَ ضاقَتْ عَلَيْكُمُ الْأَرْضُ بِما رَحُبَتْ ثُمَّ وَلَّيْتُمْ مُدْبِرِينَ (25).

«لقد» في تأكيدين اثنين‏ «نَصَرَكُمُ اللَّهُ فِي مَواطِنَ كَثِيرَةٍ»: من جبهات القتال و سواها، حيث عشتم نصر اللّه، «وَ يَوْمَ حُنَيْنٍ إِذْ أَعْجَبَتْكُمْ كَثْرَتُكُمْ» فلما كثرتم فأعجبتكم كثرتكم انكسرتم حيث انفلت عنكم صالح التوكل على اللّه و رجاء نصر اللّه‏ «فَلَمْ تُغْنِ عَنْكُمْ شَيْئاً» حين تركتم ما يغنيكم من نصر اللّه‏ «وَ ضاقَتْ عَلَيْكُمُ الْأَرْضُ»: أرض المعركة أم و سواها «بِما رَحُبَتْ» رحبة كأرض الصراع و الوقاع لمكان كثرتكم أم ككل الأرض، و ضيقة بما ضيقكم إعجابكم و ثقتكم بأنفسكم‏ «ثُمَّ وَلَّيْتُمْ مُدْبِرِينَ» فرارا عن عدوكم، و في الأثر أن‏ «مَواطِنَ كَثِيرَةٍ» هذه هي ثمانون موطنا.

و ترى «كثيرة» هنا دليل عناية ثمانين فيما تطلق على أية حال؟

و المطلق إذا عني أكثر منها أو أقل لا يعني من كثرته إلّا ما عنى، و إذا لم يعن حدا معينا فعرفية الكثرات تختلف حسب الحالات و الملابسات و الإمكانيات، فمن مقلّ كثيرة أقل من ثمانين بكثير، و من مكثر ثريّ كثيرة أكثر منه بكثير طالما اتفق، صدق «كثيرة» لمن يملك مالا يعد الثمانون له‏

الفرقان في تفسير القرآن بالقرآن، ج‏13، ص: 10

كثيرا، إذا فكيف يستدل ب «كثيرة» هنا أنها معنية لأقل تقدير فيما تطلق بحقل الإنفاق أم سواه؟ «1».

ثم «كثيرة» في مواطن القتال هي أكثر كثيرة، و من ثمّ هي في مواطن أخرى بين كثيرة و قليلة، و الثالثة هي الأخرى قلة قليلة، فمن ينذر أن يتزوج كثيرا لا تعدو كثرته أربعا و ما زاد، و الذي يملك مليارات حين ينذر أن يدفع كثيرا لا يعد ثمانون منه إلّا أقل قليل!.

إذا فالكثيرة في كل حقل و حالة و ملابسة لها حدّها كما تعرفها أعرافها، دون أن يحد لها حد خاص هو قليل أو أقل قليل في بعض، أم كثير أو أكثر كثير في آخر و بينهما عوان.

«وَ يَوْمَ حُنَيْنٍ» و هو واد بين مكة و الطائف وقعت فيه غزوة حنين حيث تناصر فيها هوازن و ثقيف على رسول اللَّه (صلى اللَّه عليه و آله و سلم) و الذين معه، فانهزموا في البداية ثم هزموا بنصر اللَّه في النهاية، و اختصاص‏ «يَوْمَ حُنَيْنٍ» بالذكر بين كل المواطن دليل أنه أهم مما سواه، و حتى من فتح مكة، فإن تغلّب زهاء ثمانين من المؤمنين على أربعة آلاف هو منقطع النظير في كل تاريخ الحروب!: فلما فتح رسول اللَّه (صلى اللَّه عليه و آله و سلم) مكة و قد بقيت من رمضان أيام خرج متجها إلى حنين لقتال هوازن و ثقيف بعد ما بلغه انهم جمعوا له ليقاتلوه، فسبقهم إلى أرض‏

\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_

(1).

نور الثقلين 2: 196 في معاني الأخبار عن أبي عبد اللَّه (عليه السلام) انه قال‏ في رجل نذر أن يتصدق بمبال كثير فقال: الكثير ثمانون فما زاد لقول اللَّه تبارك و تعالى‏ «لَقَدْ نَصَرَكُمُ اللَّهُ فِي مَواطِنَ كَثِيرَةٍ»

و كانت ثمانين موطنا. و

في تفسير العياشي يوسف بن السخت و تفسير القمي محمد بن عمير و في الكافي مرسلا كان المتوكل اعتل علة شديدة فنذر إن عافاه اللَّه أن يتصدق بدنانير كثيرة أو قال: بدراهم كثيرة فعوفي فجمع العلماء فسألهم عن ذلك فاختلفوا عليه، قال أحدهم: عشرة آلاف و قال بعضهم: مائة ألف، فلما اختلفوا قال له عيّاده: ابعث إلى ابن عمك محمد بن علي الرضا (عليه السلام) فاسأله فبعث إليه فسأله فقال: الكثير ثمانون، فقالوا رد إليه الرسول فقل من أين قلت ذلك؟ فقال: من قول اللَّه تبارك و تعالى‏ «لَقَدْ نَصَرَكُمُ اللَّهُ فِي مَواطِنَ كَثِيرَةٍ، و كانت المواطن ثمانين موطنا».

الفرقان في تفسير القرآن بالقرآن، ج‏13، ص: 11

المعركة، و كانوا أربعة آلاف و جيش الإسلام بين عشرة آلاف و اثنى عشر أو ستة عشر ألفا، ألفان منهم من الطلقاء المكيين، فقد كانوا لأقل تقدير ثلاثة أضعاف العدو معاكسة لأصحاب بدر و هم ثلث العدو، و لكنهم هزموا العدو في بدر و انهزموا في حنين في البداية، لمكان الروحية العالية الغالية في بدر، و بخلافها الإعجاب بكثرتهم و الاعتماد بأنفسهم في حنين، و لا سيما أن هذه الهزيمة العظيمة كانت بعد فتح مكة الذي هو فتح الفتوح، حيث أخذتهم غرة الفتح و عزّته و نزوته و خطوته من ناحية، و كثرتهم من أخرى- بمن معهم من طلقاء مكة- فتخلّوا عما تحلّوا به يوم بدر و مكة، فانهزموا في البداية ليعلموا أنما النصر من عند اللَّه العزيز الحكيم، و هكذا يبتلي اللَّه المؤمنين بكلّ من الهزيمة، و الغلبة الهزيمة العظيمة، و لكي يحافظوا على حالة الإيمان و هالته على أية حال، دون إعجاب و إدغال.

فهنا من انفعال الإعجاب بالكثرة- التي لم يكن لها مثيل طول حروب الرسول (صلى اللَّه عليه و آله و سلم)- إلى زلزلة الهزيمة العظيمة الروحية، إلى انفعال الضيق و الحرج حتى لكأن الأرض الرحبة ضاقت عليهم، و إلى حركة الهزيمة الحسية و تولية الأدبار و النكوص على الأعقاب.

ذلك، و لكي يعرفوا أن الكثرة العددية- بسابق فتح الفتوح قريبا- هي بمجردها ليست بشي‏ء للجماعة المؤمنة، و كما درسوا من بدر الكبرى و أحد، إنما هي العارفة المطمئنة باللَّه المتجردة للَّه و في سبيل اللَّه مهما كانت قلة، بما في الكثرة أحيانا دخلاء غير مؤمنين، تائهين في غمارها، غير مدركين حقيقة العقيدة التي ينساقون في تيارها، فتتزلزل أقدامهم و ترتجف في ساعة الشدة، ف‏ «كَمْ مِنْ فِئَةٍ قَلِيلَةٍ غَلَبَتْ فِئَةً كَثِيرَةً بِإِذْنِ اللَّهِ» و قد قامت كل ثورة صالحة عقيدية بالصفوة المختارة، لا بالكثرة المحتارة و الزبد الرغو الذي يذهب جفاء، و لا الشيم الذي تذروه الرياح.

فالحرب السجال بهزيمة الكثرة و غلب القلة أم سواها، هي للمؤمنين درس يوقظهم، أن عليهم بجنب ما يعدّون من قوة جسدانية لجسد

الفرقان في تفسير القرآن بالقرآن، ج‏13، ص: 12

الحرب، أن يعدوا لأنفسهم قوة روحية هي أريح و أروح للقلب لهم و للغلب على عدوهم.

و لقد كره رسول اللَّه (صلى اللَّه عليه و آله و سلم) إعجابهم بكثرتهم، و فرارهم على كثرتهم‏ «1» ثم القلة الباقية مع الرسول (صلى اللَّه عليه و آله و سلم) الواقية له استحقوا نصرا من اللَّه بعد ذلك الكسر الذي كان لغيرهم و منهم الإمام علي (عليه السلام) حيث‏

قتل بيده يوم حنين‏

\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_

(1).

الدر المنثور 3: 224- أخرج ابن أبي حاتم عن عروة أن النبي (صلى اللَّه عليه و آله و سلم) أقام عام الفتح نصف شهر و لم يزد على ذلك حتى جاءته هوازن و ثقيف فنزلوا بحنين و هو واد إلى جنب ذي المجاز

و

أخرج ابن المنذر عن الحسن قال: لما اجتمع أهل مكة و أهل المدينة قالوا: الآن و اللَّه نقاتل حين اجتمعنا فكره رسول اللَّه (صلى اللَّه عليه و آله و سلم) ما قالوا و ما أعجبهم من كثرتهم فالتقوا فهزمهم اللَّه حتى ما يقوم منهم أحد على أحد حتى جعل رسول اللَّه (صلى اللَّه عليه و آله و سلم) ينادي أحياء العرب إلي فو اللَّه ما يعرج إليه أحد حتى أعرى موضعه فالتفت إلى الأنصار و هم ناحية فناداهم يا أنصار اللَّه و أنصار رسوله إلي عباد اللَّه أنا رسول اللَّه، فعطفوا و قالوا يا رسول اللَّه و رب الكعبة إليك و اللَّه فنكسوا رؤوسهم يبكون و قدموا أسيافهم يضربون بين يدي رسول اللَّه (صلى اللَّه عليه و آله و سلم) حتى فتح اللَّه عليهم.

و

فيه عن أبي عبد الرحمن الفهري بسياق القصمة على طولها: فاقتحم رسول اللَّه (صلى اللَّه عليه و آله و سلم) عن فرسه و حدثني من كان أقرب إليه مني أنه أخذ حفنة من تراب فحثاها في وجوه القوم و قال: شاهت الوجوه، قال يعلي بن عطاء فأخبرنا أبناءهم عن آبائهم قالوا: ما بقي منا أحد إلا امتلأت عيناه و فمه من التراب و سمعنا صلصلة الحديد على الطست الحديد فهزمهم اللَّه.

و

فيه عن عبد اللَّه بن مسعود قال: كنت مع رسول اللَّه (صلى اللَّه عليه و آله و سلم) يوم حنين فولّى الناس عنه و بقيت معه في ثمانين رجلا من المهاجرين و الأنصار فكنا على أقدامنا نحوا من ثمانين قدما و لم نولهم الدبر و هم الذين أنزل اللَّه عليهم السكينة و رسول اللَّه (صلى اللَّه عليه و آله و سلم) على بغلته فمضى قدما فقال: ناولني كفا من تراب فناولته فضرب وجوههم فامتلأت أعينهم ترابا و ولى المشركون أدبارهم،

و

فيه عن يزيد بن عامر السوائي قال: أخذ رسول اللَّه (صلى اللَّه عليه و آله و سلم) يوم حنين قبضة من الأرض فرمى بها في وجوه المشركين و قال: ارجعوا شاهت الوجوه فما أحد يلقاه أخوه إلّا و هو يشكو قذى في عينيه و يمسح عينيه.

الفرقان في تفسير القرآن بالقرآن، ج‏13، ص: 13

أربعين‏ «1».

ثُمَّ أَنْزَلَ اللَّهُ سَكِينَتَهُ عَلى‏ رَسُولِهِ وَ عَلَى الْمُؤْمِنِينَ وَ أَنْزَلَ جُنُوداً لَمْ تَرَوْها وَ عَذَّبَ الَّذِينَ كَفَرُوا وَ ذلِكَ جَزاءُ الْكافِرِينَ (26) ثُمَّ يَتُوبُ اللَّهُ مِنْ بَعْدِ ذلِكَ عَلى‏ مَنْ يَشاءُ وَ اللَّهُ غَفُورٌ رَحِيمٌ (27).

«ثم» بعد تلك الهزيمة العظيمة، حين لم يبق مع رسول اللَّه (صلى اللَّه عليه و آله و سلم)- لأكثر تقدير- إلا ثمانون من الأوفياء، واحد بخمسين أمام العدو بعد ما كانوا أربعة بواحد فهم إذا 1/ 200، هنالك‏ «أَنْزَلَ اللَّهُ سَكِينَتَهُ عَلى‏ رَسُولِهِ» كما يحق له و يناسب محتده الرسولي تسكينا لخاطره الشريف القريح الجريح من تلك النكسة «وَ عَلَى الْمُؤْمِنِينَ» كما يحق لهم ليزدادوا إيمانا مع إيمانهم‏ «وَ أَنْزَلَ جُنُوداً لَمْ تَرَوْها» فناصروكم في ضرب عدوكم، و علّ منها الكف من التراب الذي حثّه (صلى اللَّه عليه و آله و سلم) في وجوههم، فمهما رآه من رأى لم يكونوا ليروا كيف أثر ذلك الأثر العظيم لحد فما زلت أرى حدهم كليلا و أمرهم مدبرا حتى هزمهم اللَّه عزّ و جلّ‏ «2».

\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_

(1). نور الثقلين 2: 201 في روضة الكافي بسند متصل عن عجلان أبي صالح قال سمعت أبا عبد اللَّه (عليه السلام) يقول: ..

(2)

المصدر عن العباس بن عبد المطلب قال: شهدت مع رسول اللَّه (صلى اللَّه عليه و آله و سلم) يوم حنين فلقد رأيت النبي (صلى اللَّه عليه و آله و سلم) ... فلزمنا رسول اللَّه (صلى اللَّه عليه و آله و سلم) فلم نفارقه و هو على بغلته الشهباء التي أهداها فروة بن معاوية الجذامي فلما التقى المسلمون و المشركون ولى المسلمون مدبرين و طفق النبي (صلى اللَّه عليه و آله و سلم) يركض بغلته قبل الكفار و أنا آخذ بلجامها أكفها إرادة ألا تسرع و هو لا يألو ما أسرع نحو المشركين .. فقال رسول اللَّه (صلى اللَّه عليه و آله و سلم): يا عباس: ناد يا أصحاب سورة البقرة، فو اللَّه لكأني عطفتهم حين سمعوا صوتي عطفة البقر على أولادها ينادون يا لبيك يا لبيك، فأقبل المسلمون فاقتتلوا و الكفار و ارتفعت الأصوات و هم يقولون: يا معشر الأنصار، ثم قصرت الدعوة على بني الحرث بن الخزرج فتطاول رسول اللَّه (صلى اللَّه عليه و آله و سلم) و هو على بغلته فقال:

هذا حين حمى الوطيس ثم أخذ رسول اللَّه (صلى اللَّه عليه و آله و سلم) رميات فرمى بهن‏

الفرقان في تفسير القرآن بالقرآن، ج‏13، ص: 14

و «المؤمنين» النازلة عليهم السكينة هنا مع الرسول (صلى اللَّه عليه و آله و سلم) هم الثابتون في هذه الهزهزة المزمجرة و فيهم «علي بن أبي طالب (عليه السلام)» و هو أفضلهم‏ «1».

«وَ عَذَّبَ الَّذِينَ كَفَرُوا» بتلك السكينة و هؤلاء الجنود و بما للرسول (صلى اللَّه عليه و آله و سلم) و الذين ظلوا معه و التحقوا به من صمود، و هؤلاء هم القلة الباقية.

«ثُمَّ يَتُوبُ اللَّهُ مِنْ بَعْدِ ذلِكَ» الذي حصل للقلة، و على الكثرة «عَلى‏ مَنْ يَشاءُ» من المتخلفين عن المعركة حيث ولّوا أدبارهم دونما أي مبرر، يتوب على شروطها «وَ اللَّهُ غَفُورٌ رَحِيمٌ».

فيا لهذه السكينة الرسالية المكينة- النازلة على الرسول، و النازلة على المؤمنين- من فاعلية خارقة للعادة ما لها من مثيل، اللّهم للأصيل في طاعة اللَّه من الرسول و الذين معه.

ذلك، و سكينة اللَّه تنزل كأحق منزل على الرسول اللَّه (صلى اللَّه عليه و آله و سلم) ثم على صالحي المؤمنين في ساعات الحزن و العسرة، فليت شعري كيف لم تنزل على صاحبه في الغار و هو في عهد عميق الحزن لحد ينهاه الرسول (صلى اللَّه عليه و آله و سلم): «لا تَحْزَنْ إِنَّ اللَّهَ مَعَنا» ثم الرسول (صلى اللَّه عليه و آله و سلم) غير الحزين تنزل عليه- فقط- السكينة دونه، أ فلا يدل ذلك على أنه حينذاك لمّا يصل إلى درجة إيمان يستحق به السكينة التي تنزل بعد الرسول على المؤمنين حيث‏ «فَأَنْزَلَ اللَّهُ سَكِينَتَهُ عَلَيْهِ وَ أَيَّدَهُ بِجُنُودٍ لَمْ تَرَوْها» (9: 40)، و

\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_

وجوه الكفار ثم قال: «انهزموا و رب الكعبة فذهبت أنظر فإذا القتال على هيئته فيما أرى فما هو إلا أن رماهم رسول الله (صلى الله عليه و آله و سلم) بحصيات فما زلت ..».

(1). ملحقات إحقاق الحق 14: 594 الحسكاني في شواهد التنزيل 1: 252 بسند متصل عن الضحاك في الآية قال: نزلت في الذين ثبتوا مع رسول اللَّه (صلى اللَّه عليه و آله و سلم) يوم حنين علي و العباس و حمزة في نفر من بني هاشم، و عن الحكم بن عيينة قال: أربعة لا شك فيهم أنهم ثبتوا يوم حنين فيهم علي بن أبي طالب.

الفرقان في تفسير القرآن بالقرآن، ج‏13، ص: 15

«هُوَ الَّذِي أَنْزَلَ السَّكِينَةَ فِي قُلُوبِ الْمُؤْمِنِينَ لِيَزْدادُوا إِيماناً مَعَ إِيمانِهِمْ» (48: 4) «فَعَلِمَ ما فِي قُلُوبِهِمْ فَأَنْزَلَ السَّكِينَةَ عَلَيْهِمْ وَ أَثابَهُمْ فَتْحاً قَرِيباً» (48:) 18) فهذه لهم فقط، ثم مع الرسول (صلى اللَّه عليه و آله و سلم) كما في آيتنا و ثالثة في الفتح: «فَأَنْزَلَ اللَّهُ سَكِينَتَهُ عَلى‏ رَسُولِهِ وَ عَلَى الْمُؤْمِنِينَ» (26) ثم لا نجد تنزل هذه السكينة الإيمانية على المنهزمين في حنين كما لم تنزل على صاحب الغار، فلما يعلم اللَّه ما في قلوب المؤمنين من طمأنينة الإيمان يتزل عليهم السكينة، لهم أو مع الرسول (صلى اللَّه عليه و آله و سلم)، فما لصاحبه في الغار- إذا- أن لم ينزل من سكينة عليه و هو ينزلها على رسوله فيه؟ لأنه علم ما في قلبه، و انه لما يستعد لنزول السكينة الإيمانية عليه! كما في الأكثرية المؤمنة يوم حنين.

و «السكينة» وصف لمحذوف ك «الحالة- الهالة- الرحمة» أماهيه من موضوعات توصف ب «السكينة» و من لطيف التعبير في الأثر أن‏

«لها صورة كصورة وجه الإنسان» «1»،

فقد تعني «كصورة وجه لإنسان» إنسان الرسالة في الرسول، و إنسان كامل الإيمان في المؤمنين الماكنين، فالصورة الإنسانية لها واجهتان أولاهما ما تحصل بمساعي الإيمان، و ثانيتها ما ينزله اللَّه على تلك الصورة، فقد تكون صورة العصمة النازلة على صورة العصمة الرسالية لتزداد عصمة و طمأنة فيها، أم صورة الإيمان الزائدة على صورة من الإيمان تستحق نزول السكينة الإيمانية المزيدة على ما كان.

و على أية حال هي لا تخلوا من سكينة الإيمان أم سكينة العصمة

\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_

(1).

نور الثقلين 2: 201 في تفسير العياشي عن الحسن بن علي بن فضال قال قال أبو الحسن الرضا (عليه السلام) للحسن بن أحمد: أي شي‏ء السكينة عندكم؟ قال: لا أدري جعلت فداك أي شي‏ء هو؟ فقال: ريح من الجنة تخرج طيبة لها صورة كصورة وجه لإنسان فتكون مع الأنبياء.

و

في الكافي علي بن أسباط قال‏ سألته فقلت جعلت فداك ما السكينة: قال: ريح من الجنة وجه كوجه الإنسان أطيب ريحها من المسك و هي التي أنزلها اللَّه على رسوله (صلى اللَّه عليه و آله و سلم) بحنين فهزم المشركين.

الفرقان في تفسير القرآن بالقرآن، ج‏13، ص: 16

مزيدة على كلّ، باستحقاق لحاق العصمة أو الإيمان.

فليست سكينة اللَّه- فقط- لتسكن القلوب عن اضطراب في مواقف الإيمان و محاورة، بل‏ «لِيَزْدادُوا إِيماناً مَعَ إِيمانِهِمْ» لهم، و ليزداد الرسول (صلى اللَّه عليه و آله و سلم) عصمة على عصمته، و أما الذي ليس له إيمان واثق و لما يرتكن في قلبه، فلا يصلح قلبه لهذه السكينة الخاصة بالقلوب المطمئنة المرتكنة بالإيمان.

و ترى‏ «جُنُوداً لَمْ تَرَوْها» هلا يرونها المشركون أيضا كما «لم تروها»؟ «لم تروها» تلمح أنهم رأوها، و إلّا لكان صحيح العبارة «لم تر» حتى يحلّق سلب الرؤية على الفريقين، إضافة إلى أن في عدم رؤية العدو إياهم عدم لانهباط أنفسهم و روحياتهم، فلا بد- إذا- من رؤيتهم إياهم حتى ينهزموا برؤيتهم كما ينهزمون بوقعتهم‏ «1».

يا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا إِنَّمَا الْمُشْرِكُونَ نَجَسٌ فَلا يَقْرَبُوا الْمَسْجِدَ الْحَرامَ بَعْدَ عامِهِمْ هذا وَ إِنْ خِفْتُمْ عَيْلَةً فَسَوْفَ يُغْنِيكُمُ اللَّهُ مِنْ فَضْلِهِ إِنْ شاءَ إِنَّ اللَّهَ عَلِيمٌ حَكِيمٌ (28).

\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_

(1).

الدر المنثور 3: 226- أخرج مسدد في مسنده و البيهقي و ابن عساكر عن عبد الرحمن مولى أم برثن قال: حدثني رجل كان من المشركين يوم حنين قال: لما التقينا نحن و أصحاب رسول اللَّه (صلى اللَّه عليه و آله و سلم) لم يقوموا لنا حلب شاة إلا كفيناهم فبينا نحن نسوقهم في أدبارهم إذ التقينا إلى صاحب البغلة البيضاء فإذا هو رسول اللَّه (صلى اللَّه عليه و آله و سلم) فتلقتنا عنده رجال بيض حسان الوجوه قالوا لنا: شاهت الوجوه ارجعوا فرجعنا و ركبوا أكتافنا و كانت إياها، و فيه أخرج البيهقي من طريق ابن إسحاق حدثنا أمية بن عمرو بن عثمان بن عفان أنه حدث أن مالك بن عوف بعث عيونا فأتوه و قد تقطعت أوصالهم فقال: ويلكم ما شأنكم؟ فقالوا: أتانا رجال بيض على خيل بلق فو اللَّه ما تماسكنا أن أصابنا ما ترى، و فيه عن ابن عثمان الحجبي عن أبيه قال خرجت مع النبي (صلى اللَّه عليه و آله و سلم) يوم حنين و اللَّه ما خرجت إسلاما و لكن خرجت اتقاء أن تظهر هوازن على قريش فو اللَّه اني لواقف مع رسول اللَّه (صلى اللَّه عليه و آله و سلم) إذ قلت يا نبي اللَّه إني لأرى خيلا بلقاء، قال يا شيبة انه لا يراها إلا كافر فضرب بيده عند صدري حتى ما أجد من خلق اللَّه تعالى أحب إلي منه قال: فالتقى المسلمون فقتل من قتل ...

الفرقان في تفسير القرآن بالقرآن، ج‏13، ص: 17

هذه الآية هي الوحيدة في القرآن نصا ب‏ «إِنَّمَا الْمُشْرِكُونَ نَجَسٌ» مستمسكة للذين يقولون بنجاسة المشركين البدنية إلى النفسية و العملية، و قد يتجاوزون عنهم إلى سائر الكافرين و البعض من فرق المسلمين!.

و هنا «إنما» تحصر المشركين في «النجس» أنهم بكل كيانهم نجس، و لا تحصر «النجس» في المشركين، و هل إنه مع النجاسة و النجاسة النفسية في قالهم و حالهم و فعالهم، نجاسة معها جسدية أيضا 1 و لا ملازمة بينهما، كما افترقا في المنافقين الذين أنفسهم أنجس من أنفسهم أولاء فهم في الدرك الأسفل من النار، و تأثير النجس في مجاورة مشروط بشروط هي هنا فاقدة، كالمسانخة و الرطوبة و ما أشبه، و حتى إن أثرت الروح النجسة في الجسم فتلك إذا نجاسة عرضية و ليست عينية ذاتية، و لو أن الروح بخفتها تؤثر في الجسم بثقله لكانت الأبخرة المتصلة بالنجاسات كلها نجسة!.

2 ثم النجس لم يأت في القرآن إلا هنا و هو بمعنى النجاسة في غير الجسم كما في أضرابه من الرجز و الرجس، و هنا يبرز

المروي عن النبي (صلى اللَّه عليه و آله و سلم) أن وفد ثقيف لما قدموا عليه (صلى اللَّه عليه و آله و سلم) ضرب لهم قبة في المسجد فقالوا يا رسول اللَّه (صلى اللَّه عليه و آله و سلم) قوم أنجاس؟ فقال رسول اللَّه (صلى اللَّه عليه و آله و سلم) «إنه ليس على الأرض من أنجاس الناس شي‏ء إنما أنجاس الناس على أنفسهم» «1»

و

يروى‏ أيضا أنه (صلى اللَّه عليه و آله و سلم) شرب من أوانيهم‏ «2».

\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_

(1). آيات الأحكام للجصاص 3: 105 روى حماد بن سلمة عن حميد عن الحسن عن عثمان بن أبي العاص أن وفد ثقيف ..

(2) أطبق إخواننا على طهارة المشركين و وافقهم منا ابن الجنيد و ابن أبي عقيل و المفيد في المسائل الغرية حيث قال: يكره مواكلتهم، و مال إليها صاحب المدارك و المفاتيح، و الروايات المشعرة بنجاستهم محمولة على التنزيه لغلبة تنجسهم دون تطهير، أم نجاسة أرواحهم، و لا برهان لأصحابنا على نجاسة المشركين إلا روايات نجاسة أهل الكتاب أم‏

الفرقان في تفسير القرآن بالقرآن، ج‏13، ص: 18

فروايته الأخرى أن‏

«من صافح مشركا فليتوضأ أو ليغسل كفيه» «1»

بين محمولة على التنزيه أم سواه مما لا تلزمه النجاسة الجسدية المتعدية إلى ملاصقها.

ثم لو كان دخول النجس الظاهري الجسداني محرما في المسجد الحرام لكان من المحرم إدخال أية نجاسة فيه، بل و في الحرم كله حيث القصد من المسجد الحرام هنا الحرم كله، و كيف بالإمكان التحرز عن دخول أية نجاسة في الحرم كله و العائشون في الحرم يتنجسون و ينجسون الحرم قضية الضرورة الحيوية الإنسانية ليل نهار، و مما يدل على هذه الوسعة «وَ إِنْ خِفْتُمْ عَيْلَةً» إذ لا تخاف إلا في خارج المسجد نفسه، مكة أو الحرم كله.

ثم الإشراك- و هو أمر نفسي- لا ينجس إلّا حامله و هو النفس، دون الجسد الذي ليس ليؤمن أو يشرك خارجة عن محور الإيمان و الإشراك، فلا صلة للإشراك الذي ينجس النفس، بالبدن الذي لا يشرك‏

\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_

و المجوس، و هي معروضة على آية المائدة الدالة على طهارتهم.

هذا و ممن وافقنا من أكابر المعاصرين العلامة المغفور له الطباطبائي صاحب الميزان في 9:

229 قائلا: و في تعليله تعالى منع دخولهم المسجد بكونهم نجسا اعتبار نوع من القذارة لهم كاعتبار نوع من الطهارة و النزاهة للمسجد الحرام و هي كيف كانت أمر آخر وراء الحكم باجتناب ملاقاتهم بالرطوبة و غير ذلك.

(1). الدر المنثور 3: 227- أخرج أبو الشيخ و ابن مردويه عن ابن عباس قال قال رسول اللَّه (صلى اللَّه عليه و آله و سلم): من صافح .. و

فيه أخرج ابن مردويه عن هشام بن عروة عن أبيه عن جده قال: استقبل رسول اللَّه (صلى اللَّه عليه و آله و سلم) جبرئيل (عليه السلام) فناوله يده فأبي أن يتناولها فقال يا جبرئيل ما منعك أن تأخذ بيدي؟

فقال: إنك أخذت بيد يهودي فكرهت أن تمس يدي يدا قدسها يد كافر فدعا رسول اللَّه (صلى اللَّه عليه و آله و سلم) بماء فتوضأ فناوله يدع فتناولها

، أقول: نجاسة اليهودي تعارضها آية المائدة «وَ طَعامُ الَّذِينَ أُوتُوا الْكِتابَ حِلٌّ لَكُمْ» ثم من شرط واجب الغسل في مس النجاسة الرطوبة المسرية و لم تفرض هنا رطوبة يد النبي أو جبرئيل، بما في هذا الحديث من مزرءة على رسول اللَّه (صلى اللَّه عليه و آله و سلم) كأنه ترك حكما كان يعلمه من شرعة اللَّه!.

الفرقان في تفسير القرآن بالقرآن، ج‏13، ص: 19

و لا يؤمن، كما في نفس المنافق التي هي أنجس من نفس الكافر.

كما و أن نجس العين لا يطهر إلّا بالاستحالة و الإسلام لا يستحيل به إلّا النفس المسلمة دون الجسد!.

فالنجاسة الجسمية بين عينية ذاتية و عرضية و لا ثالث لهما، فكيف يكون المشرك نجس العين ثم يطهر دون تحول، و النجس العرضي لا يطهر إلّا بمطهر مادي!.

فحتى لو كان النجس يعم الجسم إلى النفس أم يخص الجسم فيما يطلق، فمناسبة الحكم و الموضوع هنا تحكم- فقط- بنجاسة النفس، فكما «المشركون» هم أرواحهم الشريرة، كذلك «نجس» هو تلك الأرواح، و ليست مع الأجساد، اللّهم إلّا إذا تنجست أجسادهم بما ينجّس كل الأجساد، و لا فارق هنا بين أجساد الموحدين و المشركين.

فإذا قيل الملحد معوج، فهل يظن أو يحتمل اعوجاج جسمه إلى روحه؟ فكما «الملحد» يفسّر الاعوجاج اختصاصا بالنفس الملحدة، كذلك‏ «الْمُشْرِكُونَ نَجَسٌ».

ثم الطهارة الغالية الروحية للمسجد الحرام تقتضي المشابهة لها المؤاتية إياها للداخلين فيه، فليست النجاسة البدنية كما الطهارة الظاهرية واردة في حقل الآية.

و لو أنها عنت النجاسة البدنية الذاتية لما اختص المنع بدخول المسجد الحرام خوفة تنجيسه، و لعم كافة المساجد، و لأن المسجد الحرام هنا هو مكة كلّها، فليعم المنع كافة البلاد الإسلامية بما فيها مساجد و أماكن أخرى محترمة محرمة التنجيس.

ثم و حرمة التنجيس لا تختص بحقل الإشراك، بل و المسلم الذي يحمل نجسا، فهل يمنع- إذا- عن دخول المساجد، أو البلاد الإسلامية؟.

إذا فلا تدل الآية على نجاسة أبدان المشركين، و ذهاب بعض الأعلام و صريح بعض الصحاح في طهارتهم ينقض أو يفسر النجاسة

الفرقان في تفسير القرآن بالقرآن، ج‏13، ص: 20

المذكورة في غيرها «1» و سواء أ كان «نجس» مصدرا أم كما النجس صفة، فلا تحصر الآية النجاسة فيهم، بل تحصرهم من الناحية الشركية في نجاسة أرواحهم و أقوالهم و أفعالهم المشركة، دون أجسادهم غير المشركة و لا الموحدة، و أما أهل الكتاب فهم نجس نسبيا و طاهرون كذلك حيث يخلطون الصالح مع الطالح قضية الشرعة الكتابية المحرفة و المنسوخة، و قد طهرتم آية المائدة! ذلك، و حتى لو نص دليل على نجاسة أبدانهم فليس لزامه تعديتها إلى غيرها، حيث التعدية كأصل النجاسة هي أمر تعبدي بحاجة إلى نص ثابت و لم تثبت للمشرك، كما لا نص بنجاسة خصوص المشرك، و الروايات المستدل بها على نجاسة أهل الكتاب معروضة على آية المائدة، إذا فكما لا دليل على نجاسة الكتابي، بل آية المائدة دليل طهارته، كذلك المشرك مهما لم يدل الكتاب على طهارته، فإن فقدان الدليل على النجاسة كاف في الحكم بالطهارة.

و القول بوجوب أخذ ما خالف العامة في مختلف الفتيا بين الفريقين، غير وارد هنا إذ لا نص على نجاسة المشركين البدنية حتى يرجح لمخالفة العامة على نص الطهارة.

و إذا لم نجد نصا على إحدى الفتويين طهارة و نجاسة فأصالة الطهارة محكمة و لا سيما في مثل هذه المسألة التي تعم بها البلوى، و لم يرد أي نص على أن النبي (صلى اللَّه عليه و آله و سلم) أو أحدا من أئمة أهل بيته (عليهم السلام) عاملوا المشركين معاملة نجس العين المتعدي كسائر العيون النجسة المتعدية، و لو كان لبان!.

«فَلا يَقْرَبُوا الْمَسْجِدَ الْحَرامَ بَعْدَ عامِهِمْ هذا» و هنا «لا يقربوا» علّه منع عن كونهم في الحجاز أم قرب الحرم المكي، فليس النص «لا

\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_

(1). تفسير الفخر الرازي 16: 24 و احتج القاضي على طهارتهم بما روي ...

الفرقان في تفسير القرآن بالقرآن، ج‏13، ص: 21

يدخلوا» حتى يمنع خصوص دخولهم، بل «لا يقربوا» كما «لا تَقْرَبُوا الزِّنى‏» مما يدل على حظر الاقتراب من الحرم.

و لأن «المشركون» لا تعم كافة الكفار، و لا أن‏ «الْمَسْجِدَ الْحَرامَ» تعم كافة المساجد، فلا تدل الآية على حظر القرب أو الدخول لسائر الكفار في المسجد الحرام فضلا عما سواه من المساجد، اللّهم إلا بدليل آخر ككونهم جنبا لآية النساء: «وَ لا جُنُباً إِلَّا عابِرِي سَبِيلٍ حَتَّى‏ تَغْتَسِلُوا» اعتبارا بفرض الفروع على الكفار كما المؤمنين، فليمنعوا نهيا عن المنكر، من دخول المساجد، و لكنه ليس منكرا في زعمهم فلا نهى إلا بعد البيان ثم تخلفهم.

و لأن «لا يقربوا» موجه إلى المؤمنين في الأصل إذ ليس المشرك ليصدّق وحي اللَّه حتى يقبله، فالمفروض عليهم صدهم عن المسجد الحرام، و ان دخلوا أو قربوا فنفيهم عنه، و نظيره قوله تعالى بحق الذين لم يبلغوا الحلم‏ «لِيَسْتَأْذِنْكُمُ الَّذِينَ مَلَكَتْ أَيْمانُكُمْ وَ الَّذِينَ لَمْ يَبْلُغُوا الْحُلُمَ مِنْكُمْ ثَلاثَ مَرَّاتٍ» (2: 58).

و هل إن «لا يقربوا» مخصص ببعضهم كما في رواية؟ «1» و الحكم المعلل لا يخصّص فلا تخصيص! اللّهم إلّا الباقية مدتهم في معاهدة قبل نزول هذه الآية «فَأَتِمُّوا إِلَيْهِمْ عَهْدَهُمْ إِلى‏ مُدَّتِهِمْ» و أما المعاهدة بعد الآية فلا تجوز لقرب المسجد الحرام لاستغراق الخطر.

«فَلا يَقْرَبُوا ... وَ إِنْ خِفْتُمْ عَيْلَةً فَسَوْفَ يُغْنِيكُمُ اللَّهُ مِنْ فَضْلِهِ إِنْ شاءَ» و قد خافت جماعة عيلة لفراغ المسجد الحرام- مكة أو حرما- عن المشركين حيث كانوا يحملون سلعا للتجارة كأصل فيها «2»، فقد طمأنهم‏

\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_

(1).

الدر المنثور 3: 226- أخرج أحمد و ابن أبي حاتم و ابن مردويه عن جابر قال قال رسول اللَّه (صلى اللَّه عليه و آله و سلم): لا يدخل المسجد الحرام مشرك بعد عامي هذا أبدا إلا أهل العهد و خدمكم.

(2) المصدر أخرج ابن مردويه عن ابن عباس قال: لما نفى اللَّه تعالى المشركين عن المسجد

الفرقان في تفسير القرآن بالقرآن، ج‏13، ص: 22

اللَّه أنه هو الرزاق و أنه يغنيهم عنهم إن شاء «إِنَّ اللَّهَ عَلِيمٌ» بحالكم «حكيم» فيما يعلم بأحوالكم.

و هنا «إن شاء» تطلق مشيئته، على علمه و حكمته و قدرته، دون أن يضطر و يلجأ إلى إغناءهم بأسباب أخرى مهما كانت مرضات المؤمنين، فإنما «إن شاء» حتى ينقطعوا إليه فيما يشاءون، فلا تخيل إليهم ضرورة المبادلة و كأنها مهاترة هي لزام تقبلهم ذلك الحكم الصارم.

أجل، فهناك حظر عن حضور المشركين المسجد الحرام، و هنا الموقف الاقتصادي السلبي من جراءه، الموقف الذي ينتظره المكيون، تجارة يعيش عليها معظم الظاهرين في الجزيرة، و رحلة الشتاء و الصيف التي تكاد تقوم عليها حياة الجزيرة، هذه كلها تتعرض للضياع بإعلان الجهاد العام على المشركين كافة، ثم الحظر عن قربهم الحرم مهما كانوا مسالمين غير طاعنين في الدين، و لكن اللَّه هو الكافل بأمر الأرزاق من وراء الأسباب و دونها، فحين يشاء اللَّه يستبدل بأسباب مألوفة أخرى غير معروفة و لا مألوفة، غلقا لباب و فتحا لأبواب، و حتى إذا لم يستبدل فحكم اللَّه أحرى بالاتباع من وافر العيشة، «لِباسُ التَّقْوى‏ ذلِكَ خَيْرٌ».

فلقد كان الوحي القرآني الناهج أفضل مناهج التربية، يعمل في المجتمع الذي نشأ من الفتح، و لمّا تتناسق مستوياته الإيمانية حيث كان يعتوره ثغرات، فهو يحاول في سد هذه الثغرات بفتح الاتجاه إلى اللَّه في خطوات هي بالنتيجة قمة التجرد للَّه، و المفاصلة على أساس العقيدة مع كافة الأواصر الأخرى غيرها، فآصرة العقيدة الصالحة هي الوحيدة في الميدان، التي تتناسى سائر الأواصر أمامها و لا سيما إذا خالفتها.

و هنا بعد ما ينتهي دور المشركين، فإلى سائر الكفار «مِنَ الَّذِينَ أُوتُوا الْكِتابَ»:

\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_

الحرام ألقى الشيطان في قلوب المؤمنين فقال: من أين تأكلون و قد نفي المشركون و انقطعت عنكم العير قال اللَّه تعالى: «وَ إِنْ خِفْتُمْ عَيْلَةً ..».

الفرقان في تفسير القرآن بالقرآن، ج‏13، ص: 23

قاتِلُوا الَّذِينَ لا يُؤْمِنُونَ بِاللَّهِ وَ لا بِالْيَوْمِ الْآخِرِ وَ لا يُحَرِّمُونَ ما حَرَّمَ اللَّهُ وَ رَسُولُهُ وَ لا يَدِينُونَ دِينَ الْحَقِّ مِنَ الَّذِينَ أُوتُوا الْكِتابَ حَتَّى يُعْطُوا الْجِزْيَةَ عَنْ يَدٍ وَ هُمْ صاغِرُونَ (29).

«قاتلوا ..» أ هجوما لم يكن ضد المشركين؟ أم دفاعا، فعما ذا؟.

هنا «لا يُؤْمِنُونَ بِاللَّهِ وَ لا بِالْيَوْمِ الْآخِرِ» كشريطة أولى لهذا القتال يخرجهم عن الإيمان أيّا كان و يلحقهم بالمشركين، فإن ركن الإيمان الركين هو الإيمان باللَّه و اليوم الآخر، و هم يشركون باللَّه و ينكرون اليوم الآخر، و كما في كتاباتهم المحرفة عن جهات أشراعها، نكرانا لجسمانية المعاد أم للجزاء العدل فيه، أم تجاهلا عن أصله كما في التوراة، نكرانات متشابهة لصالح المعاد العدل، كما تشابهت قلوبهم فهي خاوية عن الحق المرام.

ثم‏ «وَ لا يُحَرِّمُونَ ما حَرَّمَ اللَّهُ وَ رَسُولُهُ» «حَرَّمَ اللَّهُ» في كافة شرائعه، أم و «حَرَّمَ اللَّهُ» في شرعتهم الكتابية ف «رسوله» إذا كل رسل اللَّه أم رسلهم أنفسهم، ثم‏ «حَرَّمَ اللَّهُ» في قرآنه «و رسوله» في سنته، و هنا «لا يحرمون» يشملهم كلهم، و لا أقل دون الآخرين، حيث لا يلتزمون بما هم به متشرعون من حرمات اللَّه في الشرائع كلها أم في شرعتهم أنفسهم تحريما عقيديا أو عمليا حيث يعاملون المحرمات كما المحلّلات، و لا سيما القسم الكبير من المسيحيين القائلين بنسخ شريعة الناموس أي العمل بما افتدى المسيح (عليه السلام) بنفسه عنها فحلت به كافة المحرمات.

و من ثم‏ «وَ لا يَدِينُونَ دِينَ الْحَقِّ» في دينهم فضلا عن دين الحق لهذه الشرعة القرآنية، و هم: «مِنَ الَّذِينَ أُوتُوا الْكِتابَ» و قد عني من‏ «دِينَ الْحَقِّ» هذا الدين في‏ «هُوَ الَّذِي أَرْسَلَ رَسُولَهُ بِالْهُدى‏ وَ دِينِ الْحَقِّ ..» كما يأتي.

إذا فلا يقاتل أهل الكتاب إلّا الموصوفون بهذه التخلفات الثلاث، ثم‏

الفرقان في تفسير القرآن بالقرآن، ج‏13، ص: 24

قولهم: عزير ابن اللَّه، و اتخاذهم أحبارهم و رهبانهم أربابا من دون اللَّه، و هم يأكلون أموال الناس بالباطل، و يصدون عن سبيل اللَّه، فبهذه الدركات السبع الجهنمية يقاتلون حيث هم يشابهون فيها المشركين، فهم- إذا- يتلون تلوهم إذ ينحون منحاهم و يغزون مغزاهم‏ «قاتَلَهُمُ اللَّهُ أَنَّى يُؤْفَكُونَ»! إنهم ليسوا فقط طاعنين في ديننا بل هم طاعنون في كل الأديان، بل و طعنتهم أطعن و أمعن من طعنات المشركين و سائر الكفار و كما وصفهم اللَّه جملة واحدة: «يُرِيدُونَ أَنْ يُطْفِؤُا نُورَ اللَّهِ بِأَفْواهِهِمْ ..»، و كما نجد مواقفهم المضللة أمامهم و أمام المؤمنين؟.

«قاتِلُوا ... حَتَّى يُعْطُوا الْجِزْيَةَ عَنْ يَدٍ وَ هُمْ صاغِرُونَ» أمام السلطات الإيمانية، دون أية فرعنة و استكبار، و بكل ذل و هم صغار، و هذه أقل ما يعامل معهم في شرعة العدل و الحكمة.

و هذه الآية هي الوحيدة في القرآن بميّزاتها و لا سيما ضريبة الجزية، و ما هي إلا حفاظا على أمنهم في ظل الدولة الإسلامية، و كما تؤخذ سائر الضرائب من المؤمنين.

فلأن هؤلاء المتخلفين من أهل الكتاب هم كالمشركين، لذلك فهم في صفوفهم لواجب قتالهم و كما

يروى عن النبي (صلى اللَّه عليه و آله و سلم): القتال قتالان قتال المشركين حتى يؤمنوا أو يعطوا الجزية عن يد و هم صاغرون، و قتال الفئة الباغية حتى تفي‏ء إلى أمر اللَّه، فإذا فاءت أعطيت العدل‏ «1»

و «الجزية» هي هيئة خاصة من الجزاء، و علّها من أهل الكتاب جزاء عدم قتالهم، ثم جزاء الحفاظ عليهم في دولة الإسلام علّهم ينتهون.

ثم «عن يد» مقرونة ب‏ «وَ هُمْ صاغِرُونَ» قد تعني «عن يد» منهم‏

\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_

(1). الدر المنثور 3: 228- أخرج ابن عساكر عن أبي أمامة عن رسول اللَّه (صلى اللَّه عليه و آله و سلم) قال: ...

الفرقان في تفسير القرآن بالقرآن، ج‏13، ص: 25

دون أن يرسلوها بوسيط استعلاء أم يؤجلوها نسيئة دون نقد، ثم و «عن يد» منكم، و هي القدرة المستعلية لكم عليهم، و النعمة في ذلك الأخذ، حيث الجزية بديلة عن الحفاظ عليهم تحت رقابة السلطة الإسلامية، فهذه رحمة ربانية عليهم، فقد تعني «عن يد» كلتا اليدين: معطية و آخذة، بمعنييها في كلّ، «وَ هُمْ صاغِرُونَ» دون أي استعلاء و استقلال ضمن الدولة الإسلامية، سواء في إعطاء الجزية أم سواه من حركات حيوية.

فلا تعني‏ «وَ هُمْ صاغِرُونَ» انهم مهانون مهتوكون، و إنما تعني أنهم صاغرون أمام السلطة الإسلامية، و أمام شروطات الذمة، فهم في الحق- إذا- عائشون في مدرسة داخلية إسلامية، يعامل معهم بصلح و صفاء و وفاء ما هم «صاغرون» أمام السلطة الإسلامية، دون أية مجاهرة بحرمات اللَّه مهما هم عاملوها في خفاء.

و ترى «الجزية» بعد هي بديلة القتال، و النفس المهدورة لاتباع بمال، و لا سيما هذه القليلة، فهل القصد من قتالهم- فقط- أخذ المال؟.

«الجزية» هي مهلة بسيطة وسيطة بين بقاءهم أحرارا في فتنهم، و إبقاءهم كأسرى علّهم ينتبهون فينتهون، و دفع المال بتلك الحالة الصاغرة هو بطبيعة الحال يدفعهم إلى تأمل و تروّ تخلصا عن خسران المال و الحال، و لو أنهم فتنوا حال دفعهم جزيتهم، لم تكن الجزية دافعة عن قتالهم، فإنما دور الجزية هو فيما إذا هم ينتهون عن القتال و الفتنة و لمّا ينتهوا عن ضلالهم البعيد، فلكي تتاح لهم فرصة التأمل تؤخذ منهم جزية عجالة، إجالة للنظر في أمرهم، فتحولا- علّه- عن أمرهم، و طبيعة الحال في‏ «يُعْطُوا الْجِزْيَةَ عَنْ يَدٍ وَ هُمْ صاغِرُونَ» أنهم تخطوا مرحلتي الخطر على المؤمنين، فلا يحاربونهم نفسيا و لا عقيديا و إلا فلا دور للجزية عن يد و هم صاغرون، فهم أولاء الذين يريدون أن يطفئوا نور اللَّه بأفواههم، لا تنطفئ نارهم و تخمد، فقد انطفأت إرادتهم النارية عن إطفاء نور اللَّه.

فكما لا يعني أسر المشركين في جبهات القتال، إلّا حصرهم في مدرسة داخلية تربوية حتى يؤمنوا بما يلمسون من حالات المسلمين‏

الفرقان في تفسير القرآن بالقرآن، ج‏13، ص: 26

و فعالاتهم و قالاتهم الإيمانية، فكذلك الأمر لهؤلاء الذين يعطون الجزية عن يد و هم صاغرون.

فهم أولاء يقاتلون حتى يتركوا فتنهم التي تسمح لقتالهم، انطفاء لنارهم الحارقة، فإما إيمانا أم تركا لفتنتهم، ثم يدفعوا الجزية عند ما دخلوا في السلطة الإسلامية دون قتل لهم أو أسر إكراها على الدين، إذ «لا إِكْراهَ فِي الدِّينِ» فهم لا يتركون- إذا- بحريتهم الشريرة، بل هم يعيشون تحت الرقابة و الحفاظة الإسلامية بأداء الجزية عن يد و هم صاغرون، رقابة تسلب عنهم فتنهم و تفرض عليهم أدبا إسلاميا بما يلمسونه في ذلك الجو السامي.

و ذلك تعديل ليس عنه بديل في التعامل التعايش بين المسلمين و هؤلاء المتخلفين من الذين أوتوا الكتاب، فقه حكيم مستنير ينير الدرب على من يدق باب الهدى أم يتحرى عنها.

و طبيعة الحال هي عدم إمكانية التعايش بين المسلمين و الكفار إلا في ظل ظليل من أوضاع و مقررات عادلة بطبيعة المنهج الحركي الإسلامي، مقابلة للواقع المرير الشرير الكافر بحركة عاقلة عادلة مكافئة له، متفوقة عليه، لكي يصلحه أم يسلخه لتكون كلمة اللَّه هي العليا و كلمة الذين كفروا السفلى، «وَ قاتِلُوهُمْ حَتَّى لا تَكُونَ فِتْنَةٌ وَ يَكُونَ الدِّينُ كُلُّهُ لِلَّهِ» (8:) 39).

و هنا- في حقل أهل الكتاب- يختص القتال فالجزية بمن فيه هذه الدركات السبع، و أما الصالحون منهم المتقون فلا، إذ «لَيْسُوا سَواءً مِنْ أَهْلِ الْكِتابِ أُمَّةٌ قائِمَةٌ يَتْلُونَ آياتِ اللَّهِ آناءَ اللَّيْلِ وَ هُمْ يَسْجُدُونَ، يُؤْمِنُونَ بِاللَّهِ وَ الْيَوْمِ الْآخِرِ وَ يَأْمُرُونَ بِالْمَعْرُوفِ وَ يَنْهَوْنَ عَنِ الْمُنْكَرِ وَ يُسارِعُونَ فِي الْخَيْراتِ وَ أُولئِكَ مِنَ الصَّالِحِينَ. وَ ما يَفْعَلُوا مِنْ خَيْرٍ فَلَنْ يُكْفَرُوهُ وَ اللَّهُ عَلِيمٌ بِالْمُتَّقِينَ» (3: 115) «وَ لَتَجِدَنَّ أَقْرَبَهُمْ مَوَدَّةً لِلَّذِينَ آمَنُوا الَّذِينَ قالُوا إِنَّا نَصارى‏ ذلِكَ بِأَنَّ مِنْهُمْ قِسِّيسِينَ وَ رُهْباناً وَ أَنَّهُمْ لا يَسْتَكْبِرُونَ. وَ إِذا سَمِعُوا ما أُنْزِلَ إِلَى الرَّسُولِ تَرى‏ أَعْيُنَهُمْ تَفِيضُ مِنَ الدَّمْعِ مِمَّا عَرَفُوا مِنَ الْحَقِّ يَقُولُونَ رَبَّنا آمَنَّا فَاكْتُبْنا مَعَ الشَّاهِدِينَ» (5: 83).

الفرقان في تفسير القرآن بالقرآن، ج‏13، ص: 27

فليس اللَّه ليأمر بقتال أمثال هؤلاء آمنوا أم لمّا يؤمنوا أم لا يؤمنون، إنما هم الموصوفون بتلك السبع الجهنمية، صدا عن فتنتهم و تسديدا لهم عن بغيهم، فإنهم بصفاتهم هذه حرب على دين اللَّه اعتقادا و سلوكا، و طعن فيه ككلّ حربا على الكتلة المؤمنة بحكم طبيعة التعارض و التصادم المبدئيين بين دين اللَّه و دين ما سواه.

فكما المشركون تجب قتالهم دفاعا عن صالح العقيدة و صدا عن الطعن في الدين، كذلك الكتابيون الذين يقتفون آثارا لهم مهما تسموا بالكتابيين.

و لقد أثبت الواقع التاريخي المرير واقع التعارض بينهم و بين المسلمين، وقوفا لهؤلاء الكتابيين في وجه الدين ككل، و في وجهه كهذا الأخير، و إعلان الحرب عليه و على أهله دون هوادة خلال الفترة السابقة لنزول هذه الآية حتى يومنا هذا.

ذلك، فأقل تقدير لإصلاح الحال ضمانا لإزالة هذه العوائق المزرية، و حفاظا على عدم الإكراه في الدين، هو كسر شوكة السلطات القائمة على ما يضاد الدين الحق حتى تسلم أو تستسلم- و لأقل تقدير- عيشة تحت الذمة بدفع الجزية، سلبا لطليق حريتهم في معارضة دين اللَّه.

ففي مثلث استسلامهم، و مساهمتهم في نفقات الحفاظ على أنفسهم، و عدم المظاهرة الضارة ضد الدين ككل و ضد الإسلام، تشكّل هندسة المهادنة لردح التجربة للمجموعة، و لهم انجذابا إلى شرعة الحق، أم و لأقل تقدير تركا لمعارضتها.

ذلك، رغم أن هذه القضية اليوم أصبحت تاريخية فحسب، إذ لا وجود لهكذا مسلمين و دولة إسلامية تصلح لتطبيق هذه الأحكام السياسية، فعلينا أولا أن نفتش عن وجود جادّ جيد للمسلمين، ثم نتحدث عن هذه الإصلاحات و الصلاحيات، و المنهج الإسلامي هو دائما منهج الواقعية دون الخيالية الأحلامية المعلقة على هواء الفروض و أهواء الافتراضات، فليس‏

الفرقان في تفسير القرآن بالقرآن، ج‏13، ص: 28

المنهج الإسلامي في شي‏ء من مناهج الآرائيين الذين يقولون: «إن كان كذا كان كذا» و يفتشون عن موضوعات و مواضع الأحكام الخيالية من خلال النذور و الاتفاقيات البعيدة عن متعود الواقع المعاش.

و نحن حين نبحث عن هذه الضوابط الإسلامية على ضوء القرآن، نبحث فحصا عن خلق جو تتحقق فيه هذه الأحكام، حيث القرآن يلحق في ضوابطه على كل زمان و مكان، و يطلب من معتنقيه بجدية أن يؤسسهم أنفسهم كمسلمين واقعيين ثم يعملوا في تحرير الإنسانية عن دركات الكفر، إلى بركات الإيمان و اللَّه هو المستعان.

وَ قالَتِ الْيَهُودُ عُزَيْرٌ ابْنُ اللَّهِ وَ قالَتِ النَّصارى‏ الْمَسِيحُ ابْنُ اللَّهِ ذلِكَ قَوْلُهُمْ بِأَفْواهِهِمْ يُضاهِؤُنَ قَوْلَ الَّذِينَ كَفَرُوا مِنْ قَبْلُ قاتَلَهُمُ اللَّهُ أَنَّى يُؤْفَكُونَ (30).

فهؤلاء و أولاء أيضا فرقة من كلّ دون الكل، فهل يؤخذ الجار بجرم الجار؟ لا و «لا تَزِرُ وازِرَةٌ وِزْرَ أُخْرى‏»! فرقة من اليهود «قالَتِ الْيَهُودُ عُزَيْرٌ ابْنُ اللَّهِ» و فرقة من النصارى‏ «قالَتِ النَّصارى‏ الْمَسِيحُ ابْنُ اللَّهِ» و «ذلك» البعيد البعيد «قَوْلُهُمْ بِأَفْواهِهِمْ» خاويا عن حق، ثم و ليس من اختلافهم أنفسهم، و إنما هم‏ «يُضاهِؤُنَ قَوْلَ الَّذِينَ كَفَرُوا مِنْ قَبْلُ» من المشركين القائلين إن للَّه ابنا أو أبناء «قاتَلَهُمُ اللَّهُ أَنَّى يُؤْفَكُونَ»! «1».

و كذلك من كفرة اليهود و قد كان (فيلو) الفيلسوف اليهودي الإسكندري المعاصر للمسيح يقول: إن للَّه ابنا هو كلمته التي خلق بها الأشياء، ثم و من قبلهم و معهم سائر الكفار القائلين بالبنوة الإلهية

\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_

(1). لقد استعرضنا من عثرنا عليهم من المشركين القائلين بالثالوث في تفسير سورة المائدة 17 و 116 و مريم 34 و إليكم نموذجا من تفصيل:

فمن الثواليث: الثالوث البرهمي و البوظي و تاوو و الصينيين و الهنود و المصريين و اليونان و الرومان و الفرس و الفنلنديين و الاسكندنافيين و الدرديين و التتر و السيبريين و الجزائر الأقيانوسية و المكسيكيين و الهندوس الكنديين.

فهؤلاء من‏ «الَّذِينَ كَفَرُوا مِنْ قَبْلُ» و قد ضاهئوهم هؤلاء المسيحيين.

الفرقان في تفسير القرآن بالقرآن، ج‏13، ص: 29

بحذافيرها المتشتتة.

و لقد فصلنا القول حول البنوة الإلهية بحذافيرها بطيات آياتها فلا نعيد هنا إلا ثالوثا منها هي: بنوة تشريفية كعزير في قول القائلين به ككل، و بعض القائلين إن المسيح ابن اللَّه، و بنوة ولادية كبعض آخر من النصارى، و بنوة مرتقية إلى ذات الأبوة في قالة «إِنَّ اللَّهَ ثالِثُ ثَلاثَةٍ» و «إِنَّ اللَّهَ هُوَ الْمَسِيحُ ابْنُ مَرْيَمَ» خطوات خاطئات في حقل البنوة الإلهية ما لها من جذور إلا الشركية من‏ «الَّذِينَ كَفَرُوا مِنْ قَبْلُ قاتَلَهُمُ اللَّهُ أَنَّى يُؤْفَكُونَ» و إليكم حوار الرسول (صلى اللَّه عليه و آله و سلم) مع اليهود و النصارى بهذا الصدد «1».

\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_

(1).

في كتاب الإحتجاج للطبرسي قال أبو محمد العسكري قال الصادق (عليه السلام): و لقد حدثني أبي عن جدي علي بن الحسين زين العابدين عن الحسين بن علي سيد الشهداء عن علي بن أبي طالب أمير المؤمنين صلوات اللَّه عليهم، أنه اجتمع عند رسول اللَّه (صلى اللَّه عليه و آله و سلم) أهل خمسة أديان: اليهود و النصارى و الدهرية و الثنوية و مشركو العرب، فقالت اليهود: نحن نقول: عزير ابن اللَّه و قد جئناك يا محمد لننظر ما تقول، فإن اتبعتنا فنحن أسبق إلى الصواب منك و أفضل و ان خالفتنا خصمناك و قالت النصارى نحن نقول: إن المسيح ابن اللَّه اتحد به و قد جئناك لننظر ما تقول؟ فان اتبعتنا فنحن أسبق إلى الصواب منك و أفضل و إن خالفتنا خاصمناك- ثم قال لليهود: أ جئتموني لأقبل قولكم بغير حجة؟ قالوا- لا- قال: فما الذي دعاكم إلى القول بان عزيرا ابن اللَّه؟ قالوا: لأنه أحيا لبني إسرائيل التورية بعد ما ذهبت و لم يفعل بهذا هذا إلا لأنه ابنه، فقال رسول اللَّه (صلى اللَّه عليه و آله و سلم): كيف صار عزير ابن اللَّه دون موسى و هو الذي جاءهم بالتورية و رأوا منه من المعجزات ما قد علمتم؟ فإن كان عزير ابن اللَّه لما ظهر من الكرامة من إحياء التورية فلقد كان موسى بالنبوة أحق و أولى، و لئن كان هذا المقدار من إكرامة لعزير يوجب أنه ابنه فأضعاف هذه الكرامة لموسى توجب له منزلة أجل من البنوة، و إن كنتم إنما تريدون بالبنوة الولادة على سبيل ما تشاهدون في دنياكم هذه من ولادة الأمهات الأولاد بوطي آباءهم لهن فقد كفرتم باللَّه و شبهتموه بخلقه و أوجبتم فيه صفات المحدثين و وجب عندكم أن يكون محدثا مخلوقا و إن يكون له خالق صنعه و ابتدعه؟ قالوا: لسنا نعني هذا فإن هذا كفر كما ذكرت و لكنا نعني أنه ابنه على معنى الكرامة و إن لم يكن هناك ولادة كما قد يقول بعض علماءنا لمن يريد

الفرقان في تفسير القرآن بالقرآن، ج‏13، ص: 30

\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_

إكرامه و إبانته بالمنزلة عن غيره: يا بني! و إنه ابني لا على سبيل إثبات ولادته منه، و لأنه قد يقول ذلك لمن هو أجنبي لا نسب بينه و بينه، و كذلك لما فعل اللَّه بعزير ما فعل كان قد اتخذه ابنا على الكرامة لا على الولادة فقال رسول اللَّه (صلى اللَّه عليه و آله و سلم):

فهذا ما قلته لكم: إنه إن وجب على هذا الوجه أن يكون عزير ابنه فإن هذه المنزلة لموسى أولى و إن اللَّه يفضح كل مبطل بإقراره و يقلب عليه حجته لأن ما احتججتم به يؤديكم إلى ما هو أكبر مما ذكرته لكم، لأنكم قلتم: إن عظيما من عظمائكم قد يقول لأجنبي لا نسب بينه و بينه يا بني و هذا ابني لا على طريق الولادة فقد تجدون أيضا أن هذا العظيم يقول لأجنبي آخر: هذا أخي، و لآخر: هذا شيخي و أبي، و لآخر: هذا سيدي و يا سيدي على سبيل الإكرام، و إن من زاده في الكرامة زاده في مثل هذا القول، فإذا يجوز عندكم أن يكون موسى أخا للَّه أو شيخا له أو أبا أو سيدا لأنه قد زاده في الإكرام مما لعزير، كما أن من زاد رجلا في الإكرام قال له: يا سيدي و يا شيخي و يا عمي و يا رئيسي على طريق الإكرام، و إن من زاده في الكرامة زاده في مثل هذا القول، أ فيجوز عندكم أن يكون موسى أخا للَّه أو شيخا أو عما أو رئيسا أو سيدا أو أميرا لأنه قد زاده في الإكرام على من قال له: يا شيخي أو يا سيدي أو يا أميري أو يا عمي أو يا رئيسي، قال: فبهت القوم و تحيروا و قالوا: يا محمد أجّلنا نفكر فيما قلته لنا، فقال (صلى اللَّه عليه و آله و سلم):

انظروا فيه بقلوب معتقدة للإنصاف يهدكم اللَّه- ثم أقبل (صلى اللَّه عليه و آله و سلم) على النصارى فقال: و أنتم قلتم: إن القديم عزّ و جلّ اتحد بالمسيح (عليه السلام) ابنه؟ فما الذي أردتموه بهذا القول؟ أ أردتم أن القديم صار محدثا لوجود هذا المحدث الذي هو عيسى؟ أو المحدث الذي هو عيسى صار قديما لوجود القديم الذي هو اللَّه؟ أو معنى قولكم: إنه اتحد به أنه اختصه بكرامة لم يكرم بها أحدا سواه؟ فإن أردتم أن القديم صار محدثا فقد أبطلتم لأن القديم محال أن ينقلب فيصير محدثا، و إن أردتم أن المحدث صار قديما فقد أحلتم لأن المحدث أيضا محال أن يصير قديما، و إن أردتم أنه اتحد به بأن اختصه و اصطفاه على ساير عباده فقد أقررتم بحدوث عيسى و بحدوث المعنى الذي اتحد به من أجله، لأنه إذا كان عيسى محدثا و كان اللَّه قد اتحد به بأن أحدث به معنى صار به أكرم الخلق عنده فقد صار عيسى (عليه السلام) و ذلك المعنى محدثين و هذا خلاف ما بدأتم تقولونه، فقالت النصارى يا محمد إن اللَّه لما أظهر على يد عيسى من الأشياء العجيبة ما أظهر فقد اتخذه ولدا على وجه الكرامة فقال لهم رسول اللَّه (صلى اللَّه عليه و آله و سلم): فقد سمعتم ما قلته لليهود في هذا المعنى الذي ذكرتموه ثم أعاد (صلى اللَّه عليه و آله و سلم) ذلك كله فسكتوا إلا رجل واحد منهم قال له: يا محمد أو لستم تقولون: إن إبراهيم خليل اللَّه؟

الفرقان في تفسير القرآن بالقرآن، ج‏13، ص: 31

\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_

قال: قد قلنا ذلك، فقال: إذا قلتم ذلك فلم منعتمونا أن نقول: إن عيسى ابن اللَّه؟

فقال رسول اللَّه (صلى اللَّه عليه و آله و سلم): إنهما لن يشتبها لأن قولنا إن إبراهيم خليل اللَّه فإنما هو مشتق من الخلة و الخلة إنما معناها الفقر و الناقة و قد كان خليلا إلى ربه فقيرا و إليه منقطعا و عن غيره متعففا مستغنيا و ذلك لما أريد قذفه في النار فرمى به في المنجنيق فبعث اللَّه تعالى جبرئيل (عليه السلام) فقال له: أدرك عبدي فجائه فلقيه في الهواء فقال حلفني ما بدا لك فقد بعثني اللَّه لنصرتك فقال: بل حسبي اللَّه و نعم الوكيل إني لا أسأل غيره و لا حاجة لي إلا إليه فسمي خليله أي فقيره و محتاجه و المنقطع إليه عمن سواه، و إذا جعل معنى ذلك من الخلة و هو أنه قد تخلل معانيه و وقف على أسرار لم يقف عليها غيره كان الخليل معناه العالم به و بأموره و لا يوجب ذلك تشبيه اللَّه بخلقه، ألا ترون أنه إذا لم ينقطع إليه لم يكن خليله و إذا لم يعلم بأسراره لم يكن خليله و إن من يلده الرجل و إن أهانه و أقصاه لم يخرج عن أن يكون ولده، لأن معنى الولادة قائم، ثم أن وجب لأنه قال لإبراهيم خليلي أن تقيسوا أنتم كذلك فتقولوا: إن عيسى ابنه وجب أيضا أن تقولوا له و لموسى ابنه فإن الذي معه من المعجزات لم يكن بدون ما كان مع عيسى فقولوا: إن موسى أيضا ابنه، و انه يجوز أن تقولوا على هذا المعنى أنه شيخه و سيده و عمه و رئيسه و أميره كما قد ذكرته اليهود، فقال بعضهم لبعض: و في الكتب المنزلة أن عيسى قال: أذهب إلى أبي، فقال رسول اللَّه (صلى اللَّه عليه و آله و سلم): إن كنتم بذلك الكتاب تعلمون فإن فيه: أذهب إلى أبي و أبيكم فقولوا: إن جميع الذين خاطبهم عيسى كانوا أبناء اللَّه كما كان عيسى ابنه من الوجه الذي كان عيسى ابنه، ثم إن ما في هذا الكتاب يبطل عليكم هذا الذي زعمتم أن عيسى من جهة الاختصاص كان ابنا له لأنكم قلتم إنما قلنا أنه ابنه لأنه اختصه بما لم يختص به غيره و أنتم تعلمون أن الذي خص به عيسى لم يخص به هؤلاء القوم الذين قال لهم عيسى: أذهب إلى أبي و أبيكم فبطل أن يكون الإختصاص بعيسى لأنه قد ثبت عندكم بقول عيسى لمن لم يكن له مثل اختصاص عيسى و أنتم إنما حكيتم لفظة عيسى و تأولتموها على غير وجهها لأنه إذا قال:

أبي و أبيكم فقد أراد غير ما ذهبتم إليه و نحلتموه و ما يدريكم لعله عنى: أذهب إلى آدم أبي و أبيكم أو إلى نوح أن اللَّه يرفعني إليهم و يجمعني معهم و آدم أبي و أبيكم و كذلك نوح بل ما أراد غير هذا، قال: فسكت النصارى و قالوا: ما رأينا كاليوم مجادلا و لا مخاصما و سننظر في أمورنا، الحديث، و في آخره قال الصادق (عليه السلام): فو الذي بعثه بالحق نبيا ما أنت على جماعتهم إلا ثلاثة أيام حتى أتوا رسول اللَّه (صلى اللَّه عليه و آله و سلم) فأسلموا و كانوا خمسة و عشرين رجلا من كل فرقة خمسة و قالوا: ما رأينا مثل حجتك يا محمد نشهد أنك رسول اللَّه.

الفرقان في تفسير القرآن بالقرآن، ج‏13، ص: 32

و لقد اشتد غضب اللَّه في مواطن ثلاثة حسب‏

المروي عن الرسول (صلى اللَّه عليه و آله و سلم): «اشتد غضبه على اليهود أن قالوا عزير ابن الله، و اشتد غضبه على النصارى أن قالوا المسيح ابن الله، و ان الله أشتد غضبه على من أراق دمي و آذاني في عترتي» «1».

ذلك و إلى قول فصل عن قصة البنوة العزيرية «2» و ليعلم بتفصيل أنها

\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_

(1).

الدر المنثور 3: 230- أخرج البخاري في تاريخه عن أبي سعيد الخدري قال: لما كان يوم أحد شبح رسول اللَّه (صلى اللَّه عليه و آله و سلم) في وجهه و كسرت رباعيته فقام رسول اللَّه (صلى اللَّه عليه و آله و سلم) يومئذ رافعا يديه يقول: ..

و عن ابن عباس قال أتى رسول اللَّه (صلى اللَّه عليه و آله و سلم) جماعة من اليهود- سماهم- فقالوا: كيف نتبعك و قد تركت قبلتنا و أنت لا تزعم أن عزير ابن اللَّه!.

(2) أورد المرحوم السيد رشيد رضا في تفسير المنار (10: 378- 385) خلاصة مفيدة عن مكانة عزرا عند اليهود و علق عليها بعض التعليقات، ننقل منها هنا كما يناسب سفرنا و موضوع البحث شطرات، قال: جاء في دائرة المعارف اليهودية (ط 1903) أن عصر عزرا هو ربيع التأريخ الملي لليهودية، الذي تفتحت فيه أزهاره و عبق شذا ورده، و انه جدير بأن يكون هو ناشر الشريعة لو لم يكن جاء بها موسى (التلمود 21 ب) فقد كانت نسيت، و لكن عزرا أعادها أو أحياها، و لو لا خطايا بني إسرائيل لاستطاعوا رؤية الآيات:

المعجزات كما رأوها في عهد موسى .. و ذكر فيها انه كتب الشريعة بالحروف الآشورية و كان يضع علامات على الكلمات التي يشك فيها، و ان مبدأ التاريخ اليهودي يرجع إلى عهده، و قال الدكتور بوست الامريكي في قاموس الكتاب المقدس: عزرا (عون) كاهن يهودي و كاتب شهير سكن بابل مدة «ارتحشثتا» الطويل الباع، و في السنة السابعة لملكه أباح لعزرا أن يأخذ عددا وافرا من الشعب إلى أورشليم نحو سنة (457 ق- م) (عزرا ص 7) و كانت مدة السفر أربعة أشهر- ثم قال: و في تقليد اليهود يشغل عزرا موضعا يقابل بموضع موسى و إيليا و يقولون إنه أسس المجمع الكبير، و انه جمع أسفار الكتاب المقدس و أدخل الأحرف الكلدانية عوض العبرانية القديمة و انه ألف أسفار «الأيام» و «عزرا» و «نحميا»- ثم قال: و لغة سفر «عزرا» من ص 4: 8- 6: 19 كلدانية، و كذلك ص 7: 1- 27، و كان الشعب بعد رجوعهم من السبي يفهمون الكلدانية أكثر من العبرانية- و أقول: إن المشهور عند مؤرخي الأمم حتى أهل الكتاب منهم أن التوراة التي كتبها موسى (عليه السلام) و وضعها في تابوت العهد أو بجانبه، قد فقدت قبل عهد سليمان‏

الفرقان في تفسير القرآن بالقرآن، ج‏13، ص: 33

\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_

(عليه السلام) فإنه لما فتح التابوت في عهده لم يوجد فيه غير اللوحين اللذين كتبت فيهما الوصايا العشر كما تراه في سفر الملوك الأول و ان (عزرا) هذا هو الذي كتب التوراة و غيرها بعد السبي بالحروف الكلدانية، و اللغة الكلدانية الممزوجة ببقايا اللغة العبرية التي نسي اليهود معظمها، و يقول أهل الكتاب: إن عزرا كتبها كما كانت بوحي أو بإلهام من اللَّه .. و هذا ما لا يسلمه غيرهم و عليه اعتراضات كثيرة مذكورة في مواضعها من الكتب الخاصة بهذا الشأن حتى من تآليفهم كذخيرة الألباب للكاتوليك- و أصله فرنسي- و قد عقد الفصلين الحادي عشر و الثاني عشر لذكر بعض الاعتراضات على كون الأسفار الخمسة لموسى و منها قوله: جاء في سفر (عزرا 4: ف 14 عدد 21) إن جميع الأسفار المقدسة حرقت بالنار في عهد (نبوخذ نصر) حيث قال: إن النار أبطلت شريعتك فلم يعد سبيل لأي امرئ أن يعرف ما صنعت و يزاد على ذلك أن عزرا أعاد بوحي الروح القدس تأليف الأسفار المقدسة التي أبادتها النار، و عضده فيها كتبته خمسة معاصرون و لذلك ترى «ثرثوليانوس» و القديس «يريناوس» و القديس «ايرونيموس» و القديس «يوحنا الذهبي» و القديس «باسيليوس» و غيرهم يدعون (عزرا) مرمم الأسفار المقدسة المعروفة عند اليهود .. إلى أن قال: «نكتفي بهذا البيان هنا و لنا فيه غرضان:

أحدهما أن جميع أهل الكتاب مدينون لعزير هذا في مستند دينهم و اصل كتبهم المقدسة عندهم، و ثانيهما أن هذا المستند واهي النسيان متداعي الأركان و هذا هو الذي حققه علماء أوروبة الأحرار، فقد جاء في ترجمته من دائرة المعارف البريطانية بعد ذكر ما في سفره و سفر نحميا من كتابه للشريعة: أنه جاء في روايات أخرى متأخرة عنها أنه لم يعد إليهم الشريعة التي أحرقت فقط، بل أعاد جميع الأسفار العبرية التي كانت أتلفت و أعاد سبعين سفرا غير قانونية: (أبو كريف) ثم قال كاتب الترجمة فيها: و إذا كانت الأسطورة الخاصة بعزرا هذا قد كتبها من كتبها من المؤرخين بأقلامهم من تلقاء أنفسهم و لم يستندوا في شي‏ء منها إلى كتاب آخر، فكتاب هذا العصر يرون أن أسطورة عزرا قد اختلقها أولئك الرواة اختلاقا (أنظر ص 14 ج 9 من الطبعة الرابعة عشرة سنة 1929)»- «و جملة القول أن اليهود كانوا و ما يزالون يقدسون عزيرا هذا حتى أن بعضهم أطلق عليه لقب (ابن الله) و لا ندري أ كان إطلاقه عليه بمعنى التكريم الذي أطلق على إسرائيل و داود و غيرهما أم بالمعنى الذي سيأتي قريبا عن فيلسوفهم (فيلو) و هو قريب من فلسفة وثني الهند التي هي أصل عقيدة النصارى و قد اتفق المفسرون على أن إسناد هذا القول إليهم يراد به بعضهم لا كلهم ...» «و أما الذين قالوا هذا القول من اليهود فهم بعض يهود المدينة كالذين قال الله فيهم: وَ قالَتِ الْيَهُودُ يَدُ اللَّهِ مَغْلُولَةٌ ..» و «لَقَدْ سَمِعَ اللَّهُ قَوْلَ الَّذِينَ قالُوا إِنَّ اللَّهَ فَقِيرٌ وَ نَحْنُ أَغْنِياءُ» ردا على قوله‏

الفرقان في تفسير القرآن بالقرآن، ج‏13، ص: 34

واقعة لا مرد لها.

و عزير هذا هو الذي جدد التوراة بعد اندراسه و انطماسه حيث كتبها من جديد بعد غائلة بنوكد نصّر: بخت النصر- ملك بابل، حيث افتعل ما افتعل بهم و أحرق كتبهم، و عند ما فتح «كورش» الملك الإيراني بابل شفع لهم عنده عزير فسمح له أن يعيدهم إلى بلادهم و أن يكتب لهم التوراة و قد مات مائة سنة ثم بعثه اللَّه كما في آية البقرة: «أَوْ كَالَّذِي مَرَّ عَلى‏ قَرْيَةٍ ..»، فلذلك عظموه فاتخذوه ابنا للَّه تكريما له- بزعمهم- كريما لحد البنوة الإلهية المستحيلة! و ظالما لم يكن زعم بنوته الإلهية منهم أجمع، إلا أن جمعا منهم اتبعوا حملة ذلك المشعل، و آخرون سكتوا، ثم قلة باقية لم يكن لهم أمامهم صيت و لا صوت.

إذا ف‏ «قالَتِ الْيَهُودُ» هي قالة لجمع منهم جميع دون الجميع، و هكذا النصارى، و لو لم تكن لهذه القالة واقع حاضر فيهم لكانت هذه تهمة تكفي في تزييف المواجهة القرآنية، و لما سكتوا- إذا- عن تكذيبه، فحيث الكثرة الكثيرة منهم انحرفوا هكذا عن حق التوحيد، و القلة القليلة ما كانت أمامها تؤخذ بعين الإعتبار، بل كانت تؤاخذ و تلاحق لما ذا تخلفت عن ذلك الاختلاف، لذلك صح القول‏ «وَ قالَتِ الْيَهُودُ» «قالَتِ النَّصارى‏» إضافة إلى أن المواصفات المذكورة في الآية السالفة تضيق نطاق الموضوع هنا، فهم إذا كفرة اليهود و النصارى كلهم، و «اليهود» كما «النصارى» هما المعهودان بتلك المواصفات الكافرة، فاللام- إذا- للعهد دون الجنس فضلا عن الاستغراق.

و هنا سرد لبنود من كفرهم باللَّه و اليوم الآخر، و أنهم لا يحرمون ما حرم‏

\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_

تعالى: مَنْ ذَا الَّذِي يُقْرِضُ اللَّهَ قَرْضاً حَسَناً» و يحتمل أن يكون قد سبقهم إليه غيرهم و لم ينقل إلينا،

روى ابن إسحاق و ابن جرير و ابن أبي حاتم و أبو الشيخ و ابن مردويه عن ابن عباس قال: أتى رسول اللَّه (صلى اللَّه عليه و آله و سلم) سلام بن مشكم و نعمان بن أوفى و أبو أنس و شاس بن قيس و مالك بن الصيف فقالوا: كيف نتبعك و قد تركت قبلتنا و أنت لا تزعم أن عزير ابن الله ..».

الفرقان في تفسير القرآن بالقرآن، ج‏13، ص: 35

اللَّه و رسوله و لا يدينون دين الحق، أنهم تبنوا للَّه، في أي من بنوده الثلاثة، مضاهاة للمشركين العائشين من قبل.

ثم اتخاذهم من دون اللَّه من يشاقون اللَّه في أحكام من أحبار و رهبان، أمّن هو نفسه من عباد اللَّه المخلصين، و في ذلك نكران لرسالة اللَّه، كما هو نكران لكون المشرع- فقط- هو اللَّه.

ثم استحلالهم لأكل أموال الناس بالباطل، و كنزهم للذهب و الفضة و صدهم عن سبيل اللَّه، حيث‏ «لا يَدِينُونَ دِينَ الْحَقِّ» و كلّ ذلك تخلفات عن كل شرائع اللَّه و رسالاته، دون هذه الأخيرة فقط.

كما و كل ذلك تبيين لمواد من كفرهم في أصول أو فروع، تبريرا لقتالهم حتى ...

ثم‏ «ذلِكَ قَوْلُهُمْ بِأَفْواهِهِمْ» و القول بطبيعة الحال ليس إلّا بالأفواه؟

قد يعني أنهم لا يعتقدون فيه‏ «يَقُولُونَ بِأَفْواهِهِمْ ما لَيْسَ فِي قُلُوبِهِمْ» (3:) 167) أم حين يعتقدونه فلا يستندون فيه إلى برهان، و إنما «يُضاهِؤُنَ قَوْلَ الَّذِينَ كَفَرُوا مِنْ قَبْلُ» فحتى إن اعتقدوه فما هو إلّا تقليدا أعمى للذين كفروا من قبل‏ «قاتَلَهُمُ اللَّهُ أَنَّى يُؤْفَكُونَ».

فقد جمعوا ركاما من الباطل ظلمات بعضها فوق بعض لا يكاد يوجد فيها نور: 1 قول بأفواههم و ليس بقلوبهم. 2 و إن كان بقلوبهم فليس من مختلقاتهم أنفسهم. 3 فإنما هو مضاهاة للذين كفروا من قبل، فيا ليتهم ضاهئوا كتابيين من قبل أمّن أشبه من الموحدين، و لكنهم اصطفوا في عقيدة اللّاهوت تقوّلات من المشركين.

ذلك حمقهم في عمقهم تقليدا أعمى للمشركين، و من ناحية أخرى نرى جهالة عميقة حميقة أخرى لهم أنهم يعارضون العقل في لاهوت الألوهية حفاظا على خرافة الثالوث و ابن اللَّه، كما و كانوا يعارضون العلم و صالح العقيدة في محاكمهم الكنسية، فنراها في القرن (13) م تفتش العقائد المعارضة لخرافات إنجيلية، و العلوم المتقدمة غير المؤاتية لهذه‏

الفرقان في تفسير القرآن بالقرآن، ج‏13، ص: 36

الأناجيل‏ «1»:

\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_

(1). إن منظمة أنگيزيسيون: تفتيش العقائد قتلت عشرات الآلاف من هؤلاء المتخلفين عن خرافات إنجيلية، مهما كانت بمجرد تهمة غير ثابتة.

ففي خلال (18) سنة فقط (تركمادا) (ADAMUQROT( رئيس واحد من محاكم التفتيش الكنسية، حكم بإحراق زهاء 10220 شخصا أن يحرقوا أحياء، و إن كانت جماعة منهم خنقت قبل الحرق كتخفيف لهم عن الحكم القاسي!.

و من تعذيبات هذه المحاكم أنه كل من يتهم بالكفر و الإلحاد- على حد زعمهم- يلقى عليه القبض، و كانوا يضغطون عليه بألوان التعذيب و التنكيل حتى يعترف بما أتهم به و إن لم يكن حقا واقعا.

إن السجناء البريئين من هذه التهم ما كان يخلّى عنهم حتى يقروا بما لم يفعلوا تحت وطأة التعذيبات غير المتحمّلة حتى يعترفوا أخيرا بما لم يفعلوا.

يقول (كرى و لف)- و هو من المحققين الأوروبيين- عن ألوان التعذيبات: إن موظفي محاكم تفتيش العقائد كانوا يحمون المتهم لحد الحرق، و يعلقونه لحد كانت أعضائهم تتفكك، و يقطعون بالمعضات الحديدية لحومهم و يضغطون على أيديهم و أرجلهم بمعاقد حديدية لحد تسمع دقات تفلك عظامهم، و يدخلون الإبر تحت أظفارهم حتى يقرب المتهم إلى حالة النزع فيلجأ إلى الإقرار بما يريدونه منه، و كانت نتيجة ذلك الإقرار أنهم يخنقونه قبل حرقه، و ما الذين لا يقرون فإلى الإحراق أحياء.

و من جملة هؤلاء المعذبين الفيلسوف الأوروبي (وانينت) إذ قطعوا لسانه- قضية عدم إقرار بما يريدونه منه- و أحرقوه أمامه، ثم قتلوه شر قتلة.

و يقول (ژوان آنتونيولورنت) 1800 م و هو من أعضاء محكمة تفتيش العقائد في (مادريد):

إن قلمي يستحي من عرض هذه التعذيبات الوحشية بحق المتهمين، و أرى تناقضا ظاهرا بين العطف المسيحي (عليه السلام) و هذه الخشونات الوحشية بحق المتهمين.

و يقول: لما تجاوز عديد المحكومين من المتهمين بالإحراق، اضطر حاكم (سويل) أن يبني محرقة خارج البلد في صحراء باسم (تابلادا) و تكون دائمة الاضطرام، و قد وضعت تماثيل أربع من النبيين على أضلاعها الأربعة، و كان يحرق فيها الكافرون بالمسيحية الكذائية!.

و يقول العالم السوكيتي (لوزينسكي) في تقدمته لكتاب (شارل لنا) مؤرخ محاكم تفتيش العقائد، يقول: حين أفكر أن هذه المحاكم تتبنى الإنجيل في هذه الأحكام الوحشية،

الفرقان في تفسير القرآن بالقرآن، ج‏13، ص: 37

إن موظفي محاكم تفتيش العقائد كانوا يحمون المتهم لحد الحرق، و يعلقونه لحد كانت أعضائهم تتفكك، و يقطعون بالمعضات الحديدية لحومهم، و يضغطون على أيديهم و أرجلهم بمعاقد حديدية لحد تسمع دقات تفكك عظامهم، و يدخلون الإبر تحت أظفارهم حتى يقرب المتهم إلى حالة النزع فيلجأ إلى الإقرار بما يريدونه منه، و كانت نتيجة ذلك الإقرار انهم يخنقونه قبل حرقه، و أما الذين لا يقرون فإلى الإحراق أحياء.

و من جملة هؤلاء المعذبين الفيلسوف الأوروبي (وانينت) «1» إذ قطعوا لسانه- قضية عدم إقراره بما يريدونه منه- و أحرقوه أمامه، ثم قتلوه شر قتلة.

\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_

يشكل علي كثيرا أن أكتب عنها باطمئنان.

ذلك، فمدراء الكنائس الإنجيلية كانوا يعاملون المتهمين هكذا، و المسيح نفسه كان يواجه الملحدين بكل لطف و حنان حتى يجلبهم إلى الحق.

هؤلاء أحرقوا خلال سنين أكثر من/ 32000 متهما و عذبوا/ 34000 شخصا لحد أنهى إلى موتهم، و في الجمعين عديد من العلماء الذين كانوا يتشككون في الأناجيل المزخرفة، أم كانوا يخترعون ما لا تمضيه الأناجيل.

ذلك، و نموذجا من سائر الجرائم الكنسية إليكم العرض التالي:

يقول الدكتور جوستاولوبون الفرنسي في تاريخ التمدن الإسلامي: أن عظيم الأساقفة أمر في المحكمة المقدسة! أن يقتل الأعراب غير المسيحيين مع نساءهم و أطفالهم بالسيف، و راهب آخر تخطى هذه الجريمة البشعة و أمر بقتل الأعراب مسيحيين و مسلمين عن بكرتهم، باحتمال أن إيمان المسيحيين منهم غير صادق.

و هذا الراهب المسمى ب (بلدا) يذكر بكل سرور أن ثلاث ملايين من هؤلاء المحكومين قتلوا في الطريق، و في مهجر من مهاجر المسلمين و عددهم/ 140000 شخصا، إذ كانوا يهاجرون إلى أفريقيا قتل منهم/ 100000 شخصا.

و هكذا أحرق (كزيمنس) عظيم الأساقفة/ 80000 كتابا إسلاميا ظنا منه أنه قضى بذلك على الإسلام المناوئ للمسيحية.

و كل ذلك كان في أسبانيا: الأندلس، عند التغلب عليها، و يكتب (آناتول فرانس) إن الحملة الوحشية لشمالي الأوروبا على الأندلس محقا لكثير من المسلمين القاطنين فيها، و طمسا لآثارها العلمية الإسلامية، إن ذلك سبب تأخر الأوروبا عن التقدم العلمي/ 500 سنة.

(1).ININAV .

الفرقان في تفسير القرآن بالقرآن، ج‏13، ص: 38

و هنا «قاتَلَهُمُ اللَّهُ» ليس دعاء حيث الدعاء ليس إلا ممن لا يقدر على أن يحقق مأموله بنفسه فيطلب ممن هو فوقه، فهو إخبار أن قتل اللَّه فطرهم و عقولهم كما قتلوها قضية المفاعلة المعنية من المقاتلة، فلما قالوا ما قالوه و فعلوا ما فعلوه و افتعلوا ما افتعلوه ختم اللَّه على قلوبهم بما ختموا ف‏ «قاتَلَهُمُ اللَّهُ أَنَّى يُؤْفَكُونَ».

اتَّخَذُوا أَحْبارَهُمْ وَ رُهْبانَهُمْ أَرْباباً مِنْ دُونِ اللَّهِ وَ الْمَسِيحَ ابْنَ مَرْيَمَ وَ ما أُمِرُوا إِلَّا لِيَعْبُدُوا إِلهاً واحِداً لا إِلهَ إِلَّا هُوَ سُبْحانَهُ عَمَّا يُشْرِكُونَ (31).

اتخاذ الربوبية في هذا المثلث لا يعني فقط أنهم ربّبوهم كما اللَّه، بل و هو معاملتهم معهم كما يعامل الرب في البعض من اختصاصات الربوبية، فقد اتخذوا المسيح ربا في خرافة الأقانيم و اتحاده بذات اللَّه، و عبادتهم له كما اللَّه، و ذلك يختلف عن سائر الاتخاذ في أحبارهم و رهبانهم، حيث أطاعوهم كما يطاع اللَّه مشرعا، فاتخذوهم أربابا في حقل التشريع، فأصغوا إليهم كامل الصغي فيما أحلوا أو حرموا «1»، و في الفصل بين‏ «أَحْبارَهُمْ وَ رُهْبانَهُمْ» و بين‏ «الْمَسِيحَ ابْنَ مَرْيَمَ» تلميح لاختلاف الاتخاذين، كما أن «ابن مريم» تستأصل الأخير، ذلك و من أحبارهم و رهبانهم من يخيل إليهم أنهم نواب المسيح (عليه السلام) في البنوة الإلهية أو الإلهية نفسها نسخة طبق الأصل، بما يشربون الخمر و يأكلون الفطير، بان الخمر دم المسيح و الفطير لحمه، فهم يصبحون- إذا- نفس‏

\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_

(1).

في تفسير القمي في رواية أبي الجارود عن أبي جعفر (عليهما السلام) في قوله: «اتَّخَذُوا أَحْبارَهُمْ ...» أما المسيح فعصوه و عظموه في أنفسهم حتى زعموا أنه اللَّه و أنه ابن اللَّه و طائفة منهم قالوا: ثالث ثلاثة، و طائفة منهم قالوا: هو اللَّه، و أما أحبارهم و رهبانهم فإنهم أطاعوا و أخذوا بقولهم و اتبعوا به ما أمروهم به و دانوا بما دعوهم إليه فاتخذوهم أربابا بطاعتهم لهم و تركهم أمر اللَّه و كتبه و رسله فنبذوه وراء ظهورهم و ما أمرهم به الأحبار و الرهبان اتبعوه و أطاعوهم و عصوا اللَّه و رسوله، و إنما ذكر هذا في كتابنا لكي نتعظ بهم فعير اللَّه تبارك و تعالى بني إسرائيل بما صنعوا يقول اللَّه تبارك و تعالى: و ما أمروا ألا ليعبدوا إلها واحدا سبحانه و تعالى عما يشركون.

الفرقان في تفسير القرآن بالقرآن، ج‏13، ص: 39

المسيح (عليه السلام) و قد ندد بهم المسيح (عليه السلام) في نقل الإنجيل بقوله: «أ فلا تفهمون بعد أن كل ما يدخل الفم يمضي إلى الجوف و يندفع إلى المخرج» (متى 51: 17).

ذلك، و كل اتخاذة لغير اللَّه كما اللَّه في ربوبية من ربوبياته، ذلك إشراك باللَّه فيما يختص به اللَّه، فكما التوحيد درجات كذلك الإشراك دركات‏ «سُبْحانَهُ عَمَّا يُشْرِكُونَ» باللَّه في ذات أم أفعال أم صفات، تسوية لخلق اللَّه باللَّه، و هي ككل ضلال مبين: «تَاللَّهِ إِنْ كُنَّا لَفِي ضَلالٍ مُبِينٍ. إِذْ نُسَوِّيكُمْ بِرَبِّ الْعالَمِينَ» (26: 98).

فهنا مشركون رسميون و هم عبّاد الأوثان بصورة رسمية، و هناك مشركون دخلاء قد يعبدون غير اللَّه زعم أنه اللَّه كما المسيح، أو يطيعون غير اللَّه كأنه الرب في التشريع، كما اتخذوا أحبارهم و رهبانهم أربابا من دون اللَّه، أو يميلون إلى غير اللَّه مع اللَّه كالذين يراءون في عباداتهم، ثالوث من الإشراك باللَّه بما لكلّ من دركات، و القسم الأول هو المصطلح المتعود المقصود فيما يطلق الإشراك، ثم الأوسط مرحلة ثانية هي مع المنحرفين عن التوحيد من أهل الكتاب، ثم الأخير يحلق على كل هؤلاء المرائين.

و لقد يروي عن الرسول (صلى اللَّه عليه و آله و سلم) تفسيرا للآية:

«أما إنهم لم يكونوا يعبدونهم و لكنهم كانوا إذا أحلوا لهم شيئا استحلوه و إذا حرموا عليهم شيئا حرموه» «1» و لا يعني التحليل و التحريم الإفتاء، بل‏

\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_

(1).

الدر المنثور 3: 230- أخرج جماعة عن عدي بن حاتم قال‏ أتيت النبي (صلى اللَّه عليه و آله و سلم) و هو يقرأ في سورة براءة: «اتَّخَذُوا أَحْبارَهُمْ وَ رُهْبانَهُمْ أَرْباباً مِنْ دُونِ اللَّهِ‏ فقال: ..»

و

في المجمع روى الثعلبي باسناده عن عدي بن حاتم قال: أتيت رسول اللَّه (صلى اللَّه عليه و آله و سلم) و في عنقي صليب فقال: يا عدي اطرح هذا الوثن من عنقك، قال: فطرحته ثم أتيت رسول اللَّه (صلى اللَّه عليه و آله و سلم) و هو يقرء من سورة براءة هذه الآية .. فقلت له: انا لسنا نعبدهم، قال: أليس يحرمون ما أحل اللَّه فتحرمونه و يحلون ما حرم اللَّه فتستحلونه؟ قال: فقلت بلى فقال: فتلك عبادتهم،

و

في أصول الكافي عن أبي بصيرة قال‏ سألت أبا عبد اللَّه (عليه السلام) عن هذه الآية فقال:

الفرقان في تفسير القرآن بالقرآن، ج‏13، ص: 40

هو تحليل ما حرم اللَّه و تحريم ما أحل اللَّه قاصرين أو مقصرين أو مقصرين و قاصرين، فلا يحل التقليد الطليق بل و لا أصل التقليد ممن هذه صفته بتقصير أم قصور.

ذلك، فاتباع غير اللَّه كما اللَّه اتخاذ له ربا كما اللَّه، و أما الرسل و سائر المعصومين فاتباعهم هو اتباع اللَّه ف‏ «مَنْ يُطِعِ الرَّسُولَ فَقَدْ أَطاعَ اللَّهَ» (4: 80) و لكن غير المعصومين الذين يجوز عليهم الخطأ قصورا أو تقصيرا فليس إتباعهم طليقا مطبقا، إنما يتبعون فيما يعلم أنهم صادرون فيه عن اللَّه أم لا يتهمون، و أما المشكوك فضلا عن المعلوم تخلفهم عن حكم اللَّه، فليس إتباعهم فيهما إلا اعتبارا لألوهتهم أو رسالتهم عن اللَّه، أما الرسالة فكيف يكذب الرسول على اللَّه أو يعارضه في حكمه، و أما الألوهية فهي هيه في هذه الطاعة الطليقة الخاطئة.

فلذلك، كما الاجتهاد في الدين تفصيليا فرض على المستطيعين، كذلك الاجتهاد إجماليا فرض على القاصرين، أن يتأكدوا ممن يقلدونه أنه صادر حسب مكنته عن اللَّه، فأما المشكوك فيه، فضلا عن المتأكد كونه صادرا عن هواه، فليس إتباعه إلا تأليها له كما اللَّه، فإن اللَّه هو الذي يحلّل أو يحرم دون سواه، و لا رسول اللَّه.

هذا، و في تبديل صيغة الربوبية هناك: «أَرْباباً مِنْ دُونِ اللَّهِ» بالألوهية هنا: «إِلهاً واحِداً» لمحة لامعة أن الربوبية هي من لزامات الألوهية، فاختصاص العبادة باللَّه هو اختصاص للربوبية باللَّه، و منها الطاعة الطليقة حيث تختص باللَّه.

فلما أطاعوا أحبارهم و رهبانهم طليقة و هم يعلمون تخلفهم عن شرعة اللَّه، فقد عبدوهم كأرباب، فقد ألّهوهم- إذا- كما اللَّه في حقل‏

\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_

أما و اللَّه ما دعوهم إلى عبادة أنفسهم و لو دعوهم إلى عبادة أنفسهم لما أجابوهم و لكن أحلوا لهم حراما و حرموا عليهم حلالا فعبدوهم من حيث لا يشعرون، و عنه (عليه السلام) من أطاع رجلا في معصية اللَّه فقد عبده،

و

عنه في الآية: أما و اللَّه ما صاموا لهم و لا صلوا و لكنهم ...

الفرقان في تفسير القرآن بالقرآن، ج‏13، ص: 41

التشريع، و مثلث: الألوهية- العبودية- الطاعة المطلقة، هذه خاصة باللَّه.

فحتى الرسول (صلى اللَّه عليه و آله و سلم) لا يعبد، و لا يطاع لنفسه، إنما كرسول: «مَنْ يُطِعِ الرَّسُولَ فَقَدْ أَطاعَ اللَّهَ» و ليس هكذا غير الرسول، و لا سيما إذا خالف حكم اللَّه الذي ليس للرسول فضلا عمن سواه!.

«وَ ما أُمِرُوا إِلَّا لِيَعْبُدُوا إِلهاً واحِداً» أمرا شرعيا في كتاباتهم إلى أمر فطري و عقلي في فطرهم و عقولهم، فكل الآيات الربانية، تكوينية و تشريعية، آفاقية و أنفسية، معسكرة لحق كلمة التوحيد دون إبقاء.

فلا يختص الإشراك باللَّه بالاعتقاد بالألوهية غير اللَّه، و لا تقديم الشعائر التعبدية لغير اللَّه، بل و الإشراك به في كل اختصاصة له كالتشريع، فهؤلاء الذين أعطوا حق التشريع لأحبارهم و رهبانهم، فقد اعتبروهم شركاء اللَّه في التشريع، بل و رجحوهم فيه على اللَّه حيث اتبعوهم من دون اللَّه، و ذلك أنحس دركات الإشراك باللَّه.

«سُبْحانَهُ وَ تَعالى‏ عَمَّا يُشْرِكُونَ» به في طاعة كما في الأحبار و الرهبان، أم في عبادة كما في المسيح (عليه السلام)، أم في ألوهة كما الخالق مثلما يقوله الثنوية القائلة بمبدئين اثنين، و الأهم هنا في هذا البين هو الطاعة الطليقة الناتجة عن العبادة الطليقة و الألوهية الوحيدة الطليقة.

ذلك «فإنما ذكر ذلك في كتابنا لكي نتعظ بهم» فلا نتبع علماءنا أيا كانوا دون تثّبت، فحين نجد فقهاءنا قد لا يعتمدون القرآن أصلا في فتياهم، أم يخالفون تقصيرا أو قصورا نصوصا أم ظواهر مستقرة من القرآن، دونما حجة إلّا شهرات أو إجماعات أم روايات تخالف القرآن ، فكيف نتبعهم ، اللّهم إلّا من هدى اللَّه جعلنا اللَّه منهم.

فحين يقول اللَّه‏ «لا تَقْفُ ما لَيْسَ لَكَ بِهِ عِلْمٌ» فكيف- إذا- نقفوا ما نعلم تخلفه عن القرآن، و كما هكذا «اتَّخَذُوا أَحْبارَهُمْ وَ رُهْبانَهُمْ أَرْباباً مِنْ دُونِ اللَّهِ ..»! اتخذنا نحن المسلمين أيضا علماءنا أربابا من دون اللَّه،

الفرقان في تفسير القرآن بالقرآن، ج‏13، ص: 42

نطيعهم كما يطاع اللَّه، رغم أخطاءهم القاصرة أو المقصرة أمام شرعة اللَّه، و هكذا:

يُرِيدُونَ أَنْ يُطْفِؤُا نُورَ اللَّهِ بِأَفْواهِهِمْ وَ يَأْبَى اللَّهُ إِلَّا أَنْ يُتِمَّ نُورَهُ وَ لَوْ كَرِهَ الْكافِرُونَ (32).

«بأفواههم» القائلة هذه القولات المائلة، المضاهية قول الذين كفروا من قبل، و إطفاء نور اللَّه و هو توحيده الحق بصفاته الحقة، و هو شرعته الصالحة غير الدخيلة، فهو كلما أراده اللَّه من عباده معرفة و عملا صالحا، يريدون ليطفئوا كل ذلك بنقاب شرعة اللَّه، خلقا لجو التضاد بين الدين و نفسه، «وَ يَأْبَى اللَّهُ إِلَّا أَنْ يُتِمَّ نُورَهُ» المسرود في كتابات وحيه، بالقرآن، و نوره المرسل برسول القرآن‏ «وَ لَوْ كَرِهَ الْكافِرُونَ».

إن الشيطنة الكتابية المدروسة ضد كتابات الوحي و رسله‏ «1»، هي كتقدمه لإطفاء نور القرآن و نبيه، و لكن اللَّه يريد «أَنْ يُتِمَّ نُورَهُ» بهذه الشرعة الأخيرة المهيمنة رسولا و رسالة على كافة الرسل برسالاتهم.

و شاهدا على خصوص ذلك القصد اللعين اللئيم بين عمومه آيات الصف: «وَ إِذْ قالَ عِيسَى ابْنُ مَرْيَمَ يا بَنِي إِسْرائِيلَ إِنِّي رَسُولُ اللَّهِ إِلَيْكُمْ مُصَدِّقاً لِما بَيْنَ يَدَيَّ مِنَ التَّوْراةِ وَ مُبَشِّراً بِرَسُولٍ يَأْتِي مِنْ بَعْدِي اسْمُهُ أَحْمَدُ فَلَمَّا جاءَهُمْ بِالْبَيِّناتِ قالُوا هذا سِحْرٌ مُبِينٌ. وَ مَنْ أَظْلَمُ مِمَّنِ افْتَرى‏ عَلَى اللَّهِ الْكَذِبَ وَ هُوَ يُدْعى‏ إِلَى الْإِسْلامِ وَ اللَّهُ لا يَهْدِي الْقَوْمَ الظَّالِمِينَ. يُرِيدُونَ لِيُطْفِؤُا نُورَ اللَّهِ بِأَفْواهِهِمْ وَ اللَّهُ مُتِمُّ نُورِهِ وَ لَوْ كَرِهَ الْكافِرُونَ. هُوَ الَّذِي أَرْسَلَ رَسُولَهُ بِالْهُدى‏ وَ دِينِ الْحَقِّ لِيُظْهِرَهُ عَلَى الدِّينِ كُلِّهِ وَ لَوْ كَرِهَ الْمُشْرِكُونَ» (6: 9).

و هنا وجه آخر في «بأفواههم» هو الإشارة إلى ضآلة المحاولة لإطفاء

\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_

(1).

نور الثقلين 2: 210 في كتاب الإحتجاج للطبرسي عن أمير المؤمنين (عليه السلام) حديث طويل و فيه: و قد بين اللَّه تعالى قصص المغير بن بقوله‏ «يُرِيدُونَ لِيُطْفِؤُا نُورَ اللَّهِ ..» يعني أنهم أثبتوا في الكتاب ما لم يقله اللَّه ليلبسوا على الخليقة فأعمى اللَّه قلوبهم حتى تركوا فيه ما دل على ما أحدثوه فيه و حرفوا منه.

الفرقان في تفسير القرآن بالقرآن، ج‏13، ص: 43

نور اللَّه، حيث النور القوي فضلا عن نور اللَّه الأقوى ليست لتطفأ بالأفواه، و هذا من عجيب البيان الشامل للوجهين بتصغير شأنهم و تضعيف كيدهم، لأن الفم يؤثر في الأنوار الضعيفة، دون الأنوار القوية و لا سيما الإلهية!، فمن يزعم أنه يطفئ نور الشمس بفيه ففيه ما فيه فضلا عن نور اللَّه التي أضاءها فمن ذا الذي يطفيها بفيه!.

هنا «نور اللَّه» تعني إلى نوره خالقا ربا، نوره خلقا كما في آية النور:

«اللَّهُ نُورُ السَّماواتِ وَ الْأَرْضِ مَثَلُ نُورِهِ ..» فهو ذاته نور السماوات و الأرض بهداية تكوينية و تشريعية و كافة الربوبيات، و هو في شرعته نور السماوات و الأرض.

و كما هو واحد في نورية ذاته و أفعاله و صفاته، كذلك هو واحد في نوره الرسولي و الرسالي، فإن الرسل و الرسالات سلسلة واحدة موصولة مع الزمن، متبلورة متوحدة في النور المحمدية و المحمديين من عترته المعصومين (عليهم السلام) و كما قال في آية النور بيانا لظرف مثل النور:

«فِي بُيُوتٍ أَذِنَ اللَّهُ أَنْ تُرْفَعَ وَ يُذْكَرَ فِيهَا اسْمُهُ يُسَبِّحُ لَهُ فِيها بِالْغُدُوِّ وَ الْآصالِ. رِجالٌ ...» «1».

فالوحدة في «نور اللَّه» هنا و «نوره» هناك، كوحدة «رسوله» هنالك، هي مما توحد رسالة اللَّه على كثرتها، حيث تتوحد في هذه الرسالة السامية المهيمنة على الرسالات كلها.

فنور اللَّه الرسولية المحمدية لا تطفأ بما حرفوه من بشارات الوحي الكتابي، كما أن نور اللَّه الرسالية المحمدية لم تطفأ بما حرفوه من أحكام اللَّه و سائر جهات اشراع اللَّه، حيث الهيمنة المحمدية القرآنية و القرآنية المحمدية، قد تمت بها نور اللَّه‏ «وَ لَوْ كَرِهَ الْكافِرُونَ» و حاولوا ما حاولوا في إطفاءها.

لقد جهد المضللون قبل محمد (صلى اللَّه عليه و آله و سلم) و معه و بعده‏ «2» أن يطفئوا نور اللَّه بأفواههم، و يأبى اللَّه إلّا أن يتم نوره، لا

\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_

(1، 2).

المصدر في كتاب الغيبة للطوسي (ره) عن محمد بن سنان قال: ذكر على بن أبي حمزة

الفرقان في تفسير القرآن بالقرآن، ج‏13، ص: 44

فحسب أن يبقيها كما كانت، إنما أن يتم نوره و كما أتمها على مدار التاريخ الرسالي، و لا سيما بهذه الرسالة السامية.

و مما يبرهن على أن يأبى اللّه إلا أن يتم نوره و لو كره الكافرون، أنه:

هُوَ الَّذِي أَرْسَلَ رَسُولَهُ بِالْهُدى‏ وَ دِينِ الْحَقِّ لِيُظْهِرَهُ عَلَى الدِّينِ كُلِّهِ وَ لَوْ كَرِهَ الْمُشْرِكُونَ (33).

و هكذا في الصف (9) و في الفتح: «.. وَ كَفى‏ بِاللَّهِ شَهِيداً» و هنا إيجابية الشهادة الربانية تكمل سلبية كيد المشركين في حقل إظهار محمد (صلى اللّه عليه و آله و سلم) على الدين كله.

\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_

عند الرضا (عليه السلام) فلعنة ثم قال: إن علي بن حمزة أراد أن لا يعبد اللّه في سمائه و أرضه و يأبى اللّه إلا أن يتم نوره و لو كره المشركون، و لو كره اللعين المشرك، قلت:

المشرك؟ قال: نعم و اللّه و إن رغم أنفه، كذلك هو في كتاب اللّه «يريدون ..»

و قد جرت فيه و في أمثاله أنه أراد أن يطفئ نور اللّه، و

باسناده إلى الصادق (عليه السلام) حديث طويل يقول فيه (عليه السلام): و قد ذكر شق فرعون بطون الحوامل في طلب موسى (عليه السلام): و كذلك بنوا أمية و بنوا العباس لما وقفوا على أن زوال ملكة الأمر و الجبابرة منهم على يد القائم (عليه السلام) ناصبونا العداوة و وضعوا سيوفهم في قتل أهل رسول اللَّه (صلى اللَّه عليه و آله و سلم) و إيادة نسلة طمعا منهم في الوصول إلى قتل القائم (عليه السلام) فأبى اللَّه أن يكشف أمره لواحد من الظلمة إلى أن يتم نوره و لو كره المشركون، و في كتاب كمال الدين و تمام النقمة مثله سواء،

و

فيه عن تفسير العياشي عن أحمد بن محمد قال: وقف عليّ أبو الحسن الثاني (عليه السلام) في بني زريق فقال لي و هو رافع صوته: يا أحمد! قلت: لبيك، قال: انه لما قبض رسول اللَّه (صلى اللَّه عليه و آله و سلم) جهد الناس على إطفاء نور اللَّه فأبى اللَّه إلا أن يتم نوره بأمير المؤمنين (عليه السلام)،

و

فيه عن قرب الإسناد للحميري معاوية بن حكيم عن أحمد بن محمد بن أبي نصر قال: وعدنا أبو الحسن الرضا (عليه السلام) ليلة إلى مسجد دار معاوية فجاء فسلم فقال: إن الناس قد جهدوا على اصطفاء نور اللَّه حين قبض اللَّه تعالى رسول اللَّه (صلى اللَّه عليه و آله و سلم) و أبى اللَّه إلا أن يتم نوره و قد جهد علي بن أبي حمزة على إطفاء نور اللَّه حين قبض أبو الحسن (عليه السلام) فأبى اللَّه إلا أن يتم نوره، و قد هداكم اللَّه لأمر جهله الناس فأحمدوا اللَّه على ما من عليكم به.

الفرقان في تفسير القرآن بالقرآن، ج‏13، ص: 45

ذلك، و منذ زمن الرسول (صلى اللَّه عليه و آله و سلم) حتى الآن لمّا يتحقق ذلك الوعد الحق أن يظهر محمد (صلى اللَّه عليه و آله و سلم) على الدين: الطاعة- كله، فقد ظهر دينه نسخا لسائر الدين منذ ابتعث، و لكنه لمّا يظهر في واقع الحياة ظهورا قاهرا يخفق تحت ظله كل ظاهر من الدين، و لو كان القصد- فقط- إلى جانب النسخ، و أن شرعته تحلق شرعيا على كافة المكلفين؟ فهذا أمر حصل في كل شرعة أصلية لأولي العزم من الرسل، دون اختصاص بهذه الأخيرة، كما و هو أصل لهذه الأديان، لا غاية لها، و هنا «ليظهره» غاية، كما و ليس إظهارا بالحجة حيث يشترك معه سائر الأديان الحقة، إذا فلتعن «ليظهره» واقع إظهاره دون أن يبقى في عالم الحكم شرعيا، و في عالم المثل و الخيال و الآمال غير الواقعة، بل هو الإظهار واقعيا على ضوء الإظهار شرعيا، و ليس ذلك إلا في زمن المهدي القائم (عليه السلام) من آل محمد (صلى اللَّه عليه و آله و سلم) حيث تسيطر دولته على العالم كله، و هناك يظهر الحق في‏ «لِيُظْهِرَهُ عَلَى الدِّينِ كُلِّهِ» «1».

و قد لا يعني ذلك الإظهار ستار كل دين سواه إلا عن ظهورها الغالب، فمحمد (صلى اللَّه عليه و آله و سلم) بقرآنه المبين سوف يظهر غالبا مسيطرا على الدين كله حين لا يبقى لها أي صوت أو صيت إلّا صوت الإسلام وصيته حيث يحلقان على العالم كله، ثم يبقى الكل تحت ذمته.

ذلك، و المهدي (عليه السلام) هو المعني من «ريح طيبة» على لسان الرسول (صلى اللَّه عليه و آله و سلم) حيث‏

«يبعث الله ريحا طيبة فيتوفى من كان في قلبه مثقال حبة من خردل من خير فيبقى من لا خير فيرجعون إلى دين آباءهم» «2».

\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_

(1). لاطلاع أوسع راجع آية الصف و الفتح تجدهما فيهما تفصيلا أوسع.

(2)

الدر المنثور 3: 231- أخرج أحمد و مسلم و الحاكم و ابن مردويه عن عائشة أن رسول اللَّه (صلى اللَّه عليه و آله و سلم) قال: لا يذهب الليل و النهار حتى تعبد اللات و العزّى فقالت عائشة يا رسول اللَّه (صلى اللَّه عليه و آله و سلم) إني كنت أظن حين أنزل اللَّه‏

الفرقان في تفسير القرآن بالقرآن، ج‏13، ص: 46

و هنا «دين الحق»- مع أن دين اللَّه كله حق مهما كان غيره باطلا- يعني «الحق» الثابت و غير المحرف قبال الزائل و المحرف، مهما كان حقا

\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_

«لِيُظْهِرَهُ عَلَى الدِّينِ كُلِّهِ» أن ذلك سيكون تاما، فقال (صلى اللَّه عليه و آله و سلم): إنه سيكون من ذلك ما شاء اللَّه ثم يبعث اللَّه ..

و

فيه أخرج سعيد بن منصور و ابن المنذر و البيهقي في سننه عن جابر في الآية قال: «لا يكون ذلك حتى لا يبقى يهودي و لا نصراني صاحب ملة إلا الإسلام حتى تأمن الشاة الذئب و البقرة الأسد و الإنسان الحية، و حتى لا تقرض فأرة جرابا و حتى توضع الجزية و تكسر الصليب و يقتل الخنزير و ذلك إذا نزل عيسى بن مريم (عليهما السلام)»

أقول: و ذلك حسب متواتر الحديث عن الرسول (صلى اللَّه عليه و آله و سلم) و أئمة أهل بيته (عليهم السلام)، لا يكون إلا زمن المهدي القائم (عليه السلام) و منها:

نور الثقلين 2: 211 في كتاب كمال الدين و تمام النعمة باسناده إلى أبي بصير قال قال أبو عبد اللَّه (عليه السلام) في قوله عزّ و جلّ: «هُوَ الَّذِي أَرْسَلَ ..» فقال: و اللَّه ما نزل تأويلها بعد و لا ينزل تأويلها حتى يخرج القائم (عليه السلام) فإذا خرج القائم (عليه السلام) لم يبق كافر باللَّه العظيم و لا مشرك بالإمام إلا كره خروجه حتى لو كان كافر أو مشرك في بطن صخرة لقالت: يا مؤمن في بطني كافر فاكسرني و اقتله.

و

فيه عنه باسناده إلى سليط قال قال الحسين بن علي (عليهما السلام): منا اثنا عشر مهديا أولهم أمير المؤمنين علي بن أبي طالب (عليه السلام) و آخرهم التاسع من ولدي و هو القائم بالحق، يحيي اللَّه به الأرض بعد موتها و يظهر به الدين الحق على الدين كله و لو كره المشركون.

و

فيه عنه بإسناده إلى محمد بن مسلم الثقفي قال سمعت أبا جعفر محمد بن علي (عليهما السلام) يقول: القائم منا منصور بالرعب مؤيد بالنصر، تطوى له الأرض و تظهر له الكنوز، يبلغ سلطانه المشرق و المغرب و يظهر اللَّه عزّ و جلّ دينه على الدين كله و لو كره المشركون، فلا يبقى في الأرض خراب إلا عمّر و ينزل روح اللَّه عيسى بن مريم (عليهما السلام) فيصلي خلفه ...

و

فيه عن الإحتجاج للطبرسي عن أمير المؤمنين (عليه السلام) حديث طويل و فيه: و غاب صاحب هذا الأمر بإيضاح العذر له في ذلك، لاشتمال الفتنة على القلوب حتى يكون أقرب الناس إليه أشدهم عداوة له و عند ذلك يؤيده اللَّه بجنود لم تروها و يظهر دين نبيه (صلى اللَّه عليه و آله و سلم) على يديه على الدين كله و لو كره المشركون،

و في تفسير الفخر الرازي 16: 40 روى عن أبي هريرة انه قال: هذا وعد من اللَّه بأنه تعالى يجعل الإسلام عاليا على جميع الأديان و تمام هذا إنما يحصل عند خروج عيسى، و قال السدي: ذلك عند خروج المهدي لا يبقى أحد إلّا دخل في الإسلام و أدى الخراج.

الفرقان في تفسير القرآن بالقرآن، ج‏13، ص: 47

قبال الباطل، فالشرايع الحقة غير الإسلام، هي مع الشرائع الباطلة، كلها زائلة بنسخ و تحريف- بفارق الحق في الحقة أمام الباطل- و هذا «دِينِ الْحَقِّ» و في تبديل «الدين الحق» ب‏ «دِينِ الْحَقِّ» لمحة إلى ذلك الحق أنه ليس فقط و جاه الباطل، بل و هو وجاه كل دين الهي منسوخ و محرف.

فدين الحق- إذا- يحمل مثلث الحق الثابت غير المحرف و غير الباطل، و سائر الأديان الحقة تحمل- فقط- الضلع الثالث، و بصيغة أخرى‏ «دِينِ الْحَقِّ» هو الحق المطلق غير الباطل و لا المنسوخ و لا المحرف، و «الدين الحق» هو مطلق الحق قبال الباطل فقط، ثم حق رابع هو أنه يحمل كل حق يحق تبيينه لكافة المكلفين على مدار الزمن، فهو مربع من الحق.

ذلك، و في «ليظهره» دون- فقط- «ليظهر دينه» تأييد للأحاديث التي تتحدث عن رجعته (صلى اللَّه عليه و آله و سلم) يوم الرجعة حيث يملك فيها العالم كله، مهما عنى ضمير الغائب إلى الرسول (صلى اللَّه عليه و آله و سلم) دينه، مما يشي بأن غيره (صلى اللَّه عليه و آله و سلم) يساندونه في ذلك، و النقطة الأولى هو المهدي (عليه السلام).

أ ترى الملل كلها- بعد- تسليم فلا يبقى كافر على وجه الأرض؟ إنه‏

«لا يبقى على وجه الأرض بيت مدر و لا وبر إلا أدخله الله كلمة الإسلام، إما بعز عزيز أو بذل ذليل، إما يعزهم فيجعلهم الله من أهله فيقروا به، و إما يذلهم فيدينون له» «1»

طاعة إياه و عيشة تحت ذمته و سلطته، و قد دلت آيتا «أغرينا- و- ألقينا» «2» على بقاء جمع من اليهود و النصارى بكور دون دور.

فهذه بشارة سارة تتكرر في القرآن انه سيظهر دين الحق على الدين‏

\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_

(1). المصدر عن مجمع البيان قال المقداد بن الأسود سمعت رسول الله (صلى الله عليه و آله و سلم) يقول: لا يبقى.

(2) و هما و أغرينا- أو- و القينا بينهم العداوة و البغضاء إلى يوم القيامة ... حيث تعنيان اليهود و النصارى، تعني كل واحدة منهما.

الفرقان في تفسير القرآن بالقرآن، ج‏13، ص: 48

كله دون إبقاء، فتكون- إذا- الدينونة الحقة على ضوء «دِينِ الْحَقِّ» للَّه وحده، و نحن- إذا- في حق المسير إلى حق المصير، علينا أن نتحمل ما نحمّل من أعباء هذه الرسالة السامية، ابتداء من نقطة البدء التي بدأت منها خطوات الرسول (صلى اللَّه عليه و آله و سلم) و انتهاء إلى نقطة الانتهاء حيث يحمل حفيده المهدي (عليه السلام) هذه الراية المظفرة، تحقيقا لهذه الغاية القصوى و البغية الحاسمة الجاسمة، اللّهم عجل فرجه و سهل مخرجه و اجعلنا من أنصاره و أعوانه و من المجاهدين في سبيل اللَّه بين يديه- آمين.

و لقد تلاحقت البشارات الكتابية بهذه الميزة المنقطعة النظير لدين الحق هذا، بما لا حول عنه إلى غيره من أديان حقة ربانية، سردناها في كتابنا «رسول الإسلام في الكتب السماوية».

و هنا «رسوله» كما في (82) أخرى تختص الرسالة الربانية بمحمد (صلى اللَّه عليه و آله و سلم) كما و أن آية الشورى تختص به الوحي أمام سائر أصحاب الوحي الرساليين: «شَرَعَ لَكُمْ مِنَ الدِّينِ ما وَصَّى بِهِ نُوحاً وَ الَّذِي أَوْحَيْنا إِلَيْكَ وَ ما وَصَّيْنا بِهِ إِبْراهِيمَ وَ مُوسى‏ وَ عِيسى‏ أَنْ أَقِيمُوا الدِّينَ وَ لا تَتَفَرَّقُوا فِيهِ» ثم و آية آل عمران تصرح برسالته إلى الرسل: «وَ إِذْ أَخَذَ اللَّهُ مِيثاقَ النَّبِيِّينَ لَما آتَيْتُكُمْ مِنْ كِتابٍ وَ حِكْمَةٍ ثُمَّ جاءَكُمْ رَسُولٌ مُصَدِّقٌ لِما مَعَكُمْ لَتُؤْمِنُنَّ بِهِ وَ لَتَنْصُرُنَّهُ قالَ أَ أَقْرَرْتُمْ وَ أَخَذْتُمْ عَلى‏ ذلِكُمْ إِصْرِي قالُوا أَقْرَرْنا قالَ فَاشْهَدُوا وَ أَنَا مَعَكُمْ مِنَ الشَّاهِدِينَ».

ذلك، و لأن‏ «لِيُظْهِرَهُ عَلَى الدِّينِ كُلِّهِ» ليس إلا بمهديه القائم عجل اللَّه تعالى فرجه.

ذلك و تعريفا ب «الدين» ككل‏

عن لسان النبي (صلى اللَّه عليه و آله و سلم) قوله: «الدين يسر» «1»

\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_

(1). مفتاح كنوز السنة نقلا عن بخ- ك 2 ب 29، نس- ك 46 ب 28، حم- ثالث ص 479 قا رابع ص 158 و 338 خامس ص 32 قا سادس ص 85 و 114 و 115 و 130

الفرقان في تفسير القرآن بالقرآن، ج‏13، ص: 49

و

«الدين النصيحة» «1»

و

«إن الله يبعث لهذه الأمة على رأس كل مائة سنة من يجدد لها دينها» «2»

و

«إن الدين ليأزر إلى الحجاز» «3»

و أظنه في بداية ظهور المهدي (عليه السلام) حيث يقوم من المسجد الحرام.

فقد يعني‏ «نُورَ اللَّهِ» هنا- بعد القرآن و رسوله- الأنوار الإثني عشر من عترته المعصومين، و كما

يروى عنه (صلى اللَّه عليه و آله و سلم): «خلقت أنا و علي من نور الله عز و جل» «4»

و هو نور الهداية العليا، و هو أول ما خلق اللَّه و كما قال:

«أول ما خلق الله نوري»

مهما ترتبت درجات حيث‏

«خلقت من نور الله عز و جل، و خلق أهل بيتي من نوري و خلق محبوهم من نورهم» «5»

«فهذه خمسة أسماء مكتوبة من نور أنا المحمود و هذا محمد و أنا الأعلى و هذا علي ..» «6».

يا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا إِنَّ كَثِيراً مِنَ الْأَحْبارِ وَ الرُّهْبانِ لَيَأْكُلُونَ أَمْوالَ النَّاسِ بِالْباطِلِ وَ يَصُدُّونَ عَنْ سَبِيلِ اللَّهِ وَ الَّذِينَ يَكْنِزُونَ الذَّهَبَ وَ الْفِضَّةَ وَ لا يُنْفِقُونَها فِي سَبِيلِ اللَّهِ فَبَشِّرْهُمْ بِعَذابٍ أَلِيمٍ (34) يَوْمَ يُحْمى‏ عَلَيْها فِي نارِ جَهَنَّمَ فَتُكْوى‏ بِها جِباهُهُمْ وَ جُنُوبُهُمْ وَ ظُهُورُهُمْ هذا ما كَنَزْتُمْ لِأَنْفُسِكُمْ فَذُوقُوا ما كُنْتُمْ تَكْنِزُونَ (35).

هؤلاء الكثرة الكثيرة من الأحبار و الرهبان- و هم عيون الأمم الكتابية- إنهم بديلا عن زهدهم في الدنيا و فتحهم سبيل اللَّه‏ «لَيَأْكُلُونَ أَمْوالَ النَّاسِ بِالْباطِلِ»

\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_

و 162 و 181 و 189 و 191 و 209 و 223 و 229 و 232 و 262 و 281 ط- ح 1296 و 2086.

(1). المصدر نقلا عن بد- ك 40 ب 59، نس- ك 39 ب 22، تر- ك 25 ب 17 مى- ك 20 ب 41 حم- أول ص 351، ثان ص 297، رابع ص 102.

(2) المصدر نقلا عن بد- ك 36 ب 1.

(3) المصدر نقلا عن تر- ك 38 ب 1.

(4) ملحقات إحقاق الحق 5: 253 و 16: 110- 114 و 21: 433 و 4: 91 و 15:

199، 142، 692 و 6: 446.

(5) المصدر 9: 481.

(6) المصدر 9: 253 و 260.

الفرقان في تفسير القرآن بالقرآن، ج‏13، ص: 50

بسبب الباطل، و مصحوبا بالباطل، و في سبيل الباطل، حيث لا مقابل له حقا و لا غاية حقة، بل يقابله‏ «وَ يَصُدُّونَ عَنْ سَبِيلِ اللَّهِ» فقد يأكلون أموال الناس دون مقابل، و أخرى بمقابل الصد عن سبيل اللَّه، و لا فحسب «يأكلون» هكذا «و يصدون» بل و هم‏ «يَكْنِزُونَ الذَّهَبَ وَ الْفِضَّةَ وَ لا يُنْفِقُونَها فِي سَبِيلِ اللَّهِ» ثالوث منحوس أمام الناس و أمام اللَّه‏ «فَبَشِّرْهُمْ بِعَذابٍ أَلِيمٍ، يَوْمَ يُحْمى‏ ...»

و ترى أن هذه الثلاثة مرفوضة محظورة- فقط- لهؤلاء الأحبار و الرهبان، و أما علماء الإسلام فلا عليهم إذا عملوا أعمالهم؟ إنهم- إذا- أنحس و أركس حيث حمّلوا ما لم يحمّله الأولون، فقد حملوا هذه الشرعة الأخيرة المهيمنة على الشرائع كلها بأصحابها.

إذا فهذه الثلاثة هي أنحس النحس من الحرمات الكبيرة التي تفقر الناس ماليا و تقفرهم نفسيا و حاليا.

أم ترى أن الكنز من أموال الناس هو فقط محرم أم و مطلق الكنز؟

«وَ الَّذِينَ يَكْنِزُونَ ..» هو بنفسه موضوع للحرمة طليق، مهما كان أنحسه أن يكون من أموال الناس و عند العلماء فثالوث من الحرمة.

فالكنز- لغويا- هو ركام المال بجعل بعضه على بعض دونما تصريف في تجارة أو زراعة أمّاهيه من تحولات، فهو كل مدخر من المال لا يستفاد منه إدارة لشؤون الحياة، و إنما ركازا و ركاما بغية الحاجة المستقبلة المتخيلة أمّا ذا من الحاجات الخيالية أم و واقعية بعيدة غير حاضرة و هناك من يحتاجون إلى مال يصرفونه في قوتهم أم يديرونه لإدارة الحياة فردية و جماعية، و أمامهم ركاز و ركام من الأموال الطائلة مهما أديت زكاتها، فالمال الحلال قد يكفي لضرورة المعيشة اليومية دونما تبذير و لا إسراف فلا شي‏ء عليه.

أم يزيد عنها و لكنه يسمد لتجارة أماهيه كرأس مال لإدارة الضرورة المعيشية، و كذلك الأمر.

الفرقان في تفسير القرآن بالقرآن، ج‏13، ص: 51

أم هو زائد عن الحاجة المعيشية يوميا أو و رأس مال لها، ففيه الزكاة قدر الزائد.

أم يزيد عن كل حاجة حاضرة مصرفيا و رأس المال للحصول على المصرف، و لكنه يستعمل للحصول على الزيادة غير المحتاج إليها، فكذلك الأمر أم هو ركاز لا يحتاج إليه في أية حاجة، فيسمد مغبّة الحاجة المستقبلة المتخيلة، و له حاجته يوميا حسب الظاهر و العادة، أم و لا يحتاجه طول عمره أيضا، و هو فيها كنز، حيث الكنز هو ركام المال و ركازه دونما إدارة له في عمل فردي أو جماعي، فلينفق كله في سبيل اللَّه، إنفاقا لأصله، أم عوائده إقراضا للمحاويج لكي يكتسبوا به دون أن يأخذ منهم شيئا بمضاربة أم شركة أما شابه.

و ليس الذهب و الفضة هنا كما في سواه مما تذكران إلا عنوانا و نموذجا غاليا للثروة دائما، و النقد الرائج زمن نزول الوحي، فهما تعبيران عن الثروات المحتاج إليها في إدارة شؤون الحياة، مهما كانت أوراقا نقدية كما اليوم، أم أراضى و معامل و سيارات و سفن و طائرات‏ «1» فانها حين تجمد دونما فائدة هي كنوز يجب إنفاقها في سبيل اللَّه، حيث هي خارجة عن حاجيات أصحابها، فلتنفق أعيانها أو منافعها بإشغالها في سبيل اللَّه.

و أقل الكنز ما أدي زكاته المفروضة و هو من حلّ، و أكثره ما لم تؤد زكاته و ليس من حلّ و بينهما عوان، و الكنز صادق في هذه الحالات كلها، و هو محظور على أية حال، لأنه هو موضوع الحرمة بصورة طليقة، فما صدق أنه كنز شمله حكمه مهما اختلفت دركاته.

\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_

(1). كما

عن الإمام الباقر (عليه السلام) انه سئل عن الدنانير و الدراهم و ما على الناس فقال:

هي خواتيم اللَّه في أرضه جعلها اللَّه مصلحة لخلقه و بها يستقيم شؤونهم و مطالبهم فمن أكثر له منها فقام بحق اللَّه فيها و أدى زكوتها فذاك الذي طلبه و خلص له و من أكثر له منها فبخل بها و لم يود حق اللَّه فيها و اتخذ منها الأبنية فذاك الذي حق عليه وعيد اللَّه عزّ و جلّ في كتابه: «يَوْمَ يُحْمى‏ عَلَيْها فِي نارِ جَهَنَّمَ ..».

الفرقان في تفسير القرآن بالقرآن، ج‏13، ص: 52

و قد نظر عثمان بن عفان إلى كعب الأحبار فقال له يا أبا إسحاق ما تقول في رجل أدى زكوة ماله المفروضة هل يجب عليه فيما بعد ذلك شي‏ء؟ فقال: لا- و لو اتخذ لبنة من ذهب و لبنة من فضة ما وجب عليه شي‏ء، فرفع أبو ذر عصاه فضرب بها رأس كعب ثم قال له: يا ابن اليهودية الكافرة ما أنت و النظر في أحكام المسلمين! قول اللَّه أصدق من قولك حيث قال: «وَ الَّذِينَ يَكْنِزُونَ ..» «1» و الأحاديث التي تقول المال الذي أدى زكاته فليس بكنز «2» لا تعني النصابات المقررة المعنية من ربع العشر

\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_

(1). نور الثقلين 2: 213 في تفسير علي بن إبراهيم حديث طويل و فيه نظر عثمان بن عفان ...

أقول: و هذه المحاولة الارستقراطية العثمانية تتبين أكثر حين حاول أن يسقط الواو من آية الكنز حصرا لها بأهل الكتاب حتى لا تشمله هو و أضرابه من الأثرياء.

(2)

الدر المنثور 3: 332- أخرج ابن عدي و الخطيب عن جابر قال قال رسول اللَّه (صلى اللَّه عليه و آله و سلم): «أي مال أديت زكاته فليس بكنز» و أخرجه ابن أبي شيبة عن جابر موقوفا،

و

فيه أخرج ابن مردويه و البيهقي عن أم سلمة أنها قالت‏ يا رسول اللَّه (صلى اللَّه عليه و آله و سلم) إن لي أوضاحا من ذهب أو فضة أ فكنز هو؟ قال: كل شي‏ء تؤدي زكاته فليس بكنز.

و

في نور الثقلين 3: 213 في أمالي الشيخ باسناده لما نزلت هذه الآية قال رسول اللَّه (صلى اللَّه عليه و آله و سلم): كل مال تؤدى زكاته فليس بكنز و إن كان تحت سبع أرضين و كل مال لا تؤدى زكاته فهو كنز و إن كان فوق الأرض.

و

فيه أخرج ابن أبي حاتم و أبو الشيخ عن علي بن أبي طالب (عليه السلام) قال: أربعة آلاف فما دونها نفقة و ما فوقها كنز.

و

فيه عن الكافي بسند متصل عن معاذ بن كثير قال سمعت أبا عبد اللَّه (عليه السلام) يقول: موسع على شيعتنا أن ينفقوا مما في أيديهم بالمعروف فإذا قام قائمنا حرم على كل ذي كنز كنزه حتى يأتيه به فيستعين به على عدوه و هو قول اللَّه عزّ و جلّ في كتابه «و الذين ...»

أقول: هذا حكم مصلحي في تجزءة حكم الآية حفاظا على حاجيات الدولة الإسلامية الكبرى إذا قامت، و هدما لدويلات الجور بترك مساعدتها من زائد الإنفاق من الكنوز، و لكن فيه أن سبيل اللَّه لا تختص بما تقرره الدولة. و

فيه عن أبي جعفر (عليهما السلام) في الآية فإن اللَّه حرم كنز الذهب و الفضة و أمر بإنفاقه في سبيل اللَّه و قوله: يوم يحمي عليها ... قال (عليه السلام) كان أبو ذر الغفاري يغدو كل يوم و هو بالشام فينادي بأعلى صوته: بشر أهل الكنوز بكيّ في الجباه و كي بالجنوب و كي بالظهور أبدا حتى يتردد الحر في أجوافهم.

الفرقان في تفسير القرآن بالقرآن، ج‏13، ص: 53

\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_

و

فيه عن الخصال عن الحارث قال قال أمير المؤمنين (عليه السلام) قال رسول اللَّه (صلى اللَّه عليه و آله و سلم): الدينار و الدرهم أهلكا من كان قبلكم و هما مهلكاكم.

و

في الدر المنثور 3: 233- أخرج البخاري و مسلم و أبو داود و ابن المنذر و ابن أبي حاتم و ابن مردويه عن أبي هريرة أن رسول اللَّه (صلى اللَّه عليه و آله و سلم) قال: ما من صاحب ذهب و لا فضة لا يؤدي حقها إلا جعلت له يوم القيامة صفائح ثم احمي عليها في نار جهنم ثم يكوي بها جبينه و جبهته و ظهره في يوم كان مقداره خمسين ألف سنته حتى يقضى بين الناس فيرى سبيله أما إلى الجنة و أما إلى النار.

و

فيه أخرج أبو يعلى و ابن مردويه عن أبي هريرة قال قال رسول اللَّه (صلى اللَّه عليه و آله و سلم) لا يوضع الدينار على الدينار و لا الدرهم على الدرهم و لكن يوسع اللَّه جلده فتكوى بها جباههم و جنوبهم و ظهورهم ..».

و

فيه أخرج ابن مردويه عن أبي هريرة عن النبي (صلى اللَّه عليه و آله و سلم) أنه قال: الدينار كنز و الدرهم كنز و القيراط كنز.

و

فيه أخرج أحمد و الترمذي و النسائي و ابن ماجة و ابن حبان و الحاكم و ابن مردويه عن ثوبان قال‏ كان نصل سيف أبي هريرة من فضة فقال له أبو ذر أما سمعت رسول اللَّه (صلى اللَّه عليه و آله و سلم) يقول: ما من رجل ترك صفراء و لا بيضاء إلّا كوي بها؟

و

فيه أخرج الطبراني و ابن مردويه عن أبي أمامة قال سمعت رسول اللَّه (صلى اللَّه عليه و آله و سلم) يقول: ما من أحد يموت فيترك صفراء أو بيضاء إلا كوي بها يوم القيامة مغفورا له بعد أو معذبا.

و فيه أخرج أحمد في الزهد عن أبي قال: ذو الدرهمين أشد حبسا من ذي الدرهم.

و

فيه أخرج البخاري و مسلم عن الأحنف بن قيس قال: جلست إلى ملأ من قريش فجاء رجل خشن الشعر و الثياب و الهيئة حتى قام عليهم فسلم ثم قال: بشر الكانزين برضف يحمى عليه في نار جهنم ثم يوضع على حلمة ثدي أحدهم حتى يخرج من نغض كتفه و يوضع على نغض كتفه حتى يخرج من حلمة ثديه فيتدلدل، ثم ولى و جلس إلى سارية و تبعته و جلت إليه و أنا لا أدري من هو فقلت لا أرى القوم إلا و هو كرهو ما قالت، قال: إنهم لا يعقلون شيئا قال لي خليلي، قلت: من خليلك؟ قال النبي (صلى اللَّه عليه و آله و سلم) أتبصر أحدا؟ قلت: نعم قال ما أحب أن يكون لي مثل أحد ذهبا أنفقه كله إلا ثلاثة دنانير و إن هؤلاء لا يعقلون إنما يجمعون للدنيا و اللَّه لا أسألهم دنيا و لا استفتيهم عن دين حتى ألقى اللَّه عزّ و جلّ.

أقول: لقد آل أمر أبي ذر في تشدده على الأثرياء لحد شاع وضاع بين المسلمين فاعتذر له ما

أخرجه أحمد و الطبراني عن شداد بن أوس قال: كان أبو ذر يسمع من رسول اللَّه (صلى‏

الفرقان في تفسير القرآن بالقرآن، ج‏13، ص: 54

إلى العشر و إلى الخمس، بل هي مطلق الزكاة الشاملة للعفو، و هو الزائد عن مؤنة سنته، أم و لا أقل من أداء كل واجب في المال نفقة و كفارة و دية أماهيه من واجبات مالية ليست لتنحصر في الزكاة المعروفة، اللّهم إلّا ألا تعني الزكاة كلها، فهي إذا تشمل الزائد عن المؤنة، سواء أ كان من نصاب الزكوة أمّن سواها من واجبات مقدرة و سواها.

فادخار المال محظور في شرعة اللَّه على أية حال، و هناك سبيل اللَّه بحاجة إلى مال، سواء في الحاجات الشخصية أو الجماعية للدولة الإسلامية، ف‏ «لا تُؤْتُوا السُّفَهاءَ أَمْوالَكُمُ الَّتِي جَعَلَ اللَّهُ لَكُمْ قِياماً» (4: 5) مما تمنع عن المال غير القائم بإصلاح الحياة، فلا يصلح الكنز و هناك عطلة لحياة فردية أو جماعية لآخرين.

فما صدق أنه كنز مدخر ركام، ما قل منه أو كثر، فهو مصداق التنديد في آية الكنز، و ما لم يصدق أنه كنز كالأموال التي تدار بإدرار العوائد خاصة و عامة، فهو خارج عن الآية، مهما دخلت في محظور آخر كالذي لا تؤدي زكاته، أم في تصرفه و تصريفه و تداوله إجحاف بحقوق الآخرين، أم تبذير أو إسراف و ما أشبه من محظور، فقد يجوز أن تبقي من المال الحلال بقية ليوم فقرك أم للوارث إذا لم يكن كنزا كما في حديث رسول اللَّه (صلى اللَّه عليه و آله و سلم) «و إنما فرض المواريث من أموال تبقى بعدكم» «1» و لكنه محدد بالعفو، ما زاد- لأكثر تقدير- عن مثلث‏

\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_

اللَّه عليه و آله و سلم) الأمر فيه الشدة ثم يخرج إلى باديته ثم يرخص فيه رسول اللَّه (صلى اللَّه عليه و آله و سلم) بعد ذلك فيحفظ من رسول اللَّه (صلى اللَّه عليه و آله و سلم) في ذلك الأمر الرخصة فلا يسمعها أبو ذر فيأخذ أبو ذر بالأمر الأول الذي سمع قبل ذلك.

و

فيه أخرج الحاكم و صححه و ضعفه الذهبي من أبي سعيد الخدري عن بلال قال قال رسول اللَّه (صلى اللَّه عليه و آله و سلم): يا بلال الق اللَّه فقيرا و لا تلقه غنيا، قلت: و كيف لي بذلك؟ قال: إذا رزقت فلا تخبأ و إذا سئلت فلا تمنع، قلت: و كيف لي بذلك؟ قال:

هو ذاك و إلّا فالنار.

(1).

المصدر عن ابن عباس قال: لما نزلت هذه الآية «وَ الَّذِينَ يَكْنِزُونَ ..» كبر ذلك على المسلمين و قالوا ما يستطيع أحد منا لولده ما لا يبقى بعده فقال عمر أن أفرّج عنكم فانطلق‏

الفرقان في تفسير القرآن بالقرآن، ج‏13، ص: 55

حاجيات الحياة، أولاها حاضرك، ثم مستقبلك و من ثم وارثك، و لكنما الآخران هما نافلتان- شرط كونهما متعودين للعقلاء المتشرعين- لا دور لهما إلّا إذا لم تكن حاجة ضرورية لسبيل اللَّه، فإنها تتقدم عليهما مهما تأخرت عما يحصل من حاجيات، حيث الحاجة الحاضرة الأكيدة في الحق الإسلامي تتقدم على المستقبلة و لا سيما المظنونة.

و لقد كان يحاول اختصاص التنديد في آية الكنز بأهل الكتاب ذودا عن المسلمين، و من ذلك محاولة الخليفة عثمان إسقاط الواو عن‏ «وَ الَّذِينَ يَكْنِزُونَ ..» فهدّد في ذلك فتركها «1».

أجل و ان آية الكنز هي من أهم ما تضيّق كل المخارج على الكانزين‏

\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_

عمر و اتبعه ثوبان فأتي النبي (صلى اللَّه عليه و آله و سلم) فقال: يا نبي اللَّه أنه قد كبر على أصحابك هذه الآية، فقال (صلى اللَّه عليه و آله و سلم): إن اللَّه لم يفرض الزكاة إلا ليطيب بها ما بقي من أموالكم و إنما ... ثم قال له النبي (صلى اللَّه عليه و آله و سلم): «ألا أخبرك بخير ما يكنز المرء؟ المرأة الصالحة التي إذا نظر إليها سرته و إذا أمرها أطاعته و إذا غاب عنها حفظته» و فيه عن ثوبان لما نزلت هذه الآية كنا مع رسول اللَّه (صلى اللَّه عليه و آله و سلم) في بعض أسفاره فقال بعض أصحابه لو علمنا أي المال خير فنتخذه فقال (صلى اللَّه عليه و آله و سلم): أفضله لسان ذاكر و قلب شاكر و زوجة مؤمنة تعينه على إيمانه- و في لفظ- تعينه على آخرته.

(1). و هذه المحاولة ظاهرة مما سئله عثمان كعب الأحبار فصاح عليه أبو ذر الغفاري كما مضى، و في الدر المنثور أخرج ابن الضريس عن علياء بن أحمر أن عثمان بن عفان قال لما أراد أن يكتب المصاحف أرادوا أن يلقوا الواو التي في براءة «وَ الَّذِينَ يَكْنِزُونَ ..» قال لهم أبي لتلحقنها أو لأضعن سيفي على عاتقي فألحقوها. أقول و حفاظا على ذلك يقول السدي فيما أخرجه عنه ابن أبي حاتم في الآية: هؤلاء أهل القبلة، و فيه أخرج ابن سعد و ابن أبي شيبة و البخاري و ابن أبي حاتم و أبو الشيخ و ابن مردويه عن زيد بن وهب قال: مررت على أبي ذر بالربذة فقلت: ما أنزلك بهذه الأرض؟ قال: كنا بالشام فقرأت‏ «وَ الَّذِينَ يَكْنِزُونَ ..» فقال معاوية: ما هذا فينا هذه في أهل الكتاب، قلت أنا: أنها فينا و فيهم.

و فيه أخرج مسلم و ابن مردويه عن الأحنف بن قيس قال: جاء أبو ذر فقال: بشر الكانزين بكيّ من قبل ظهورهم يخرج من جنوبهم و كي من جباههم يخرج من أقفائهم فقلت ما ذا؟

قال: ما قلت إلّا ما سمعت من نبيهم (صلى اللَّه عليه و آله و سلم).

الفرقان في تفسير القرآن بالقرآن، ج‏13، ص: 56

لأموالهم ما صدق كنز، مهما أدى زكاته الأدنى من ربع العشر إلى العشر و إلى الخمس، فإن واجب «العفو» قائم- بعد- على ساقه يطالب كل كانز و سواه بما زاد عن مؤنته لمؤنة الفقراء و سائر المصاريف الثمانية، التي لا تزال بحاجة إلى مزيد الإنفاقات، لا سيما و أن البخلاء كثير و أهل الخير قليل.

و ألفاظ الآية هي مما تثبت حرمة الكنز على أية حال، سواء المؤدى زكاته أم سواه، مهما كان الأول أخف محظورا.

ف «يكنزون ..» تعطي موضوعية ثابتة لعنوان الكنز على أية حال، ثم‏ «وَ لا يُنْفِقُونَها» دون «لا ينفقون منها» برهان ثان على اجتثاث الكنز أيا كان، فلو كان القصد إلى واجب الزكاة بالنصابات المقررة لكان النص «و لا ينفقون منها».

و من ثم‏ «فِي سَبِيلِ اللَّهِ» و هي بحاجة على طول الخط إلى إنفاقات و لحد «العفو» برهان ثالث على محاربة أصل الكنز، فالتكاليف المالية التي تحتاجها «سَبِيلِ اللَّهِ» في كافة و جهاتها، إنها ليست لتقف لحد و لا سيما الدعوة الإسلامية العالمية التي تتكلف عشرات أضعاف سائر التكاليف الفردية و الجماعية للكتلة المؤمنة.

فكيف- إذا- يسمح بكنز الأموال و هناك فراغات دعائية بين مستضعفي المعمورة، المبتلين بالدعايات المضللة المضادة للإسلام.

أم هل تكفي الزكوات المرسومة من التسعة، أم و الواسعة التي تحلّق على كافة الإنتاجات، هل تكفي هي لواسع الحاجيات المترامية الأطراف للدعايات الإسلامية العالمية.

كلا! فما دامت حاجة في سبيل اللَّه على درجاتها فالواجب إنفاق الأموال الزائدة عن الحاجيات الضرورية فيها و إن لم تكن من الكنوز، فضلا عنها.

و من ثم ف‏ «يَوْمَ يُحْمى‏ عَلَيْها» دون بعضها غير المزكاة- دليل رابع على هذه الشمولية، ثم‏ «فَتُكْوى‏ بِها» ككلّ و «هذا ما كَنَزْتُمْ لِأَنْفُسِكُمْ‏

الفرقان في تفسير القرآن بالقرآن، ج‏13، ص: 57

فَذُوقُوا ما كُنْتُمْ تَكْنِزُونَ» خامس و سادس من عساكر البراهين الساطعة في آية الكنز على واجب استئصاله في سبيل اللَّه ما لزم الأمر، و مما تشبه آية الكنز هي آية الطوق: «وَ لا يَحْسَبَنَّ الَّذِينَ يَبْخَلُونَ بِما آتاهُمُ اللَّهُ مِنْ فَضْلِهِ هُوَ خَيْراً لَهُمْ بَلْ هُوَ شَرٌّ لَهُمْ سَيُطَوَّقُونَ ما بَخِلُوا بِهِ يَوْمَ الْقِيامَةِ وَ لِلَّهِ مِيراثُ السَّماواتِ وَ الْأَرْضِ وَ اللَّهُ بِما تَعْمَلُونَ خَبِيرٌ» (3: 180) و من أصدق المصاديق ل‏ «ما بَخِلُوا بِهِ» هو الكنز.

ذلك، و لأن وضع المال في تكوين اللَّه و شرعته ليس إلّا قياما صالحا للحيوية الإنسانية العادلة الفاضلة: ف‏ «أَمْوالَكُمُ الَّتِي جَعَلَ اللَّهُ لَكُمْ قِياماً» حيث‏

«جعلها الله مصلحة لخلقه و بها يستقيم شئونهم و مطالبهم» «1»

فكل مال لا يستفاد منه فهو كنز، سواء الركام الذي لا يدار في عمل، أم يدار و لكن فائدته تصبح ركاما على ركام إذ لا يحتاجه صاحبه أم هو فوق حاجته المشروعة، فواجب إنفاق الكنز يشملهما، مهما عم إنفاق منافعه إلى إنفاق أصله ما يصدق أنه مصروف في سبيل اللَّه.

فالمال على أية حال لا بد أن يكون دولة بين الناس ككل قدر المساعي و الحاجات، ف‏ «كَيْ لا يَكُونَ دُولَةً بَيْنَ الْأَغْنِياءِ مِنْكُمْ» ضابطة سلبية تفرض إيجابية الدولة المطلقة للمال، فالمال المركوم في أصله أم في عوائده محظور في شرعة اللَّه يجب إنفاقه في سبيل اللَّه أصلا أم فائدة.

فتضخّم الثروات غير مسموح في شرعة اللَّه و هناك بطون غرثى لا عهد لها بالشبع و لا طمع لها في القرص.

و حصيلة البحث في آية الكنز هي أن كنز الأموال و الثروات محرم مطلقا، و لا خراجها عن كنزها طريقان اثنان، إنفاقها بأعيانها في سبيل اللَّه، أم إدارتها لصالح المحاويج فإنفاق منافعها في سبيل اللَّه، و لكن نص الآية هو الطريقة الأولى تحللا عن أصل الكنز بفصله عن ملكته.

صحيح أنهم إن كنزوا و لم ينفقوا كانوا أعصى للَّه مما إذا لم يكنزوا

\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_

(1). في الأمالي عن أبي جعفر (عليهما السلام) يقوله بشأن الأموال.

الفرقان في تفسير القرآن بالقرآن، ج‏13، ص: 58

و لم ينفقوا، أم أداروها و أنفقوا من عوائدها، و لكن «يكنزون و لا ينفقون» تفرض إنفاق الكنز بأصله.

فأما الذي لم يكنز، و إنما أدار المال الزائد عن حاجته فأنفق من عوائده فقد لا تصدق عليه هذه الآية.

أم يقال إن إنفاق الزائد عن الحاجة في سبيل اللَّه هو واجب الإنفاق، فالإبقاء على هذا الزائد و ان لم يكن كنزا محظور و إن لم تشمله آية الكنز، فإنه مشمول لآية العفو «يَسْئَلُونَكَ ما ذا يُنْفِقُونَ قُلِ الْعَفْوَ».

إذا فالمحظور الأول هو ترك إنفاق العفو، ثم الشديد هو ترك إنفاق الكنز.

و في كنز المال عدة أخطار، كعدم التنقل بفائدته، و عدم الظهور بعائدته، على أنه الزائد غير المحتاج إليه، فذلك الثالوث يجعل من المال المكنوز وبالا على أية حال.

و الذهب و الفضة هنا لا تعنيان إلا الثروة المالية التي هي المدار في حاجيات الحياة، فكنزها و هي تمجيدها محظور أوّل، و عدم إنفاقها في سبيل اللَّه و هي الزائدة عن حاجيات الحياة محظور ثان، و كونه حكرة لأصول الأموال محظور ثالث، فثالوث المحاظير تجعل الكنز للأموال من أشد المحاظير كما تنطق بها آية الكنز نفسها.

إذا فكل مال لا يحتاجه صاحبه لحياته المتعودة يوميا و رأس مال أم ليوم فقره و لورثته، لا بد و أن يحتاجه في سبيل اللَّه، و هذا أقل تقدير في الكنز.

ثم عليه أن ينفق ما يتركه لورثته إذا كانت حاجة حاضرة متأكدة إسلامية، فإنها تتقدم على المستقبلة المظنونة.

ثم عليه أن ينفق ما تركه ليوم فقره و بؤسه بنفس السند، و هذا هو المعني من إنفاق العفو عند الحاجة لسبيل اللَّه، و هي دوما بحاجة إلى بذل الأموال كما تحتاج إلى بذل النفوس و طاقاتها، مهما اختلفت درجات الحاجات فاختلفت درجات الانفاقات لزوما و رجحانا.

الفرقان في تفسير القرآن بالقرآن، ج‏13، ص: 59

و لقد كانت آية الكنز عبئا على جماعة من الأثرياء و أتباعهم لحد عزموا على حذف الواو منها لكي يختص حظره بالأحبار و الرهبان، و من ثم اختلقوا أحاديث في اختصاصه بمن لم يؤد زكاته، و لكن الآية بنصها أو ظاهرها كما النص إجابة عن تأويلاتهم و كل ويلاتهم على الكنز، إجابة صارمة لا قبل لها إلا ترك الآية وراءهم ظهريا.

فالكنز على أية حال محظور، و التبذير و الإسراف و صرف المال في محرم أو في غير المصلحة محظور، و ترك الإنفاق عفوا منه محظور، و لا يحق لأصحاب الأموال أن يجمعوا أموالا و بجنبهم فقراء أم فقر في سبيل اللَّه.

«يَوْمَ يُحْمى‏ عَلَيْها فِي نارِ جَهَنَّمَ» يحمى على أصل الذهب و الفضة كرصيدين لكل الأموال، أم يحمى على أصول الأموال أيا كانت حيث الأجسام في الجحيم غيرها هنا و كما الأبدان.

«فَتُكْوى‏ بِها ..» و إنما خصصت هذه الثلاثة بالكي؟ لأنها كانت مسجودات لأصحابها خارجة على كونها ذرائع للعيشة، و سنادات لجنوبهم و ظهورهم، ففي كنز المال دونما إدارة لشؤون الحياة إخراج له عن الوسيلة إلى الأصل، و كأنه يعبد فكي للجباة، ثم يعتمد عليه كما يعتمد الظهر على عماد فكي للظهور، ثم اعتماد عليه كهامش الحياة استرواحا إليه فكي للجنوب، و من هذه الثلاثة يدخل النار في الأجواف، فيقال: «هذا ما كَنَزْتُمْ لِأَنْفُسِكُمْ» إشارة إلى الكنز أيا كان، كنزتم لأنفسكم لمستقبلكم الموهوم يوم الدنيا، أم و لحياتكم الأخرى‏ «فَذُوقُوا ما كُنْتُمْ تَكْنِزُونَ» ذوقا لملكوتها التي حولتموها إليها.

ذلك لأن المال في وصفه تكوينا و تشريعا ليس إلا ذريعة لإدارة شؤون الحياة بصورة عادلة و فاضلة، إذا فتمجيدها عن الحركة الحيوية اعتبار لها كأنها أصل من أصول الحياة فيرجع عذابا على صاحبه الكانز إياه.

ثم يتلوه الذي يصرفه في غير صالح للحياة، أم يبذره أو يسرف به، ثم الزاوية الثالثة هي الصالحة، تحصيلا له صالحا، و صرفا صالحا دونما إفراط و لا تفريط.

الفرقان في تفسير القرآن بالقرآن، ج‏13، ص: 60

و في رجعة أخرى إلى الآية نرى أن النفقة المتعودة في غير ما تبذير أو إسراف خارجة عن الكنز، و قد تشمل الميراث، و لو لا أنه مسموح لما كان دور لآيات الميراث، فمثلث النفقة الحاضرة و المستقبلة و ما بعد الموت لمن عليه نفقتهم، إنها خارجة عن الكنز، اللّهم إلا إذا دار الأمر بين الأهم و المهم، كما إذا كانت الحاجة الحاضرة أهم من المستقبلة و من الميراث.

فالضابطة الصالحة هي استثناء مثلث النفقة عن الكنز إلا فيما يستثنى.

و على أية حال فبطالة المال و عطالته هي كعطالة الحال و بطالتها غير مسموحة في شرعة اللَّه، فلا تقوم الحياة إلا بحركة صالحة بين العمل و المال، فليس كل واحد منهما يكفي لإدارة شؤون الحياة، و لأن الأصل في كل المعاملات و المعتمد هو الذهب و الفضة، لذلك فكنزهما يعني كنز الثروات دونما إدرار لمصالح الحياة.

و هنا يستثنى النفقات الحاضرة و مؤنة السنة، و مؤنة العمر، و مؤنة الورثة بالقدر المعتدل لولا الأهم الذي يقدم على متعود هذه النفقات.

فالنفقات الواجبة و الراجحة دونما تبذير و إسراف هي خارجة عن الكنز، اللّهم إلّا إذا اقتضت الضرورة ترك الراجحة الشخصية الحاضرة إلى الواجبة الجماعية الحاضرة و هكذا تترتب النفقات الأربع مع بعضها البعض، متراوحة بين واجبة و راجحة، و الأصل الثابت هو تقديم الأهم على المهم على طول الخط، فما كان مهما و هناك أهم فهو كنز يجب إنفاقه في سبيل اللَّه من مستحبة امام واجبة، أم مؤنة السنة أمام المؤنة الحاضرة الضرورية، و إلى هذا القياس.

فحين يحتاج مسلم الى قوته لا يمسح لك التوسع في نفقتك، و حين يحتاج مسلم إلى بلغة عيشته الحاضرة لا يسمح لك ادخار مؤنة المستقبل في مثلثها مترتبة.

و «كَنَزْتُمْ لِأَنْفُسِكُمْ» تشمل كل حظوة شخصية للكانز مهما كانت إيراثا و هناك أهم منه مصرفا، إيثارا للحظوة الشخصية الخيالية أم و الواقعية

الفرقان في تفسير القرآن بالقرآن، ج‏13، ص: 61

على الضرورية الحيوية الجماعية.

و كما أن من‏ «سَبِيلِ اللَّهِ» سائر السبل الربانية، كذلك سبيل الحاجة الحيوية الشخصية فرضا و ندبا كالتوسعة على العيال، إلا أن تكون هناك سبيل هي أوجب للسالكين إلى اللَّه.

ذلك، فأين الكانزون، و البخلاء عن حقوق الفقراء، المسرفون و المبذرون في أموال الناس من أحبار و رهبان، و أين أئمة الحق الذين يخشون اللَّه في ظلم الناس بأموالهم، و كما

عن إمام المتقين علي أمير المؤمنين (عليه السلام).

«و اللَّه لئن أبيت على حسك السعدان مسهّدا، و أجرّ في الأغلال مصفّدا، أحب إلي من أن ألقي اللَّه و رسوله يوم القيامة ظالما لبعض العباد، و غاصبا لشي‏ء من الحطام، و كيف أظلم أحدا لنفس يسرع إلى البلى قفولها، و يطول في الثرى طلولها- و اللَّه لقد رأيت عقيلا و قد أملق حتى استماحني من بركم صاعا، و رأيت صبيانه شعث الشعور غبر الألوان من فقرهم كأنما سوّدت وجوههم بالعظلم، و عاودني مؤكدا، و كرر على القول مرددا، فأصغيت إليه سمعي فظن أني أبيعه ديني و أتبع قياده مفارقا طريقتي، فأحميت له حديدة، ثم أدنيتها من جسمه ليعتبر بها، فضج ضجيج ذي دنف من ألمها و كاد أن يحترق من ميسمها، فقلت له: ثكلتك الثواكل يا عقيل، أ تئن من حديدة أحماها إنسانها للعبه، و تجرني إلى نار سجرها جبارها لغضبه، أ تئن من الأذى و لا أئن من لظى، و أعجب من ذلك طارق طرقنا بملفوفة في وعاءها، و معجونة شنئتها، كأنما عجنت بريق حية أو قيئها، فقلت:

أ هبة أم زكاة أم صدقة؟ فذلك محرم علينا أهل البيت، فقال: لا ذا و لا ذاك، و لكنها هدية، فقلت: هبلتك الهبول، أ عن دين اللَّه أتيتني لتخدعني، أ مختبط أم ذو جنة أم تهجر، و اللَّه لو أعطيت الأقاليم السبعة بما تحت أفلاكها على أن أعصي اللَّه في نملة أسلبها جلب شعيرة ما فعلته، و إن دنياكم عندي لأهون من ورقة في فم جرادة تقضمها، ما لعلي‏

الفرقان في تفسير القرآن بالقرآن، ج‏13، ص: 62

و نعيم يفنى، و لذة لا تبقى، نعوذ باللَّه من سبات العقل، و قبح الزلل و به نستعين» (الكلام 215).

[سورة التوبة (9): الآيات 37 الى 52]

إِنَّمَا النَّسِي‏ءُ زِيادَةٌ فِي الْكُفْرِ يُضَلُّ بِهِ الَّذِينَ كَفَرُوا يُحِلُّونَهُ عاماً وَ يُحَرِّمُونَهُ عاماً لِيُواطِؤُا عِدَّةَ ما حَرَّمَ اللَّهُ فَيُحِلُّوا ما حَرَّمَ اللَّهُ زُيِّنَ لَهُمْ سُوءُ أَعْمالِهِمْ وَ اللَّهُ لا يَهْدِي الْقَوْمَ الْكافِرِينَ (37) يا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا ما لَكُمْ إِذا قِيلَ لَكُمُ انْفِرُوا فِي سَبِيلِ اللَّهِ اثَّاقَلْتُمْ إِلَى الْأَرْضِ أَ رَضِيتُمْ بِالْحَياةِ الدُّنْيا مِنَ الْآخِرَةِ فَما مَتاعُ الْحَياةِ الدُّنْيا فِي الْآخِرَةِ إِلاَّ قَلِيلٌ (38) إِلاَّ تَنْفِرُوا يُعَذِّبْكُمْ عَذاباً أَلِيماً وَ يَسْتَبْدِلْ قَوْماً غَيْرَكُمْ وَ لا تَضُرُّوهُ شَيْئاً وَ اللَّهُ عَلى‏ كُلِّ شَيْ‏ءٍ قَدِيرٌ (39) إِلاَّ تَنْصُرُوهُ فَقَدْ نَصَرَهُ اللَّهُ إِذْ أَخْرَجَهُ الَّذِينَ كَفَرُوا ثانِيَ اثْنَيْنِ إِذْ هُما فِي الْغارِ إِذْ يَقُولُ لِصاحِبِهِ لا تَحْزَنْ إِنَّ اللَّهَ مَعَنا فَأَنْزَلَ اللَّهُ سَكِينَتَهُ عَلَيْهِ وَ أَيَّدَهُ بِجُنُودٍ لَمْ تَرَوْها وَ جَعَلَ كَلِمَةَ الَّذِينَ كَفَرُوا السُّفْلى‏ وَ كَلِمَةُ اللَّهِ هِيَ الْعُلْيا وَ اللَّهُ عَزِيزٌ حَكِيمٌ (40) انْفِرُوا خِفافاً وَ ثِقالاً وَ جاهِدُوا بِأَمْوالِكُمْ وَ أَنْفُسِكُمْ فِي سَبِيلِ اللَّهِ ذلِكُمْ خَيْرٌ لَكُمْ إِنْ كُنْتُمْ تَعْلَمُونَ (41)

لَوْ كانَ عَرَضاً قَرِيباً وَ سَفَراً قاصِداً لاتَّبَعُوكَ وَ لكِنْ بَعُدَتْ عَلَيْهِمُ الشُّقَّةُ وَ سَيَحْلِفُونَ بِاللَّهِ لَوِ اسْتَطَعْنا لَخَرَجْنا مَعَكُمْ يُهْلِكُونَ أَنْفُسَهُمْ وَ اللَّهُ يَعْلَمُ إِنَّهُمْ لَكاذِبُونَ (42) عَفَا اللَّهُ عَنْكَ لِمَ أَذِنْتَ لَهُمْ حَتَّى يَتَبَيَّنَ لَكَ الَّذِينَ صَدَقُوا وَ تَعْلَمَ الْكاذِبِينَ (43) لا يَسْتَأْذِنُكَ الَّذِينَ يُؤْمِنُونَ بِاللَّهِ وَ الْيَوْمِ الْآخِرِ أَنْ يُجاهِدُوا بِأَمْوالِهِمْ وَ أَنْفُسِهِمْ وَ اللَّهُ عَلِيمٌ بِالْمُتَّقِينَ (44) إِنَّما يَسْتَأْذِنُكَ الَّذِينَ لا يُؤْمِنُونَ بِاللَّهِ وَ الْيَوْمِ الْآخِرِ وَ ارْتابَتْ قُلُوبُهُمْ فَهُمْ فِي رَيْبِهِمْ يَتَرَدَّدُونَ (45) وَ لَوْ أَرادُوا الْخُرُوجَ لَأَعَدُّوا لَهُ عُدَّةً وَ لكِنْ كَرِهَ اللَّهُ انْبِعاثَهُمْ فَثَبَّطَهُمْ وَ قِيلَ اقْعُدُوا مَعَ الْقاعِدِينَ (46)

لَوْ خَرَجُوا فِيكُمْ ما زادُوكُمْ إِلاَّ خَبالاً وَ لَأَوْضَعُوا خِلالَكُمْ يَبْغُونَكُمُ الْفِتْنَةَ وَ فِيكُمْ سَمَّاعُونَ لَهُمْ وَ اللَّهُ عَلِيمٌ بِالظَّالِمِينَ (47) لَقَدِ ابْتَغَوُا الْفِتْنَةَ مِنْ قَبْلُ وَ قَلَّبُوا لَكَ الْأُمُورَ حَتَّى جاءَ الْحَقُّ وَ ظَهَرَ أَمْرُ اللَّهِ وَ هُمْ كارِهُونَ (48) وَ مِنْهُمْ مَنْ يَقُولُ ائْذَنْ لِي وَ لا تَفْتِنِّي أَلا فِي الْفِتْنَةِ سَقَطُوا وَ إِنَّ جَهَنَّمَ لَمُحِيطَةٌ بِالْكافِرِينَ (49) إِنْ تُصِبْكَ حَسَنَةٌ تَسُؤْهُمْ وَ إِنْ تُصِبْكَ مُصِيبَةٌ يَقُولُوا قَدْ أَخَذْنا أَمْرَنا مِنْ قَبْلُ وَ يَتَوَلَّوْا وَ هُمْ فَرِحُونَ (50) قُلْ لَنْ يُصِيبَنا إِلاَّ ما كَتَبَ اللَّهُ لَنا هُوَ مَوْلانا وَ عَلَى اللَّهِ فَلْيَتَوَكَّلِ الْمُؤْمِنُونَ (51)

قُلْ هَلْ تَرَبَّصُونَ بِنا إِلاَّ إِحْدَى الْحُسْنَيَيْنِ وَ نَحْنُ نَتَرَبَّصُ بِكُمْ أَنْ يُصِيبَكُمُ اللَّهُ بِعَذابٍ مِنْ عِنْدِهِ أَوْ بِأَيْدِينا فَتَرَبَّصُوا إِنَّا مَعَكُمْ مُتَرَبِّصُونَ (52)

الفرقان في تفسير القرآن بالقرآن، ج‏13، ص: 65

إِنَّ عِدَّةَ الشُّهُورِ عِنْدَ اللَّهِ اثْنا عَشَرَ شَهْراً فِي كِتابِ اللَّهِ يَوْمَ خَلَقَ السَّماواتِ وَ الْأَرْضَ مِنْها أَرْبَعَةٌ حُرُمٌ ذلِكَ الدِّينُ الْقَيِّمُ فَلا تَظْلِمُوا فِيهِنَّ أَنْفُسَكُمْ وَ قاتِلُوا الْمُشْرِكِينَ كَافَّةً كَما يُقاتِلُونَكُمْ كَافَّةً وَ اعْلَمُوا أَنَّ اللَّهَ مَعَ الْمُتَّقِينَ (36).

«إِنَّ عِدَّةَ الشُّهُورِ» لكل سنة «عِنْدَ اللَّهِ» قرارا تكوينيا و آخر تشريعيا «اثْنا عَشَرَ شَهْراً فِي كِتابِ اللَّهِ» في تكوينه و تشريعه، منذ «يَوْمَ خَلَقَ السَّماواتِ وَ الْأَرْضَ» و أدار الأرض و الشمس و القمر، عوامل حركية ثلاثة لمظاهر الزمن أياما و شهورا و سنين‏ «مِنْها أَرْبَعَةٌ حُرُمٌ».

ذلك، و أساس هذه الشهور هي الأهلة دون الشهور الشمسية، فقد «يَسْئَلُونَكَ عَنِ الْأَهِلَّةِ قُلْ هِيَ مَواقِيتُ لِلنَّاسِ وَ الْحَجِّ» (2: 189) كما و الشهر بمختلف صيغة الواردة في القرآن عشرين مرة أخرى لا يعني به إلّا القمري لا سواه، و من نصوصها «شَهْرُ رَمَضانَ» (2: 185).

ذلك، و قد تتأيد عناية القمرية منها بأن حساب الشهور الشمسية حديث، و هنا «يَوْمَ خَلَقَ السَّماواتِ وَ الْأَرْضَ» يحول عدة الشهور إلى بداية الخلق.

و هنا «كِتابِ اللَّهِ» هو أولا كتاب التكوين لمكان‏ «يَوْمَ خَلَقَ ..» ثم التشريع على هامشه في كل شرائع اللَّه، لا فقط الشرعة القرآنية.

و هكذا «هُوَ الَّذِي جَعَلَ الشَّمْسَ ضِياءً وَ الْقَمَرَ نُوراً وَ قَدَّرَهُ مَنازِلَ لِتَعْلَمُوا عَدَدَ السِّنِينَ وَ الْحِسابَ» (10: 5) حيث قرر تقدير منازل القمر وسيلة ظاهرة محسوسة لمعرفة السنين و الحساب.

و هنا المناسبة لهذه المحاسبة الثقيلة أن المؤمنين أمروا بجهاد الروم و حلفاءهم من نصارى العرب في شمال الجزيرة- غزوة تبوك- و كان ذلك في رجب المنسأ و هو جمادى الآخرة و لكن ملابسة ماكرة كانت تمنع عن هذه الغزوة و هي أن رجب في هذا العام لم يكن بسبب النسي‏ء في موعده الحقيقي بحساب الأشهر القمرية، فكأن رجب كان في جمادى الآخرة، أو كان محرما كان في صفر، على اختلاف بين رجب و محرم من حيث‏

الفرقان في تفسير القرآن بالقرآن، ج‏13، ص: 66

كونه من الأشهر الحرم.

فلذلك بزغت الآية بتثبيت الأشهر القمرية كأوقات شرعية ثم التالية حملت على النسي‏ء.

و هنا «يَوْمَ خَلَقَ السَّماواتِ وَ الْأَرْضَ» كيوم واحد، ثم في آيات أخرى‏ «خَلَقَ السَّماواتِ وَ الْأَرْضَ فِي سِتَّةِ أَيَّامٍ» مما يبرهن على أن «يوم» هنا و هناك هو مطلق الزمان المقدر بأقداره حسب مختلف المقدارات فيه، ف‏ «يَوْمَ خَلَقَ السَّماواتِ وَ الْأَرْضَ» يعني مجموعة الأيام الستة اعتبارا بجمع الخلق، ثم الستة اعتبارا بأجزاء الخلق، المفسرة المفصّلة في فصّلت فراجع.

«مِنْها أَرْبَعَةٌ حُرُمٌ» فما هي؟ هي طبعا أربعة محترمة لساحة الحج فهي إذا «رجب- ثم- شوال- ذو القعدة- ذو الحجة» كما يروى‏ «1» فالأول لحرمة خاصة العمرة مهما عمت في سائر الشهور، و الثلاثة المتواصلة لمجموع الحج و العمرة و لا سيما حج التمتع.

أم و المحرم بديل شوال، كما يروي في أخرى‏ «2»، و استثناء شوال‏

\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_

(1). كما

في نور الثقلين 2: 214 في الكافي عن تفسير القمي بسند مسندا عن زرارة قال‏ كنت قاعدا إلى جنب أبي جعفر (عليه السلام) و هو محتب مستقيل الكعبة فقال: أما إن النظر إليها عبادة فجاءه رجل من بجيلة يقال له عاصم بن عمر فقال لأبي جعفر (عليه السلام) إن كعب الأحبار كان يقول: إن الكعبة تسجد لبيت المقدس في كل غداة فقال أبو جعفر (عليه السلام): فما تقول فيما قال كعب؟ فقال: صدق القول ما قال كعب فقال أبو جعفر (عليه السلام) كذبت و كذب كعب الأحبار معك و غضب، قال زرارة ما رأيته استقبل أحدا يقول: كذبت- غيره ثم قال: ما خلق اللَّه بقعة في الأرض أحب إليه منها- ثم أومى بيده نحو الكعبة- و لا أكرم على اللَّه تعالى منها، لها حرم اللَّه الأشهر الحرم في كتابه يوم خلق السماوات و الأرض ثلاثة متوالية للحج: شوال- ذو القعدة- ذو الحجة و شهر مفرد للعمرة: رجب.

(2)

في الدر المنثور 3: 234 عن أبي بكرة أن النبي (صلى اللَّه عليه و آله و سلم) خطب في حجته فقال: إن الزمان قد استدار كهيئته يوم خلق السماوات و الأرض السنة اثنا عشر شهرا منها أربعة حرم ثلاث متواليات: ذو القعدة و ذو الحجة و المحرم و رجب مضر الذي‏

الفرقان في تفسير القرآن بالقرآن، ج‏13، ص: 67

لا يضر بزمن من الحج و العمرة، و لأن‏ «الْحَجُّ أَشْهُرٌ مَعْلُوماتٌ» هي الثلاثة الأولى، ثم و «رجب» غرة العمرة فقد ترجّح الأربعة الأولى على الأخيرة، و ما لفظة «المحرم» بالتي تدمجها فيها، و دعوى الإطباق بين الفريقين على الثانية لا نعرف لها وجها إلا نفس الإطباق المدعى، إلّا أن المتواتر معنويا في الآثار عدّ المحرم من هذه الأربعة، إضافة إلى تظافر النقل عن الرسول (صلى اللَّه عليه و آله و سلم) و الأئمة من عترته (عليهم السلام) على ذلك، فالأشبه إذا عد المحرم منها بديلا عن شوال، و مما يرجحه أن الحجيج بعد ختام شعائرهم يظلون أياما أم أكثر بعد ذي الحجة في الحرم، فقد يناسب كون المحرم من الأربعة الحرم، و أما شوال فالوافدون فيه للمناسك قلة، أم هم لأقل تقدير أقل بكثير من الباقين بعد ذي الحجة.

و قد يفضل المحرم مرة أخرى لمكان‏ «فَإِذَا انْسَلَخَ الْأَشْهُرُ الْحُرُمُ» بعد «فَسِيحُوا فِي الْأَرْضِ أَرْبَعَةَ أَشْهُرٍ» حيث الظاهر منها هو التلاحق فيها.

و على أية حال فقلب الأشهر الحرم هو ذو الحجة الحرام، و

قد خطب رسول اللَّه (صلى اللَّه عليه و آله و سلم) فيه خطبته الغراء قائلا أيها الناس هل تدرون في أي شهر أنتم و في أي يوم أنتم و في أي بلد أنتم؟

قالوا: في يوم حرام و شهر حرام و بلد حرام، قال: فإن دماءكم و أموالكم‏

\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_

بين جمادي و شعبان، و فيه عن ابن عمر عنه (صلى اللَّه عليه و آله و سلم) مثله.

و

في نور الثقلين 2: 215 في تفسير العياشي عن أبي خالد الواسطي عن أبي جعفر (عليه السلام) حدثني أبي علي بن الحسين عن أمير المؤمنين (عليهم السلام) أن رسول اللَّه (صلى اللَّه عليه و آله و سلم) لما ثقل في مرضه قال: أيها الناس أن السنة اثنا عشر شهرا منها أربعة حرم، ثم قال بيده: رجب مفرد و ذو القعدة و ذو الحجة و المحرم ثلاث متواليات ...

أقول: فهاتان روايتان حول‏ «أَرْبَعَةٌ حُرُمٌ» و هنا ثالثة

في الخصال عن أبي عبد اللَّه (عليه السلام) تقول: منها أربعة حرم: عشرون من ذي الحجة و المحرم و صفر و شهر ربيع الأول و عشر من ربيع الآخر

و تأويلها أنها حرم خاص ب‏ «فَسِيحُوا فِي الْأَرْضِ أَرْبَعَةَ أَشْهُرٍ ... فَإِذَا انْسَلَخَ الْأَشْهُرُ الْحُرُمُ».

الفرقان في تفسير القرآن بالقرآن، ج‏13، ص: 68

و أعراضكم عليكم حرام كحرمة يومكم هذا في شهركم هذا في بلدكم هذا إلى يوم تلقونه ثم قال: اسمعوا مني تعيشوا: ألا لا تظالموا، ألا لا تتظالموا، إنه لا يحل مال امرئ إلا بطيب نفس منه، ألا إن كل دم و مال و مأثرة كانت في الجاهلية تحت قدمي هذه إلى يوم القيامة «1».

«ذلِكَ الدِّينُ الْقَيِّمُ» و قد تعني إلى‏ «أَرْبَعَةٌ حُرُمٌ» «عِدَّةَ الشُّهُورِ ..» فالدين القيم الثابت الذي لا حول عنه في شرعة اللَّه هو اعتبار الشهور هكذا إثنا عشر شهرا، ثم و «مِنْها أَرْبَعَةٌ حُرُمٌ» «فَلا تَظْلِمُوا فِيهِنَّ أَنْفُسَكُمْ» و القدر المعلوم من مرجع ضمير الجمع هو «أَرْبَعَةٌ حُرُمٌ» حيث حرم فيها القتال هجوميا أو انتقاميا اعتداء بالمثل، و إنما «قاتِلُوا الْمُشْرِكِينَ كَافَّةً كَما يُقاتِلُونَكُمْ كَافَّةً» فيهن دفاعا مضيقا و في غيرهن موسعا «وَ اعْلَمُوا أَنَّ اللَّهَ مَعَ الْمُتَّقِينَ» إياه في سلبية القتال و إيجابيته بحدوده، و هكذا في كافة السلبيات و الإيجابيات.

\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_

(1).

الدر المنثور 3: 234- أخرج أحمد و الباوردي و ابن مردويه عن أبي حمزة الرقاشي عن عمه و كانت له صحبة قال: كنت آخذا بزمام ناقة رسول اللَّه (صلى اللَّه عليه و آله و سلم) في أوسط أيام التشريق أذود الناس عنه فقال: أيها الناس ... و أن أوّل دم يوضع دم ربيعة بن الحرث بن عبد المطلب كان مسترضعا في بني ليث فقتلته هذيل- ألا و إن كل ربا كان في الجاهلية موضوع، و إن اللَّه قضى أن أوّل ربا يوضع ربا العباس بن عبد المطلب لكم رؤوس أموالكم لا تظلمون و لا تظلمون، ألا إن الزمان قد استدار كهيئة يوم خلق السماوات و الأرض، ألا و إن عدة الشهور عند اللَّه اثنا عشر شهرا في كتاب اللَّه يوم خلق السماوات و الأرض منها أربعة حرم ذلك الدين القيم فلا تظلموا فيهن أنفسكم ألا لا ترجعوا بعدي كفارا يضرب بعضكم رقاب بعض، ألا أن الشيطان قد أيس أن يعبده المصلون في جزيرة العرب و لكنه في التحريش بينكم و اتقوا اللَّه في النساء فإنهن عوان عندكم لا يملكن لأنفسهن شيئا و ان لهن عليكم حقا و لكم عليهن حقا لا يوطئن فراشكم أحدا غيركم و لا يأذنّ في بيوتكم لأحد تكرهونه فإن خفتم نشوزهن فعظوهن و اهجروهن في المضاجع و اضربوهن ضربا غير مبرح و لهن رزقهن و كسوتهن بالمعروف و إنما أخذتموهن بأمانة اللَّه و استحللتم فروجهن بكلمة اللَّه، ألا و من كانت عنده أمانة فليؤدها إلى من أئتمنه عليها و بسط يديه و قال: اللّهم قد بلغت ألا هل بلغت، ثم قال: ليبلغ الشاهد الغائب فانه رب مبلغ أسعد من سامع.

الفرقان في تفسير القرآن بالقرآن، ج‏13، ص: 69

ذلك، و لتحليق «فيهن» على كل‏ «اثْنا عَشَرَ شَهْراً» وجه على هامش‏ «أَرْبَعَةٌ حُرُمٌ» فالظلم فيها مضاعف و في سائر الأشهر موحّد غير مضاعف، إلّا أن يضاعف بملابسات أخرى.

و قد يدل‏ «ذلِكَ الدِّينُ الْقَيِّمُ» على وجوب الحفاظ على عديد «اثْنا عَشَرَ شَهْراً» دون تبديل للسنة إلى غيرها، و كذلك قمريتها، و حرمة «أَرْبَعَةٌ حُرُمٌ» دين قيم في حقل الزمن بمثلث الزوايا، فالمتخلف عنها كلها أم بعضها متخلف عن‏ «ذلِكَ الدِّينُ الْقَيِّمُ» المكتوب في كتابي التكوين و التشريع، و من التخلف في‏ «أَرْبَعَةٌ حُرُمٌ» النسي‏ء بحساب الأشهر غير القمرية على حساب الشمس.

ذلك، و من‏ «ذلِكَ الدِّينُ الْقَيِّمُ» الأئمة الاثنى عشر الذين هم تأويل الشهور الاثنى عشر حسب‏

المروي عن النبي (صلى اللَّه عليه و آله و سلم): «الأئمة بعدي اثنا عشر» «1»

«حجج الله على الخلق بعدي إثنا عشر» «2»

«أوصيائي بعدي إثنا عشر أولهم علي و آخرهم المهدي» «3»

«يملك من ولدي إثنا عشر خليفة» «4»

«اثني عشر كعدد نقباء بني إسرائيل» «5»

فقد «نص بإمامتهم و هم إثنا عشر» «6»

«فنظرت فرأيت إثنا عشر نورا و في كل نور سطر أخضر عليه اسم وصي من أوصيائي» «7».

ذلك، و قد نجد مواصفاته التي لا تحدّ و لا تحصي في ألفين من مؤلفات إخواننا أو تزيد، كما فصلت في ملحقات إحقاق الحق.

\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_

(1). ملحقات إحقاق الحق 13: 1- 74 و 19: 628- 632.

(2) المصدر 4: 94.

(3) المصدر 4: 103، 365 و 13: 69 و 20: 538.

(4) المصدر 13: 74 و 7: 477 و 13: 1- 8، 16- 17، 20- 21، 31- 32، 35، 47، 74.

(5) المصدر 13: 44- 45 و 19: 629- 630.

(6) المصدر 13: 56، 71 و 13: 49- 74.

(7) المصدر 5: 93.

الفرقان في تفسير القرآن بالقرآن، ج‏13، ص: 70

«وَ قاتِلُوا الْمُشْرِكِينَ كَافَّةً» قتلا يكف عنكم بأسهم، و علّ تاءها للمبالغة عناية إلى مبالغة الكف في ذلك القتال‏ «كَما يُقاتِلُونَكُمْ كَافَّةً» قتلا يكف عنهم بأسكم، فلا تعني «كافة» الجميع، و إنما هي القتال الكافة حيث تكف عنكم بأسهم، فهي- إذا- حرب دفاعية.

«وَ اعْلَمُوا أَنَّ اللَّهَ مَعَ الْمُتَّقِينَ» على أية حال و هنا في مسرح القتال، في أصله و في زمنه و في كمه و كيفه، تجنبا عن قتال الذراري و العجزة و الصبيان و من ألقى إليكم السلام‏ «1» و قتال من لا يقاتلكم و لا هو فتنة عليكم.

و هنا «المشركين» كما المشركين‏ «وَ اقْتُلُوهُمْ حَيْثُ وَجَدْتُمُوهُمْ» سواء دون شمول لأهل الكتاب حيث الصيغة الصالحة للشمول «الكافرين» و «المشركين» تعني في مصطلح القران العبّاد الرسميين للأوثان دون كل المنحرفين عن التوحيد ككفرة أهل الكتاب، و قد قوبل بينهما في البينة:

«لَمْ يَكُنِ الَّذِينَ كَفَرُوا مِنْ أَهْلِ الْكِتابِ وَ الْمُشْرِكِينَ مُنْفَكِّينَ».

إِنَّمَا النَّسِي‏ءُ زِيادَةٌ فِي الْكُفْرِ يُضَلُّ بِهِ الَّذِينَ كَفَرُوا يُحِلُّونَهُ عاماً وَ يُحَرِّمُونَهُ عاماً لِيُواطِؤُا عِدَّةَ ما حَرَّمَ اللَّهُ فَيُحِلُّوا ما حَرَّمَ اللَّهُ زُيِّنَ لَهُمْ سُوءُ أَعْمالِهِمْ وَ اللَّهُ لا يَهْدِي الْقَوْمَ الْكافِرِينَ (37).

النسي‏ء هنا هو الشهر المؤخر حيث تعودت الجاهلية لتنسئ من الأشهر الحرم مصلحية تحليل القتال فيها أو سماح الحج، حيث كانت تعرض حاجات لبعض قبائل العرب تتعارض مع تحريم هذه الأشهر، و هنا تتلاعب الأهواء و يقوم من يفتي باستحلال أحد الأشهر الحرم عن طريق تأخيره في عام و تقديمه في آخر، فطالما عديد الأشهر الحرم يبقى أربعة

\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_

(1). خلاف ما قتل خالد في حنين امرأة فأرسل إليه النبي (صلى اللَّه عليه و آله و سلم) ينهاه مشددا، و قتل رجالا قد اسلموا من بني جذيمة فتبرء النبي إلى اللَّه من فعلته ثلاثا، و قتل أسامة يهوديا أظهر له الإسلام فنزلت: «وَ لا تَقُولُوا لِمَنْ أَلْقى‏ إِلَيْكُمُ السَّلامَ لَسْتَ مُؤْمِناً ..» (4: 94).

الفرقان في تفسير القرآن بالقرآن، ج‏13، ص: 71

و لكن أعيانها كانت تتبدل بتبديل الأسماء في ذلك النسي‏ء التأخير «1».

و لقد كان في العام التاسع من الهجرة رجب الحقيقي غير رجب، و ذو الحجة غير ذي الحجة، فرجب واطئ جمادي الآخرة و ذو الحجة واطئ ذو القعدة، و كان نفر الجهاد فعلا في جمادي الآخرة واقعا و في رجب مختلفا، فرشقت سهام هذه النصوص على تلك الجاهلية الحائرة المائرة إبطالا للنسي‏ء عن بكرته حيث كان خلاف سنة التكوين و التشريع‏ «لِيُواطِؤُا عِدَّةَ ما حَرَّمَ اللَّهُ فَيُحِلُّوا ما حَرَّمَ اللَّهُ» «2».

و لقد زاد هذا الكفر ركاما على جاهلية الإشراك فأصبح‏ «زِيادَةٌ فِي الْكُفْرِ» حيث كانوا «يُحِلُّونَهُ عاماً وَ يُحَرِّمُونَهُ عاماً» كأنهم هم المشرعون أمام اللَّه، و القصد من تراوح التحليل و التحريم‏ «لِيُواطِؤُا عِدَّةَ ما حَرَّمَ اللَّهُ» فيه القتال‏ «فَيُحِلُّوا ما حَرَّمَ اللَّهُ» بذلك النسي‏ء.

فقد جمعوا إلى تحويل موضوع التحريم بذلك النسي‏ء أصل التحليل و التحريم به، احتيالا حائلا عن تحليل اللَّه و تحريمه، و لذلك استحقوا ذلك التنديد الشديد المديد.

و ليسوا هم فحسب، هكذا كل المحتالين في الأحكام و الموضوعات‏

\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_

(1).

في مجمع البيان قال مجاهد: كان المشركون يحجون في كل شهر عامين فحجوا في ذي الحجة عامين ثم حجوا في المحرم عامين ثم حجوا في صفر عامين و كذلك في الشهور حتى واقفت الحجة التي قبل حجة الوداع في ذي القعدة ثم حج النبي (صلى اللَّه عليه و آله و سلم) في العام القابل حجة الوداع فوافقت ذا الحجة فذلك حين قال النبي (صلى اللَّه عليه و آله و سلم) في خطبته: ألا إن الزمان قد استدار كهيئته يوم خلق السماوات و الأرض السنة إثنا عشر شهرا منها أربعة حرم .. حيث أراد بذلك أن الأشهر الحرم رجعت إلى مواضعها و عاد الحج إلى ذي الحجة و بطل النسي‏ء

، و

في كتاب الخصال عن عبد اللَّه بن عمر عن النبي (صلى اللَّه عليه و آله و سلم) كلام من خطبة له (صلى اللَّه عليه و آله و سلم) «فَلا تَظْلِمُوا فِيهِنَّ أَنْفُسَكُمْ» فإن النسي‏ء زيادة في الكفر يضل به الذين كفروا ... و كانوا يحرمون المحرم عاما و يستحلون صفر عاما و يحرمون صفر عاما و يستحلون المحرم، أيها الناس إن الشيطان قد يئس أن يعبد في بلادكم،

أقول: و هذا النسي‏ء داخل في طليقه خارج عن مورده في الآية «لِيُواطِؤُا عِدَّةَ ما حَرَّمَ اللَّهُ».

(2)

الدر المنثور 3: 237

الفرقان في تفسير القرآن بالقرآن، ج‏13، ص: 72

الشرعية تسميته لها بالحيل الشرعية، و لا حيلة للشرع في تحليل ما حرم أم تحريم ما حلّل، و إنما الحيلة لهذه الأغباش الأنكاد الذين ينسبون حيلهم المحرمة إلى الشرع نفسه استرواحا في جريمتهم البشعة المتصورة بصورة الفتوى، أو العملية الشرعية مثل الحيل المختلقة في حقل الربا و ما أشبه، هزء سافرا بأحكام اللَّه!.

و النسي‏ء الكافر على نوعين، أحدهما احتساب الأشهر حسب سير الشمس، و ثانيهما تناسي بعض الأشهر في العدّ و تسمية البعض باسم الآخر إنساء قاصدا ليواطئوا عدة ما حرم اللَّه.

و تعودا على ذلك النسي‏ء خيل إلى ضعفاء من المؤمنين أن الحرب محرمة اعتبارا بأن جمادي الآخرة المحمولة إلى رجب هو في الحق رجب فاستحرموا فيه القتال، و لذلك تشدّد النكير عليهم و على مختلقي النسي‏ء هكذا، و هكذا «زُيِّنَ لَهُمْ سُوءُ أَعْمالِهِمْ» حيث زين لهم الشيطان أعمالهم و كانوا مستبصرين كما و زين اللَّه جزاء وفاقا أن لم يصد الشيطان عن ذلك التزيين.

يا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا ما لَكُمْ إِذا قِيلَ لَكُمُ انْفِرُوا فِي سَبِيلِ اللَّهِ اثَّاقَلْتُمْ إِلَى الْأَرْضِ أَ رَضِيتُمْ بِالْحَياةِ الدُّنْيا مِنَ الْآخِرَةِ فَما مَتاعُ الْحَياةِ الدُّنْيا فِي الْآخِرَةِ إِلَّا قَلِيلٌ (38).

رغم أن قضية الإيمان باللَّه الترقب لأمر اللَّه تحقيقا له حقيقا بالإيمان، نرى جماعة من الذين آمنوا يتثاقلون عن أمر النفر في سبيل اللَّه إلى أرض الحياة الدنيا المتاع‏ «فَما مَتاعُ الْحَياةِ الدُّنْيا فِي الْآخِرَةِ إِلَّا قَلِيلٌ».

ذلك، و مع العلم أن متاع الحياة الدنيا في الآخرة لا كثير و لا قليل إذ لا ينفع أصحابه ما لم يقدموه لها، و ما قدموه فهو كثير غير قليل، فكيف يعتبر هنا في الآخرة قليلا.

\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_

- أخرج عبد الرزاق و ابن المنذر و ابن أبي حاتم و أبو الشيخ عن مجاهد في الآية قال: فرض اللَّه الحج في ذي الحجة و كان المشركون يسمون الأشهر ذوا

الفرقان في تفسير القرآن بالقرآن، ج‏13، ص: 73

علّ «في» هنا لظرف القياس دون واقع لمتاع الحياة الدنيا في الآخرة، فهو قياسا إلى متاع الآخرة قليل ضئيل و كما «فَرِحُوا بِالْحَياةِ الدُّنْيا وَ مَا الْحَياةُ الدُّنْيا فِي الْآخِرَةِ إِلَّا مَتاعٌ» (13: 26).

أم و «قليل» في واقعة، فإن قليلا من المؤمنين يقدمون متاع الحياة الدنيا بكاملها أو أكثرها إلى الآخرة كمتاع فالمتاع الأول متعة بعيدة «1» ككل‏

\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_

الحجة و المحرم إلى ذوا الحجة ثم يحجون فيه ثم يسكتون عن المحرم فلا يذكرونه ثم يعودون فيسمون صفر صفر ثم يسمون رجب جمادي الآخرة ثم يسمون شعبان رمضان و رمضان شوال و يسمون ذا القعدة شوال ثم يسمون الحجة ذا القعدة ثم يسمون المحرم ذا الحجة ثم يحجون فيه و اسمه عندهم ذو الحجة ثم عادوا مثل هذه القصة فكانوا يحجون في كل شهر عاما .. ثم حج النبي (صلى اللَّه عليه و آله و سلم) حجته التي حج فيها فوافق ذو الحجة فذلك حين يقول النبي (صلى اللَّه عليه و آله و سلم) في خطبته: إن الزمان قد استدار ...

و فيه أخرج ابن أبي حاتم عن السدي في الآية قال: كان رجل من بني كنانة يقال له جنادة بن عوف يكنى أبا أمامة ينسئ الشهور و كانت العرب يشتد عليهم أن يمكثوا ثلاثة أشهر لا يغير بعضهم على بعض فإذا أراد أن يغير على أحد قام يوما بمنى فخطب فقال: إني أحللت المحرم و حرمت صفر مكانه فيقاتل الناس في المحرم فإذا كان صفر عمدوا و وضعوا الأسنة ثم يقوم في قابل فيقول: إني قد أحللت صفر و حرمت المحرم فيواطئوا أربعة أشهر فيحلوا المحرم.

(1). و

يؤيده ما في الدر المنثور 3: 236- أخرج الحاكم و صححه عن المستورد قال: كنا عند النبي (صلى اللَّه عليه و آله و سلم) فتذاكروا الدنيا و الآخرة فقال بعضهم: إنما الدنيا بلاغ للآخرة فيها العمل و فيها الصلاة و فيها الزكاة و قالت طائفة منهم: الآخرة فيها الجنة و قالوا ما شاء اللَّه فقال رسول اللَّه (صلى اللَّه عليه و آله و سلم): ما الدنيا في الآخرة إلا كما يمشي أحدكم إلى اليم فادخل أصبعه فيه فما خرج منه فهي الدنيا،

و

فيه أخرج الحاكم و صححه عن ابن مسعود قال قال رسول اللَّه (صلى اللَّه عليه و آله و سلم): إن اللَّه جعل الدنيا قليلا و ما بقي منها إلا القليل كالثقب في الغدير شرب صفوه و بقي كدره.

و

فيه في وصف الدنيا كأصل عن ابن مسعود أن النبي (صلى اللَّه عليه و آله و سلم) نام على حصير فقام و قد أثر في جنبه فقلنا يا رسول اللَّه (صلى اللَّه عليه و آله و سلم): لو اتخذنا لك فقال: ما لي و للدنيا ما أنا في الدنيا إلا كراكب استظل تحت ظل شجرة ثم راح و تركها، و فيه عن أبي موسى الأشعري أن رسول اللَّه (صلى اللَّه عليه و آله و سلم) قال:

من أحب دنياه أضر بآخرته و من أحب أخرته أضر بدنياه فآثروا ما يبقى على ما يفنى،

الفرقان في تفسير القرآن بالقرآن، ج‏13، ص: 74

عن الآخرة، و الثاني متاع التجارة أن تشترى به الآخرة، و الفارق أنه للكافرين‏ «مَتاعٌ قَلِيلٌ وَ لَهُمْ عَذابٌ أَلِيمٌ» (16: 117): متعة قليلة، و للمؤمنين متاع في الآخرة حسب مساعيهم إن كثيرا فكثير و إن قليلا فقليل، و مما يقلّل متاع الحياة الدنيا للمؤمنين أن يتثاقلوا عن الجهاد في سبيل اللّه بأرض المعركة، إلى أرض الحياة تطويلا لها بزعمهم، أم تطاولا فيها بمال و منال! إم أنه قليل بجنب متاع الآخرة و إن كان للمؤمنين الصالحين الذين يشترون به الآخرة، متاع قليل يشترى به متاع كثير و قد

يروى عن النبي (صلى اللّه عليه و آله و سلم) قوله: نعمت الدار الدنيا لمن تزود منها لآخرته حتى يرضي ربه، و بئست الدار لمن صدّته عن آخرته و قصرت به عن رضى ربه و إذا قال العبد قبح اللّه الدنيا قالت الدنيا قبح اللّه أعصانا لربه‏ «1».

ذلك، فما الذي أثقلهم حينذاك عن النفر لقتال الروم؟ إنه شدة الحر، و طيبة ثمار المدينة وقتذاك، و بعد المسافة و شقة الطريق و استعظام الروم، فاثّاقلوا- إذا- إلى الأرض كأنهم رضوا بالحياة الدنيا من الآخرة، و إنها ثقلة أرض الحياة الدنيا و مطامعها و مطامحها، ثقلة الخوف على حياة و زخرفاتها و لذائذها و مصالحها و متعها، ثقلة الدعة و الأريحية المستقرة المستغرّة، و العبارة تحمل لكل ثقلة كهذه و ما أشبه بجرس اللفظ و قرص المعنى «اثاقلتم»: افتعال الثقل إلى السفل الثفل، رغم الإيمان بالعلو، غلبا لجاذبية الأرض على السماء، و سلبا لرفرفة الأرواح و انطلاقة الأشواق.

\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_

و

عن أبي مالك سمعت رسول اللَّه (صلى اللَّه عليه و آله و سلم) يقول: حلوة الدنيا مرة الآخرة و مرة الدنيا حلوة الآخرة.

(1). الدر المنثور 3: 238 عن سعد بن طارق عن أبيه قال قال رسول اللَّه (صلى اللَّه عليه و آله و سلم): ... و

فيه عن سهل بن سعد أن النبي (صلى اللَّه عليه و آله و سلم) و غط رجلا فقال: ازهد في الدنيا يحبك اللَّه و ازهد فيما في أيدي الناس يحبك الناس،

و

عن عبد اللَّه بن عمر قال قال رسول اللَّه (صلى اللَّه عليه و آله و سلم): الدنيا سجن المؤمن و سنته فإذا خرج من الدنيا فارق السجن و السنة.

الفرقان في تفسير القرآن بالقرآن، ج‏13، ص: 75

فالنفرة للجهاد هي انطلاقه من ثقل الأرض و قيدها، تطلعا إلى علو السماء عن كيدها و ميدها، فما من مؤمن اثاقل إلى الأرض عن نفر الجهاد إلّا و في إيمانه دخل و خلل، حيث الحياة الإيمانية كلها جهاد، و لقد «قالُوا لا تَنْفِرُوا فِي الْحَرِّ قُلْ نارُ جَهَنَّمَ أَشَدُّ حَرًّا» (9: 81) فما دائكم و ما دواءكم؟! إِلَّا تَنْفِرُوا يُعَذِّبْكُمْ عَذاباً أَلِيماً وَ يَسْتَبْدِلْ قَوْماً غَيْرَكُمْ وَ لا تَضُرُّوهُ شَيْئاً وَ اللَّهُ عَلى‏ كُلِّ شَيْ‏ءٍ قَدِيرٌ (39).

و هنا تهديد مديد بعد تهديد، متواصلا في آيات عدة ليعدوا للجهاد عدّة و عدّة، ف «إلا تنفروا» للجهاد «يُعَذِّبْكُمْ عَذاباً أَلِيماً» هنا و في الأخرى، فهنا تقلبون فتغلبون أما أشبه، «1» و هنالك تعذبون، و مما هنا «يستبدل» بكم‏ «قَوْماً غَيْرَكُمْ» ممن لا يتهاون في الجهاد. ثم‏ «وَ لا تَضُرُّوهُ شَيْئاً» فإن اللَّه ليس ليغلب في المعارك فإنما أنتم تغلبون‏ «وَ اللَّهُ عَلى‏ كُلِّ شَيْ‏ءٍ قَدِيرٌ».

ف‏

«انفروا رحمكم الله إلى قتال عدوكم و لا تثاقلوا إلى الأرض فتقروا بالخسف و تبوءوا بالذل و يكون نصيبكم الأخس، إن أخا الحرب الأرق- لا ينام- و من نام لم ينم عنه» «2».

و هنا علّ‏ «قَوْماً غَيْرَكُمْ» هم المعنيون ب‏ «يا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا مَنْ يَرْتَدَّ مِنْكُمْ عَنْ دِينِهِ فَسَوْفَ يَأْتِي اللَّهُ بِقَوْمٍ يُحِبُّهُمْ وَ يُحِبُّونَهُ أَذِلَّةٍ عَلَى الْمُؤْمِنِينَ أَعِزَّةٍ عَلَى الْكافِرِينَ يُجاهِدُونَ فِي سَبِيلِ اللَّهِ وَ لا يَخافُونَ لَوْمَةَ لائِمٍ ذلِكَ فَضْلُ اللَّهِ يُؤْتِيهِ مَنْ يَشاءُ وَ اللَّهُ واسِعٌ عَلِيمٌ» (5: 54).

\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_

(1).

الدر المنثور 3: 239 عن ابن عباس في الآية قال: إن رسول الله (صلى الله عليه و آله و سلم) استنفر حيا من أحياء العرب فتثاقلوا عنه فأنزل الله هذه الآية فأمسك عنهم المطر فكان ذلك عذابهم.

(2) نور الثقلين 2: 217 عن نهج البلاغة عن الإمام علي أمير المؤمنين (عليه السلام).

الفرقان في تفسير القرآن بالقرآن، ج‏13، ص: 76

إِلَّا تَنْصُرُوهُ فَقَدْ نَصَرَهُ اللَّهُ إِذْ أَخْرَجَهُ الَّذِينَ كَفَرُوا ثانِيَ اثْنَيْنِ إِذْ هُما فِي الْغارِ إِذْ يَقُولُ لِصاحِبِهِ لا تَحْزَنْ إِنَّ اللَّهَ مَعَنا فَأَنْزَلَ اللَّهُ سَكِينَتَهُ عَلَيْهِ وَ أَيَّدَهُ بِجُنُودٍ لَمْ تَرَوْها وَ جَعَلَ كَلِمَةَ الَّذِينَ كَفَرُوا السُّفْلى‏ وَ كَلِمَةُ اللَّهِ هِيَ الْعُلْيا وَ اللَّهُ عَزِيزٌ حَكِيمٌ (40).

لقد تعلق بآية الغار هذه متعلقون كثير بين موجبين لفضيلة غالية ل «صاحبه في الغار» لحدّ يسملون عليه في زيارتهم إياه ب «السلام عليك يا صاحب الغار» تثبيتا مبيّتا لصحبته الوحيدة بين صحابة الرسول (صلى اللَّه عليه و آله و سلم) بذلك النص الجلي و القص العلي، و كأنه هو صاحبه دون من سواه، و آخرين سالبين عنه أية فضيلة مائلين إلى أن آية الغار عار على صاحب الغار دون افتخار، موغلين إياه في الكفار.

و لكلّ- على ضوء المذهبية آراء، علينا أن نرفضها، ثم نقرض على ضوء الآية ما قصه اللَّه، سواء أ كان لصاحبه في الغار أم عليه.

ذلك و من قالات الموجبين ما ينقله صاحب الأمر عجل اللَّه تعالى فرجه و يرد عليه رأسا على عقب‏ «1»، و من مقالات السالبين الثالبين‏

\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_

(1).

نور الثقلين 2: 220 في كتاب كمال الدين و تمام النعمة باسناده إلى سعد بن عبد اللَّه القمي عن الحجة القائم (عليه السلام) حديث طويل يقول فيه (عليه السلام): يا سعد! و حين ادّعى خصمك أن رسول اللَّه (صلى اللَّه عليه و آله و سلم) ما أخرج مع نفسه مختار هذه الأمة إلى الغار إلا علمنا منه أن الخلافة له من بعده و انه هو المقلّد أمور التأويل و الملقى إليه أزمة الأمة و عليه المعول في لم الشعث و سد الخلل و إقامة الحدود و تسرية الجيوش لفتح بلاد الكفر، فلما اشفق على نبوته اشفق على خلافته و إذ لم يكن من حكم الاستتار و التواري أن يروم الهارب من الشر مساعدة من غيره إلى مكان يستخفي فيه- و إنما أبات عليا (عليه السلام) على فراشه لما لم يكترث له و لم يحفل به لاستثقاله إياه و علمه انه أن قتل لم يتعذر عليه نصب غيره مكانه للخطوب التي كان يصلح لها!- فهلا نقضت دعواه بقولك: أليس قال رسول اللَّه (صلى اللَّه عليه و آله و سلم): الخلافة بعدي ثلاثون سنة، فجعل هذه موقوفة على أعمار الأربعة الذين هم الخلفاء الراشدون في مذهبكم، و كان لا يجد بدا من قوله لك: بلى، قلت له حينئذ: أليس كما علم رسول اللَّه (صلى اللَّه عليه و آله و سلم) أن الخلافة من بعده لأبي بكر، أنها من بعد أبي بكر لعمر و من بعد عمر لعثمان و من بعد عثمان لعلي (عليه السلام)، فكان أيضا لا يجد بدا

الفرقان في تفسير القرآن بالقرآن، ج‏13، ص: 77

\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_

من قوله لك: نعم- ثم كنت تقول له: فكان الواجب على رسول اللَّه (صلى اللَّه عليه و آله و سلم) أن يخرجهم جميعا على الترتيب إلى الغار و يشفق عليهم كما اشفق على أبي بكر و لا يستخف بقدر هؤلاء الثلاثة بتركه إياهم و تخصيصه أبا بكر و إخراجه مع نفسه دونهم،

و

في الدر المنثور 3: 240- أخرج ابن عساكر عن علي بن أبي طالب (عليه السلام) قال: خرج رسول اللَّه (صلى اللَّه عليه و آله و سلم) و خرج أبو بكر معه لم يأمن على نفسه غيره حتى دخلا الغار،

و

فيه عن ابن عمر قال قال رسول اللَّه (صلى اللَّه عليه و آله و سلم) لأبي بكر: أنت صاحبي في الغار و أنت معي على الحوض‏ و فيه عن ابن عباس عن أبي هريرة مثله،

و

فيه عن أنس أن رسول اللَّه (صلى اللَّه عليه و آله و سلم) قال لحسان: قلت في أبي بكر شيئا؟ قال: نعم، قال: قل و أنا أسمع، فقال:

و ثاني اثنين في الغار المنيف و قد\* طاف العدو به إذ صاعد الجبلا و كان حب رسول اللَّه قد علموا\* من البرية لم يعدل به رجلا فضحك رسول اللَّه (صلى اللَّه عليه و آله و سلم) حتى بدت نواجذه ثم قال: صدقت يا حسان،

و

فيه عن ابن عساكر عن علي بن أبي طالب (عليه السلام) قال: إن اللَّه ذم الناس كلهم و مدح أبا بكر فقال: إلا تنصروه ...

و

فيه أخرج ابن مردويه عن أنس بن مالك قال: لما كانت ليلة الغار قال أبو بكر الصديق يا رسول اللَّه (صلى اللَّه عليه و آله و سلم) دعني فلأدخل قبلك فإن كانت حية أو شي‏ء كانت في قبلك؟ قال: أدخل، فدخل أبو بكر فجعل يلمس بيديه فكلما رأى حجرا قال بثوبه فشقه ثم ألقمه الحجر حتى فعل ذلك بثوبه أجمع و بقي حجر فوضع عليه عقبه و قال: أدخل فلما أصبح قال له النبي (صلى اللَّه عليه و آله و سلم) فأين ثوبك، فأخبره بالذي صنع فرفع النبي (صلى اللَّه عليه و آله و سلم) يديه و قال: اللّهم اجعل أبا بكر معي في درجتي يوم القيامة، فأوحى اللَّه إليه أن اللَّه قد استجاب لك.

و

فيه أخرج ابن مردويه عن ابن عباس قال قال رسول اللَّه (صلى اللَّه عليه و آله و سلم): أبو بكر أخي و صاحبي في الغار فاعرفوا ذلك له فلو كنت متخذا خليلا لاتخذت أبا بكر خليلا، سدوا كل خوخة في هذا المسجد غير خوخة أبى بكر.

و

في الدر المنثور 3: 241- أخرج البيهقي في الدلائل و ابن عساكر عن ضبة بن محصن العبري قال‏ قلت لعمر بن الخطاب أنت خير من أبي بكر؟ فبكى و قال: و اللَّه لليلة أبي بكر و يوم خير من عمر، هل لك أن أحدثك بليلته و يومه؟ قال قلت: نعم يا أمير المؤمنين، قال: أما ليلته فلما خرج رسول اللَّه (صلى اللَّه عليه و آله و سلم) هاربا من أهل مكة خرج ليلا فتبعه أبو بكر فجعل يمشي مرة أمامه و مرة خلفه و مرة عن يمينه و مرة عن شماله فقال له رسول اللَّه (صلى اللَّه عليه و آله و سلم) ما هذا يا أبا بكر؟ ما أعرف‏

الفرقان في تفسير القرآن بالقرآن، ج‏13، ص: 78

المتألبين حضرة صاحب الغار،

أنه حزن في الغار و «أخذته الرعدة و هو لا يسكن، فلما رأى رسول الله (صلى الله عليه و آله و سلم) حاله قال له:

تريد أن أريك أصحابي من الأنصار في مجالسهم يتحدثون فأريك جعفر و أصحابه في البحر يغوصون؟ قال: نعم، فمسح رسول الله (صلى الله عليه و آله و سلم) بيده على وجهه فنظر إلى الأنصار يتحدثون و نظر إلى جعفر و أصحابه في البحر يغوصون فأضمر في تلك الساعة أنه ساحر» «1»

و أنه «ما ذكره فيها بخير» حيث تقرء الآية «فَأَنْزَلَ اللَّهُ سَكِينَتَهُ عَلى‏ رَسُولِهِ» «2» خلاف القراءة المتواترة المثبتة في القرآن.

\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_

هذا من فعلك! قال يا رسول اللَّه (صلى اللَّه عليه و آله و سلم) اذكر الرصد فأكون أمامك و اذكر الطلب فأكون خلفك و مرة عن يمينك و مرة عن يسارك لا آمن عليك، قال: فمشى رسول اللَّه (صلى اللَّه عليه و آله و سلم) ليلته على أطراف أصابعه حتى حفيت رجلاه فلما رآه أبو بكر قد حفيت حمله على كاهله و جعل يشد به حتى أتى خم الغار فأنزله ثم قال:

و الذي بعثك بالحق لا تدخله حتى أدخله فإن كان فيه شي‏ء نزل بي قبلك فدخل فلم ير شيئا فحمله فأدخله و كان في الغار خرق فيه حيات و أفاعي فخشي أبو بكر أن يخرج منهن شي‏ء يؤذي رسول اللَّه (صلى اللَّه عليه و آله و سلم) فألقمه قدمه فجعلن يضربنه و تلسعه الأفاعي و الحيات و جعلت دموعه تنحدر و رسول اللَّه (صلى اللَّه عليه و آله و سلم) يقول له يا أبا بكر لا تحزن إن اللَّه معنا فأنزل اللَّه سكينته لأبي بكر فهذه ليلته و أما يومه فلما توفي رسول اللَّه (صلى اللَّه عليه و آله و سلم) ...

(1).

المصدر في روضة الكافي مسندا عن أبي عبد اللَّه (عليه السلام) قال: سمعت أبا جعفر (عليه السلام) يقول: إن رسول اللَّه (صلى اللَّه عليه و آله و سلم) أقبل يقول لأبي بكر في الغار، اسكن فإن اللَّه معنا و قد أخذته ...

(2)

المصدر في تفسير العياشي عن عبد اللَّه بن محمد الحجال قال: كنت عند أبي الحسن الثاني (عليه السلام) و معي الحسن بن جهم فقال له الحسن: انهم يحتجون علينا بقول اللَّه تبارك و تعالى: «ثانِيَ اثْنَيْنِ إِذْ هُما فِي الْغارِ» و ما لهم في ذلك فو اللَّه لقد قال اللَّه:

فأنزل اللَّه سكينته على رسوله و ما ذكره فيها بخير، قال: قلت له أنا: جعلت فداك و هكذا تقرؤنها؟ قال: هكذا قد قرأتها، و فيه عن الرضا (عليه السلام) في الآية هكذا نقرءها و هكذا تنزيلها،

أقول: هكذا قد قرأتها يلمح بأنه قراءة التفسير لا التنزيل، و أما «هكذا نقرءها» فقد تكون مبدلة عن الأولى، أم كذلك يعني نقرءها تفسيرا و هكذا تنزيلها تفسيرا لا أصلا لفظيا، و إلا فتطرح لمخالفتها لنص القرآن.

الفرقان في تفسير القرآن بالقرآن، ج‏13، ص: 79

و هنا مقالة هي عوان بينهما تجعل كلا من هذين الفرقدين عليا (عليه السلام) و أبا بكر في مكانته اللائقة به‏ «1» تفضيلا فضيلا لفرقد

\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_

و

في البحار 19: 55 عن مجاهد قال: فخرت عائشة بأبيها و مكانه مع رسول اللَّه (صلى اللَّه عليه و آله و سلم) في الغار فقال عبد اللَّه بن شداد بن الهاد و أين أنت من علي بن أبي طالب حيث نام في مكانه و هو يرى انه يقتل فسكتت و لم تحر جوابا، و فيه (80) قال زرارة قال أبو جعفر (عليهما السلام) «فَأَنْزَلَ اللَّهُ سَكِينَتَهُ عَلى‏ رَسُولِهِ» ألا ترى أن السكينة إنما نزلت على رسوله‏ «وَ جَعَلَ كَلِمَةَ الَّذِينَ كَفَرُوا السُّفْلى‏» فقال: هو الكلام الذي يتكلم به عتيق، رواه الحلبي عنه.

(1).

البحار 19: 80 عن تفسير الإمام الحسن العسكري (عليه السلام) إن اللَّه تعالى أوحى إلى النبي يا محمد (صلى اللَّه عليه و آله و سلم) إن العلى الأعلى يقرأك السلام و يقول لك: إن أبا جهل و الملأ من قريش قد دبروا يريدون قتلك و آمرك أن تبيت عليا في موضعك و قال لك: إن منزلته منزلة إسماعيل الذبيح من إبراهيم الخليل يجعل نفسه لنفسك فداء و روحه لروحك وقاء- و آمرك أن تتصحب أبا بكر فإنه ان آنسك و ساعدك و وازرك و ثبت على ما يعاهدك و يعاقدك كان في الجنة من رفقاءك و في غرفاتها من خلصائك، فقال رسول اللَّه (صلى اللَّه عليه و آله و سلم) لعلي (عليه السلام) أرضيت أن أطلب فلا أوجد و توجد فلعله أن يبادر إليك الجهال فيقتلوك؟ قال: بلى يا رسول اللَّه (صلى اللَّه عليه و آله و سلم) رضيت أن يكون روحي و نفسي فداء لأخ لك أو قريب .. و هل أحب الحياة إلا لخدمتك و التصرف بين أمرك و نهيك و لمحبة أوليائك و نصرة أصفياءك و مجاهدة أعدائك، لو لا ذلك لما أحببت أن أعيش في هذه الدنيا ساعة واحدة فأقبل رسول اللَّه (صلى اللَّه عليه و آله و سلم) على علي (عليه السلام) فقال له: يا أبا الحسن قد قرأ علي كلامك هذا الموكلون باللوح المحفوظ و قرءوا علي ما أعد اللَّه لك من ثوابه في دار القرار ما لم يسمع بمثله السامعون و لا رأى مثله الراءون و لا خطر مثله ببال المتفكرين- ثم قال رسول اللَّه (صلى اللَّه عليه و آله و سلم) لأبي بكر: أ رضيت أن تكون معي يا أبا بكر تطلب كما أطلب و تعرف بأنك تحملني على ما أدعيه فتحمل عني أنواع العذاب؟ قال أبو بكر: يا رسول اللَّه أما أنا لو عشت عمر الدنيا أعذب في جميعها أشد عذاب لا ينزل علي موت مريح و لا منهج متيح و كان ذلك في محبتك لكان ذلك أحب إلي من أن أتنعم فيها و أنا مالك لجميع ممالك ملوكها في مخالفتك و هل أنا و مالي و ولدي إلا فداءك؟ فقال رسول اللَّه (صلى اللَّه عليه و آله و سلم): لا جرم أن اطلع اللَّه على قلبك و وجد ما فيه موافقا لما جرى على لسانك جعلك بمنزلة السمع و البصر و الرأس من الجسد و منزلة الروح‏

الفرقان في تفسير القرآن بالقرآن، ج‏13، ص: 80

الفراش على صاحب الغار و لا يظلمون فتيلا، فإلى تحقيق الحق المعني من آية الغار بكل تجرد و حرية، و كما يستفاد من نفس الآية دون وصيل و دخيل من رؤية مذهبية أم رواية لا تتحملها الآية:

«إِلَّا تَنْصُرُوهُ» أنتم المنافقون و سائر ضعفاء الإيمان، في خصوص الاستنفار لحرب الروم، أم و في عامة المجالات على مدار الزمن الرسالي الإسلامي، «فَقَدْ نَصَرَهُ اللَّهُ ..» و من هنا المحصور الأصيل في مسرح النصرة الربانية هو الرسول (صلى اللَّه عليه و آله و سلم) مهما لزق به لازق و صحبه صاحب‏ «فَقَدْ نَصَرَهُ اللَّهُ» ماضيا هو مستمر على طول الرسالة، نصرة حقة حقيقية منقطعة النظير، اللّهم إلّا ما كان للرسولين موسى و عيسى (عليهما السلام)، و لكن موسى كان وليدا نجّاه اللَّه عن أليمّ بيد عدوه، و المسيح (عليه السلام) رفع إلى السماء، و أما محمد (صلى اللَّه عليه و آله و سلم) فقد هاجر إلى تأسيس دولة الإسلام عالية مرفرفة الأعلام حتى فتح مكة المكرمة.

«نَصَرَهُ اللَّهُ إِذْ أَخْرَجَهُ الَّذِينَ كَفَرُوا» حيث عزموا على قتله فخرج أمامهم و لم يبصروه بما نصره اللَّه، فهو المنصور المخرج بهذه الخارقة الربانية دون سواه، و هو «ثانِيَ اثْنَيْنِ إِذْ هُما فِي الْغارِ» و لما ذا «ثانِيَ اثْنَيْنِ» دون «أول اثنين» و هو أوّل في الفضيلة، أول في الهجرة، و أول في كل منقبة؟!.

«ثانِيَ اثْنَيْنِ» حال من ذلك المنصور المهجّر المهجور (صلى اللَّه‏

\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_

من البدن كعلي الذين هو مني كذلك و علي فوق ذلك لزيادة فضائله و شرف خصائله، يا أبا بكر إن من عاهد ثم لم ينكث و لم يغير و لم يبدل و لم يحسد من قد أبانه اللَّه بالتفصيل فهو معنا في الرفيق الأعلى، و إذا أنت مضيت على طريقة يحبها منك ربك و لم تتبعها بما يسخط و وافيته بها إذا بعثك بين يديه كنت لولاية اللَّه مستحقا و لمرافقتنا في تلك الجنان مستوجبا ... ثم قال رسول اللَّه (صلى اللَّه عليه و آله و سلم) لعلي (عليه السلام) يا علي أنت مني بمنزلة السمع و البصر و الرأس من الجسد و الروح من البدن، حببت إلي كالماء البارد إلى ذي الغلة الصادي ثم قال له: يا با حسن تغش ببردتي ...

الفرقان في تفسير القرآن بالقرآن، ج‏13، ص: 81

عليه و آله و سلم) و صاحبه هنا و هو الأول علّه لأن أبا بكر دخل الغار قبله إذ كان في موقف حراسته، بمراس دائب هو بطبيعة حاله يقدمه في موقف الغار، ليفتش داخل الغار و ليدافع عنه هجمة، و ينظر له إلى أية بادرة ظاهرة على باب الغار، أم لأمر آخر، و مهما يكن من أمر ف‏ «ثانِيَ اثْنَيْنِ» هنا هو الرسول (صلى اللَّه عليه و آله و سلم) حيث هو المنصور المخرج دون صاحبه، إذا فالاحتجاج ب «ثاني» هنا أن أبا بكر هو ثاني الرسول اعوجاج في الاحتجاج هو قضية التعمية المذهبية المتعصبة لصاحبه في الغار «1».

ثم و لا يعنى‏ «ثانِيَ اثْنَيْنِ» أحدهما، فإن عبارته عبارته ك: أحد اثنين و ما أشبه، فإنما رتب دخولهما في الغار زمنا فالأول هو الحارس الداخل أولا و الثاني هو المحروس الداخل ثانيا.

و هنا فرقدان اثنان يصاحبان الرسول (صلى اللَّه عليه و آله و سلم) فرقد الليل ينام على فراشه استعدادا للقتل بديله حيث الخطر هاجم، و فرقد النهار بليالي و أنها حيث الخطر ناجم، و بوادر الأمن و كوادره قائمة بخوارق العادة بل لا حزن و لا خوف ف‏ «إِنَّ اللَّهَ مَعَنا» وعدا منه مفعولا للحفاظ عليه (صلى اللَّه عليه و آله و سلم) و على صاحبه في الغار، فلما ذا- إذا- يحزن هو أو يحزن صاحبه، اللّهم إلا ريبة في تحقيق وعد اللَّه!.

«إِذْ هُما فِي الْغارِ» و أما كون ثاني اثنين في الغار فبما أخرجه الذين كفروا، فما الذي أدخل- إذا- صاحبه في الغار؟ النص ساكت، و الأثر المنقول عن أصحاب له ناطق بأنه اتجه إلى الغار بعد الرسول (صلى اللَّه عليه و آله و سلم) حيث سأل عنه عليا (عليه السلام) أم سواه فأخبره أنه توجه ففوجأ النبي (صلى اللَّه عليه و آله و سلم) بدهشة اتجاهه إلى الغار «2»، فأصبح علّه حارسا حيث اعتبر أولا في الغار، أم قدّمه إلى الغار

\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_

(1، 2).

بحار الأنوار 19: 93: إن الطبري في تاريخه 2: 100 و أحمد بن حنبل رويا في كتابيهما أن هذا الرجل المشار إليه ما كان عارفا بتوجه النبي (صلى اللَّه عليه و آله و سلم) و أنه جاء إلى مولانا علي (عليه السلام) فسأله عنه فأخبره انه توجه فتبعه بعد توجهه حتى‏

الفرقان في تفسير القرآن بالقرآن، ج‏13، ص: 82

احتياطا على نفسه لكيلا يبقى خارج الغار فيستخبر فيخبر بخبره (صلى اللّه عليه و آله و سلم) خوفة من المشركين و كما يروى‏ «1».

\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_

ظفر به و تأذى رسول اللَّه (صلى اللَّه عليه و آله و سلم) بالخوف منه لما تبعه و عثر بحجر فلق قدمه‏

، قال الطبري في تاريخه: فخرج أبو بكر مسرعا و لحق نبي اللَّه (صلى اللَّه عليه و آله و سلم) في الطريق فسمع جرس أبي بكر في ظلمة الليل فحسبه من المشركين فأسرع رسول اللَّه (صلى اللَّه عليه و آله و سلم) يمشي فقطع قبال نعله فغلق إبهامه حجر و كثر دمها فأسرع المشي فخاف أبو بكر أن يشق على رسول اللَّه (صلى اللَّه عليه و آله و سلم) حين أتاه فانطلقا و رجل رسول اللَّه (صلى اللَّه عليه و آله و سلم) تسيل دما حتى انتهى إلى الغار مع الصبح فدخلاه و أصبح الذين كانوا يرصدون رسول اللَّه (صلى اللَّه عليه و آله و سلم) فدخلوا الدار ..

و

في الدر المنثور 3: 240- أخرج ابن مردويه و أبو نعيم في الدلائل عن ابن عباس قال: لما خرج رسول اللَّه (صلى اللَّه عليه و آله و سلم) من الليل لحق بغار ثور، قال: و تبعه أبو بكر فلما سمع رسول اللَّه (صلى اللَّه عليه و آله و سلم) حسه خلقه خاف أن يكون الطلب فلما رأى ذلك أبو بكر تنحنح فلما سمع ذلك رسول اللَّه (صلى اللَّه عليه و آله و سلم) عرفه فقام له حتى تبعه فأتيا الغار فأصبحت قريش في طلبه.

و

في تفسير البرهان 3: 127- ابن طاوس في طرائفه قال: و من طريق العامة ما ذكره أبو هاشم بن الصباغ في كتاب النور و البرهان يرفعه إلى محمد بن إسحاق قال قال حنان: قدمت مكة معقرا و أناس من قريش يقدمون أصحاب رسول اللَّه (صلى اللَّه عليه و آله و سلم) فقال ما هذا لفظه: فأمر رسول اللَّه (صلى اللَّه عليه و آله و سلم) عليا فنام على فراشه و خشي من أبي بكر أن يدلهم عليه فأخذه معه إلى الغار،

(1). في تفسير الفخر الرازي 16: 64: انه تعالى سماه‏ «ثانِيَ اثْنَيْنِ» فجعله ثاني محمد (صلى اللَّه عليه و آله و سلم) حال كونهما في الغار و العلماء أثبتوا أنه كان ثاني محمد في أكثر المناصب الدينية- ثم أطال بقوله:- فإنه أرسل إلى الخلق و عرض الإسلام على أبي بكر آمن أبو بكر .. فهو ثاني اثنين في الدعوة إلى اللَّه، و أيضا كلما وقف رسول اللَّه (صلى اللَّه عليه و آله و سلم) في غزوة كان أبو بكر يقف في حذمته و لا يفارقه فكان ثاني اثنين في مجلسه، و لما مرض رسول اللَّه (صلى اللَّه عليه و آله و سلم) قام مقامه في إمامة الناس في الصلاة فكان ثاني اثنين، و لما توفي دفن بجنبه فكان ثاني اثنين هناك أيضا، أقول و قد غفل الرازي الراضي عن اجتهاده الاضطهاد عن أن ثاني اثنين هو الرسول دون صاحبه فأين المقام الثاني لصاحبه اللّهم إلا له (صلى اللَّه عليه و آله و سلم) و هل يرضى الأولية- إذا- لصاحبه و هو ثانية؟! ثم‏ «إِذْ يَقُولُ لِصاحِبِهِ» من هو القائل لصاحبه إلا ثاني‏

الفرقان في تفسير القرآن بالقرآن، ج‏13، ص: 83

و مهما يكن من شي‏ء فالنص لا يشير إلى إيجابية الدعوة أم سلبيتها لصاحب الغار أن يصاحب الرسول (صلى اللَّه عليه و آله و سلم) إلا إلى أصل كونهما في الغار، اعتبارا أن الرسول (صلى اللَّه عليه و آله و سلم) هو الأصل في ذلك المضمار، و صاحبه في الغار علّه إنما صاحبه مصلحية الحفاظ عليه (صلى اللَّه عليه و آله و سلم) و لكن بأي وجه؟ لا ندري! أم صاحبه لعناية أخرى؟ كالحفاظ على نفسه لما يجد الرسول (صلى اللَّه عليه و آله و سلم) ملاحقا.

ثم و كيف لزمه النبي (صلى اللَّه عليه و آله و سلم) إلى الغار و لم يتركه؟ علّه خوفا أن يلزمه المشركون فيستخبروه فيخبرهم لضعفه و قوتهم كما يروى‏ «1»، أم لشغفه البالغ في الهجرة و كما تطلبها منه (صلى اللَّه عليه و آله و سلم) مرارا و تكرارا فرارا عن بأس المشركين و عب‏ء المقام بمكة تحملا لتوارد المضايقات،

فيقول له (صلى اللَّه عليه و آله و سلم) لا تعجل‏ «2»

فقد كان يتربص المخرج فحصل على أسلم مورد له تحت حفاظ

\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_

اثنين، فإذا كان هو أبا بكر فهو القائل لصاحبه الرسول (صلى اللَّه عليه و آله و سلم)- إذا- لا تحزن .. فتنقلب الآية بأسرها محولة لسرد فضيلة غالية لأبي بكر و الرسول (صلى اللَّه عليه و آله و سلم) على هامشه!.

(1). كما

ذكره الطبري في حديث الهجرة بقوله: و كان أبو بكر كثيرا ما يستأذن رسول اللَّه (صلى اللَّه عليه و آله و سلم) في الهجرة فيقول له رسول اللَّه (صلى اللَّه عليه و آله و سلم): لا تعجل‏ (تاريخ الطبري 2: 97).

(2) و

في تفسير البرهان 2: 126 روى الحسين بن حمدان الخصيبي باسناده عن جعفر بن محمد الصادق (عليهما السلام) عن أبيه محمد بن علي الباقر عن أبيه علي بن الحسين (عليهم السلام) قال: لما لقنه جابر بن عبد اللَّه الأنصاري رسالة جده رسول اللَّه (صلى اللَّه عليه و آله و سلم) إلى ابنه الباقر (عليه السلام) قال له علي بن الحسين يا جابر أ كنت شاهدا حديث جدي رسول اللَّه (صلى اللَّه عليه و آله و سلم) يوم الغار؟ قال: لا يا ابن رسول اللَّه (صلى اللَّه عليه و آله و سلم) قال: إذا أخذتك يا جابر، قال: حدثني جعلت فداك فقد سمعته من جدك فقال: إن رسول اللَّه (صلى اللَّه عليه و آله و سلم) لما هرب إلى الغار من مشتركي قريش حيث كبسوا داره لقتله و قالوا: اقصدوا فراشه حتى نقتله فيه فقال رسول اللَّه (صلى اللَّه عليه و آله و سلم) لأمير المؤمنين (عليه السلام) إن مشركي‏

الفرقان في تفسير القرآن بالقرآن، ج‏13، ص: 84

الرسول (صلى اللَّه عليه و آله و سلم) من اللَّه، و لكن الإمام بات على‏

\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_

قريش يكبسونني في هذه الليلة و يقصدون فراشي فما أنت صانع يا علي؟ قال له أمير المؤمنين (عليه السلام): أنا يا رسول اللَّه (صلى اللَّه عليه و آله و سلم) اضطجع في فراشك و اخرج و استصحب اللَّه حيث تأمن على نفسك فقال له رسول اللَّه (صلى اللَّه عليه و آله و سلم): فديتك يا أبا الحسن أخرج لي ناقتي العضباء حتى أركبها و أخرج إلى اللَّه هاربا من مشركي قريش و افعل بنفسك ما تشاء و اللَّه خليفتي عليك فخرج رسول اللَّه (صلى اللَّه عليه و آله و سلم) و ركب الناقة و تلقاه جبرئيل فقال يا رسول اللَّه (صلى اللَّه عليه و آله و سلم) أمرني اللَّه ربي أن أكون صاحبك في مضربك و في الغار الذي تدخله ان ان تنيخ ناقتك إلى باب أبي أيوب الأنصاري فسار (صلى اللَّه عليه و آله و سلم) فتلقاه أبو بكر فقال يا رسول اللَّه (صلى اللَّه عليه و آله و سلم) أصحبك؟ ويحك يا أبا بكر ما أريد أن يشعر بي أحد، قال: فأخشى يا رسول اللَّه (صلى اللَّه عليه و آله و سلم) أن تستحلفني المشركون على لقائي إياك و لا أجد بدا من صدقهم، فقال له: ويحك يا أبا بكر أو كنت فاعلا ذلك؟ فقال: أي و اللَّه لئلا أقتل أو أحلف فأحنث، فقال: ويحك يا أبا بكر فما صحبتي ليلتي بنافعتك، فقال له أبو بكر: و لكنك تستغشني أن أنذر به المشركين، فقال له: سر إذا شئت فتلقاه الغار فنزل عن ناقته العضباء و أبركها بباب الغار و دخل و معه جبرئيل و أبو بكر و قامت خديجة في جانب الدار باكية على رسول اللَّه (صلى اللَّه عليه و آله و سلم) و أمير المؤمنين و انضجاعه على فراش رسول اللَّه (صلى اللَّه عليه و آله و سلم) ليفد به بنفسه و وافى المشركون الدار ليلا فتسوروا عليه و دخلوا قصدا إلى فراش رسول اللَّه (صلى اللَّه عليه و آله و سلم) فوجدوا أمير المؤمنين (صلى اللَّه عليه و آله و سلم) مضطجعا فيه فضربوا بأيديهم إليه و قالوا: يا ابن أبي كبشة لم ينفعك سحرك و لا كهانتك و لا خدمة الجان لك، اليوم نسقي أسلحتنا من دمك، فنفض أمير المؤمنين (عليه السلام) أيديهم عنه فكأنهم لم يصلوا إليه و جلس في الفراش و قال ما بالكم يا مشركي قريش أنا علي بن أبي طالب، قالوا له: و اين محمد يا علي؟ قال: حيث يشاء اللَّه، قالوا: و من ففي الدار؟ قال: خديجة، قالوا: الجبية الكريمة لو لا تبعلها بمحمد يا علي و حق اللات و العزى و لو لا حرمة أبيك أبي طالب و عظم محله في قريش لا علمنا أسيافنا فيك، فقال أمير المؤمنين (عليه السلام) يا مشركي قريش أعجبتكم كثرتكم و فالق الحب و بارئ النسمة ما يكون إلا ما يريد اللَّه و لو شئت أن أفني جمعكم كنتم أهون على من فراش السراج، فلا شي‏ء أضعف منه، فتضاحك القوم المشركون و قال بعضهم لبعض: خلوا عليا لحرمة أبيه و اقصدوا الطلب لمحمد رسول اللَّه في الغار و جبرئيل و أبو بكر معه فحزن رسول اللَّه (صلى اللَّه عليه و آله و سلم) على علي و خديجة ...

الفرقان في تفسير القرآن بالقرآن، ج‏13، ص: 85

فراشه تحملا لما كان يحمل عليه (صلى اللَّه عليه و آله و سلم) ثم ظل خليفة عنه (صلى اللَّه عليه و آله و سلم) في أداء ديونه، و حراسة أهله، و تهيئة الجو لهجرته معهم بسائر المهاجرين، و من الطبيعي أن تزداد المضايقات على المؤمنين بغياب صاحب الدعوة، و لا سيما على الذي خلّفه خلفه، نوما على فراشه، و يقظة الحفاظ على أهله و سائر المؤمنين.

ذلك، و لو لا ذلك المبيت، فاعتقاد المشركين أن البائت هو الرسول (صلى اللَّه عليه و آله و سلم) نفسه، لما صبروا عن طلبه إلى النهار أم لوقت متأخر من الليل حتى وصل (صلى اللَّه عليه و آله و سلم) إلى الغار، فكانت سلامة صاحب الرسالة مضمونة بذلك المبيت المبيّت بوحي اللَّه إضافة إلى سائر الضمان بأمر اللَّه و كما قال اللَّه: «وَ مِنَ النَّاسِ مَنْ يَشْرِي نَفْسَهُ ابْتِغاءَ مَرْضاتِ اللَّهِ وَ اللَّهُ رَؤُفٌ بِالْعِبادِ» (2: 207)!.

فقد وجد صاحبه في الغار موقفا أمينا متينا للهجرة بمهجر النبي (صلى اللَّه عليه و آله و سلم) فتراه، بعد دخل الغار حفاظا عليه (صلى اللَّه عليه و آله و سلم) و قد صمم مرارا أن يتركه بين أعداءه و يهاجر قبله إلى المدينة؟! ذلك موقف متّهم!.

و على أية حال لم نحصل لصاحب الغار في مصاحبته (صلى اللَّه عليه و آله و سلم) في الغار أي افتخار إن لم نحصل له على عار، إنما هو حتى الآن أول اثنين في الغار يصاحبه (صلى اللَّه عليه و آله و سلم) للهجرة.

و هنا «إِذْ هُما فِي الْغارِ» نصرة ثانية له (صلى اللَّه عليه و آله و سلم) حيث العناكب عملت سترا ضخما على باب الغار خمن المفتشون عنه عند الباب انه شغل سنين.

«إِذْ يَقُولُ لِصاحِبِهِ لا تَحْزَنْ إِنَّ اللَّهَ مَعَنا»- «نَصَرَهُ اللَّهُ إِذْ أَخْرَجَهُ‏ ... إِذْ هُما فِي الْغارِ إِذْ يَقُولُ ..» فهنا النصرة الربانية الثالثة للرسول لائحة من قوله لصاحبه «لا تحزن» فبدلا أن يقول له صاحبه لا تحزن حيث هو المدار للفرار عن بأس المشركين، فحزنا على نواجم الخطر، يطمأن اللَّه‏

الفرقان في تفسير القرآن بالقرآن، ج‏13، ص: 86

قلب الرسول (صلى اللَّه عليه و آله و سلم) ربطا عليه لحد يقول هو الأصيل في الحزن للبديل فيه الفصيل: «لا تحزن» فهذه نصرة ثالثة ل‏ «ثانِيَ اثْنَيْنِ» تقابلها نكسة لأول اثنين، حيث حزن ببوادره و ظواهره لحد قد يخشى على ظهور الأمر للمشركين المتحرين عنه.

و هنا صاحبه في الغار يحزن هكذا تلهبا و تقلبا لحد ينهاه النبي (صلى اللَّه عليه و آله و سلم)- و هو نهي عن نكير منكر- رغم أن هذا الخروج ضمن من خوارق العادات ما تبهر العقول، و تطمئن أصحاب العقول، فقد خرج على عيون الأشهاد و ما رأوه، و فور دخوله الغار معه نسجت العنكبوت على باب الغار سترا نهّاه المشركون إلى سنين‏ «1»، و هما

\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_

(1).

الدر المنثور 3: 240- أخرج ابن سعد عن ابن عباس و علي و عائشة بنت أبي بكر و عائشة بنت قدامة و سراقة بنت جعشم دخل حديث بعضهم في بعض قالوا: خرج رسول اللَّه (صلى اللَّه عليه و آله و سلم) و القوم جلوس على بابه فأخذ حفنة من البطحاء فجعل يدرها على رؤوسهم و يتلوا: يس و القرآن الحكيم- الآيات و مضى، فقال لهم قائل: ما تنتظرون؟ قالوا: محمدا، قال: و الله مر بكم، قالوا: و اللَّه ما أبصرناه و قاموا ينفضون التراب عن رؤوسهم و خرج رسول اللَّه (صلى اللَّه عليه و آله و سلم) و أبو بكر إلى غار ثور فدخلاه و ضربت العنكبوت على بابه بعشاش بعضها على بعض و طلبته قريش أشد الطلب حتى انتهت إلى باب الغار فقال بعضهم أن عليه لعنكبوتا قبل ميلاد محمد، و أخرجه أبو نعيم عن محمد بن إبراهيم التيمي أن النبي (صلى اللَّه عليه و آله و سلم) ...

و

في بحار الأنوار 19: 33، لما دخل رسول اللَّه (صلى اللَّه عليه و آله و سلم) و أبو بكر الغار أرسل اللَّه زوجا من الحمام حتى باضا في أسفل الثقب و العنكبوت حتى نسج بيتا فلما جاء سراقة بن مالك في طلبهما فرأى بيض الحمام و بيت العنكبوت قال: لو دخله أحد لانكسر البيض و تفسخ بيت العنكبوت فانصرف و قال النبي (صلى اللَّه عليه و آله و سلم): اللّهم أعم أبصارهم فعميت أبصارهم عن دخوله و جعلوا يضربون يمينا و شمالا حول الغار و قال أبو بكر: لو نظروا إلى أقدامهم لرأونا ...

و

في تفسير البرهان 2: 125 ذكر الطبرسي في أعلام الورى في حديث سراقة بن جعشم مع النبي (صلى اللَّه عليه و آله و سلم) قال: الذي اشتهر في العرب يتقاولون فيه الاشعار و يتفاوضونه في الديار انه تبعه و هو متوجه إلى المدينة فساخت قوائم فرسه حتى تغيبت قوائم فرسه و هو بموضع حدب وقاع صصف فعلم أن الذي أصابه أمر سماوي فنادي يا محمد أدع ربك يطلق لي فرسي و ذمة اللَّه أن لا أدل عليك أحدا فدعا له فوثب جواده كأنه‏

الفرقان في تفسير القرآن بالقرآن، ج‏13، ص: 87

نصرتان أوليان، أ فبعد ذلك يبقى خوف منهم و حزن و لا سيما لأبي بكر و هو غير ملاحق في ذلك المسرح، ثم الملاحق الأصيل لا يحزن، بل و ينهى صاحبه عن الحزن معلّلا ب‏ «إِنَّ اللَّهَ مَعَنا» معية الحفاظ على الرسول (صلى اللَّه عليه و آله و سلم) أصالة، و الحفاظ على صاحبه في الغار على هامشه حيث الخطر الناجم هو عليهما- إذا- «1».

و ليس هذا النهي متعطفا- فقط- عليه (صلى اللَّه عليه و آله و سلم)

\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_

أفلت من انشوطة و كان رجلا داهية و علم بما رأى أنه سيكون له نباء فقال: اكتب لي أمانا فكتب له و انصرف،

قال محمد بن إسحاق: أن أبا جهل قال في أمر سراقة أبياتا فأجابه سراقة نظما:

|  |  |  |
| --- | --- | --- |
| أبا حكم و اللات لو كنت شاهدا |  | لأمر جوادي أن تسيخ قوائمه‏ |
| عجبت و لم تشكك بأن محمدا |  | نبي و برهان فمن ذا يكاتمه‏ |
| عليك فكف الناس عني فإنني‏ |  | أرى أمره يوما ستبدو معالمه‏ |

أقول: و قصة سراقة مروية بعدة طرق و

منها ما في الدر المنثور من حديث أبي بكر في اتجاهه مع رسول اللَّه (صلى اللَّه عليه و آله و سلم) إلى الغار: فارتحلنا و القوم يطلبوننا فلم يدركنا منهم إلا سراقة على فرس له فقلت يا رسول اللَّه (صلى اللَّه عليه و آله و سلم): هذا الطلب قد لحقنا فقال: لا تحزن أن اللَّه معنا حتى إذا دنا فكان بيننا و بينه قدر رمح أو رمحين أو ثلاثة فقلت يا رسول اللَّه هذا الطلب قد لحقنا و بكيت، قال: لم تبكي؟

قلت: أما و اللَّه لا أبكي على نفسي و لكني أبكي عليك فدعا رسول اللَّه (صلى اللَّه عليه و آله و سلم) و قال: اللّهم أكفناه بما شئت فساخت فرسه إلى بطنها في أرض صلد و وثب عنها و قال: يا محمد إن هذا عملك فادع اللَّه أن ينجيني مما أنا فيه فو اللَّه لأعمين على من ورائي من الطلب و هذه كنانتي فخذ منها سهما فانك ستمر بابلي و غنمي في موضع كذا و كذا فخذ منها حاجتك فقال رسول اللَّه (صلى اللَّه عليه و آله و سلم) لا حاجة لي فيها و دعا رسول اللَّه (صلى اللَّه عليه و آله و سلم) فأطلق و رجع إلى أصحابه و مضى رسول اللَّه (صلى اللَّه عليه و آله و سلم) و أنا معه حتى قدمنا المدينة ...

(1). و من حزنه ما رأه كما

رواه في الدر المنثور 3: 240 أخرج أبو نعيم عن السماء بنت أبي بكر أن أبا بكر رأى رجلا مواجه الغار قال يا رسول اللَّه (صلى اللَّه عليه و آله و سلم) انه لرآنا، قال (صلى اللَّه عليه و آله و سلم): كلا إن الملائكة تستره الآن بأجنحتها فلم ينشب الرجل أن قعد يبول مستقبلهما فقال رسول اللَّه (صلى اللَّه عليه و آله و سلم): يا أبا بكر لو كان يراك ما فعل هذا.

الفرقان في تفسير القرآن بالقرآن، ج‏13، ص: 88

كما يقول اللَّه‏ «لا تَحْزَنْ عَلَيْهِمْ» إنما هو الحزن الخطر عليه (صلى اللَّه عليه و آله و سلم) و لذلك عدّ «إِذْ يَقُولُ لِصاحِبِهِ لا تَحْزَنْ» من نصرته الربانية، فلقد كان حزنه لحد قد يشكل عليه (صلى اللَّه عليه و آله و سلم) خطرا فنصره اللَّه أن نهى صاحبه عن الحزن وقاية عما قد يحصل من ملاحقة بضجة و صرخة من صاحبه. و هنا نقف حائرين من ذلك الحزن الحزين، فإن كان لنفسه أم للرسول أم لهما فغير محبور، حيث الحزن على الخطر الذي ضمن اللَّه أنه لن يكون عدم إيمان و اطمئنان باللَّه الذي ضمن الحفاظ على حياته بتلك الهجرة الخارقة للعادة، و لكنه لم يكن حزنا- فقط- في قلبه، بل هو ظاهر جاهر بصرخة حيث تسمع فيشكّل خطرا على حياة الرسول (صلى اللَّه عليه و آله و سلم) و لولاه لم يكن في قوله لصاحبه: «لا تَحْزَنْ إِنَّ اللَّهَ مَعَنا» نصرة له ثالثة، فهل إن ترك حزن قلبي- فقط- لصاحبه نصرة له (صلى اللَّه عليه و آله و سلم) غالية؟ كلا بل هو الحزن الحزين ببادئ صراخ يسمع المفتشين عنه (صلى اللَّه عليه و آله و سلم) الملاحقين إياه، ففي نهيه عن حزنه و طمأنته: إن اللَّه معنا، و إن اللَّه قلب قلبه بذلك، نصرة ربانية ثالثة حفاظا على حياته (صلى اللَّه عليه و آله و سلم) بالفعل، ثم‏ «فَأَنْزَلَ اللَّهُ سَكِينَتَهُ عَلَيْهِ» نتيجة هذه المراحل الثلاث من نصرته، كما و أن الثلاث الأخرى من مخلفات النصرة الأصلية و هي إنزال السكينة عليه (صلى اللَّه عليه و آله و سلم).

ثم كما أن «صاحبه» لا تصاحب صحبة الخليفة للنبي (صلى اللَّه عليه و آله و سلم) من الناحية الروحية، كذلك «معنا» لا تعني مساوات المعية بينهما، فإنما هي معية في دفع الخطر الناجم، أصالة للنبي (صلى اللَّه عليه و آله و سلم) و على هامشه لزاما للحفاظ عليه صاحبه في الغار، فهي- إذا- معية الحفاظ لصاحب الرسالة.

و أما «صاحبه» فهل تعني له منقبة متميزة على سائر أصحاب الرسول (صلى اللَّه عليه و آله و سلم) فكأن غيره لم يكونوا من صحبه، إنما هو «صاحبه» قضية إفراد النسبة المضافة إليه.

إن ل «صاحبه» مسارح عدة تختلف في مغزاها، ف «صاحبه» في‏

الفرقان في تفسير القرآن بالقرآن، ج‏13، ص: 89

السفر، غير «صاحبه» في التجارة، و غيرهما في الدراسة، و غيرها في المعرفة، و غيرها في الإيمان، حيث تختلف ملابسات تحمل معها فتختلف الصحابات.

و هنا «صاحبه» في الغار ليس إلّا من صاحبه فيه- دون استئذان منه أو طلبه (صلى اللَّه عليه و آله و سلم)- و دون سائر المواقف المشرفة، فترى- إذا- «صاحبه» في الغار، هو صاحبه بين كل صحبه في كل الميزات للصحبة الروحية الرسالية؟ هنا لو لم تدل «يقول» ما كنا نعرف أن صاحبه في الغار كان إنسانا، حيث يصاحب الإنسان غير الإنسان من ملابس و حيوان، و من معاكسه‏ «كَصاحِبِ الْحُوتِ» (68: 48) أم أيا كان من صاحب يصحب جسمه دون روحه.

فلقد تعرفنا أن «صاحبه» إنسان لمكان «يقول» فمن أين نعرف أنه صاحبه في الفضائل الروحية بين الأصحاب، و تلك الصحبة ليست لتثبت له أصل الإيمان فضلا عما علاه من صالح الإيمان فضلا عن أصلحه، و قد يدل: «لا تَحْزَنْ‏- و- فَأَنْزَلَ اللَّهُ سَكِينَتَهُ عَلَيْهِ» على طالح الإيمان.

فحين نسمع اللَّه يقول في الكهف‏ «قالَ لَهُ صاحِبُهُ وَ هُوَ يُحاوِرُهُ أَ كَفَرْتَ بِالَّذِي خَلَقَكَ مِنْ تُرابٍ ثُمَّ مِنْ نُطْفَةٍ ثُمَّ سَوَّاكَ رَجُلًا» «1» فهلّا يخيل إلينا أن «صاحبه في الغار» «2» ما كان يصاحبه إلا كما صاحب المشرك المؤمن في آية الكهف، و تعاكسها آية الأعراف و نظائرها: «أَ وَ لَمْ يَتَفَكَّرُوا ما بِصاحِبِهِمْ مِنْ جِنَّةٍ إِنْ هُوَ إِلَّا نَذِيرٌ» «3».

فهل إن «صاحبه» في الكهف تجعل المشرك مؤمنا بمجرد الصحابة؟ أم إن «صاحبهم» في الأعراف و سواها تجعل الرسول (صلى‏

\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_

(1، 2، 3). ك‏ «ما ضَلَّ صاحِبُكُمْ وَ ما غَوى‏» (53: 2) «وَ ما صاحِبُكُمْ بِمَجْنُونٍ» (81: 22) و «ما بِصاحِبِكُمْ مِنْ جِنَّةٍ» (34: 46) و «وَ صاحِبْهُما فِي الدُّنْيا مَعْرُوفاً» (31: 15) و «حير ان له أصحاب يدعونه إلى الهدى» (6: 71) حيث تعني مصاحبة المؤمن الكافر، النبي مع المشركين، و الولد المؤمن مع الوالدين المشركين، أو أي مؤمن مع أي كافر.

الفرقان في تفسير القرآن بالقرآن، ج‏13، ص: 90

اللَّه عليه و آله و سلم) مشركا؟.

فمجرد الصحبة بين اثنين لا يحشرهما في محشر واحد و معشر فارد من الإيمان أو الكفر أم أيا كان من المشتركات، فإنما القدر البين هو الصحابة في الجوار بدنيا أم في الشغل، ثم الصحبة الروحية هي بحاجة إلى برهان، في كفر أو إيمان أم أيا كان‏ «1» ثم و لا نجد في القرآن كله يعبر عن صحابة الإيمان بين المؤمنين بصاحب أو أصحاب اللّهم إلا ك‏ «وَ الَّذِينَ مَعَهُ أَشِدَّاءُ عَلَى الْكُفَّارِ رُحَماءُ بَيْنَهُمْ» حيث تعني المعية في حمل هذه الرسالة السامية على هامش الرسول (صلى اللَّه عليه و آله و سلم) فلا يصاحب صيغة الصاحب اية منقبة و لا مزرءة، إلا بما يصاحب الصاحب من صاحبه من منقبة أو مزرءة، و كل منهما بحاجة إلى دليل.

و لكننا هنا نطلق كما أطلق اللَّه تلك الصحبة في البداية، فحتى نعرف من حكاية الصحبة ما هي منزلة تلك الصحبة؟.

ليس هنا في دور الإيضاح إلّا «اثنين» لأول اثنين هما «لا تحزن» و قد عرفنا موقفها أن ليست- لأقل تقدير- امتداحا له، إن لم يكن مزرءة عليه و هو مزرءة! فلنفرض أنه ساكت عن أية سلبية أو إيجابية، و لكن تعال معنا إلى الدور الثاني‏ «فَأَنْزَلَ اللَّهُ سَكِينَتَهُ عَلَيْهِ» و هي كحصيلة لتلك النصرة المتميزة الربانية للرسول (صلى اللَّه عليه و آله و سلم)، فقد «أنزل‏ اللَّهُ سَكِينَتَهُ عَلَيْهِ» إذ نصره في هذه الثلاث بما هو نصر اللَّه في رسالته و دعوته و كل مواقفه السلبية و الإيجابية لصالح هذه الرسالة، ف‏ «إِنْ تَنْصُرُوا اللَّهَ يَنْصُرْكُمْ وَ يُثَبِّتْ أَقْدامَكُمْ» (48: 7) و هنا التفريع‏ «فَأَنْزَلَ اللَّهُ ..» لا يفسح أي مجال لغير صاحب النصرة الربانية في هذه الثلاث.

و ترى بعد أن «عليه» تعني في رجعة يتيمة «صاحبه» دون نفسه (صلى اللَّه عليه و آله و سلم)؟ و هذه مزرءة للرسول (صلى اللَّه عليه و آله و سلم) أن يحرم عن السكينة الخاصة به أولا، و يختص بها صاحبه في الغار!.

\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_

(1). فمثال الكفر «فَنادَوْا صاحِبَهُمْ فَتَعاطى‏ فَعَقَرَ» (54: 29).

الفرقان في تفسير القرآن بالقرآن، ج‏13، ص: 91

و هنا، كون الرسول (صلى اللَّه عليه و آله و سلم) محور النصرة الربانية، و السكينة هي محور لتلك النصرة، و الضمائر الثمانية- هي بطبيعة الحال- راجعة إليه، هذه و ما أشبه أدلة قاطعة لا مرد لها أنه (صلى اللَّه عليه و آله و سلم) هو صاحب السكينة هنا دون صاحبه.

و «إِذْ يَقُولُ لِصاحِبِهِ لا تَحْزَنْ» هي ثالثة النصرة له (صلى اللَّه عليه و آله و سلم)، ثم‏ «فَأَنْزَلَ اللَّهُ سَكِينَتَهُ عَلَيْهِ» هي رابعة مفرعة على هذه التي مضت، منتوجة أصيلة لها كلها ثم و «أَيَّدَهُ بِجُنُودٍ لَمْ تَرَوْها» خامسة و «جَعَلَ كَلِمَةَ الَّذِينَ كَفَرُوا السُّفْلى‏، سادسة وَ كَلِمَةُ اللَّهِ هِيَ الْعُلْيا» هي السابعة، و هذه الثلاثة الأخيرة هي من مخلقات السكينة، و هذه السبعة من زوايا «نَصَرَهُ اللَّهُ» هي التي تشكل هندسة النصرة الربانية المنقطعة النظير لهذا البشير النذير فلو اختصت السكينة بصاحبه في الغار لاختصت به سائر النصرة المتقدمة عليها و المتأخرة عنها!.

ثم هنا نحن بين محتملات ثلاث في‏ «فَأَنْزَلَ اللَّهُ سَكِينَتَهُ عَلَيْهِ» أنها تخص الرسول (صلى اللَّه عليه و آله و سلم) كالستة الأخرى، و الضمائر السبعة الأخرى، و لأن الرسول (صلى اللَّه عليه و آله و سلم) هو المحور الحائرة حوله الآية بكل بنودها؟- أم تعمهما؟ و ضمير المفرد لا يتحمل الرجوع إلى اثنين، فلا موقف لذلك الاحتمال أصلا! أم هو راجع إلى صاحبه- كما يهواه من أصحاب صاحب الغار شذر نزر لأنه المرجع الأقرب‏ «1»- فتصبح تلك السكينة الغالية

\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_

(1). انهم احتالوا و حاولوا نزول السكينة عليه في قالات و روايات، منها ما

في الدر المنثور 3:

245- أخرج ابن مردويه عن أنس بن مالك قال‏ دخل النبي (صلى اللَّه عليه و آله و سلم) و أبو بكر غار حراء فقال أبو بكر للنبي (صلى اللَّه عليه و آله و سلم) لو أن أحدهم يبصر موضع قدمه لأبصرني و إياك فقال: ما ظنك باثنين اللَّه ثالثهما يا أبا بكر أن اللَّه أنزل سكينة عليك و أيدني بجنود لم تروها، و رواه مثله عن ابن عباس و أبي ثابت دون اسناد إلى النبي (صلى اللَّه عليه و آله و سلم).

أقول: و لأن الكاذب ينسى فقد نسي الناقل أن الغار هو غار ثور دون حراء، ثم ما هذه السكينة النازلة على أبي بكر لم تلك تسكنه عن اضطرابه؟.

الفرقان في تفسير القرآن بالقرآن، ج‏13، ص: 92

التي هي حصيلة متفرعة علي «لا تحزن» خاصة بصاحبه دونه نفسه (صلى اللَّه عليه و آله و سلم)، و ليست أقربية المرجع بمجردها صالحة لعود الضمير إليه، و هنا القرائن القطعية قائمة على أن المرجع هنا هو محور النصرة الربانية دون صاحبه ثم الأقرب ذكرا هو الرسول لمكان «صاحبه» حيث هو المضاف إليه.

ذلك، و حتى لو اختصت به السكينة فهي هي السكينة النازلة على المؤمنين مع الرسول (صلى اللَّه عليه و آله و سلم) فلا تدل- إذا- على ميزة لصاحب الغار يمتاز بها على غيره من المؤمنين.

ذلك، رغم أن ذكر صاحبه لا يعني إلّا بيان ملابسة صالحة لاطمئنانه (صلى اللَّه عليه و آله و سلم) في الغار عن كل الأخطار، لحد ينهي صاحبه الحزين عن حزنه الخطير الخطير.

و لننظر ثانية إلى ذلك المقترح الهاوي أن السكينة هنا نزلت على صاحبه دون نفسه، فالنتيجة- إذا- هي كالتالية:

«إلا تنصروه»: 1 الرسول (صلى اللَّه عليه و آله و سلم) «فقد نصره» 2 الرسول «اللَّه» «إذ أخرجه» 3 «الرسول» «الَّذِينَ كَفَرُوا ثانِيَ اثْنَيْنِ» 4: الرسول‏ «إِذْ هُما فِي الْغارِ إِذْ يَقُولُ 5» الرسول «لصاحبه» 6 «لا تَحْزَنْ إِنَّ اللَّهَ مَعَنا» ثم و هذه التالية هي قاعدة عليا من نصرته (صلى اللَّه عليه و آله و سلم): «فَأَنْزَلَ اللَّهُ سَكِينَتَهُ عَلَيْهِ» 7: صاحبه، إذا ف‏ «8 وَ أَيَّدَهُ بِجُنُودٍ لَمْ تَرَوْها» تعني أيضا صاحبه، و كذلك الأمر فيما يتلوه ك‏ «وَ كَلِمَةُ اللَّهِ هِيَ الْعُلْيا» المتمثلة في صاحبه دونه!.

ذلك، رغم أن مادة النصرة الربانية هنا، المعنية من‏ «نَصَرَهُ اللَّهُ» هي السكينة النازلة عليه (صلى اللَّه عليه و آله و سلم) فوق سكينة تكريما لموقفه المشرف من عدم تخوفه و حزنه و هو المدار في ذلك الفرار!.

فقد نصره اللَّه أولا بالعصمة الرسالية، ثم كمل نصرته بهذه السكينة عصمة على عصمته، نصرة ذات بعدين اثنين بعيدة عن كل انهزامه في حقل الدعوة الرسالية.

الفرقان في تفسير القرآن بالقرآن، ج‏13، ص: 93

ذلك و من واجهة أخرى قد تعني‏ «إِلَّا تَنْصُرُوهُ» كافة المتثاقلين عن نصرته على مدار الزمن الرسالي، فأنتم أنتم الخاسرون دونه (صلى اللَّه عليه و آله و سلم) «فَقَدْ نَصَرَهُ اللَّهُ» صيانة على نفسه و رسالته القدسية و دعوته المترامية الأطراف به و بقرآنه المبين و تبيانه المتين.

و من نصرته و المؤمنين‏ «لَقَدْ نَصَرَكُمُ اللَّهُ بِبَدْرٍ وَ أَنْتُمْ أَذِلَّةٌ» (3:) 123) و «لَقَدْ نَصَرَكُمُ اللَّهُ فِي مَواطِنَ كَثِيرَةٍ وَ يَوْمَ حُنَيْنٍ» (9: 25) و من أخريات هذه النصرة المتتالية المتمادية ما كان بفتح مكة «وَ يَنْصُرَكَ اللَّهُ نَصْراً عَزِيزاً» (48: 3).

و من ثم‏ «أَيَّدَهُ بِجُنُودٍ لَمْ تَرَوْها وَ جَعَلَ كَلِمَةَ الَّذِينَ كَفَرُوا السُّفْلى‏» حيث سفلت حيلتهم بحقه، «وَ كَلِمَةُ اللَّهِ هِيَ الْعُلْيا» حيث علت بهجرته ثم غلت بفتح العاصمة بعد ردح من هذه الهجرة الهاجرة.

و لننظر هنا إلى «السكينة» في عرف القرآن على من تنزل كأصل، ثم من فضل الأصل على من؟.

هنا نجد حين يقرن المؤمنون بالرسول (صلى اللَّه عليه و آله و سلم) تشملهم السكينة على هامش الرسول (صلى اللَّه عليه و آله و سلم): «ثُمَّ أَنْزَلَ اللَّهُ سَكِينَتَهُ عَلى‏ رَسُولِهِ وَ عَلَى الْمُؤْمِنِينَ» (9: 26) و هم الذين ظلموا مع الرسول (صلى اللَّه عليه و آله و سلم) و ما قلوا، من هؤلاء الثمانين بين اثني عشر ألفا أو يزيدون، فكما هنا تختص السكينة بالمؤمنين الثابتين دون المنهزمين الهابطين، علّها كذلك هنا لا تنزل على صاحبه المؤمن إذ لم يكن له ثابت الإيمان الذي يحق له إنزال السكينة، فإنما نزلت السكينة الرسالية على الرسول (صلى اللَّه عليه و آله و سلم) على سكينته الرسولية الدائبة و هي العصمة.

فهنا للرسول سكينة يعيشها قضية العصمة الرسولية، ثم سكينة تنزل عليه مزيدا لتلك العصمة، كما للمؤمنين القلة سكينة الإيمان، العائشين معها باطمئنان، ثم تنزل عليهم السكينة ليزدادوا إيمانا على إيمانهم.

هذه سكينة مزيد العصمة على عصمته (صلى اللَّه عليه و آله و سلم)

الفرقان في تفسير القرآن بالقرآن، ج‏13، ص: 94

و هي النصرة الربانية البارزة للرسول (صلى اللَّه عليه و آله و سلم) حصيلة للمواقف الثلاثة الأولى، و هي قلب مسبّع النصرة و من حصائلها المخلفة عنها بعد ما هي مخلفة عن الثلاثة الأولى ثلاثة أخرى هي‏ «وَ أَيَّدَهُ بِجُنُودٍ لَمْ تَرَوْها وَ جَعَلَ كَلِمَةَ الَّذِينَ كَفَرُوا السُّفْلى‏ وَ كَلِمَةُ اللَّهِ هِيَ الْعُلْيا».

فقد أيده في مواقف عدة بجنود لم تروها، إذ أخرجه الذين كفروا إذ هما في النار، و إذ يقول لصاحبه لا تحزن، و إذ دخل المدينة حيث أيده في حروب كبدر و حنين و ما أشبه، ثم‏ «جَعَلَ كَلِمَةَ الَّذِينَ كَفَرُوا السُّفْلى‏» مهما حاولوا أن يجعلوه العليا، و كلمة اللَّه هي العليا، مهما حاولوا أن يجعلوه السفلى، و هنا كلمة اللَّه هي كلمة الرسالة القدسية المحمدية (صلى اللَّه عليه و آله و سلم) الحاملة لكلمات اللَّه التامة الطامة.

فترى بعد أن نصرة من هذه السبع فضلا عن قلب النصرة و عمادها تختص بصاحبه في الغار؟ و لا شأن له إلّا شائن الحزن الخطر على صاحب الرسالة لحد اعتبر نهيه عنه بما نهاه اللَّه إلى تخفيفه عن حزنه نصرة له في حق‏ «نَصَرَهُ اللَّهُ» فالنصرة الربانية الخفية يظاهر الحال في العهد المكي أخذت تنمو و تظهر زاهرة باهرة منذ هجرته (صلى اللَّه عليه و آله و سلم) إلى أن توفاه اللَّه و إلى يوم القيامة الكبرى.

إذا فرجوع ضمير الغائب في «عليه» إليه (صلى اللَّه عليه و آله و سلم) مقطوع أدبيا و معنويا من جهات عدة لا ينكرها و لا واحدة منها إلا معاند متعصب يريد ليحمل رأيه مذهبيا على نص القرآن!.

ذلك ثم في الفتح‏ «فَأَنْزَلَ اللَّهُ سَكِينَتَهُ عَلى‏ رَسُولِهِ وَ عَلَى الْمُؤْمِنِينَ» (26) و ذلك حيث‏ «فَعَلِمَ ما فِي قُلُوبِهِمْ فَأَنْزَلَ السَّكِينَةَ عَلَيْهِمْ وَ أَثابَهُمْ فَتْحاً قَرِيباً» (48: 18).

و قد يفرد المؤمنون بالسكينة حيث يفردون عن الرسول (صلى اللَّه عليه و آله و سلم) ذكرا، و هم معه إيمانا، «لِيَزْدادُوا إِيماناً مَعَ إِيمانِهِمْ» و هي لا تليق بساحة الرسول: «هُوَ الَّذِي أَنْزَلَ السَّكِينَةَ فِي قُلُوبِ الْمُؤْمِنِينَ لِيَزْدادُوا إِيماناً مَعَ إِيمانِهِمْ» (48: 4)- «فَعَلِمَ ما فِي قُلُوبِهِمْ فَأَنْزَلَ السَّكِينَةَ

الفرقان في تفسير القرآن بالقرآن، ج‏13، ص: 95

عَلَيْهِمْ وَ أَثابَهُمْ فَتْحاً قَرِيباً» (48: 18).

ثم هنا- و لمرة يتيمة- نجد اختصاص الرسول (صلى اللَّه عليه و آله و سلم) بالسكينة، و معه صاحبه الحزين في الغار، و هو أحوج إلى السكينة، و قد ذكر معه مرات ثلاث، فسكينة المؤمنين ليزدادوا إيمانا على إيمانهم إكراما لإيمانهم بجدارته، و سكينة الرسول ليزداد عصمة على عصمته إكراما لطمأنته، و أما صاحبه في الغار فلا سكينة تنزل عليه لا رسوليا و لا إيمانيا إذ لم تكن له سكينة إيمانية تربطه عن حزنه الحزين المهتاج، المحتاج إلى ذلك النهي المكين.

فهنا التساءل، لما ذا لم تشمله السكينة النازلة على الرسول (صلى اللَّه عليه و آله و سلم) و هو المحتاج في حزنه إليها دون الرسول (صلى اللَّه عليه و آله و سلم)؟ إنه لزعزته هو دون الرسول الذي نهاه عنها و طمأنه.

أ لأنه- على حزنه- لا يحتاج إلى السكينة و الرسول على طمأنته يحتاجها؟

فهو- إذا- أغنى من الرسول (صلى اللَّه عليه و آله و سلم) على حاجته إليها!.

أم هو كما الرسول (صلى اللَّه عليه و آله و سلم) و على مستواه في الحاجة إليها؟ فلما ذا لم تشمله معه!.

أم هو دون الرسول (صلى اللَّه عليه و آله و سلم)- و هو طبيعة الحال لكل من هو مع الرسول-؟ فإذا كان مؤمنا ما كنا فلتشمله السكينة كما شملت سائر المؤمنين مع الرسول (صلى اللَّه عليه و آله و سلم)! و ما قولة القائل إنما السكينة نزلت على أبي بكر حيث كان يحتاجها دون الرسول (صلى اللَّه عليه و آله و سلم) إذ لم يكن يحتاجها، ما هي إلا غائلة مائلة على قول اللَّه: «ثُمَّ أَنْزَلَ اللَّهُ سَكِينَتَهُ عَلى‏ رَسُولِهِ وَ عَلَى الْمُؤْمِنِينَ» و لم يكن يحتاجها إلا «المؤمنين» ثم الرسول (صلى اللَّه عليه و آله و سلم) على رسالته هو بحاجة إلى سكينته الرسولية طول حياته، ثم و ما هو الفارق بين مسرح الغار و الحديبية حيث هما خطران على الطرفين، و الغار أخطر على النبي (صلى اللَّه عليه و آله و سلم) فلتنزل عليه السكينة فيها بأحرى و أجدر، و إذ لا جدارة لصاحبه في الغار، و كانت للمؤمنين في حنين و فتح‏

الفرقان في تفسير القرآن بالقرآن، ج‏13، ص: 96

مكة، فلتنزل السكينة عليهم فيها دون صاحبه في الغار!.

و حين نتخطى هذه الثلاث فهل يبقى إلا أنه على إيمانه لم يكن بتلك الجدارة الإيمانية التي تنزّل السكينة على صاحبه، فضلا عن السكينة الرسالية، فقد علم ما في قلوب المؤمنين معه (صلى اللَّه عليه و آله و سلم) فأنزل السكينة عليهم ليزدادوا إيمانا مع إيمانهم، و علم ما في قلب صاحبه (صلى اللَّه عليه و آله و سلم) في الغار، فلم ينزل سكينة عليه لمكان حزنه الحزين الدال على ضعف في إيمانه!.

فقد كان مؤمنا حينذاك- لأكثر تقدير- و لكنه لمّا يصل إلى جدارة إيمانية تؤهله لنزول السكينة عليه مع الرسول (صلى اللَّه عليه و آله و سلم) أو بعده.

فهل إن في آية الغار- بعد- افتخار لصاحب الغار، أم هي عليه عار في انتحار لأصل إيمانه- إذا- أم لجدارة الإيمان ظرفا للسكينة؟! و لو أننا اختصصنا السكينة به في الغار تغاضيا عن نص الآية، لما كان لصاحب الغار- بعد- مكسب من صحبة الرسول (صلى اللَّه عليه و آله و سلم) في الغار.

فآية الغار هي خير مسئول للإجابة عن موقف صاحب الغار، كما و آية المبيت هي خير مقرر لموقف الإمام علي (عليه السلام) في تضحيته العالية الغالية عن الرسول (صلى اللَّه عليه و آله و سلم): «وَ مِنَ النَّاسِ مَنْ يَشْرِي نَفْسَهُ ابْتِغاءَ مَرْضاتِ اللَّهِ وَ اللَّهُ رَؤُفٌ بِالْعِبادِ» (2: 207) و ترى بعد أن الحضور عند الرسول (صلى اللَّه عليه و آله و سلم) بأمان أحضر في حذمته، أم الحضور في فراشه الخطير بغيابه؟ «1».

ذلك، و إلى نظرة أخرى في مقاطع الآية لنكون على بصيرة أكثر من مغزاها: ترى و لما ذا كان صاحبه حزينا؟ أ إشفاقا على النبي (صلى اللَّه عليه و آله و سلم) فلما ذا نهاه و هو معروف لصالح الإيمان! ثم كيف يحزن‏

\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_

(1). البحار 19: 76 يج روي أن ابن الكوا قال لعلي (عليه السلام): ...

الفرقان في تفسير القرآن بالقرآن، ج‏13، ص: 97

هو دونه (صلى اللَّه عليه و آله و سلم) إن كان حزنه على ناجم الخطر و قد ضمن اللَّه خلاصة عن بأس المشركين بما أخرجه هكذا و أخرجهم حائرين.

و نرى البائت على فراشه في هاجم الخطر لا يلمح منه أي حزن إلّا صلابة و طمأنينة، ثم نرى صاحبه في الغار يحزن في ناجم الخطر و هو مأمون بما أمنهما اللَّه!.

و

حين يقال لعلي (عليه السلام): أين كنت حيث ذكر اللَّه أبا بكر فقال: «ثانِيَ اثْنَيْنِ إِذْ هُما فِي الْغارِ» فقال: ويلك كنت على فراش رسول اللَّه (صلى اللَّه عليه و آله و سلم) و قد طرح علي ريطته فأقبل قريش مع كل رجل منهم هراوة فيها شوكتها فلم يبصروا رسول اللَّه (صلى اللَّه عليه و آله و سلم) فأقبلوا علي يضربوني حتى ينفط جسدي و أوثقوني بالحديد و جعلوني في بيت و استوثقوا الباب بقفل ...

و ترى فراش رسول اللَّه (صلى اللَّه عليه و آله و سلم) كان أخطر أم الغار؟ طبعا هو الفراش، و إلا فلما ذا الفرار منه إلى الغار، فقد كان موقف علي (عليه السلام) من الرسول (صلى اللَّه عليه و آله و سلم) موقف التضحية بنفسه عنه و لا أمان فيه و لم يحزن، و موقف أبي بكر هو موقف الأمان و قد حزن!.

و مما ينص على صاحبه (صلى اللَّه عليه و آله و سلم) في الغار أنه ما كسب فضيلة أم قد كسب رذيلة ما

تواتر عنه (صلى اللَّه عليه و آله و سلم) من قوله له في قصة إعلان البراءة حين يسأله (صلى اللَّه عليه و آله و سلم) أما أهلتني: «كيف تبلغ عن و أنت صاحبي في الغار» «1»

فلو كانت صحبته في الغار منقبة فلتخلّف منقبة رسالية في إبلاغ البراءة، و لكن حزنه إذ هما في الغار كان دليلا على نقصان إيمانه و خوفه فيما لا خوف فيه، فكيف يؤمن على بلاغ رسالته في جو الإشراك المخيف؟.

\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_

(1). هذه و أمثالها من حجج داحضة واهية أوردها الفخر الرازي في تفسيره نصرا لصاحب الغار!.

الفرقان في تفسير القرآن بالقرآن، ج‏13، ص: 98

و هنا نتساءل: هل إن من لا يصلح لحمل رسالة و خلافة جزئية زمن الرسول (صلى اللَّه عليه و آله و سلم) يصلح لحمل خلافة هذه الرسالة بعده (صلى اللَّه عليه و آله و سلم)؟.

و ترى بعد «إِلَّا تَنْصُرُوهُ فَقَدْ نَصَرَهُ اللَّهُ ..» تنديد بكافة المؤمنين بمن فيهم علي أمير المؤمنين (عليه السلام) و سائر فضلاء الصحابة، و تمجيد بصاحب الغار؟ و «نَصَرَهُ اللَّهُ» تختص نصرته في الغار باللَّه!.

و هذا الخطاب العتاب يختص بمن ترك نصرته (صلى اللَّه عليه و آله و سلم) من البسطاء و الذين في قلوبهم مرض، دون وسطاء الإيمان فضلا عن فضلائهم، و قد تدل آيات تالية في بضع عشرة أن المعنيين بهذه الخطابات هم أولاء الأنكاد الموصوفين بالنفاق و عدم الإيمان، فحتى البسطاء القصر هم خارجون عنهم فضلا عن سائر المؤمنين وسطاء و فضلاء! فقد قال اللَّه عن فضلاءهم: «وَ السَّابِقُونَ الْأَوَّلُونَ مِنَ الْمُهاجِرِينَ وَ الْأَنْصارِ وَ الَّذِينَ اتَّبَعُوهُمْ بِإِحْسانٍ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمْ وَ رَضُوا عَنْهُ وَ أَعَدَّ لَهُمْ جَنَّاتٍ تَجْرِي تَحْتَهَا الْأَنْهارُ خالِدِينَ فِيها أَبَداً ذلِكَ الْفَوْزُ الْعَظِيمُ» (9: 100).

و لئن كان من شي‏ء فقد يشمل هذا الخطاب أبا بكر نفسه مع سائر المؤمنين، إذ لم يستثن من ذلك الخطاب العام، و إنما استثني في موقف الغار عن صالحي المؤمنين الجديرين بنزول السكينة عليهم، فالروايات الواردة بهذه المنقبة المتميزة لصاحب الغار مختلقة تعارض الآية بصدرها و ذيلها، أم متواطئة من أنصار صاحب الغار «1».

أم و ترى هذه الصحبة الصاخبة في الغار له (صلى اللَّه عليه و آله و سلم) نصرة، و ليس المبيت على فراشه (صلى اللَّه عليه و آله و سلم) له‏

\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_

(1). منها ما افتروه على علي (عليه السلام) كما

في الدر المنثور 3: 241- أخرج خيثمة بن سليمان الاطرابلسي في فضائل الصحابة و ابن عساكر عن علي بن أبي طالب (عليه السلام) قال: إن اللَّه ذم الناس كلهم و مدح أبا بكر فقال‏ «إِلَّا تَنْصُرُوهُ فَقَدْ نَصَرَهُ اللَّهُ ...» و روى مثله عن سفيان بن عيينة و الحسن.

الفرقان في تفسير القرآن بالقرآن، ج‏13، ص: 99

نصرة؟ ثم و لا تعني «إلا تنصروه» تحليق السلب على كافة المؤمنين و منهم أصفياء أتقياء هم كانوا له أنصارا في كافة المواقف كما يمدحهم اللَّه في مواطن كثيرة.

و هل إن جهادهم معه (صلى اللَّه عليه و آله و سلم) في سبيل اللَّه قاتلين و مقتولين بجنبه ليس نصرة له، و الاسترواح معه في أمن الغار إلى الهجرة الهاجرة عن بأس المشركين هو له نصرة.

و هل إن الإيمان به قبل كل المؤمنين كما كان لعلي (عليه السلام) ليس له نصرة، ثم الأمن معه في الغار له نصرة، و قد تواتر الأثر عن أهليه المعصومين (عليهم السلام) و سواهم أنه أوّل من آمن كما

عنه (عليه السلام) نفسه: «لم يسرع أحد قبلي إلى دعوة حق» (الكلام- 139)

و انه (عليه السلام) هو صاحبه بحق الصحبة الصالحة الصادقة.

فهنا صاحبان لرسول اللَّه (صلى اللَّه عليه و آله و سلم): صاحبه في الغار حالة الفرار، و صاحبه القارّ الكرار غير الفرّار، و أين صاحب من صاحب؟!.

و

لقد تواتر عن النبي (صلى اللَّه عليه و آله و سلم) في وصف صاحبه الحق الحقيق بحق صحبته الرسولية و الرسالية قوله: «علي صاحب رايتي» «1»

و

«صاحب لوائي» «2» و «صاحبي» «3» و «صاحب حوضي» «4» و لكل بني صاحب سر و صاحب سري علي‏ «5».

\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_

(1). ملحقات إحقاق الحق 4: 166، 168، 363.

(2) المصدر 4: 169- 170، 227، 265، 269، 367 و 6: 54، 588 و 7: 384 و 15: 546 551 و 20: 319- 322، 226، 273، 332، 309، 311، 407.

(3) المصدر 4: 171- 177، 297، 342، 363 و 15: 169، 348.

(4) المصدر 4: 101، 170، 270- و 15: 309 و 20: 308- 309، 407 و 4:

277 و 20: 230.

(5) المصدر 4: 226 و 15: 226- 227 و 20: 312- 313.

الفرقان في تفسير القرآن بالقرآن، ج‏13، ص: 100

ذلك، كما و هو «الصديق الأكبر» على لسان النبي (صلى اللَّه عليه و آله و سلم) فيما تواتر عنه‏ «1».

ذلك، و إنما هي نصرة ربانية منقطعة النظير عن كل نصرة بشرية حتى من المؤمنين‏ «إِذْ يَقُولُ لِصاحِبِهِ لا تَحْزَنْ» فمحور الخطر لا يحزن و الحائر حوله (صلى اللَّه عليه و آله و سلم) الآمن في ظله يحزن، فهل إن حزنه المحظور أم تركه نصرة له (صلى اللَّه عليه و آله و سلم) منه و هو منصور بالسكينة الربانية أولا، ثم بها مزيدة عليها ثانيا، أم إن اختصاصه (صلى اللَّه عليه و آله و سلم) بالسكينة و حرمان صاحبه في الغار عنها نصرة منه له (صلى اللَّه عليه و آله و سلم)؟! و هو عليه كسرة و حسرة، و للرسول (صلى اللَّه عليه و آله و سلم) منهاة حيث ينهاه «لا تحزن».

و أما «إِنَّ اللَّهَ مَعَنا» حيث يتمسك بها بمعية اللَّه إياهما المشتركة بينهما، إنها بطبيعة الحال معية الرحمة الخاصة؟ فموقف الغار يفسر هذه المعية أنها تعني معية الحفاظ على نفسيهما عن القتل، و كل الأحياء مشتركون معهما في هذه المعية، و إن كانت معية الرسول (صلى اللَّه عليه و آله و سلم) متميزة عن سائر المعيات، كما «وَ هُوَ مَعَكُمْ أَيْنَ ما كُنْتُمْ وَ اللَّهُ بِما تَعْمَلُونَ بَصِيرٌ» (57: 4) تشمل عامة المعية لكل الخليقة علما و قدرة و قيومية رحمانية و رحيمية، رغم أن الخلق درجات في هذه المعيات الربانية.

فالمعية الربانية لغير المؤمنين هي الرحمانية العامة، و هي للمؤمنين على درجاتهم معيات رحيمية على درجاتها و لا يظلمون فتيلا، ثم المعية الحفيظة على الأنفس، الشاملة للكلّ مؤمنين و سواهم، لا تعني مساواتهم فيها كرامة، فإن إبقاءه تعالى على الظالمين إملاء هي مهانة:

\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_

(1). المصدر 4: 26- 35، 203، 209، 217، 284، 331، 341، 346، 368، 371، 386 و 6: 160 و 7: 131 و 15: 281، 342، 345، 300، 489، 512 و 16: 514 و 20: 224، 227- 229، 259- 263، 298، 333، 340، 374- 379، 454- 455، 459، 466، 472.

الفرقان في تفسير القرآن بالقرآن، ج‏13، ص: 101

«وَ أُمْلِي لَهُمْ إِنَّ كَيْدِي مَتِينٌ» و هي مع خالص المؤمنين كرامة خاصة ك «إنني معكما اسمع داري».

ف‏ «إِنَّ اللَّهَ مَعَنا» لا يعني إلا أصل المعية الرحمانية المشتركة واقعيا بينهما، أو و الرحيمية الرسالية للرسول (صلى اللَّه عليه و آله و سلم) و أخرى كما تناسب صاحبة في الغار، و قد لحقه الرسول (صلى اللَّه عليه و آله و سلم) في هذه المعية ليعلم أنه محافظ عليه تحت ظله برعاية اللَّه الخاصة به فلما ذا- إذا- يحزن؟.

هذا و مسارح هذه النصرة الربانية مبينة من مصارح الآية كالتالية:

«إِذْ أَخْرَجَهُ الَّذِينَ كَفَرُوا ..» حيث خرج بخارقة العادة الربانية، و ستر على باب الغار بسترة العنكبوت حيث أنحوها إلى ما قبل ولاده (صلى اللَّه عليه و آله و سلم)، و نكب من نكب فاحصا عنه.

«إِذْ هُما فِي الْغارِ إِذْ يَقُولُ لِصاحِبِهِ لا تَحْزَنْ» حيث نصر حينذاك بسكينة ربانية غالية استمرت طيلة حياته الرسولية، و تستمر رسالته إلى يوم الدين.

«فَأَنْزَلَ اللَّهُ سَكِينَتَهُ عَلَيْهِ» و هي نصرة رابعة منه تعالى لجنابه (صلى اللَّه عليه و آله و سلم) كقلب لما احتفت بها من نصرة، و قد تكون هذه السكينة المتميزة لمكان «سكينته» هي هي النصرة الموعودة ب‏ «نَصَرَهُ اللَّهُ» و «إذ» ثلاثا دون عطف هي ظرف مواطئة مؤاتية لنزول هذه النصرة، كما و أن‏ «وَ أَيَّدَهُ ...» من مخلفاتها، فهي هي بعد خاصة بصاحبه في الغار سلبا عنه النصرة الموعودة له!!!.

«وَ أَيَّدَهُ بِجُنُودٍ لَمْ تَرَوْها» من ملائكة و ما أشبه حيث فصلوا بينهم و بينه عند خروجه عن بيته و في الغار و عند هجرته، و كذلك في حرب بدر و حنين و الأحزاب و ما أشبه.

«وَ جَعَلَ كَلِمَةَ الَّذِينَ كَفَرُوا السُّفْلى‏» و هي كلمتهم الخبيثة بدار الندوة حيث أجمعوا على قتله باغتياله ليلا في فراشه.

«وَ كَلِمَةُ اللَّهِ هِيَ الْعُلْيا» على مدار الزمن دون حاجة إلى جعل،

الفرقان في تفسير القرآن بالقرآن، ج‏13، ص: 102

و الرسول (صلى اللَّه عليه و آله و سلم) «بقرآنه المبين و برهانه المتين هو من كلمات الله العليا و الله عزيز حكيم».

ذلك فلم يكسب صاحبه في الغار من تلك الصحبة فضيلة إن لم تكن عليه رذيلة، فإنه هو الذي لحقه (صلى اللَّه عليه و آله و سلم) إلى الغار دون اختيار منه (صلى اللَّه عليه و آله و سلم) ثم حزن لحد نهاه (صلى اللَّه عليه و آله و سلم) عنه و احتسب ذلك النهي نصرة له و ما هي له نصرة إلا إذا كان حزنه خطرا عليه، ثم أنز اللَّه سكينة عليه (صلى اللَّه عليه و آله و سلم) دون صاحبه و هو نصرة له (صلى اللَّه عليه و آله و سلم) أخرى إيجابيا، ثم سلبيا أن صاحبه ما كان في حقل الإيمان بدرجة يليق أن تشمله السكينة الربانية و هو أحوج إليها منه (صلى اللَّه عليه و آله و سلم).

هذه مسارح سبعة لنصرته‏ «فَقَدْ نَصَرَهُ اللَّهُ» دون انتصار فيها لصاحبه في الغار و لا افتخار اللّهم إلا عار فوق عار لمكان‏ «لا تَحْزَنْ‏ ... فَأَنْزَلَ اللَّهُ سَكِينَتَهُ عَلَيْهِ».

انْفِرُوا خِفافاً وَ ثِقالًا وَ جاهِدُوا بِأَمْوالِكُمْ وَ أَنْفُسِكُمْ فِي سَبِيلِ اللَّهِ ذلِكُمْ خَيْرٌ لَكُمْ إِنْ كُنْتُمْ تَعْلَمُونَ (41).

«انفروا» لجهاد عدوكم حالكونكم «خفافا» غير مثقلين بأهلين و أموال و بنين «و ثقالا» بهم مثقلين، أو و «خفافا» يسهل لكم النفر لشبابكم و ما أشبه «و ثقالا» يثقل لشيخوختكم و ما أشبه، فعلى أية حال انفروا دون تثاقل إلى الأرض و أية عاذرة غادرة مما يبين أن لا عذر إطلاقا عن ذلك الجهاد من خفة أو ثقل، اللّهم إلا الأعذار القاطعة، فقد كان ذلك استنفارا عاما لا يستثنى منه.

«وَ جاهِدُوا بِأَمْوالِكُمْ» التي تأخذونها معكم إلى جبهات القتال، و التي تقدمونها إليها «و أنفسكم» هي الأخرى المقدمة لها «فِي سَبِيلِ اللَّهِ» دون سواه، لغزوة الروم في تبوك أما أشبهها «ذلِكُمْ خَيْرٌ لَكُمْ» من تثاقلكم إلى الأرض رضى بالحياة الدنيا من الآخرة «إِنْ كُنْتُمْ تَعْلَمُونَ» ما أعد اللَّه لكم من خير في الدارين.

الفرقان في تفسير القرآن بالقرآن، ج‏13، ص: 103

هذا، و ذلك استنفار منقطع النظير من هذا البشير النذير لحرب منقطعة النظير، و في جو مظلم من الدعايات المضللة ضدها، المثقلة إلى الأرض فيها.

فهنا «خِفافاً وَ ثِقالًا» حالان تشملان كافة الأحوال لكل المسلمين حينذاك، قطعا لكل المعاذير غير العاذرة، ف‏ «جاهِدُوا بِأَمْوالِكُمْ وَ أَنْفُسِكُمْ» تستنفر كل الأموال و الأنفس، من جامع بينهما في ذلك الجهاد، و من معذور في أحدهما، فرضا عليه الجهاد بالآخر، حضورا في المعركة بهما كليهما، أم بأموالكم إن لم تقدروا بأنفسكم، أم بأنفسكم إن لم تكن لكم أموال، استقطابا لكافة الطاقات و الإمكانيات في ذلك الاستنفار العام لكافة القوات الإسلامية عن بكرتها.

أجل‏ «انْفِرُوا خِفافاً»: ناشطين- قليلي العيال، خفافا من السلاح، مشاة، شيوخا، شبابا- و مهازيل و مراضا أما أشبه «و ثقالا» يقابلها: شاقة عليكم، ثقيلي العيال، ثقيلي السلاح، ركبانا، شيوخا و سمانا و صحاحا.

و قد قدمت‏ «خِفافاً وَ ثِقالًا» تأكيدا على النفر، أو كان النفير الخفاف متقدمين كما «رجالا» في الحج على‏ «كُلِّ ضامِرٍ» تشجيعا للاتجاه إلى المفروض و كأنه على الضعفاء قبل الأقوياء.

إذا ف‏ «خِفافاً وَ ثِقالًا» تعم الجميع نفرا في كل حال دون التماس حجج و معاذير أو خضوع للعوائق و التعلات، و كما

عن ابن أم مكتوم‏ انه قال لرسول اللَّه (صلى اللَّه عليه و آله و سلم) أعلي أن أنفر؟ قال: ما أنت إلا خفيف أو ثقيل- فرجع إلى أهله و لبس سلاحه و وقف بين يديه فنزل قوله تعالى: «لَيْسَ عَلَى الْأَعْمى‏ حَرَجٌ» «1».

\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_

(1). تفسير الفخر الرازي 16: 70 و فيه قال مجاهد: إن أبا أيوب شهد بدرا مع الرسول (صلى اللَّه عليه و آله و سلم) و لم يتخلف عن غزوات المسلمين و يقول قال اللَّه: «انْفِرُوا خِفافاً وَ ثِقالًا» فلا أحدني إلا خفيفا أو ثقيلا، و عن صفوان بن عمرو قال: كنت واليا على حمص فلقيت شيخا قد سقط حاجباه من أهل دمشق على راحلته يريد الغزو، قلت يا عم‏

الفرقان في تفسير القرآن بالقرآن، ج‏13، ص: 104

و قد خرج سعيد بن المسيب إلى الغزو و قد ذهبت إحدى عينيه فقيل له: إنك عليل صاحب ضرر، فقال: استنفر اللَّه الخفيف و الثقيل فإن عجزت عن الجهاد كثّرت السواد و حفظت المتاع‏ «1».

ذلك، و لأن الآية في موقف الاستنفار العام فلا تنسخ و لا تنسخها آيات العذر من عمى و ما أشبه، فلكلّ دور يخصه دونما تناسخ.

ذلك، و الروايات المروية عن النبي (صلى اللَّه عليه و آله و سلم) بحق الجهاد و المجاهدين تبلغ مئات و مئات و إليكم عناوين منها:

«من قاتل لتكون كلمة الله هي العليا»

و

«أفضل الناس مؤمن يجاهد بنفسه و ماله في سبيل الله»

و

«الجهاد أفضل العمل»

و

«غدوة في سبيل الله أو روحة خير من الدنيا و ما فيها»

«إن في الجنة مائة درجة أعدها الله للمجاهدين في سبيله»

«لا يزال من أمتي أمة يقاتلون على الحق حتى تقوم الساعة»

«المجاهد في سبيل الله حق على الله عونه»

و .. «2».

أ ترى الإسلام يأمر أو يسمح بقتال من لا يقاتلنا و لا يضارنا بشي‏ء؟

كلّا فإن قتال من لا يعتدي اعتداء محظور كضابطة:

\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_

أنت معذور عند الله، فرفع حاجبيه و قال: يا ابن أخي استنفرنا الله خفافا و ثقالا، ألا إن من أحبه ابتلاه.

(1). المصدر عن الزهري: خرج .. و فيه قيل للمقداد بن الأسود و هو يريد الغزو: أنت معذور، فقال: أنزل الله علينا في سورة براءة: انفروا خفافا و ثقالا. و في تفسير «في ظلال» 4: 226: قرأ أبو طلحة سورة براءة فأتى على هذه الآية فقال: أرى ربنا استنفرنا شيوخا و شبانا جهزوني يا نبي، فقال بنوه: يرحمك الله قد غزوت مع رسول الله (صلى الله عليه و آله و سلم) حتى مات و مع أبي بكر حتى مات و مع عمر حتى مات فنحن نغزو عنك، فأبي فركب البحر فمات فلم يجدوا له جزيرة يدفنونه فيها إلا بعد تسعة أيام فلم يتغير فدفنوه بها، و فيه روى ابن جرير باسناده عن أبي راشد الحراني قال: وافيت المقداد ابن الأسود فارس رسول الله (صلى الله عليه و آله و سلم) جالسا على تابوت من توابيت الصيارفة و قد فضل عنها من عظمه يريد الغزو فقلت له: قد أعذر الله إليك، فقال: «أتت علينا سورة البعوث» أقول: و هي من اسماء هذه السورة.

(2) مفتاح كنوز السنة نقلا عن عشرات من كتب السنة.

الفرقان في تفسير القرآن بالقرآن، ج‏13، ص: 105

وَ قاتِلُوا فِي سَبِيلِ اللَّهِ الَّذِينَ يُقاتِلُونَكُمْ وَ لا تَعْتَدُوا إِنَّ اللَّهَ لا يُحِبُّ الْمُعْتَدِينَ (2: 190) و ليس الاعتداء في حقل القتال بالذي يقبل النسخ حتى يظن نسخ الآية بما يظن، و أما «قاتِلُوهُمْ حَتَّى لا تَكُونَ فِتْنَةٌ وَ يَكُونَ الدِّينُ- لِلَّهِ فَإِنِ انْتَهَوْا فَلا عُدْوانَ إِلَّا عَلَى الظَّالِمِينَ» (2: 193) و (8: 39) فقد تعني قتال المفتتنين على المؤمنين و المستضعفين، سواء أ كانت فتنة نفسية أم عقيدية أماهيه من فتن مدمرة مزمجرة.

ففيما يقول اللَّه‏ «اقْتُلُوهُمْ حَيْثُ ثَقِفْتُمُوهُمْ» (2: 191) فقد يعني‏ «الَّذِينَ يُقاتِلُونَكُمْ» كما في سابقتها، و أحيان يقول: «قاتلوهم» فالمفاعلة تعني مادة الفعل المتداول بين طرفيه، فلا تعني إلا قتال الذين يقاتلوننا أم هم يريدون قتالنا فندافع إذا عن أنفسنا.

و ليس المعني من الفتنة التي لأجلها يسمح في قتال الفاتنين، إلا الأخطار المتجاوزة من أهليها، و أما هؤلاء الكفار الذين لا يفتنون المؤمنين و لا سائر المستضعفين فلا أمر و لا سماح لقتالهم أبدا.

فالقتال الإسلامي هو فقط قتال كافّة، تكف بأس الذين كفروا «وَ قاتِلُوا الْمُشْرِكِينَ كَافَّةً كَما يُقاتِلُونَكُمْ كَافَّةً وَ اعْلَمُوا أَنَّ اللَّهَ مَعَ الْمُتَّقِينَ» (9: 36).

فالتقوى في القتال هي الاتقاء عنه في غير الكف و الاعتداء بالمثل، كفا عن فتنتهم و اعتداء كما اعتدوا، ثم لا قتال بعد! و إنما «أُذِنَ لِلَّذِينَ يُقاتَلُونَ بِأَنَّهُمْ ظُلِمُوا وَ إِنَّ اللَّهَ عَلى‏ نَصْرِهِمْ لَقَدِيرٌ» (22: 39).

لَوْ كانَ عَرَضاً قَرِيباً وَ سَفَراً قاصِداً لَاتَّبَعُوكَ وَ لكِنْ بَعُدَتْ عَلَيْهِمُ الشُّقَّةُ وَ سَيَحْلِفُونَ بِاللَّهِ لَوِ اسْتَطَعْنا لَخَرَجْنا مَعَكُمْ يُهْلِكُونَ أَنْفُسَهُمْ وَ اللَّهُ يَعْلَمُ إِنَّهُمْ لَكاذِبُونَ (42).

العرض هو العارض الزائل دون أصالة ذاتية، فهو مقابل الذات الأصيلة: «تَبْتَغُونَ عَرَضَ الْحَياةِ الدُّنْيا فَعِنْدَ اللَّهِ مَغانِمُ كَثِيرَةٌ» (4: 94) «يَأْخُذُونَ عَرَضَ هذَا الْأَدْنى‏ وَ يَقُولُونَ سَيُغْفَرُ لَنا» (7: 169) «تُرِيدُونَ عَرَضَ الدُّنْيا وَ اللَّهُ يُرِيدُ الْآخِرَةَ» (8: 67).

الفرقان في تفسير القرآن بالقرآن، ج‏13، ص: 106

و العرض القريب هو السهل التناول، قربا في زمان و مكان و مكانة دون أي بعد و أية صعوبة.

ف «لو» أن ذلك الجهاد «كانَ عَرَضاً»: غنيمة «قريبا»: بمتناول أيديهم طمعا فيه‏ «وَ سَفَراً قاصِداً» قريبا سهلا يسيرا فيه غنيمة و غلبة، لكان يقصد بطبيعة الحال- فلا تعني «مقتصدا» حيث الأقل من المقتصد أقرب للإتباع، إنما «قاصدا» يقصد و كأنه بنفسه يقصد، إذا «لاتبعوك» في جهاد العدو «وَ لكِنْ بَعُدَتْ عَلَيْهِمُ الشُّقَّةُ» في هذه السفرة إلى تبوك الروم شقة في المسافة و شقة في المصافة حيث شاع بالمدينة أن الروم قد اجتمعوا يريدون غزو رسول اللَّه (صلى اللَّه عليه و آله و سلم) في عسكر عظيم، و أن هرقل قد سار في جنوده و جلب معهم غسان و جذام و بهراء و عاملة، و قد قدم عساكره البلقاء، و نزل هو حمص فأمر رسول اللَّه (صلى اللَّه عليه و آله و سلم) التهيؤ إلى تبوك .. «1».

\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_

(1).

نور الثقلين 2: 222 عن تفسير القمي‏ في قوله تعالى‏ «وَ لكِنْ بَعُدَتْ عَلَيْهِمُ الشُّقَّةُ» يعني إلى تبوك و ذلك أن رسول اللَّه (صلى اللَّه عليه و آله و سلم) لم يسافر سفرا أبعد منه و لا أشد منه و كان سبب ذلك أن الضيافة كانوا يقدمون المدينة من الشام معهم الدرموك و الطعام و هم الأنباط فأشاعوا بالمدينة .. فأمر رسول اللَّه (صلى اللَّه عليه و آله و سلم) التهيؤ إلى تبوك و هي من بلاد البلقاء و بعث إلى القبائل حوله و إلى مكة و إلى من أسلم من خزاعة و مزينة و جهينة و حثهم على الجهاد و أمر رسول اللَّه (صلى اللَّه عليه و آله و سلم) بعسكره فضرب في ثنيته الوداع و أمر أهل الجدة أن يعينوا من لا قوة به و من كان عنده شي‏ء أخرجه و حملوا و قووا و حثوا على ذلك و خطب رسول اللَّه (صلى اللَّه عليه و آله و سلم) فقال بعد أن حمد اللَّه و أثنى عليه: أيها الناس أن أصدق الحديث كتاب اللَّه ...

قال: فرغب الناس لما سمعوا هذا من رسول اللَّه (صلى اللَّه عليه و آله و سلم) و قدمت القبائل من العرب من استنفرهم و قعد عنه قوم من المنافقين و غيرهم و لقى رسول اللَّه (صلى اللَّه عليه و آله و سلم) الجد بن قيس فقال له: يا با وهب ألا تنفر معنا في هذه الغزاة لعلك أن تحتفد من بنات الأصفر؟ فقال: يا رسول اللَّه (صلى اللَّه عليه و آله و سلم) إن قومي ليعلمون أنه ليس فيهم أحد أشد عجبا بالنساء مني و أخاف أن خرجت معك أن لا أصبر إذ رأيت بنات الأصفر فلا تفتني و ائذن لي أن أقيم، و قال لجماعة من قومه: لا تخرجوا في الحر، فقال ابنه: ترد على رسول اللَّه (صلى اللَّه عليه و آله و سلم)

الفرقان في تفسير القرآن بالقرآن، ج‏13، ص: 107

فهذه الشقة مسافة و مصافة خاوية عن عرض قريب و مرض غريب كانت تمنعهم عن هذه الغزوة، و هنا المندّد بهم هم جمع منهم لا كلهم أو كثير منهم لمكان: «سَيَحْلِفُونَ بِاللَّهِ» إذا رجعتم إليهم: «سَيَحْلِفُونَ بِاللَّهِ لَوِ اسْتَطَعْنا لَخَرَجْنا مَعَكُمْ» فهم الذين في قلوبهم مرض من المنافقين و أضرابهم، و «إِلَّا تَنْصُرُوهُ» تعمهم دون صالحي المؤمنين المناصرين إياه على أية حال.

هؤلاء الهلكى الأنكاد «يُهْلِكُونَ أَنْفُسَهُمْ» إعذارا لا يقبل، و تخلفا عن المفروض و استحقاقا للعذاب‏ «وَ اللَّهُ يَعْلَمُ إِنَّهُمْ لَكاذِبُونَ» في قالتهم:

«لَوِ اسْتَطَعْنا لَخَرَجْنا مَعَكُمْ» و أمثالها «1».

و هذه السلسلة من آيات الجهاد هي منقطعة النظير في مسارحه، إذ كانت غزوة تبوك هي من أشد الغزوات عليهم و أحدّها فيهم، حيث‏

\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_

و تقول ما تقول ثم تقول لقومك: لا تنفروا في الحر و اللَّه لينزلن اللَّه في هذا قرآنا يقرءه الناس إلى يوم القيامة فأنزل اللَّه على رسوله في ذلك: و منهم من يقول ائذن لي و لا تفتني إلا في الفتنة سقطوا و ان جهنم لمحيطة بالكافرين، ثم قال الجد بن قيس: أ يطمع محمد أن حرب الروم مثل حرب غيرهم؟ لا يرجع من هؤلاء أحد أبدا.

(1).

نور الثقلين 2: 212 في كتاب التوحيد عن أبي عبد اللَّه (عليه السلام) في الآية قال: أكذبهم اللَّه عزّ و جلّ في قولهم: «لَوِ اسْتَطَعْنا لَخَرَجْنا مَعَكُمْ» و قد كانوا مستطيعين للخروج، و في تفسير العياشي عن زرارة و حمران و محمد بن مسلم عن أبي جعفر و أبي عبد اللَّه في الآية، انهم يستطيعون و قد كان في علم اللَّه لو كان عرضا قريبا و سفرا قاصدا لفعلوا.

و

في الدر المنثور 3: 246- أخرج ابن جرير عن ابن عباس قال: أن رسول اللَّه (صلى اللَّه عليه و آله و سلم) قيل له: ألا تغزو بني الأصفر لعلك أن تصيب ابنة عظيم الروم؟ فقال رجلان: قد علمت يا رسول اللَّه (صلى اللَّه عليه و آله و سلم) أن النساء فتنة فلا تفتنا بهن فائذن لنا فأذن لهما فلما انطلقا قال أحدهما إن هو الأشحمة لأول آكل فسار رسول اللَّه (صلى اللَّه عليه و آله و سلم) و لم ينزل عليه شي‏ء في ذلك فلما كان ببعض الطريق نزل عليه و هو على بعض المياه‏ «لَوْ كانَ عَرَضاً ..» و نزل عليه‏ «عَفَا اللَّهُ عَنْكَ لِمَ أَذِنْتَ لَهُمْ ..» و نزل عليه‏ «لا يَسْتَأْذِنُكَ ..» و نزل عليه‏ «إِنَّهُمْ رِجْسٌ ..».

الفرقان في تفسير القرآن بالقرآن، ج‏13، ص: 108

«بَعُدَتْ عَلَيْهِمُ الشُّقَّةُ» كل البعد من جهات عدة تمنع هؤلاء عن تلك العدّة.

و لقد ركزت الآيات السورة منذ الثامنة و الثلاثين حتى الأخيرة- و هي أكثر من ثلثي آياتها- ركزت على حث الجهاد و التنديد بالمتكاسلين عنه من المنافقين و الذين في قلوبهم مرض، مما يبين شدة وطأتهم و تواطئهم ضد الإسلام، و تباطئهم عن مشاركة الجهاد.

فهؤلاء هم المندّد بهم طيلة هذه الآيات و منها «إلا تنصروه» دون كافة المؤمنين كما قد يزعمه أصحاب صاحب الغار، تبجيلا لصاحبهم و تخجيلا لسائر الأصحاب، فما أجهلهم في ذلك التفسير التعتير التعيير، إزراء بكافة المؤمنين بمن فيهم من أفاضلهم كالإمام علي أمير المؤمنين (عليه السلام) و من أشبه.

و لأن شؤون نزول الآيات ليست لتحددها بحدودها السابقة، فهي- إذا- مطلقة منطلقة- مطبقة على كافة الموارد المشابهة من الحروب القاصية العاصية، فكلما كان الخطر أعظم فالمسئولية لدفعه أهم و أضخم على مدار الزمن الرسالي، دون اختصاص بالزمن الرسولي.

لذلك لا تجد في ذلك المسرح الطائل و لا لمحة لخصوص غزوة تبوك، مع العلم أن اللَّه صرح بمسرح بدر و حنين و الأحزاب و ما أشبه، على أن هذه المصرح بها أيضا ليست لتقف بخاصة مواقفها، حيث التاريخ يتجدد دونما وقفة أبدا، فلتجدّد المسؤوليات أمام حوادثها و كوارثها على طول الخط.

أجل و «لَوْ كانَ عَرَضاً قَرِيباً» معروضا عليهم من قرب‏ «وَ سَفَراً قاصِداً» يقصد لكل قاصد «لاتبعوك» لمكان الأريحية القاصدة لهؤلاء المنافقين، و سترا على كفرهم كأنهم من الموافقين‏ «وَ لكِنْ بَعُدَتْ عَلَيْهِمُ الشُّقَّةُ» الشقة الشاقة البعيدة التي تتقاصر دونها الهمم الساقطة و تتعاسر العزائم الهابطة.

فكثيرهم أولاء الذين يتهاوون في صاعد الطريق و سامقه إلى الآفاق‏

الفرقان في تفسير القرآن بالقرآن، ج‏13، ص: 109

الفائقة، و يميلون إلى تفاهة الأعراض الدانية الفانية، عائشين على هوامش الحياة و غوامشها: «وَ سَيَحْلِفُونَ بِاللَّهِ لَوِ اسْتَطَعْنا لَخَرَجْنا مَعَكُمْ» و هم مستطيعون واقعيا، و لا يستطيعون بأعذار غادرة مائرة، كذب ماكر حاكر يدل على ضعف خامر، مهما خيّل إليهم أنهم أقوياء، كلا و انهم ضعفاء أغوياء «وَ اللَّهُ يَعْلَمُ إِنَّهُمْ لَكاذِبُونَ» كما و أهل اللَّه يعلمون.

لقد حاولوا ماكرين ليأذن لهم الرسول (صلى اللَّه عليه و آله و سلم) ليكونوا مع القاعدين المعذورين فأذن لهم ظنا منه أنهم صادقون في اعتذارهم حسب المرسوم من تصديق ظاهر الاعتذار ممن يدعي و يبرز الإيمان، و لكنه كان عاجلا فعفي اللَّه عنه (صلى اللَّه عليه و آله و سلم):

عَفَا اللَّهُ عَنْكَ لِمَ أَذِنْتَ لَهُمْ حَتَّى يَتَبَيَّنَ لَكَ الَّذِينَ صَدَقُوا وَ تَعْلَمَ الْكاذِبِينَ (43).

هنا يتساءل قائد القوات المسلحة الرسولي‏ «لِمَ أَذِنْتَ لَهُمْ حَتَّى ...» قرينا ب‏ «عَفَا اللَّهُ عَنْكَ» دون أن تبرز توبة منه (صلى اللَّه عليه و آله و سلم) و استعفاء، فهل هو بعد عصيان بقرينة «عَفَا اللَّهُ عَنْكَ لِمَ أَذِنْتَ لَهُمْ»؟ أم ليس عصيانا بنفس النص، حيث لم يقرن بتوبة؟.

قد تعني «عفى» دون «يعفو» عفوا سابقا سابغا على إذنه كما له سابقة في: «عَلِمَ اللَّهُ أَنَّكُمْ كُنْتُمْ تَخْتانُونَ أَنْفُسَكُمْ فَتابَ عَلَيْكُمْ وَ عَفا عَنْكُمْ» (2: 187) فإنه عفو عن حكم الصيام ليلا أن اللَّه نفى بما عفى حكم صيام الليل، فليس- إذا- عفوا عن عصيان رفعا، و إنما هو عفو دفعا، و كما الاستغفار و الغفر حيث يجمعان الدفع إلى الرفع، فقد عفى اللَّه عنه قبل إذنه إياه لذلك الإذن، ثم أنبه دون تأليب‏ «لِمَ أَذِنْتَ لَهُمْ» و بيّن سبب التأنيب «حتى تعلم ..» و لكنه تعالى عرفهم إياه فلم يكن- إذا- إذنه عصيانا.

و ما أحسنه تعبيرا أدبيا أديبا يحافظ على كرامة الرسول (صلى اللَّه عليه و آله و سلم) أن يبدأ بالعفو قبل ظاهرة المعاتبة، مما يدل على أنها معاتبة و دية أدبية، دون أية معاقبة أم مسّ من كرامة العصمة.

الفرقان في تفسير القرآن بالقرآن، ج‏13، ص: 110

كما و أن «حتى تعلم» تبيّن أن ذلك لم يكن محظورا في أصله، و قد يتبين من آيات تالية أن في حضورهم محظورا، إذ «لَوْ خَرَجُوا فِيكُمْ ما زادُوكُمْ إِلَّا خَبالًا وَ لَأَوْضَعُوا خِلالَكُمْ يَبْغُونَكُمُ الْفِتْنَةَ وَ فِيكُمْ سَمَّاعُونَ لَهُمْ وَ اللَّهُ عَلِيمٌ بِالظَّالِمِينَ» «1».

و من عفوه تعالى عنه (صلى اللَّه عليه و آله و سلم) أنه تعالى عرّفهم خلال هذه الآيات البينات، فاستأصل- إذا- حظر إذنه لهم، حيث النتيجة من عدم إذنه حصلت بهذه الآيات، و نتيجة إذنه أنهم كانوا خبالا و فتنة لو حضروا، فلا مبرر إذا لتكلّفات فارغة عن الحق المرام، و كأن‏

«هذا مما نزل بإياك أعني و اسمعي يا جارة، خاطب الله تعالى بذلك نبيه و أراد به أمته» «2»

فمن ذا الذي أذن لهم من الأمة حتى يفسر ذلك الخطاب تأويلا إليهم دونه؟!، و هو- فقط- قائد القوات المسلحة، و ليس لأحد أن يأذن لأحد دون إذنه.

و غاية ما هنالك أنه (صلى اللَّه عليه و آله و سلم) أذن عاجلا دون تثبت، فلم يتبين له الذين صدقوا و يعلم الكاذبين، فإن لم يأذن كانوا يقعدون كما أذن، فكان يعرفهم أنهم كاذبون‏ «3».

ذلك، فلم يكن إذنه- إذا- بإذن اللَّه، مهما كان معذورا لم يكن في إذنه عاصيا للَّه، و لكنه كيف يتلائم إذنه هذا- إذا- مع‏

\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_

(1، 2).

نور الثقلين 2: 223 في عيون الأخبار باسناده إلى علي بن محمد بن الجهم قال: حضرت مجلس المأمون و عنده الرضا (عليه السلام) فقال له المأمون: يا بن رسول اللَّه (صلى اللَّه عليه و آله و سلم) أ ليس من قولك أن الأنبياء معصومون؟ قال: بلى، قال:

فما معنى قول اللَّه عزّ و جلّ- إلى أن قال-: فأخبرني عن قول اللَّه عزّ و جلّ‏ «عَفَا اللَّهُ عَنْكَ لِمَ أَذِنْتَ لَهُمْ» قال الرضا (عليه السلام): هذا مما نزل ... كذلك قول اللَّه عزّ و جلّ‏ «لَئِنْ أَشْرَكْتَ لَيَحْبَطَنَّ عَمَلُكَ وَ لَتَكُونَنَّ مِنَ الْخاسِرِينَ» و قوله‏ «وَ لَوْ لا أَنْ ثَبَّتْناكَ لَقَدْ كِدْتَ تَرْكَنُ إِلَيْهِمْ شَيْئاً قَلِيلًا» قال: صدقت يا ابن رسول اللَّه (صلى اللَّه عليه و آله و سلم).

(3)

الدر المنثور 3: 247- أخرج ابن أبي شيبة و ابن المنذر و ابن أبي حاتم عن مجاهد في قوله‏ «عَفَا اللَّهُ عَنْكَ» قالوا: استاذنوا رسول اللَّه (صلى اللَّه عليه و آله و سلم) فان أذن لكم فاقعدوا و إن لم يأذن لكم فاقعدوا.

الفرقان في تفسير القرآن بالقرآن، ج‏13، ص: 111

لِتَحْكُمَ بَيْنَ النَّاسِ بِما أَراكَ اللَّهُ (4: 105) و «ما يَنْطِقُ عَنِ الْهَوى‏. إِنْ هُوَ إِلَّا وَحْيٌ يُوحى‏» (53: 4) و أضرابهما من الحجج على عصمته الطليقة؟!.

إن الرسول (صلى اللَّه عليه و آله و سلم) على عصمته الطليقة قد يطلقه اللَّه تعالى فيفلت فلتة يسيرة، لكي يعلم و تعلم معه الأمة أنه ليس مكتفيا بنفسه: «وَ لَوْ لا أَنْ ثَبَّتْناكَ لَقَدْ كِدْتَ تَرْكَنُ إِلَيْهِمْ شَيْئاً قَلِيلًا» (17:) 74).

و هكذا تفسر كافة المظاهر من تأنيبات اللَّه رسوله (صلى اللَّه عليه و آله و سلم) و سائر الرسل، أنها لصالح الرسالة، كيلا يزعم زاعمون أنه يقول ما يقول من عند نفسه، دون صدام بينها و بين عصمته الطليقة «1».

و

قد يجيب الإمام علي أمير المؤمنين (عليه السلام) عن سؤال الزنديق بحق هفوات الأنبياء بقوله: «و أما هفوات الأنبياء و ما بينه الله في كتابه فإن ذلك من أدل الدلائل على حكمة الله عز و جل الباهرة و قدرته القاهرة و عزته الظاهرة، لأنه علم أن براهين الأنبياء تكبر في صدورهم، و أن منهم من يتخذ بعضهم إليها كالذي كان من النصارى في ابن مريم، فذكرها دلالة على تخلفهم عن الكمال الذي تفرد به عز و جل، ألم تسمع إلى قوله في صفة عيسى (عليه السلام) حيث قال فيه و في أمه»: «كانا يَأْكُلانِ الطَّعامَ» يعني من أكل الطعام كان له ثفل و من كان له ثفل فهو بعيد عما ادعته النصارى لابن مريم‏ «2».

ذلك، فليس ليفيض اللَّه عصمته الخاصة الطليقة على أحد من عباده، و العصمة الرسالية لا تعني إلّا تلقيا رساليا و بلاغا و تطبيقا رساليين، و من البلاغ الرسالي تبيين أنهم ليسوا إلّا رسلا لا يستقلون عن اللَّه و لا يستغلون رسالة اللَّه، فلا بد- إذا- لهم من هفوات تدليلا على قصوراتهم‏

\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_

(1). الدر المنثور 3: 247- أخرج عبد الرزاق في المصنف و ابن جرير عن عمرو بن ميمون الأودي قال: اثنتان فعلهما رسول اللَّه (صلى اللَّه عليه و آله و سلم) لم يؤمر فيهما بشي‏ء، إذنه للمنافقين و أخذه من الأسارى فأنزل اللَّه: عفا اللَّه عنك ...

(2) بحار الأنوار 90: 112 باب رد المتناقض في القرآن.

الفرقان في تفسير القرآن بالقرآن، ج‏13، ص: 112

الذاتية، ثم اللَّه يبينها لذلك و لكي لا يبقى نقص في شرعته.

فلو أن اللَّه عصمهم كما هو لضل كثير رغما أنهم آلهة، و لو أنه لم يبين قصورهم الذاتي لم يتبينوا أنهم ليسوا بآلهة، و لا ما هو الحق فيما قصروا.

إذا فهفوات النبيين فيما دون العصيان هي ضرورات ذوات أبعاد.

فكما أن قضية الحكمة الربانية أن يعصم رسوله بعصمة طليقة، كذلك الحكمة من واجهة أخرى حفاظا على الرسالة من الغلو فيها أن يطلقه اللَّه طرفة بعد طرفة، ثم يمسكه على طول الخط و في كل طرفة، تدليلا على‏ «وَ لَئِنْ شِئْنا لَنَذْهَبَنَّ بِالَّذِي أَوْحَيْنا إِلَيْكَ ثُمَّ لا تَجِدُ لَكَ بِهِ عَلَيْنا وَكِيلًا. إِلَّا رَحْمَةً مِنْ رَبِّكَ إِنَّ فَضْلَهُ كانَ عَلَيْكَ كَبِيراً» (17: 87) و ليس فيه تضليل للأمم حيث يبين اللَّه لهم موارد هفواتهم، و أنها ما كانت عصيانا له تعالى إلا خطأ قاصرا دون تقصير.

ذلك و كما أبطأ عنه الوحي ردحا حتى ظن ظانون أن ربه ودّعه و قلاه فنزلت: «وَ الضُّحى‏. وَ اللَّيْلِ إِذا سَجى‏. ما وَدَّعَكَ رَبُّكَ وَ ما قَلى‏» فكما الضحى صالحة للحياة، كذلك الليل إذا سجى، و هكذا سجى ليل انقطاع الوحي، كضحى الوحي، هما صالحان لهذه الرسالة، مهما اختلفت صورة عن صورة، حيث السيرة واحدة تعني تبني هذه الرسالة السامية ألّا يظن بالرسول أنه يملك وحي اللَّه، أو أنه يصدر بوحي من عقليته البشرية.

كما و أن‏ «ما كُنْتَ تَتْلُوا مِنْ قَبْلِهِ مِنْ كِتابٍ وَ لا تَخُطُّهُ بِيَمِينِكَ إِذاً لَارْتابَ الْمُبْطِلُونَ» (29: 48) نموذج آخر من هذه الحائطة، فرغم أن التلاوة و خط الكتاب هما من الفضائل، قد يصبحان خارجة عنها إلى الرذائل، حيث‏ «إِذاً لَارْتابَ الْمُبْطِلُونَ».

و بعد كل ذلك فقد كان الرسول (صلى اللَّه عليه و آله و سلم) مأذونا أن يأذن لمن شاء من المؤمنين: «إِنَّمَا الْمُؤْمِنُونَ الَّذِينَ آمَنُوا بِاللَّهِ وَ رَسُولِهِ وَ إِذا كانُوا مَعَهُ عَلى‏ أَمْرٍ جامِعٍ لَمْ يَذْهَبُوا حَتَّى يَسْتَأْذِنُوهُ إِنَّ الَّذِينَ يَسْتَأْذِنُونَكَ أُولئِكَ الَّذِينَ يُؤْمِنُونَ بِاللَّهِ وَ رَسُولِهِ فَإِذَا اسْتَأْذَنُوكَ لِبَعْضِ شَأْنِهِمْ فَأْذَنْ لِمَنْ‏

الفرقان في تفسير القرآن بالقرآن، ج‏13، ص: 113

شِئْتَ مِنْهُمْ وَ اسْتَغْفِرْ لَهُمُ اللَّهَ إِنَّ اللَّهَ غَفُورٌ رَحِيمٌ» (24: 62).

فظاهر إقرار هؤلاء المنافقين من ناحية، و ظاهرة الاستئذان- و هي حسب هذه الآية إمارة أخرى على الإيمان- من أخرى، قد سمحت له أن يأذن لهؤلاء بمجرد استئذانهم، دون أن يعرف كذبهم حتى عرّفهم اللَّه إياه.

فلما لم يكن الصادق بينا له عن الكاذب، فهل له أن يحملهم دون معرفة على الكذب؟ كلّا! و لكن الحائطة في ذلك المسرح الخطير كانت تقتضي أن يؤجل إذنهم نظرة تبيّنه، و قد كفى اللَّه أمره أن عرّفهم إياه فعرفهم في هذه الإذاعة القرآنية.

إذا ف‏ «لِمَ أَذِنْتَ لَهُمْ» بعد «عَفَا اللَّهُ عَنْكَ» و قبل‏ «حَتَّى يَتَبَيَّنَ» قصاراه التأنيب بما لا ينبغي و هو في نفسه غير محظور، أم إن إذنهم بين محظور و محبور، محظور إذا لم يتبين كذبهم، و محبور إذ «لَوْ خَرَجُوا فِيكُمْ ما زادُوكُمْ إِلَّا خَبالًا» و لكنهم ما كانوا يخرجون و إن لم يأذن لهم، ثم اللَّه بين له (صلى اللَّه عليه و آله و سلم) كذبهم فلم يبق في البين محظور، و لا سيما أن عدم إعدادهم عدة هو من ملامح كذبهم: «وَ لَوْ أَرادُوا الْخُرُوجَ لَأَعَدُّوا لَهُ عُدَّةً وَ لكِنْ كَرِهَ اللَّهُ انْبِعاثَهُمْ فَثَبَّطَهُمْ وَ قِيلَ اقْعُدُوا مَعَ الْقاعِدِينَ» إذا ف «حتى تعلم» كان حاصلا دون تمام بعدم إعدادهم عدة، و لم يخسر هنا إلا تمام العلم بكذبهم، و قد جبر اللَّه كسره بما أخبره.

ذلك، إضافة إلى أنه كان يعرفهم في لحن القول: «وَ لَتَعْرِفَنَّهُمْ فِي لَحْنِ الْقَوْلِ» (47: 30) و منه هنا «ائْذَنْ لِي وَ لا تَفْتِنِّي» و سائر قالهم القال الغائل.

ذلك، و من لطيف جبر الكسر- في إذنه- من اللَّه، أنه تكفل فضحهم بعلامات كذبهم و دلالاته في ثلثي آيات السورة، أو ليس بيان اللَّه بعد إذنه أبين من تبيّنه إن لم يأذن لهم؟!.

و بعد ذلك كله فلم يثبت بعد أنه (صلى اللَّه عليه و آله و سلم) أتى بمحظور، فإن إذن قائد القوات لمن يستأذنه للقعود ليس في أصله محظورا،

الفرقان في تفسير القرآن بالقرآن، ج‏13، ص: 114

بل هو محبور لأصل السماح الرباني: «فَأْذَنْ لِمَنْ شِئْتَ مِنْهُمْ» و ظاهر صدقهم لمكان الإسلام و مكانته، دون واجب اتهامهم أو راجحه لكيلا يأذن لهم‏ «حَتَّى يَتَبَيَّنَ لَكَ الَّذِينَ صَدَقُوا وَ تَعْلَمَ الْكاذِبِينَ».

و ليس ذلك التبيّن واجبا أصليا لا يجبر، بل هو راجح رسالي و قد أجبر بنفس استئذانهم، و لحن القوم منهم، و ببيان اللَّه عنهم، فلم يفت منه شي‏ء بذلك الإذن، بل هو من ضمن البلاغ الرسالي بإذن اللَّه حتى يعلم قصورة الذاتي، و أنه ليس إلها كما زعمته النصارى في المسيح (عليه السلام).

و في الآيات التالية يبين اللَّه له كيان الاستئذان في الجهاد أن ليس إلا من الذين لا يؤمنون باللَّه و اليوم الآخر و ارتابت قلوبهم فهم في ريبهم يترددون.

كلام حول العصمة

: العصمة بين طليقة ذاتية و عرضية، فالأولى خاصة باللَّه لا تعدوه إلى سواه، ثم العرضية بين رسالية لرسل أم سائر المعصومين (عليهم السلام)، و هي محدودة بقضية الرسالة تلقيا للوحي و بلاغا و تطبيقا فرديا و جماعيا، و لا تحصل إلّا في ظرف العصمة البشرية و ما أشبه، و هي درجات حسب درجات الرسالات، و ليست على أية حال طليقة، و إنما هي في خط البلاغ الرسالي السليم.

ثم عصمة بشرية ليست من محطات العصمة الربانية و تسمى العدالة و هي أيضا درجات. و العصمة البشرية التي هي محطة الرسالة لا بد و أن تحصل بجهاد متواصل من صاحبها مهما صاحبها تأييد رباني من قبل و من بعد، و يعبر عنه بالاصطفاء: «إِنَّ اللَّهَ اصْطَفى‏ آدَمَ وَ نُوحاً وَ آلَ إِبْراهِيمَ وَ آلَ عِمْرانَ عَلَى الْعالَمِينَ» (3: 33) «إِنِّي اصْطَفَيْتُكَ عَلَى النَّاسِ بِرِسالاتِي وَ بِكَلامِي» (7: 144) «اللَّهُ يَصْطَفِي مِنَ الْمَلائِكَةِ رُسُلًا وَ مِنَ النَّاسِ» (22: 75) فهذه و ما أشبه هي للرسل، ثم لخلفاء معصومين لهم: «ثُمَّ أَوْرَثْنَا الْكِتابَ الَّذِينَ اصْطَفَيْنا مِنْ عِبادِنا ..» (35: 32) أم‏

الفرقان في تفسير القرآن بالقرآن، ج‏13، ص: 115

غير خلفاء: «يا مَرْيَمُ إِنَّ اللَّهَ اصْطَفاكِ وَ طَهَّرَكِ وَ اصْطَفاكِ عَلى‏ نِساءِ الْعالَمِينَ» (3: 42) أم في حقل الملكية غير الرسالية: «قالَ إِنَّ اللَّهَ اصْطَفاهُ عَلَيْكُمْ وَ زادَهُ بَسْطَةً فِي الْعِلْمِ وَ الْجِسْمِ» (2: 247)، و هكذا الاجتباء: «وَ لكِنَّ اللَّهَ يَجْتَبِي مِنْ رُسُلِهِ مَنْ يَشاءُ» (3: 179) ككل، و في إبراهيم: «شاكِراً لِأَنْعُمِهِ اجْتَباهُ وَ هَداهُ إِلى‏ صِراطٍ مُسْتَقِيمٍ» (16:) 121) و في آدم: «ثُمَّ اجْتَباهُ رَبُّهُ فَتابَ عَلَيْهِ وَ هَدى‏» (20: 122) و في يونس‏ «فَاجْتَباهُ رَبُّهُ فَجَعَلَهُ مِنَ الصَّالِحِينَ» (68: 50) و في يوسف:

«وَ كَذلِكَ يَجْتَبِيكَ رَبُّكَ وَ يُعَلِّمُكَ مِنْ تَأْوِيلِ الْأَحادِيثِ» (12: 6)، و في الرسل الإبراهيميين: «وَ مِنْ آبائِهِمْ وَ ذُرِّيَّاتِهِمْ وَ إِخْوانِهِمْ وَ اجْتَبَيْناهُمْ وَ هَدَيْناهُمْ إِلى‏ صِراطٍ مُسْتَقِيمٍ» (6: 87) و على أية حال ف‏ «اللَّهُ يَجْتَبِي إِلَيْهِ مَنْ يَشاءُ وَ يَهْدِي إِلَيْهِ مَنْ يُنِيبُ» (42: 13).

و كلّ من الاصطفاء و الاجتباء يعني طلب الأصفى و الأجبى، فلا بد من صفاء أصفى و جباء أجبى حتى يصطفي اللَّه و يجتبي.

و ترى كيف يصطفي و يجتبي مثل يحيى الذي‏ «آتَيْناهُ الْحُكْمَ صَبِيًّا» إنه يصطفيه لما يعلم أنه سوف يقوم بصالح الجدارة لبلاغ الرسالة، فهو الذي يصنع الرسل لحمل أمانات وحيه و بلاغ رسالاته بما يعلم فيهم من جدارات سابغة، سابقة أو لاحقة.

فقد قال في موسى: «وَ لِتُصْنَعَ عَلى‏ عَيْنِي‏ ... وَ اصْطَنَعْتُكَ لِنَفْسِي» (20: 39 و 41).

فقد صنعه اللَّه علي عينه منذ حمله و ولاده و رضاعه ليأهل لحمل رسالته، «ثُمَّ جِئْتَ عَلى‏ قَدَرٍ يا مُوسى‏» بما جاهدت و اجتهدت و جرّبت و جرّبت‏ «وَ اصْطَنَعْتُكَ لِنَفْسِي» هكذا، بين جهاد منك و تأييد من ربك.

فرسل اللَّه (عليهم السلام) هم صنائع اللَّه و لكن دون فوضى جزاف و ترجيح دون مرجح، فقد يحملهم من تكاليف الدعوة و مشاق الدعاية ما يصلح لمحتدهم الرسالي.

و القول أن صناعتهم من اللَّه هي التي تقدمهم على من سواهم، فما

الفرقان في تفسير القرآن بالقرآن، ج‏13، ص: 116

هي الرجاجة لهم على من سواهم؟ مردود بأن اللَّه إنما يشاء في كل دور من الأدوار الرسالية أن يصنع رسول أم رسل، فلا يصلح أن يصنع هكذا كلّ الخليقة، فإنما يصطفي من يعلم جدارته و هو يتحمل ما يحمّل من رسالته.

فلا ترجيح- إذا- دون مرجح، بل هو ترجيح بمرجح، ثم اللَّه يصنع المترجح في علمه كما يصلح لحمل رسالته، و بصورة عامة «اللَّهُ أَعْلَمُ حَيْثُ يَجْعَلُ رِسالَتَهُ»:

فقد يصطفي من هو بالفعل أصفي و هو يبقى أصفى كرسول الهدى محمد (صلى اللَّه عليه و آله و سلم) و أضرابه، أم يصطفى من يعلم أنه سوف يكون أصفى فيصفّيه اللَّه لحد يصلح لحمل رسالته تعالى، و هما مشركان في واجب حمل الرسالة بكل جدارة معنية دون تفلّت عنها و لا تلفت إلى غيرها.

و مما يختص باللَّه تعالى فيهم أن يصطفيهم من أصلاب طاهرة و أرحام مطهرة لم تنجسهم الجاهلية بأنجاسها، و لم تلبسهم من مدلهمات ثيابها.

ذلك، و حصيلة البحث حول العصمة الرسالية، أن تحصّل الحالة اللابقة اللائقة لحمل رسالة اللَّه لا بد له من تحصيل، إما إلهي فقط؟ و أن ليس للإنسان إلا ما سعى! أم خلقي فقط؟ و هو خارج عن مقدوره إذا عنت كل أبعادها، فلتكن أمرا بين أمرين أن يصطفي اللَّه من يعلم أنه سوف يحمل كل أعباء رسالته دون إبقاء، ثم هو يؤيده قبل رسالته و عندها و بعدها، حيث العصمة البشرية لا تكفي بمفردها عصمة عن الأخطاء، و من تأييده تعبئة الرسل منذ ولادهم حتى نزول الوحي إليهم، و هم على طول الخط مجتهدون قمة جهدهم و غاية سعيهم و وسعهم.

فالشروط التي تهيئ لنزول الوحي ليست كلها مختارة لأي إنسان، فلا بد في الخارجة عن الإختيار من صنع رباني يصيّر إلى صالح الوحي الرسالي و ليس ليسيّر، كما و ليست مسيرة كلها، فأن ليس للإنسان إلا ما سعى، فالرسالة بمقدماتها و أصلها و بلاغها هي أمر بين أمرين من صنع رباني فيما لا صنع لغيره فيه، و صنع إنساني هو بين رحمة ربانية و جدارة

الفرقان في تفسير القرآن بالقرآن، ج‏13، ص: 117

إنسانية، فليست الرسالة إذا لرسل اللَّه ترجيحا دون مرجح.

و أما لما ذا صنع اللَّه الاستعداد للحصول على جدارة الرسالة لبعض دون بعض، فأرسل بعضا إلى آخرين؟ فذلك قضية الابتلاء و الامتحان:

«وَ رَفَعْنا بَعْضَهُمْ فَوْقَ بَعْضٍ دَرَجاتٍ لِيَتَّخِذَ بَعْضُهُمْ بَعْضاً سُخْرِيًّا وَ رَحْمَتُ رَبِّكَ خَيْرٌ مِمَّا يَجْمَعُونَ» (43: 32).

فلو أنه خلقهم درجة واحدة و صنعهم كما يصنع الرسل لبطل الامتحان، ثم و ليس الكل يتماشون مع ما خلق اللَّه لهم من إعداد الخير لو لا الإجبار، فما دام الإختيار لا يصبحون في درجة واحدة من الجدارة مهما خلقوا في درجة واحدة من الإعداد و الاستعداد ذلك، و الامتحان في توفر المعدات للوصول إلى الكمال القمة أعلى من عدمه، فلو أن الناس استووا في تلك المعدات القمة لم يكونوا ليستووا في جدارة نزول الوحي إليهم اللّهم إلا خروجا عن الإختيار، و في ذلك بطلان الاختبار و التكليف.

لا يَسْتَأْذِنُكَ الَّذِينَ يُؤْمِنُونَ بِاللَّهِ وَ الْيَوْمِ الْآخِرِ أَنْ يُجاهِدُوا بِأَمْوالِهِمْ وَ أَنْفُسِهِمْ وَ اللَّهُ عَلِيمٌ بِالْمُتَّقِينَ (44) إِنَّما يَسْتَأْذِنُكَ الَّذِينَ لا يُؤْمِنُونَ بِاللَّهِ وَ الْيَوْمِ الْآخِرِ وَ ارْتابَتْ قُلُوبُهُمْ فَهُمْ فِي رَيْبِهِمْ يَتَرَدَّدُونَ (45).

ضابطة ثابتة لا تخطئ، فالذين يؤمنون باللَّه و اليوم الآخر لا ينتظرون الإذن في أداء فريضة اللَّه بعد ما أمرهم اللَّه و أكد لهم، فهم لا يتلكأون في تلبية داعي اللَّه نفرا في سبيل اللَّه، بل هم سراع إليها خفافا و ثقالا طاعة لأمره و يقينا بلقائه و ابتغاء مرضاته دونما حاجة إلى حثّ بعد ما حثهم اللَّه فضلا عن الاستئذان.

أ فبعد أمر اللَّه المؤكد بالجهاد بالأموال و الأنفس يستأذن رسول اللَّه في ذلك الجهاد، فضلا عن استئذانه في تركه، إذا فمجرد استئذانهم للقعود قعود لهم عن الإيمان حين يكون الاستئذان للجهاد يشي بعدم الإيمان‏ «وَ اللَّهُ عَلِيمٌ بِالْمُتَّقِينَ» إياه، و الطاغين دون حاجة إلى استئذان منهم و عدم استئذان، فإنما ذلك البيان إعلان للرسول و الذين معه ليعرفوا المنافقين في لحن القول.

و لقد كان أكابر المهاجرين و الأنصار يقولون: لا نستأذن النبي (صلى اللَّه‏

الفرقان في تفسير القرآن بالقرآن، ج‏13، ص: 118

عليه و آله و سلم) في الجهاد فإن ربنا ندبنا إليه مرة بعد أخرى، فلما ذا- إذا- الاستئذان؟ و كانوا بحيث لو أمرهم الرسول (صلى اللَّه عليه و آله و سلم) بالقعود لشق عليهم،

فترى عليا (عليه السلام) لما يأمره الرسول (صلى اللَّه عليه و آله و سلم) بأن يبقى في المدينة يشق ذلك عليه حتى يقول رسول اللَّه (صلى اللَّه عليه و آله و سلم): أما ترضى أن تكون مني بمنزلة هارون من موسى.

و الاستئذان المنفي هنا لا يختص بالقعود، بل هو الظاهر في الخروج، مما يرجح أن جماعة منهم استأذنوه للخروج فأذن لهم، كما و أن‏ «ائْذَنْ لِي وَ لا تَفْتِنِّي» هو من آخرين استأذنوه للبقاء، فقد يصح حمل‏ «لِمَ أَذِنْتَ لَهُمْ» على الأمرين، إذن في الخروج و إذن في البقاء، و الجهاد في سبيل اللَّه ليس من مسارح الإذن سلبا و إيجابا.

أجل‏ «لا يَسْتَأْذِنُكَ‏ ... إِنَّما يَسْتَأْذِنُكَ الَّذِينَ لا يُؤْمِنُونَ بِاللَّهِ وَ الْيَوْمِ الْآخِرِ» سواء أ كان استئذانهم للجهاد أم تركه، و هو أحرى دلالة على كفرهم باللَّه و اليوم الآخر، فالاستئذان في هذا المسرح لأيّ كان و من أيّ كان، إنما هو لأولئك الذين خلت قلوبهم من الإيمان فهم يتلمسون المعاذير و هم في ريبهم يترددون، استئذانا للخروج و آخر للقعود.

ذلك الاستئذان كان للقعود و ان استأذنوه بعد للخروج: «فَإِنْ رَجَعَكَ اللَّهُ إِلى‏ طائِفَةٍ مِنْهُمْ فَاسْتَأْذَنُوكَ لِلْخُرُوجِ فَقُلْ لَنْ تَخْرُجُوا مَعِيَ أَبَداً وَ لَنْ تُقاتِلُوا مَعِيَ عَدُوًّا إِنَّكُمْ رَضِيتُمْ بِالْقُعُودِ أَوَّلَ مَرَّةٍ فَاقْعُدُوا مَعَ الْخالِفِينَ» (9: 83).

و في‏ «لا يَسْتَأْذِنُكَ» تلميحة أنهم لم يستأذنوه- فقط- في القعود، بل و في الخروج مع المجاهدين أيضا ليزيدوكم خبالا، و لكن المحور في‏ «لِمَ أَذِنْتَ لَهُمْ» هم الذين استأذنوه لعدم الخروج حيث‏ «لَوْ أَرادُوا الْخُرُوجَ لَأَعَدُّوا لَهُ عُدَّةً ..».

و هنا «لا يَسْتَأْذِنُكَ» علم حادث له (صلى اللَّه عليه و آله و سلم) إذ لو كان يعلمه لكان استئذانهم إياه علما له بكذبهم، فلا يرد أنه لم يكن مأذونا في إذنهم حين أذن لهم و لا يعمه‏ «فَأْذَنْ لِمَنْ شِئْتَ مِنْهُمْ».

إنهم أولاء الأنكاد البعاد «ارْتابَتْ قُلُوبُهُمْ» فى الحق‏ «فَهُمْ فِي رَيْبِهِمْ‏

الفرقان في تفسير القرآن بالقرآن، ج‏13، ص: 119

يترددون» بين الخروج و البقاء، و كلاهما منهم خيانة و كيد على الجماعة المسلمة

«و من تردد في الريب سبقه الأولون و أدركه الآخرون و قطعته سنابك الشياطين» «1».

فذلك علامة أولى لكذبهم في استئذانهم ثم ثانيا:

وَ لَوْ أَرادُوا الْخُرُوجَ لَأَعَدُّوا لَهُ عُدَّةً وَ لكِنْ كَرِهَ اللَّهُ انْبِعاثَهُمْ فَثَبَّطَهُمْ وَ قِيلَ اقْعُدُوا مَعَ الْقاعِدِينَ (46).

إن إرادة الخروج، العازمة الحاسمة، قضيتها الطبيعية الواقعية إعداد عدة له و إن بسيطا، و هم لم يعدوا له أية عدة، إلا كل عدة للتخلف عنه‏ «وَ لكِنْ كَرِهَ اللَّهُ انْبِعاثَهُمْ فَثَبَّطَهُمْ»: كسّلهم و ضعّف رغبتهم في الانبعاث كيلا يخرجوا، فإن خروجهم مروج فيهم، فخروج عن صالح الحرب إلى طالحها، فقد تطلّبت منهم شرعة التكليف أن يخرجوا، ثم ثبطتهم شرعة التكوين بما تثبطوا في أنفسهم‏ «وَ قِيلَ اقْعُدُوا مَعَ الْقاعِدِينَ» قيلة من رؤوس النفاق حيلة، و قيلة من الشيطان الرجيم غيلة، ثم اللَّه لم يمنعهم عن هذه القيلة الحيلة الغيلة، و عن قعودهم بها، حيث‏ «أَنَّا أَرْسَلْنَا الشَّياطِينَ عَلَى الْكافِرِينَ تَؤُزُّهُمْ أَزًّا» (19: 83) «وَ قَيَّضْنا لَهُمْ قُرَناءَ فَزَيَّنُوا لَهُمْ ما بَيْنَ أَيْدِيهِمْ وَ ما خَلْفَهُمْ» (41: 25) ذلك و:

لَوْ خَرَجُوا فِيكُمْ ما زادُوكُمْ إِلَّا خَبالًا وَ لَأَوْضَعُوا خِلالَكُمْ يَبْغُونَكُمُ الْفِتْنَةَ وَ فِيكُمْ سَمَّاعُونَ لَهُمْ وَ اللَّهُ عَلِيمٌ بِالظَّالِمِينَ (47).

«لو» إحالة واقعية بما عزموا على عدم الخروج و بما ثبطهم اللَّه و قيل أقعدوا مع القاعدين‏ «لَوْ خَرَجُوا فِيكُمْ» أنتم المؤمنين الصالحين‏ «ما زادُوكُمْ إِلَّا خَبالًا»: فسادا و اضطراب رأي «و لأوضعوا»: أسرعوا فيها و في أي فساد «خلا لكم»: تخللا فاسدا كاسدا بين صفوفكم الإيمانية، حال أنهم: «يَبْغُونَكُمُ الْفِتْنَةَ»: أن يطلبوكم إياها، كأن لا بغية لهم بخروجهم فيكم إلّا إياها «وَ فِيكُمْ سَمَّاعُونَ لَهُمْ» اذنا لكل كلام دونما تثبت عنه كالبسطاء من المؤمنين و الذين اسلموا و لمّا يدخل الإيمان في قلوبهم، «وَ اللَّهُ عَلِيمٌ بِالظَّالِمِينَ» الضالين و المضلّلين، ذلك:

\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_

(1). نهج البلاغة عن الإمام علي أمير المؤمنين (عليه السلام).

الفرقان في تفسير القرآن بالقرآن، ج‏13، ص: 120

لَقَدِ ابْتَغَوُا الْفِتْنَةَ مِنْ قَبْلُ وَ قَلَّبُوا لَكَ الْأُمُورَ حَتَّى جاءَ الْحَقُّ وَ ظَهَرَ أَمْرُ اللَّهِ وَ هُمْ كارِهُونَ (48).

و «من قبل» هنا منه يوم أحد حيث تخلف عبد اللَّه بن أبي سلول بثلث القوم خذلانا للنبي (صلى اللَّه عليه و آله و سلم) و إضلالا للذين معه‏ «وَ قَلَّبُوا لَكَ الْأُمُورَ» التي كانت مؤاتية لصالح الحرب حيث عملوا دعايات مضادة لها بين صفوف المؤمنين‏ «حَتَّى جاءَ الْحَقُّ وَ ظَهَرَ أَمْرُ اللَّهِ» نصرة بعد النسكة «وَ هُمْ كارِهُونَ» مجي‏ء الحق و ظهور الأمر، متربصين عليه دوائر السوء، عليهم دائرة السوء و لكنهم لا يعلمون.

وَ مِنْهُمْ مَنْ يَقُولُ ائْذَنْ لِي وَ لا تَفْتِنِّي أَلا فِي الْفِتْنَةِ سَقَطُوا وَ إِنَّ جَهَنَّمَ لَمُحِيطَةٌ بِالْكافِرِينَ (49).

هؤلاء الأنكاد الأغباش، و منهم‏

جد بن قيس حين يقول له الرسول (صلى اللَّه عليه و آله و سلم): يا جد هل لك في جهاد بني الأصفر؟

قال: أ تأذن لي يا رسول اللَّه فإني رجل أحب النساء و إني أخشي إن أنا رأيت نساء بين الأصفر أن افتتن، فقال رسول اللَّه (صلى اللَّه عليه و آله و سلم) و هو معرض عنه: قد أذنت لك، فأنزل اللَّه‏ «وَ مِنْهُمْ مَنْ يَقُولُ ائْذَنْ لِي وَ لا تَفْتِنِّي» «1»

«أَلا فِي الْفِتْنَةِ سَقَطُوا» بأنفسهم المفتونة الفاتنة، فلم يفتنهم النبي (صلى اللَّه عليه و آله و سلم) بترك الإذن لقعودهم ترغيبا في بنات بني الأصفر خلاف ما يروى‏ «2».

و يا له من مشهد مرسوم يرسم لهم كأن الفتنة فيه هاوية و هم فيها ساقطون، فهم هنا في جحيم الفتنة التي أججوها بذات أيديهم ماقتون، ثم هم فيما أججوه خالدون‏ «وَ إِنَّ جَهَنَّمَ لَمُحِيطَةٌ بِالْكافِرِينَ» فكفرهم‏

\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_

(1). الدر المنثور 3: 247- أخرج ابن أبي حاتم و ابن مردويه عن جابر بن عبد اللَّه قال سمعت رسول اللَّه (صلى اللَّه عليه و آله و سلم) يقول لجد بن قيس: ...

(2) و

فيه أخرج الطبراني و ابن مردويه عن ابن عباس أن النبي (صلى اللَّه عليه و آله و سلم) قال: اغزوا تغنموا بنات بني الأصفر فقال ناس من المنافقين انه ليفتنكم بالنساء فانزل اللَّه هذه الآية.

الفرقان في تفسير القرآن بالقرآن، ج‏13، ص: 121

و فتنتهم هما جحيمهم التي أججوها من ذي قبل: «بَلى‏ مَنْ كَسَبَ سَيِّئَةً وَ أَحاطَتْ بِهِ خَطِيئَتُهُ فَأُولئِكَ أَصْحابُ النَّارِ هُمْ فِيها خالِدُونَ».

هذه جهنم هنا و هناك تأخذ عليهم كل المنافذ و المتجهات فلا يفلتون.

ذلك و من أحوالهم المزرئة ضد هذه الرسالة السامية:

إِنْ تُصِبْكَ حَسَنَةٌ تَسُؤْهُمْ وَ إِنْ تُصِبْكَ مُصِيبَةٌ يَقُولُوا قَدْ أَخَذْنا أَمْرَنا مِنْ قَبْلُ وَ يَتَوَلَّوْا وَ هُمْ فَرِحُونَ (50).

«إِنْ تُصِبْكَ حَسَنَةٌ» في حرب و سواها، من غلبة و غنيمة و سواهما «تسؤهم» ثم‏ «وَ إِنْ تُصِبْكَ» رمية «مصيبة» على أية حال‏ «يَقُولُوا قَدْ أَخَذْنا أَمْرَنا» لصالحنا حيث قعدنا عن الحرب «من قبل» ثم «و يتولوا» عن جنابكم إلى نواديهم‏ «وَ هُمْ فَرِحُونَ» «1» رغم أن المؤمنين هم فرحون!.

ذلك بأنهم‏ «يَعْلَمُونَ ظاهِراً مِنَ الْحَياةِ الدُّنْيا وَ هُمْ عَنِ الْآخِرَةِ هُمْ غافِلُونَ» حاسبين السيئة شرا في كل حال، و الحسنة خيرا بأي مجال، رغم أن الحياة سجال بين مختلف الفتن تمحيصا للمؤمنين و تقليصا للكافرين، و هنا الجواب كلمة واحدة هي:

قُلْ لَنْ يُصِيبَنا إِلَّا ما كَتَبَ اللَّهُ لَنا هُوَ مَوْلانا وَ عَلَى اللَّهِ فَلْيَتَوَكَّلِ الْمُؤْمِنُونَ (51).

فحيث نمشي و نمضي بأمر اللَّه إلى جبهات القتال، إذا ف‏ «لَنْ يُصِيبَنا إِلَّا ما كَتَبَ اللَّهُ لَنا» قتلا لأجل مسمى فلا ضير، بل هو خير في سبيل اللَّه، أم لأجل معلق على القتال فكذلك الأمر، حيث علّق على‏

\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_

(1).

الدر المنثور 3: 248- أخرج ابن أبي حاتم عن جابر بن عبد اللَّه قال: جعل المنافقون الذين تخلفوا بالمدينة يخبرون عن النبي (صلى اللَّه عليه و آله و سلم) أخبار السوء يقولون: إن محمدا و أصحابه قد جهدوا في سفرهم و هلكوا فبلغتهم تكذيب حديثهم و عافية النبي (صلى اللَّه عليه و آله و سلم) و أصحابه فساءهم ذلك فأنزل اللَّه تعالى: «أن تصبك ..».

الفرقان في تفسير القرآن بالقرآن، ج‏13، ص: 122

تحقيق أمر اللَّه، فهو مجتمع أمريه تكوينا و تشريعا كما الأول، مهما اختلف محتوم عن معلق حيث هما بأمر اللَّه و «هُوَ مَوْلانا» لا سواه‏ «وَ عَلَى اللَّهِ» لا سواه‏ «فَلْيَتَوَكَّلِ الْمُؤْمِنُونَ» باللَّه، دون توكل في أيّ من الأمور على سواه.

و هنا «ما كَتَبَ اللَّهُ لَنا» يعم إصابة الحسنة و السيئة، و هما لنا حسنة حيث كتب اللَّه لنا، فما كتب اللَّه للمؤمن هو خير له أيّا كان، و ما يكتبه غيره مفارقا شرعة اللَّه هو شر أيّا كان، فهو- إذا- مما كتب اللَّه عليه كما هو كتبه على نفسه، ف «لنا» صالحة تختص بالصالحين و «علينا» طالحة لسائر الناس الطالحين‏ «وَ أَنْ لَيْسَ لِلْإِنْسانِ إِلَّا ما سَعى‏».

فالمؤمنون منصورون هازمين و منهزمين، قاتلين و مقتولين ف‏ «إِنَّ اللَّهَ اشْتَرى‏ مِنَ الْمُؤْمِنِينَ أَنْفُسَهُمْ وَ أَمْوالَهُمْ بِأَنَّ لَهُمُ الْجَنَّةَ يُقاتِلُونَ فِي سَبِيلِ اللَّهِ فَيَقْتُلُونَ وَ يُقْتَلُونَ وَعْداً عَلَيْهِ حَقًّا فِي التَّوْراةِ وَ الْإِنْجِيلِ وَ الْقُرْآنِ وَ مَنْ أَوْفى‏ بِعَهْدِهِ مِنَ اللَّهِ فَاسْتَبْشِرُوا بِبَيْعِكُمُ الَّذِي بايَعْتُمْ بِهِ وَ ذلِكَ هُوَ الْفَوْزُ الْعَظِيمُ» (9: 111).

ذلك، فلا تعني‏ «ما كَتَبَ اللَّهُ لَنا» أن كل المحاصيل بسوء الإختيار إلى حسنه هي مما «كَتَبَ اللَّهُ لَنا» طالما الكتابة الربانية تحلّق عليها كلها، إذ «ما كانَ لِنَفْسٍ أَنْ تَمُوتَ إِلَّا بِإِذْنِ اللَّهِ كِتاباً مُؤَجَّلًا» (3: 145) فأين كتابة من كتابة؟.

هنا كتابة حسنة أو سيئة و نحن في سبيل اللَّه و تحقيق أمر اللَّه فهي خير لنا تكوينا إلى تشريع و تشريعا إلى تكوين، و هناك كتابة حسنة أو سيئة و هم في سبيل الطاغوت فهي شر لهم في تكوين، و شر لهم في تشريع، حيث خالفوا فيها شرعة اللَّه فهو مما كتب اللَّه عليهم، و هنا يبرز ناصع الحق و ناصحه من‏

قول الرسول (صلى اللَّه عليه و آله و سلم): «قال لكل شي‏ء حقيقة و ما بلغ عبد حقيقة الإيمان حتى يعلم أن ما أصابه لم يكن ليخطئه و ما أخطأه لم يكن ليصيبه» «1».

\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_

(1). الدر المنثور 3: 249- أخرج أحمد عن أبي الدرداء عن النبي (صلى اللَّه عليه و آله و سلم) قال: ...

الفرقان في تفسير القرآن بالقرآن، ج‏13، ص: 123

إذا فنحن السائلون إلى اللَّه، المجاهدون في سبيل اللَّه، نعيش إحدى الحسنيين، و أنتم السالكون إلى الطاغوت المجاهدون في سبيله تعيشون إحدى السوأتين:

قُلْ هَلْ تَرَبَّصُونَ بِنا إِلَّا إِحْدَى الْحُسْنَيَيْنِ وَ نَحْنُ نَتَرَبَّصُ بِكُمْ أَنْ يُصِيبَكُمُ اللَّهُ بِعَذابٍ مِنْ عِنْدِهِ أَوْ بِأَيْدِينا فَتَرَبَّصُوا إِنَّا مَعَكُمْ مُتَرَبِّصُونَ (52).

إعلام عام هام في هذه الإذاعة القرآنية من قبل المؤمنين بهذه الرسالة السامية قبال الذين لا يؤمنون، من ملحدين أو مشركين أو كتابيين أو منافقين من المسلمين، و كل الذين في قلوبهم مرض و ليست حياتهم حياة الجهاد في سبيل اللَّه، و هم متربصون بالسالكين إلى اللَّه، المجاهدين في سبيل اللَّه، أن تصيبهم مصيبة سيئة في هذه السبيل.

و قد

«تكفل الله لمن جاهد في سبيله لا يخرجه من بيته إلا الجهاد في سبيله و تصديق كلمته أن يدخله الجنة أو يرجعه إلى مسكنه الذي خرج منه مع ما نال من أجر و غنيمة» «1».

«و كذلك و المرء المسلم البري‏ء من الخيانة ينتظر إحدى الحسنيين، إما داعي الله فما عند الله خير، و إما رزق الله فإذا هو ذو أهل و مال و معه دينه و حسبه» «2».

و هكذا يؤدبنا رسول اللَّه (صلى اللَّه عليه و آله و سلم) على ضوء كتاب اللَّه، تكريسا محيصا لحياتنا في الحصول على‏ «إِحْدَى الْحُسْنَيَيْنِ» «3».

\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_

(1). نهج البلاغة عن الإمام علي أمير المؤمنين (عليه السلام).

(2) تفسير روح المعاني 10: 116 و صح من حديث أبي هريرة عن النبي (صلى اللَّه عليه و آله و سلم) قال: تكفل اللَّه ...

(3)

المصدر أخرج الحاكم و صححه و ضعفه الذهبي من طريق سعد بن إسحاق بن كعب بن عجرة عن أبيه عن جده: بينما النبي (صلى اللَّه عليه و آله و سلم) بالروحاء إذ هبط عليه أعرابي من سرب فقال من القوم و أين تريدون؟ قال: قوم بدوا مع النبي (صلى اللَّه عليه‏

الفرقان في تفسير القرآن بالقرآن، ج‏13، ص: 124

لقد تكرر ذكر الحسنى في القرآن ثمانية عشر مرة، المناسبة منها لما هنا تعني الحياة الحسنى، و هي الطليقة دون اختصاص بجانب منها تحلّق على كافة الحيويات الحسنى ف‏ «لِلَّذِينَ اسْتَجابُوا لِرَبِّهِمُ الْحُسْنى‏» (13: 18) «وَ أَمَّا مَنْ آمَنَ وَ عَمِلَ صالِحاً فَلَهُ جَزاءً الْحُسْنى‏» (18: 88) «فَأَمَّا مَنْ أَعْطى‏ وَ اتَّقى‏. وَ صَدَّقَ بِالْحُسْنى‏، فَسَنُيَسِّرُهُ لِلْيُسْرى‏» (9: 6) و إلى‏ «إِحْدَى الْحُسْنَيَيْنِ» انشقاقا للحسنى إلى اثنتين، إنما هي الحسنى هنا، فإما نقتل في سبيل اللَّه أم نقتل: ف‏ «إِنَّ اللَّهَ اشْتَرى‏ مِنَ الْمُؤْمِنِينَ أَنْفُسَهُمْ وَ أَمْوالَهُمْ بِأَنَّ لَهُمُ الْجَنَّةَ يُقاتِلُونَ فِي سَبِيلِ اللَّهِ فَيَقْتُلُونَ وَ يُقْتَلُونَ وَعْداً عَلَيْهِ حَقًّا فِي التَّوْراةِ وَ الْإِنْجِيلِ وَ الْقُرْآنِ وَ مَنْ أَوْفى‏ بِعَهْدِهِ مِنَ اللَّهِ فَاسْتَبْشِرُوا بِبَيْعِكُمُ الَّذِي بايَعْتُمْ بِهِ وَ ذلِكَ هُوَ الْفَوْزُ الْعَظِيمُ» (9: 111).

فالحسنيان بالنسبة لآحاد المجاهدين في سبيل اللَّه أن يقتلوا أو يقتلوا، و هما نسبة إلى المجموعة المجاهدة غالبين و مغلوبين، فحين يؤدي المجاهدون في سبيل اللَّه واجبهم كان انهزامهم كهزيمتهم عدوّهم على سواء.

فسواء أصابتهم سيئة أم اصابتهم حسنة في حرب و سواها، فما داموا هم هنا و هناك في سبيل اللَّه فهم يعيشون إحدى الحسنيين إذ «لَنْ يُصِيبَنا إِلَّا ما كَتَبَ اللَّهُ لَنا» من حياة أو ممات، من هزيمة أو انهزامة، و من مختلف ملابسات الحياة.

ذلك و قد يجمع بين الحسنيين فرادى و جماعات، فالمناضل الذي‏

\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_

و آله و سلم)، قال: مالي أراكم بذة هيئتكم قليلا سلاحكم؟ قال: ننتظر إحدى الحسنيين أما أن نقتل فالجنة و إما أن نغلب فيجمعهما اللَّه تعالى لنا، الظفر و الجنة، قال: أين نبيكم؟ قالوا: ها هو ذا، فقال له يا نبي اللَّه ليست لي مصلحة آخذ مصلحي ثم ألحق، قال: اذهب إلى أهلك فخذ مصلحتك فخرج رسول اللَّه (صلى اللَّه عليه و آله و سلم) يوم بدر و خرج الرجل إلى أهله حتى فرغ من حاجته ثم لحق بهم ببدر فدخل في الصف معهم. فاقتتل الناس فكان فيمن استشهد فقام رسول اللَّه (صلى اللَّه عليه و آله و سلم) بعد أن انتصر فمر بين ظهراني الشهداء و معه عمر فقال: ها يا عمر انك تحب الحديث و ان للشهداء سادة و أشرافا و ملوكا و ان هذا يا عمر منهم.

الفرقان في تفسير القرآن بالقرآن، ج‏13، ص: 125

يقتل ثم يقتل، و الجيش الذي يهزم و يهزم، أما ذا من جمع بين الحياتين الإيمانيتين، هؤلاء هم من مجامع الحسنيين.

فرغم أن أعداءنا يتربصون بنا كل دوائر السوء غالبين و مغلوبين، هنا يعبر عنهما ب «الحسنيين» فإما إحداهما أم كلاهما، فلا نعيش نحن إلّا حياة سعيدة على أية حال ما دمنا نعيش مرضات اللَّه تحقيقا لشرعته في حياتنا و كل حيوياتنا، مهما أنكر ناكرون، حيث الواقع لنا «إِحْدَى الْحُسْنَيَيْنِ» مهما كان متربّص العدو إصابتنا بقتل أو شبهه و هي السوأى الوحيدة دون أية حسنى فضلا عن إحدى الحسنيين.

فذلك الإعلان مما يرتعش به العدو حيث يعرف- مهما كان ناكرا في نفسه- أننا صامدون في خط النار، غير راجعين إلّا بإحدى الحسنيين، فحين يعرف العدو مدى صمودنا يحسب حسابه أمامنا فيهدر و ينحدر من علواءه و غلواءه إلى واقع حضيضه، فيفقد حظه في جبهة القتال.

ذلك في ضفّة الإيمان على مدار حياة الإيمان، و أما حياة الكفر ف:

«نَحْنُ نَتَرَبَّصُ بِكُمْ أَنْ يُصِيبَكُمُ اللَّهُ بِعَذابٍ مِنْ عِنْدِهِ» هنا، أم بعد الموت في البرزخ و الأخرى‏ «أَوْ بِأَيْدِينا» أن تقتلوا أو تغلبوا، فنحن- إذا- منتصرون غالبين و مغلوبين، و أنتم معذبون غالبين و مغلوبين «فتربصوا» بنا إحدى الحسنيين‏ «إِنَّا مَعَكُمْ مُتَرَبِّصُونَ» بكم إحدى السوأتين.

[سورة التوبة (9): الآيات 53 الى 61]

قُلْ أَنْفِقُوا طَوْعاً أَوْ كَرْهاً لَنْ يُتَقَبَّلَ مِنْكُمْ إِنَّكُمْ كُنْتُمْ قَوْماً فاسِقِينَ (53) وَ ما مَنَعَهُمْ أَنْ تُقْبَلَ مِنْهُمْ نَفَقاتُهُمْ إِلاَّ أَنَّهُمْ كَفَرُوا بِاللَّهِ وَ بِرَسُولِهِ وَ لا يَأْتُونَ الصَّلاةَ إِلاَّ وَ هُمْ كُسالى‏ وَ لا يُنْفِقُونَ إِلاَّ وَ هُمْ كارِهُونَ (54) فَلا تُعْجِبْكَ أَمْوالُهُمْ وَ لا أَوْلادُهُمْ إِنَّما يُرِيدُ اللَّهُ لِيُعَذِّبَهُمْ بِها فِي الْحَياةِ الدُّنْيا وَ تَزْهَقَ أَنْفُسُهُمْ وَ هُمْ كافِرُونَ (55) وَ يَحْلِفُونَ بِاللَّهِ إِنَّهُمْ لَمِنْكُمْ وَ ما هُمْ مِنْكُمْ وَ لكِنَّهُمْ قَوْمٌ يَفْرَقُونَ (56) لَوْ يَجِدُونَ مَلْجَأً أَوْ مَغاراتٍ أَوْ مُدَّخَلاً لَوَلَّوْا إِلَيْهِ وَ هُمْ يَجْمَحُونَ (57)

وَ مِنْهُمْ مَنْ يَلْمِزُكَ فِي الصَّدَقاتِ فَإِنْ أُعْطُوا مِنْها رَضُوا وَ إِنْ لَمْ يُعْطَوْا مِنْها إِذا هُمْ يَسْخَطُونَ (58) وَ لَوْ أَنَّهُمْ رَضُوا ما آتاهُمُ اللَّهُ وَ رَسُولُهُ وَ قالُوا حَسْبُنَا اللَّهُ سَيُؤْتِينَا اللَّهُ مِنْ فَضْلِهِ وَ رَسُولُهُ إِنَّا إِلَى اللَّهِ راغِبُونَ (59) إِنَّمَا الصَّدَقاتُ لِلْفُقَراءِ وَ الْمَساكِينِ وَ الْعامِلِينَ عَلَيْها وَ الْمُؤَلَّفَةِ قُلُوبُهُمْ وَ فِي الرِّقابِ وَ الْغارِمِينَ وَ فِي سَبِيلِ اللَّهِ وَ ابْنِ السَّبِيلِ فَرِيضَةً مِنَ اللَّهِ وَ اللَّهُ عَلِيمٌ حَكِيمٌ (60) وَ مِنْهُمُ الَّذِينَ يُؤْذُونَ النَّبِيَّ وَ يَقُولُونَ هُوَ أُذُنٌ قُلْ أُذُنُ خَيْرٍ لَكُمْ يُؤْمِنُ بِاللَّهِ وَ يُؤْمِنُ لِلْمُؤْمِنِينَ وَ رَحْمَةٌ لِلَّذِينَ آمَنُوا مِنْكُمْ وَ الَّذِينَ يُؤْذُونَ رَسُولَ اللَّهِ لَهُمْ عَذابٌ أَلِيمٌ (61)

الفرقان في تفسير القرآن بالقرآن، ج‏13، ص: 126

قُلْ أَنْفِقُوا طَوْعاً أَوْ كَرْهاً لَنْ يُتَقَبَّلَ مِنْكُمْ إِنَّكُمْ كُنْتُمْ قَوْماً فاسِقِينَ (53).

و ترى مجرد الفسوق و إن في غير مسرح الإنفاق و هو «طوعا» كيف يعمل في أن‏ «لَنْ يُتَقَبَّلَ مِنْكُمْ» ل‏ «إِنَّكُمْ كُنْتُمْ قَوْماً فاسِقِينَ» إذا فشرط

الفرقان في تفسير القرآن بالقرآن، ج‏13، ص: 127

قبول الإنفاق هو العدالة الطليقة! أو العدالة في الإنفاق حيث‏ «يَتَقَبَّلُ اللَّهُ مِنَ الْمُتَّقِينَ».

هنا الفسوق محلّق على كافة الأعمال لمكان تحليق الكفر على القلوب، حيث المورد هو المنافقون، و من شروط قبول العبادة الإيمان، فحتى إذا أنفقوا هؤلاء طوعا- و لن يكون- ف‏ «لَنْ يُتَقَبَّلَ مِنْكُمْ إِنَّكُمْ كُنْتُمْ قَوْماً فاسِقِينَ» فكينونة الفسق ضاربة إلى أعماقكم، فاصلة بينكم و بين الإيمان و المؤمنين، فكيف تتقبل أية عبادة من كافر أو منافق هو أشر منه؟! و قد تبين ذلك بالآية التالية:

وَ ما مَنَعَهُمْ أَنْ تُقْبَلَ مِنْهُمْ نَفَقاتُهُمْ إِلَّا أَنَّهُمْ كَفَرُوا بِاللَّهِ وَ بِرَسُولِهِ وَ لا يَأْتُونَ الصَّلاةَ إِلَّا وَ هُمْ كُسالى‏ وَ لا يُنْفِقُونَ إِلَّا وَ هُمْ كارِهُونَ (54).

هنا ثالوث يمنع عن‏ «أَنْ تُقْبَلَ مِنْهُمْ نَفَقاتُهُمْ» هو: كفرهم باللَّه و برسوله، و صلاتهم و هم كسالى، و إنفاقهم و هم كارهون، مهما تظاهروا أنه بطوع و رغبة، و الأخيران منطويان في الأول، فهما له لزامان لا ينفصلان، فكما

«الإيمان لا يضر معه عمل و كذلك الكفر لا ينفع معه عمل» «1»

فطالح العمل لا يمحي صالح الإيمان استئصالا و إحباطا، و صالح العمل لا يثبت بالكفار، ضابطة ثابتة لا تستثنى.

هنا «لا يَأْتُونَ الصَّلاةَ إِلَّا وَ هُمْ كُسالى‏» حصر لصلاتهم بحالة الكسل و حسر لها عن النشاط العبودي، و هذه صفة الكافر باللَّه، المنافق في عمله كسلانا و مرائيا: «وَ إِذا قامُوا إِلَى الصَّلاةِ قامُوا كُسالى‏ يُراؤُنَ النَّاسَ» (4:)

\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_

(1).

نور الثقلين 2: 225 في الكافي مسندا عن أبي عبد اللَّه (عليه السلام) و فيه عن كتاب الإحتجاج عن أمير المؤمنين (عليه السلام) حديث طويل و فيه: فكل عمل يجري على غير أيدي الأصفياء و حدودهم و عهودهم و شرائعهم و سننهم و معالم دينهم مردود غير مقبول و أهل بمحل كفر و ان شملتهم صفة الإيمان ألم تسمع إلى قول اللَّه تعالى: و ما منعهم أن تقبل منهم نفقاتهم إلا أنهم كفروا باللَّه و يرو له «فمن لم يهتد من أهل الإيمان إلى سبيل النجاة لم يغن عنه إيمانه بالله مع دفع حق أولياءه و حبط عمله و هو في الآخرة من الخاسرين.»

الفرقان في تفسير القرآن بالقرآن، ج‏13، ص: 128

(142) و الكسل يعم الجسم إلى الروح و لأن كلا يؤثر على الآخر.

ذلك فصلاة الكسلان المرائي حابطة منافقا كان أو مؤمنا، و لكن المنافق كل أعماله حابطة قضية عدم الإيمان، فالمؤمن بشي‏ء يضحي في سبيله قدر إيمانه، فهلّا نصلي نحن في نضارة الخاطر و حضارة الحال، و ربنا هو الذي دعانا و أمرنا أن نحضر معراجه، و سمح لنا أن نكلمه بمحاويجنا، فالتثاقل التكاسل عن الصلاة، أو إتيانها كسلانا، هو دليل على عدم الهمامة فيها ترجيحا لسائر المهام، ويكأن غير اللَّه أحب إلينا من اللَّه؟ أو أن سائر الصلات أنفع لنا من الصلة باللَّه.

فلنستجوب أنفسنا في محكمة العقل و الإيمان إن كان لنا إيمان، و لنتدرج في درجات القرب و الرضوان من الرحيم الرحمان حتى نصل لحد لا نرجح على حال الصلاة حالا، و لا على أقوال الصلاة أقوالا، و لا على أفعالها أفعالا، و كما

قال أول العابدين: «و قرة عيني الصلاة»

جرب قلبك، هل إن شوقك للقاء اللَّه أكثر أم لسائر اللقاء، فيا ويلاه إن كنت ترجح سائر اللقاء على لقاء اللَّه، و سائر الصلات على الصلاة للَّه.

إن أهل اللَّه لا يصطفون على حال الصلاة حالا، بل هم دائبون في الصلاة «خوشا آنان كه دائم در نمازند»: «الَّذِينَ هُمْ عَلى‏ صَلاتِهِمْ دائِمُونَ» (70: 23).

و لأنها عمود الدين و عماد اليقين، لذلك نجدها من أجلى جلوات الشياطين، و أسرع صرعاته ضد المصلين، حيث يكرس كافة طاقاته بكل خيله و رجله ليصرعهم فيها، و لكي يصرعهم في سواها، لأن «الصلاة عمود الدين إن قبلت قبل ما سواها و ان ردت رد ما سواها».

فقد يبعد عنك شيطانك في شطر من صلاتك فيجلو لك ما غاب عنك من حصائل فكرية مهما كانت حول غوامض من الكتاب و السنة، قضية زوال الحجاب بينك و بينها، فيخيّل إليك الشيطان أن الصلاة هي مجال الحصول على كل ضالّة فكرية ثمينة بعد ضالتها، فيخرجك بذلك عن الحضور أمام ربك فيها، فيجعل صلاتك الفائضة بالصلاة فاضية خاوية عن الصلات.

الفرقان في تفسير القرآن بالقرآن، ج‏13، ص: 129

فلو أنك تأملت في نفسك، من أنت فعرفت أنك الفقر المجرد اللّاشي‏ء عن أي غنى، ثم تأملت في مقام ربك من هو، فعرفت أنه مجرد الغنى و له كل شي‏ء، ثم فكرت في موقفك من صلاتك أنك على فقرك دعيت إلى معراج ربك لمصلحتك و حاجتك دون حاجته سبحانه و مصلحته، لذبت تخجلا من ذلك الشرف العظيم، وي إن ربي دعاني بل فرض علي أن أكلمه؟ و أنا عنه لاه مفكر في سواه.

و لكنك لما تصلي دون صلة، فارغا قلبك عن الحضور بمحضره، ناسيا ربك حاضرا لما سواه، كان عليك أن تموت خجلا.

و لو لا واجب الصلاة بأمر اللَّه لكانت صلواتنا محرمة من الكبائر، لأنها هتك لساحة الربوبية أن نحسب لكل غاية فيما سوى اللَّه حسابه، و لا نحسب للصلاة لديه أي حساب!.

ذلك و لنعرف أن إتيان الصلاة حالة الكسل هو من علامات النفاق و من أسباب عدم قبول الإنفاق، مهما لم يصل إلى حد النفاق الرسمي الذي تتحدث عنه هذه الآية و ما أشبه من آيات النفاق، و أقل تقدير هنا أن إنفاق هؤلاء و إن أسقط واجب تكليف الإنفاق، و لكنه لا يقبل كما يقبل سائر الإنفاق رفعا له إلى ساحة القبول حيث‏ «إِلَيْهِ يَصْعَدُ الْكَلِمُ الطَّيِّبُ وَ الْعَمَلُ الصَّالِحُ يَرْفَعُهُ».

فثالوث: الكفر باللَّه، و إتيان الصلاة كسالى، و الإنفاق كارها، هذه دركات ليست تقف لحد المرسوم منها، فمهما نزلت هذه الآية تنديدا بالمنافقين، فقد تشمل الموافقين الذين لهم نصيب منها، ف‏ «ما يُؤْمِنُ أَكْثَرُهُمْ بِاللَّهِ إِلَّا وَ هُمْ مُشْرِكُونَ» (12: 106) توسّع نطاق الإشراك باللَّه كما «لَنْ تَنالُوا الْبِرَّ حَتَّى تُنْفِقُوا مِمَّا تُحِبُّونَ» تسلب البر عما دون ما تحبون مهما لم تكونوا كارهين، و «إِنَّ الصَّلاةَ تَنْهى‏ عَنِ الْفَحْشاءِ وَ الْمُنْكَرِ» تخرج الصلاة المأتي بها حالة الكسل عن حقل الصلاة، بل هي منكرة من المنكرات فكيف‏ «تَنْهى‏ عَنِ الْفَحْشاءِ وَ الْمُنْكَرِ».

ذلك فإصلاح الصلاة إصلاح لكافة العبادات، و كافة القالات‏

الفرقان في تفسير القرآن بالقرآن، ج‏13، ص: 130

و الحالات و الفعالات، فإن الصلاة عمود الدين و عماد اليقين، فتضييعها- إذا- عمود اللّادين و الخروج عن اليقين.

جرّب نفسك في كافة المصارع مع الشيطان فقد تطلع قويا تصرعه فيها، و لكنك تصرع في مصرع الصلاة أيا كنت، اللّهم إلّا من هدى اللّه إذ جاهد في اللّه حق جهاده.

ركعة من حق الصلاة تركع أمامك الشيطان، و سجدة منها تسجده لك، و قراءة و ذكر صالحين يخرسانه و يصمانه، فاعمل جهدك لكي تصلح صلاتك بسلاح الإيمان و الاستعانة باللّه.

و

«صل الصلاة لوقتها الموقت لها، و لا تعجل وقتها لفراغ، و لا تؤخرها عن وقتها لاشتغال، و اعلم أن كل شي‏ء من عملك تبع لصلاتك» (العهد 27).

و ترى‏ «لا يُنْفِقُونَ إِلَّا وَ هُمْ كارِهُونَ» تناسب‏ «أَنْفِقُوا طَوْعاً أَوْ كَرْهاً»؟ الظاهر لا، لمكان حصر إنفاقهم هناك في الكراهية، و هنا بينها و بين الطواعية، و لكنه نعم، إذ الواقع منهم هو «كرها» في إنفاقهم و كل طاعاتهم، و «أَنْفِقُوا طَوْعاً» ردفا ب «كرها» قد يعني الطوع المدعى أم هو واقع الطوع تحديا أنه غير واقع، فحتى لو وقع فلا يقبل لكفرهم المحبط لأعمالهم، و كما أن «لن يتقبل» إحالة للقبول، تحلّق على طوع إلى كره لو اتفق طوع، و لكنه كره على أية حال‏ «1».

ذلك و في طوعا أو كرها وجوه أخرى مع ما ذكر ك «طوعا» دون إلزام من اللّه، أو إلزام من رؤسائكم مصلحية الحفاظ على ظاهر الإيمان، ف «كرها» إلزاما هنا أو هناك.

فإنفاقهم على أية حال، و بكل معاني و حالات الطوع، هو كالكرة على سواء أنه «لن يتقبل» إحالة لقبوله‏ «طَوْعاً أَوْ كَرْهاً» تقبلا من اللّه أو رسوله أو المؤمنين النابهين.

\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_

(1). قال ابن عباس: نزلت في جد بن قيس قال للنبي (صلى اللّه عليه و آله و سلم) ائذن لي فى القعود و هذا مالي أعينك به.

الفرقان في تفسير القرآن بالقرآن، ج‏13، ص: 131

و هذه نماذج من صور المنافقين المناحرة لسيرهم، مظاهر خاوية من روح الإيمان، خالية من التصميم، و إنما خوف و مدارات بقلب منحرف، و عقل خرف، و ضمير مدخول منجرف.

فمهما تكن لهؤلاء الأنكاد من طائلة الأموال و الأولاد، فليست هي بشي‏ء بجنب اللّه:

فَلا تُعْجِبْكَ أَمْوالُهُمْ وَ لا أَوْلادُهُمْ إِنَّما يُرِيدُ اللَّهُ لِيُعَذِّبَهُمْ بِها فِي الْحَياةِ الدُّنْيا وَ تَزْهَقَ أَنْفُسُهُمْ وَ هُمْ كافِرُونَ (55).

إذا «فَلا تُعْجِبْكَ» أيها الناظر، و الرسول هنا خارج عن الدور إلّا بمعنى إياك أعني و اسمعي يا جارة، أم تأكيد للحرمة الفطرية و العقلية لذلك الإعجاب، و خطاب النبي بخصوصه أو بين آخرين يعني أن ذلك الإعجاب محرم على الكل، و ليس النبي لنبوته و محتده مستثنى عن ذلك، فإذا كان الإعجاب محرما عليه فعلى غيره أحرى، فالنهي قد ينحو نحو المنكر المفعول فنهي عن منكر واقع، فهو نهي عن المنكر، أم تشريع لما لم يكن محرما أم كان محرما فطريا و عقليا، فهذا تأكيد و ذاك إنشاء للحرمة، و هما لا يدلان على أن المخاطب به مقترف لمادة النهي، و هكذا تكون مناهي الرسول (صلى اللَّه عليه و آله و سلم) اللّهم إلا فيما كان حلا ثم حرم ك‏ «أَنْ تَجْمَعُوا بَيْنَ الْأُخْتَيْنِ» و ما أشبه، فمجرد ورود نهي للنبي (صلى اللَّه عليه و آله و سلم) أم سواه لا يدل على أنه اقترف المنهي على حرمته، إنما هو تحذير ذو احتمالات ثلاث.

«فَلا تُعْجِبْكَ أَمْوالُهُمْ وَ لا أَوْلادُهُمْ» أن تحملك على عجب أو عجب كأن هذه الأموال و الأولاد أعماد لحياتهم بها يعيشون، ويكأن اللَّه أراد فيها بهم خيرا «إنما» ليس إلا «يُرِيدُ اللَّهُ لِيُعَذِّبَهُمْ بِها فِي الْحَياةِ الدُّنْيا» عذابا في الحصول عليها، و عذابا في حفاظها، و عذابا في ظالمة التصرفات و ملتوياتها، مهما كانت لهم حظوة ظاهرة، ثم عذابا- من جراء الدنيا- في الآخرة، ف‏ «مَنْ أَعْرَضَ عَنْ ذِكْرِي فَإِنَّ لَهُ مَعِيشَةً ضَنْكاً وَ نَحْشُرُهُ يَوْمَ الْقِيامَةِ أَعْمى‏» (20: 124) و من ضنكها أنهم‏ «تَزْهَقَ أَنْفُسُهُمْ» كارهين حيث‏

الفرقان في تفسير القرآن بالقرآن، ج‏13، ص: 132

يفقدون أموالهم و أولادهم هنا و لا يجدونها هناك إلا عذابا ف «تزهق و هم كافرون».

فالأموال و الأولاد قد تكون نعمة يسبغها اللَّه على عباد له شاكرين لأنعمه، مصلحين أنفسهم و ذويهم، فمتجهين بها إلى اللَّه، دون أن تلهيهم عنه إلى سواه، فإذا هم مطمئنو الضمير ساكنو الأنفس، واثقين في ذلك المسير حاصل المصير، كلما أنفق من أموال و الأولاد في سبيل اللَّه استروح، و كلما أصيب احتسب، فالسكينة النفسية على أية حال له غامرة، و طويته بذكر اللَّه عامرة.

و أخرى تكون نعمة و نقمة يصيب بها آخرين حيث يعلم فسادهم و دخلهم و إفسادهم، و كسادهم عن الإيمان و دجلهم، فإذا القلق على الأموال و الأولاد يحوّل حياته جحيما و ضنكا.

و هذه النعمة النقمة في المنافقين أبرز، حيث ينفقون من أموالهم، أو يؤخذ منهم ضرائب إسلامية و هم كارهون، و الكفر ملة واحدة في ضنك المعيشة، حيث لا أمل لأصحابه في مستقبل الحياة، و هم في صراع دائم بين أموال و أولاد و شئونات أخرى.

و هنا «تَزْهَقَ أَنْفُسُهُمْ وَ هُمْ كافِرُونَ» تعني العذاب الأخير من الحياة الدنيا، ف‏ «تَزْهَقَ أَنْفُسُهُمْ» بكراهية مزدوجة، أنهم يستدبرون هذه الثروات الركام لغيرهم، و هم يستقبلون عذاب الأبد، و إن كانوا ناكرين له حياتهم، حيث يكشف لهم الغطاء عند الموت، فبعين يرون الدنيا حسرة و حزنا على تركها، و بأخرى يرون الأخرى خوفا على دخولها.

فقد يعني تعذيبهم بأموالهم و أولادهم في الحياة الدنيا أن‏ «تَزْهَقَ أَنْفُسُهُمْ وَ هُمْ كافِرُونَ» فإنه عذاب يكسح و ينسي كل رياحة سلفت، و كفاه عذابا يمر على الحياة كلها في اللحظة الأخيرة فيجعلها مرا مهما كانت حلوة.

كما و يعني أوسع من ذلك إنفاقهم على كره فإنه عذاب فوق عذاب النفاق، حيث النفاق بنفسه عذاب يجعل الإنسان حيران في ازدواجية

الفرقان في تفسير القرآن بالقرآن، ج‏13، ص: 133

شخصية، دائم المراقبة على نفسه بين طرفي المخاصمة إيمانا و كفرا، ثم الإنفاق حالة النفاق عذاب على عذاب.

و ثالث هو أوسع منها تحليقا على حياة المنافق و الكافر تعينه‏ «مَنْ أَعْرَضَ عَنْ ذِكْرِي فَإِنَّ لَهُ مَعِيشَةً ضَنْكاً» إذ لا مولى له يرتكن عليه إلّا دنياه المزعزعة التي هي دوما على شرف و شفا جرف جار من الزوال و السقوط و الانهيار بأعداء له يتربصون كل الدوائر لاستلاب منصبه و ماله و نفسه، و المؤمن مولاه هو اللَّه، مطمئنا به قلبه دون تزعزع: «أَلا بِذِكْرِ اللَّهِ تَطْمَئِنُّ الْقُلُوبُ».

وَ يَحْلِفُونَ بِاللَّهِ إِنَّهُمْ لَمِنْكُمْ وَ ما هُمْ مِنْكُمْ وَ لكِنَّهُمْ قَوْمٌ يَفْرَقُونَ (56).

«.. إِنَّهُمْ لَمِنْكُمْ» بكل تأكيد «منكم» إيمانا صالحا دون أي فارق و فرق‏ «وَ ما هُمْ مِنْكُمْ» في إيمان‏ «وَ لكِنَّهُمْ قَوْمٌ يَفْرَقُونَ» فرقا بين القلب و القالب في إيمان، إيمانا بألسنتهم و مظاهر أعمالهم، و كفرا بقلوبهم، كما و «يفرقون» فرقا بين المؤمنين بمكائد النفاق، و ذلك لأنهم «يفرقون» فرقا، فرقين من المؤمنين فارغين من الإيمان، يتظاهرون به، و من الكافرين فيسرون إليهم بالكفر: «وَ إِذا لَقُوا الَّذِينَ آمَنُوا قالُوا آمَنَّا وَ إِذا خَلَوْا إِلى‏ شَياطِينِهِمْ قالُوا إِنَّا مَعَكُمْ إِنَّما نَحْنُ مُسْتَهْزِؤُنَ» (2: 14)، فهم يعيشون ثالوث الفرق و الفرق، و من فرقهم في فرقهم أنهم:

لَوْ يَجِدُونَ مَلْجَأً أَوْ مَغاراتٍ أَوْ مُدَّخَلًا لَوَلَّوْا إِلَيْهِ وَ هُمْ يَجْمَحُونَ (57).

«لو» أنهم بثالوث فرقهم و فرقهم «يجدون» ثالوثا: «ملجأ» يلجأون إليه من أعباء ظاهر الإيمان و تكاليف النفاق «أو مغارات» بمداخل الجبال يغورون فيها «أو مدّخلا» متدخّلا يتدخلون فيه بتكلف، ف «لو يجدون» مفلتا من واقعهم المزري بسهولة: «مَلْجَأً أَوْ مَغاراتٍ» أم بصعوبة «مدّخلا» «لَوَلَّوْا إِلَيْهِ» معرضين عن جو الإيمان و المؤمنين‏ «وَ هُمْ يَجْمَحُونَ»: مسرعين بوجه لا يرد وجوههم شي‏ء.

الفرقان في تفسير القرآن بالقرآن، ج‏13، ص: 134

فهم لعناء جبناء، متطلعين أبدا إلى مخبأ فيه يختبون، أو مأمن إليه يأمنون، أو مدّخل فيه يدّخلون، مذعورين مطاردين، و من تخوفهم منكم حلفهم باللَّه‏ «إِنَّهُمْ لَمِنْكُمْ» ثم و منهم‏ «وَ إِذا خَلَوْا إِلى‏ شَياطِينِهِمْ قالُوا إِنَّا مَعَكُمْ» هناك بحلف إذ لا يصدّقون، و هنا دون حلف إذ يصدّقون.

وَ مِنْهُمْ مَنْ يَلْمِزُكَ فِي الصَّدَقاتِ فَإِنْ أُعْطُوا مِنْها رَضُوا وَ إِنْ لَمْ يُعْطَوْا مِنْها إِذا هُمْ يَسْخَطُونَ (58).

اللمز هو الاعتياب، و الهمز الاغتياب، و قد يكون اللمز همزا إذا كان الاعتياب اغتيابا، أو الهمز لمزا إذا كان الاغتياب اعتيابا، و قد ينفردان كاعتياب دون اغتياب فهو لمز دون همز، أو اغتياب دون اعتياب فهمز دون لمز، و الذين كانوا يلمزون الرسول (صلى اللَّه عليه و آله و سلم) في الصدقات كانوا يعتابونه حضورا و غيابا، فهم- إذا- هامزون لامزون، و «وَيْلٌ لِكُلِّ هُمَزَةٍ لُمَزَةٍ»!.

هؤلاء يلمزونك في الصدقات أخذا و إعطاء، لماذا تأخذها:

«أَ نُطْعِمُ مَنْ لَوْ يَشاءُ اللَّهُ أَطْعَمَهُ» أم تأخذ كثيرا ثم هكذا تعطيها و نحن محرومون أم ناقصون في العطية «فَإِنْ أُعْطُوا مِنْها» كما يهوون «رضوا» بظاهر الحال‏ «وَ إِنْ لَمْ يُعْطَوْا مِنْها» كما يهوون‏ «إِذا هُمْ يَسْخَطُونَ» عليك، و هؤلاء هم ثلثا الناس‏ «1» أو يزيدون.

و ليس ذلك اللمز منهم في الصدقات رعاية لعدل، أم حماسة

\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_

(1).

في الكافي باسناده عن إسحاق بن غالب قال قال أبو عبد اللَّه (عليه السلام) يا إسحاق كم ترى أهل هذه الآية: «فَإِنْ أُعْطُوا مِنْها رَضُوا وَ إِنْ لَمْ يُعْطَوْا مِنْها إِذا هُمْ يَسْخَطُونَ»؟ قال:

هم أكثر من ثلثي الناس.

و

في تفسير القمي في الآية أنها نزلت لمّا جاءت الصدقات و جاء الأغنياء و ظنوا أن رسول اللَّه (صلى اللَّه عليه و آله و سلم) يقسمها بينهم فلما وضعها رسول اللَّه (صلى اللَّه عليه و آله و سلم) في الفقراء تغامزوا رسول اللَّه (صلى اللَّه عليه و آله و سلم) و لمزوه و قالوا: نحن الذين نقوم في الحرب و نغزو معه و نقوي أمره ثم يدفع الصدقات إلى هؤلاء الذين لا يعينونه و لا يغنون عنه شيئا فأنزل اللَّه الآية، ثم فسر اللَّه عزّ و جلّ الصدقات لمن هي و على من يجب فقال: «إِنَّمَا الصَّدَقاتُ لِلْفُقَراءِ ...».

الفرقان في تفسير القرآن بالقرآن، ج‏13، ص: 135

لحق، أم غيرة على الدين، إنما ذلك التطاول مغبة أهواءهم و رغباتهم الغائلة الطائلة، و حماسة لهوساتهم الجهنمية «فَإِنْ أُعْطُوا مِنْها رَضُوا» مهما كان ظلما «وَ إِنْ لَمْ يُعْطَوْا مِنْها إِذا هُمْ يَسْخَطُونَ» مهما كان عدلا.

و لقد اسخطوا رسول اللَّه (صلى اللَّه عليه و آله و سلم) بهمزهم و لمزهم إياه في الصدقات و من‏

قالاتهم: «إعدل يا رسول الله (صلى الله عليه و آله و سلم) فقال: ويلك و من يعدل إذا لم أعدل» «1»

أم‏

«هذه قسمة ما أريد به وجه الله» «2».

و تلك السجية المنافقة اللعينة و هي عدم الرضى بحكم اللَّه في تقسيم صدقة أماهيه، إنها دركات حسب دركات الحالات و المجالات، فحتى‏

\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_

(1).

الدر المنثور 3: 250 عن أبي سعيد الخدري قال: بينما النبي (صلى اللَّه عليه و آله و سلم) يقسم قسما إذ جاءه ذو الخويصرة التميمي فقال: اعدل ... فقال عمر بن الخطاب: يا رسول اللَّه ائذن لي فأضرب عنقه، فقال رسول اللَّه (صلى اللَّه عليه و آله و سلم): دعه فإن له أصحابا يحقر أحدكم صلاته مع صلاتهم و صيامه مع صيامهم يمرقون من الدين كما يمرق السهم من الرمية فينظر في قذذه فلا يوجد فيه شي‏ء ثم ينظر في نضبه فلا يرى فيه شي‏ء ثم ينطر في رصافه فلا يرى فيه شي‏ء ثم ينظر في نصله فلا يوجد فيه شي‏ء قد سبق الفرث و الدم آتيهم رجل أسود إحدى يديه- أو قال- ثدييه مثل ثدي المرأة أو مثل البضعة تدرد يخرجون على حين فرقة من الناس، قال: فنزلت فيهم و منهم من يلمزك في الصدقات ...

قال أبو سعيد: أشهد أني سمعت هذا من رسول اللَّه (صلى اللَّه عليه و آله و سلم) و أشهد أن عليا حين قتلهم و أنا معه جي‏ء بالرجل على النعت الذي نعت رسول اللَّه (صلى اللَّه عليه و آله و سلم).

(2) و

فيه أخرج ابن مردويه عن ابن مسعود قال: لما قسم النبي (صلى اللَّه عليه و آله و سلم) غنائم حنين سمعت رجلا يقول: إن هذه قسمة ما أريد بد وجه اللَّه فأتيت النبي (صلى اللَّه عليه و آله و سلم) فذكرت له ذلك فقال: «رحمة الله على موسى قد أوذي بأكثر من هذا فصبر و نزل» و منهم من يلمزك في الصدقات.

و

في تفسير الفخر الرازي 16: 97 قال الكلبي‏ قال رجل من المنافقين يقال له أبو الجواظ لرسول اللَّه (صلى اللَّه عليه و آله و سلم): تزعم أن اللَّه أمرك أن تضع الصدقات في الفقراء و المساكين و لم تضعها في رعاء الشاء؟ فقال رسول اللَّه (صلى اللَّه عليه و آله و سلم): لا أبا لك أما كان موسى راعيا أما كان داود راعيا فلما ذهب قال (صلى اللَّه عليه و آله و سلم): احذروا هذا و أصحابه فإنهم منافقون.

الفرقان في تفسير القرآن بالقرآن، ج‏13، ص: 136

المؤمن غير الراضي بقسم اللَّه في تكوين أو تشريع داخل في حقل التنديد قدر السخط في ذلك قالا و حالا و أعمالا.

و ترى يجوز أن يدفع لمنافق صدقة؟ طبعا لا، فكيف‏ «فَإِنْ أُعْطُوا مِنْها رَضُوا» و إعطاءهم منها محظور؟.

إعطاءهم منها كأصل محظور، و أما إعطاءهم خوف إفسادهم فمحبور، و كما فعل رسول اللَّه (صلى اللَّه عليه و آله و سلم) «1» و هكذا الأمر في المؤلفة قلوبهم، فعلّ المنافق يصبح موافقا بتلك العطية أو يترك شرّه و ضرّه.

وَ لَوْ أَنَّهُمْ رَضُوا ما آتاهُمُ اللَّهُ وَ رَسُولُهُ وَ قالُوا حَسْبُنَا اللَّهُ سَيُؤْتِينَا اللَّهُ مِنْ فَضْلِهِ وَ رَسُولُهُ إِنَّا إِلَى اللَّهِ راغِبُونَ (59).

«لو» هنا ترج لما لم يحصل منهم أو لمّا يحصل، فالنص يقرر أن المنافقين على نفاقهم لو رضوا ... لأصبحوا من المؤمنين بذلك الرضى فإنه قضية الإيمان، و هنا تعني‏ «ما آتاهُمُ اللَّهُ» تكوينا و تشريعا «و رسوله» تطبيقا رساليا، إذ ليس الرسول مشاركا للَّه تكوينا أو تشريعا و لا نائبا عنه و هكذا «سَيُؤْتِينَا اللَّهُ مِنْ فَضْلِهِ» تقديرا «و رسوله» تقريرا «إِنَّا إِلَى اللَّهِ راغِبُونَ» لا سواه ذلك أدب نفسي أديب أريب أن يرضى العبد بقسمة اللَّه، رجاء أن‏

\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_

(1). و

فيه روى أبو بكر الأصم انه (صلى اللَّه عليه و آله و سلم) قال لرجل من أصحابه: ما علمك بفلان؟ فقال: ما لي به علم إلا أنك تدنيه في المجلس و تجزل له العطاء، فقال (صلى اللَّه عليه و آله و سلم): إنه منافق أدارى عن نفاقه و أخاف أن يفسد على غيره، فقال: لو أعطيت فلانا بعض ما تعطيه، فقال (صلى اللَّه عليه و آله و سلم): إنه مؤمن أكله إلى إيمانه و أما هذا فمنافق أداريه خوف إفساده، و فيه قال الضحاك: كان رسول اللَّه (صلى اللَّه عليه و آله و سلم) يقسم بينهم ما آتاه اللَّه من قليل المال و كثيره و كان المؤمنون يرضون بما اعطوا و يحمدون اللَّه عليه و أما المنافقون فإن أعطوا كثيرا فرحوا و إن أعطوا قليلا سخطوا، و فيه: قيل إن النبي (صلى اللَّه عليه و آله و سلم) كان يستعطف أهل مكة يومئذ بتوفر الغنائم عليهم فسخط المنافقون.

الفرقان في تفسير القرآن بالقرآن، ج‏13، ص: 137

يزيده اللَّه من فضله، و على أية حال أن يكون لسان القال و الحال‏ «إِنَّا إِلَى اللَّهِ راغِبُونَ» أعطانا قليلا أو كثيرا.

و بالتالي- بعد بيان هذا الأدب البارع بحق اللَّه و حق رسوله، يقرر أن الأمر ليس أمر الرسول (صلى اللَّه عليه و آله و سلم) إنما هو رسول في البلاغ و التطبيق، و ليس له من الأمر شي‏ء.

إِنَّمَا الصَّدَقاتُ لِلْفُقَراءِ وَ الْمَساكِينِ وَ الْعامِلِينَ عَلَيْها وَ الْمُؤَلَّفَةِ قُلُوبُهُمْ وَ فِي الرِّقابِ وَ الْغارِمِينَ وَ فِي سَبِيلِ اللَّهِ وَ ابْنِ السَّبِيلِ فَرِيضَةً مِنَ اللَّهِ وَ اللَّهُ عَلِيمٌ حَكِيمٌ (60).

آية وحيدة منقطعة النظير تقرر موارد الزكوة الثمانية لمرة يتيمة «فَرِيضَةً مِنَ اللَّهِ» جديرة بين آي الصدقات و الإنفاقات و الزكوات و سائر الايتاآت أن تمحور في البحث عن أمهات مسائل الزكوة، و قد قرنت بها الصلاة في كثير من الآيات كشريطة أصيلة للإيمان، و الخروج عن اللّاإيمان، و في القرآن كله نجد إيتاء المال و الصدقات و الإنفاقات تعني كلها «الزكوة» مهما اختلفت عنها التعبيرات.

و الصدقة هي ما تجافى به الإنسان عن حقه في سبيل اللَّه، فهي صدقة الإيمان باللَّه و الأخوة في اللَّه، صدقا في الحصول عليه، و صدقا في إنفاقه، و هو النية الصادقة دون من و لا أذى.

فآية الصدقات- هذه- مما تكفي برهانا ساطعا على أنها ككلّ هي الزكوات‏ «1».

كما أن‏ «خُذْ مِنْ أَمْوالِهِمْ صَدَقَةً تُطَهِّرُهُمْ وَ تُزَكِّيهِمْ بِها ..» (9:) 103) تجعل كل الأموال المأخوذة فرضا من المسلمين صدقات هي‏

\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_

(1). و هي 14 آية كلها مدنيات. تعني كلها الزكوة بوجه عام و حتى في‏ «فَفِدْيَةٌ مِنْ صِيامٍ أَوْ صَدَقَةٍ أَوْ نُسُكٍ» (2: 196) بل و حتى في «و آتوا النساء صدقاتهن نحلة» (4: 4) مهما كانت هي المهور الواجبة لأنها لا مقابل لها إلا العطف بالنساء فإن ما يؤتينه يقال ما يأخذنه و زيادة، إذا فمهورهن صدقات.

الفرقان في تفسير القرآن بالقرآن، ج‏13، ص: 138

الزكوات، و قد نزلت في تاسع الهجرة أو عاشرها.

و لا تعني «من» هنا تبعيضا في الأموال، أن يؤخذ البعض دون الآخر حتى ينطبق ذلك البعض على التسعة الشهيرة، لأنها لا تؤخذ كلها، بل بعض منها، ثم «أموالهم» تحلّق على كل الأموال، فهي- إذا- كلها موارد لذلك الأخذ، ف «من» تعني بعضا من كل فرد فرد و كل صنف صنف من أموالهم، و لو عنت بعضا من بعض لكان صحيح التعبير و فصيحه «خذ من بعض أموالهم».

ذلك، فلو كان النص «خذ أموالهم صدقة» كان الفرض أخذ كل أموالهم دون إبقاء، و لو كان «خذ من بعض أموالهم» كان أخذ البعض من بعض أموالهم، و لكن النص‏ «خُذْ مِنْ أَمْوالِهِمْ» فلا يعني إلا الأخذ من بعض الجميع و هو بعض كل منها، دون المجموع، و لا تصلح و لا تصح عناية البعض القليل القليل من «أموالهم» و هي جمع مضاف يعني كل أموالهم.

و مهما اختصت آيات الصدقات بأنها كلها مدنيات، و لكن آيات إيتاء المال و الإنفاق و الزكوة تعم العهدين، مما يبرهن أن الزكوة فريضة مكية قبل المدينة، بل هي من اوليات فرائضها، كما قرنت بالصلاة و هي أولى الفرائض على الإطلاق، مهما كان تطبيقها المطبّق بنصاباتها الخاصة في المدينة حين نزلت عليه‏ «خُذْ مِنْ أَمْوالِهِمْ صَدَقَةً ..» و قد كانت في مكة فرضا غير محدد إلا بحدود الإمكانية.

و هنا تضاف إلى مكيات الزكوة التسع‏ «1» مدنيات أربع‏ «2» تتحدث عن فرضها في الشرايع السابقة، فإنها تنجر إلى شرعة الإسلام ما لم تنسخ و قد أثبتت في العهدين.

\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_

(1). هي الآيات 7: 156 و 23: 4 و 27: 3 و 30: 39 و 31: 4 و 41: 7 و 87: 14 و 73: 20 و 92: 18.

(2) و هي 2: 43 و 19: 31 و 55 و 21: 73.

الفرقان في تفسير القرآن بالقرآن، ج‏13، ص: 139

ثم مكيات أخرى ثلاث تعبر عن الزكاة ب «حق معلوم» «1» و «حَقَّهُ يَوْمَ حَصادِهِ» «2»، مما تقضي على الفرية الشهيرة على الزكاة أنها- فقط-

\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_

(1). و مهما فسر «حق معلوم» في قسم من الروايات بغير الزكاة، فقد يعني غير الزكاة المعروضة ذات النصابات المعلومة، لا سيما و أن آيتي «حق معلوم» مكيتان و لم تكن في مكة للزكاة نصاب، و مما ورد في ذلك ما

رواه عبد الرحمان الأنصاري قال سمعت أبا جعفر (عليه السلام) يقول‏ أن رجلا جاء إلى علي بن الحسين (عليهما السلام) فقال له: أخبرني عن قول اللَّه عزّ و جلّ‏ «فِي أَمْوالِهِمْ حَقٌّ مَعْلُومٌ. لِلسَّائِلِ وَ الْمَحْرُومِ»؟ ما هذا الحق المعلوم؟ فقال له علي بن الحسين (عليهما السلام)، الحق المعلوم.

(2) هو في آيتين: المعارج 24 و الذاريات 19 «فِي أَمْوالِهِمْ حَقٌّ مَعْلُومٌ. لِلسَّائِلِ وَ الْمَحْرُومِ» و في الانعام 143 «وَ هُوَ الَّذِي أَنْشَأَ جَنَّاتٍ مَعْرُوشاتٍ‏ ... وَ آتُوا حَقَّهُ يَوْمَ حَصادِهِ ..» و تفصيلا للهوامش 1- 2 إليكم نصوص الآيات التالية:

فالزكاة فريضة مكية لشطرين من آياتها، فالثاني آيات مدنية أربع تتحدث عن واجب الزكاة في الشرايع السابقة ك‏ «أَوْصانِي بِالصَّلاةِ وَ الزَّكاةِ ما دُمْتُ حَيًّا» (19: 32)- «وَ أَقِيمُوا الصَّلاةَ وَ آتُوا الزَّكاةَ وَ ارْكَعُوا مَعَ الرَّاكِعِينَ» (2: 43)- «وَ كانَ يَأْمُرُ أَهْلَهُ بِالصَّلاةِ وَ الزَّكاةِ» (19: 55)- «وَ جَعَلْناهُمْ أَئِمَّةً يَهْدُونَ بِأَمْرِنا وَ أَوْحَيْنا إِلَيْهِمْ فِعْلَ الْخَيْراتِ وَ إِقامَ الصَّلاةِ وَ إِيتاءَ الزَّكاةِ وَ كانُوا لَنا عابِدِينَ» (21: 73).

و الشطر الأوّل هي مكيات تسع: «.. وَ رَحْمَتِي وَسِعَتْ كُلَّ شَيْ‏ءٍ فَسَأَكْتُبُها لِلَّذِينَ يَتَّقُونَ وَ يُؤْتُونَ الزَّكاةَ ..» (7: 156)- «وَ الَّذِينَ هُمْ لِلزَّكاةِ فاعِلُونَ» (23: 4)- و «الَّذِينَ يُقِيمُونَ الصَّلاةَ وَ يُؤْتُونَ الزَّكاةَ وَ هُمْ بِالْآخِرَةِ هُمْ يُوقِنُونَ» (27: 3) و (31: 4)- «.. وَ ما آتَيْتُمْ مِنْ زَكاةٍ تُرِيدُونَ وَجْهَ اللَّهِ فَأُولئِكَ هُمُ الْمُضْعِفُونَ» (30: 39) «.. وَ وَيْلٌ لِلْمُشْرِكِينَ.

الَّذِينَ لا يُؤْتُونَ الزَّكاةَ وَ هُمْ بِالْآخِرَةِ هُمْ كافِرُونَ» (41: 7)- «قَدْ أَفْلَحَ مَنْ تَزَكَّى» (87: 14) «.. وَ أَقِيمُوا الصَّلاةَ وَ آتُوا الزَّكاةَ وَ أَقْرِضُوا اللَّهَ قَرْضاً حَسَناً» (73:) 20) «الَّذِي يُؤْتِي مالَهُ يَتَزَكَّى» (92: 18).

فهذه ثلاثة عشر آية تحدث عن واجب الزكاة قبل العهد المدني.

و من ثم آية الانعام‏ «وَ هُوَ الَّذِي أَنْشَأَ جَنَّاتٍ مَعْرُوشاتٍ ...» (143) و آية «حَقٌّ مَعْلُومٌ» في المعارج (22) و الذاريات (19): «فِي أَمْوالِهِمْ حَقٌّ مَعْلُومٌ. لِلسَّائِلِ وَ الْمَحْرُومِ».

فهذه ستة عشر، ثم آياتها المدنية أقل منها و إنما تزيد على المكية الأمر بالأخذ من أموالهم:

«خُذْ مِنْ أَمْوالِهِمْ صَدَقَةً تُطَهِّرُهُمْ وَ تُزَكِّيهِمْ بِها» (9: 103) و قد نزلت في تاسع الهجرة أو عاشرها، ثم بين الرسول (صلى اللَّه عليه و آله و سلم) نصابات الزكاة.

فمن ثلاثين آية حول الزكاة التي أكثرها مقرونة بالصلاة تسعة منها مكيات و الباقية مدنيات!.

الفرقان في تفسير القرآن بالقرآن، ج‏13، ص: 140

مدنية و ليست مكية، و قد اشتهرت بين الفقهاء و المفسرين و مؤلفي آيات الأحكام مما يحير العقول.

و التعبير عن كل هذه الإيتاءات بمختلف صيعها بالزكوة اكثر مما سواها من تعبيرات، يعني أن المال الموتى في سبيل اللَّه يزكي النفوس و الأموال من البخل و الخيلاء أمام اللَّه و أمام خلق اللَّه، و المجتمع من الفقر و العناء ماديا و نفسيا، و من كافة الأخطار الموجهة إليه اقتصادية و أنفسية و سياسية أماهيه من قذارات فردية و جماعية: ف‏ «خُذْ مِنْ أَمْوالِهِمْ صَدَقَةً تُطَهِّرُهُمْ وَ تُزَكِّيهِمْ بِها وَ صَلِّ عَلَيْهِمْ إِنَّ صَلاتَكَ سَكَنٌ لَهُمْ»!.

و في مربع الإيتاء الإنفاق الصدقة الزكوة، الثلاثة الأخيرة تفسر كيفية الإيتاء، أن واجبه كونه موصوفا بصفة الإنفاق و الصدقة و الزكاة، فالإيتاء الخارج عن هذه المثلث خارج عن دور الإيتاء إيمانيا.

و مختلف آيات الزكوة- كالحكمة الربانية الفارضة لها- تدل على شموليتها لكل الأموال، دون التسعة المعروفة التي لا أصل لها إلّا ضعاف الروايات سندا و متنا، المخالفة للآيات و عشرات أضعافها من معتبرات الروايات التي تعني ما تعنيه الآيات.

فالروايات الحاصرة لها في التسعة هي القائلة بصيغة واحدة

«عفى رسول الله (صلى الله عليه و آله و سلم) عما سوى ذلك» «1»

و كيف يصح‏

\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_

(1).

عفى رسول اللَّه (صلى اللَّه عليه و آله و سلم) عما سوى ذلك-

ان صح نقله- لا يعني تشريعه استقلالا أو تخويلا، ثم السنة لا تنسخ الكتاب و اختصاص الزكوة بهذه التسع نسخ لعمومات و صدقات الكتاب- و كثير منها آبية عن تخصيص أو تفسير- و ما يقبل أحدهما فذلك تخصيص مستهيمن لأنه تخصيص الأكثر و كذلك لتفسير الأكثر، ثم الحديثان المتعارضان يعرضان على القرآن و هو يصدق القسم الثاني القائل بعموم الزكاة لكل الأموال فإنما العفو يعني مرحلية بيان الواجب في الزكوة كما فيما اشتبها من أحكام صعبة.

جامع أحاديث الشيعة 8: 41 بسند عن يونس عن عبد اللَّه بن مسكان عن أبي بكر الحضرمي عن أبي عبد اللَّه (عليه السلام) قال: وضع رسول اللَّه (صلى اللَّه عليه و آله و سلم)

الفرقان في تفسير القرآن بالقرآن، ج‏13، ص: 141

أن يعفو رسول اللَّه (صلى اللَّه عليه و آله و سلم) عما فرضه اللَّه؟ اللّهم إلّا مرحليّا تطبيقيا مؤقتا توطينا للنفوس على أداء الزكوة، و أنه لم يكن في عهدي الرسول مكيا و مدنيا سوى هذه التسع من الأموال التي تأتي فيها الزكوة أم هي أهمها و أكثرها، لا سيما و أن العهد المكي هو عهد أفقر الفقر للمسلمين المحاصرين اقتصاديا و في كل الحركات، لذلك يكتفى في آياتها المكية بفرضها دون واجب أخذها، ثم الزكوة تعني كل ما يزكي الإنسان دون اختصاص بالأموال، كزكاة العلم و المعرفة أماهيه، ثم و لم تكن زكاة المال مختصة بنصاب خاص، بل هي كل ما سمحت به الأيدي قدر المستطاع كما تعنيه آية البقرة: «يَسْئَلُونَكَ ما ذا يُنْفِقُونَ قُلِ الْعَفْوَ» (219).

فلا يعني «عفى» عفوه من عند نفسه، فإنه مساماة لربه في التشريع أو فرية على ربه أن نسبه إليه، و لا عفوه تخويلا من اللَّه إليه حيث الربوبية تكوينية و لا تشريعية و ما أشبه لا تخول، و إنما هو رسول ليس إلا، و لو كان مشرعا بآية صورة لكان ربا رسولا، و الناصية العامة من الآيات التي تتحدث عن كيان الرسول تحصره في الرسالة فقط، و ليس التشريع وكالة من الرسالة، بل هو ربوبية مخولة!.

نرى الزكوة في كافة الشرائع الإلهية متعلقة بكل الأموال، كما تشير

\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_

الزكوة على تسعة أشياء الحنطة و الشعير و التمر و الزبيب و الذهب و الفضة و الإبل و البقر و الغنم و عفا عما سوى ذلك.

و

في الكافي قال يونس‏ معنى قوله أن الزكوة في تسعة أشياء و عفا عما سوى ذلك إنما كان ذلك في أول النبوة كما كانت الصلاة ركعتين ثم زاد رسول اللَّه (صلى اللَّه عليه و آله و سلم) فيها سبع ركعات و كذلك الزكوة وضعها و سنها في أوّل نبوته على تسعة أشياء ثم وضعها على جميع الحبوب.

و

عن أبي بصير قال‏ قلت لأبي عبد اللَّه (عليه السلام) هل في الأرز شي‏ء؟ فقال: نعم، ثم قال: إن المدينة لم تكن يومئذ أرض أرز فيقال فيه و لكنه قد جعل فيه و كيف لا يكون فيه و عامة خراج أهل العراق منه؟ (التهذيب 4: 65)

أقول: و عل «عفى عما سوى ذلك» يشمل عفو الذكر عما لم يكن يومئذ في نطاق الحكم الإسلامي.

الفرقان في تفسير القرآن بالقرآن، ج‏13، ص: 142

إليه آيات من القرآن و أخرى من كتابات السماء «1».

فمن القرآن: «وَ أَوْصانِي بِالصَّلاةِ وَ الزَّكاةِ ما دُمْتُ حَيًّا» (19:) 31) فمتى كان للسيد المسيح (عليه السلام) نقدان و غلات و انعام و لا سيما لحد النصاب حتى يوصى بالزكوة منها، اللّهم إلّا زيادة عن ضروراته مهما قلت!.

كما و النبيون أجمع و هم كانوا فقراء قد لا يملكون قوتهم: «وَ أَوْحَيْنا إِلَيْهِمْ فِعْلَ الْخَيْراتِ وَ إِقامَ الصَّلاةِ وَ إِيتاءَ الزَّكاةِ» (21: 73).

فما هم في حقل الزكوة إلّا كالمسيح من النبيين و كنساء النبي (صلى اللَّه عليه و آله و سلم) من سائر الناس: «وَ أَقِمْنَ الصَّلاةَ وَ آتِينَ الزَّكاةَ ..»

(33: 33) فمتى كانت لهن نصابات من هذه التسع- أم دونها- حتى يؤمرون بالزكاة إلّا واحدة منهن و هي خديجة المتوفاة قبل نزول هذه الآية بسنين.

ثم و كيف تقرن الزكاة بالصلاة كشريطة ثابتة للإيمان؟ و هي خاصة بالتسعة التي لا يملكها إلّا الأقلون! «قَدْ أَفْلَحَ الْمُؤْمِنُونَ‏ ... وَ الَّذِينَ هُمْ لِلزَّكاةِ فاعِلُونَ» (23: 4) إلا إذا كانت فرضا مهما قلت، شاملة للجل‏

\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_

(1). منها في في أخبار الأيام الثاني الإصحاح 31- الآية 5: «و لما شاع الأمر كثر بنو إسرائيل من أوائل الحنطة و المسطار و الزيت و العسل و من كل غلة الحقل و آتوا بعشر الجميع بكثرة».

و في التوراة سفر الاعداد 18: 26: «متى أخذتم من بني إسرائيل العشر الذي أعطيتكم إياه من عندهم نصيبا لكم ترفعون منه رفيعة الرب عشرا من العشر. فيحسب لكم انه رفيعتكم كالحنطة من البيدر و كألك من المعصرة. فهكذا ترفعون أنتم أيضا رفيعة الرب من جميع عشوركم التي تأخذون من بني إسرائيل» و في سفر اللاويين 19: 9 و 10 و 23 و التثنية 24: 19 و تواريخ الأيام ص 717 31: 5 يذكر الدهن و العسل من الأموال الزكوية.

و في إنجيل متى 23: 23 يقول المسيح (عليه السلام): «ويل لكم أيها الكتبة و الفريسيون المراءون لأنكم تعشرون النعنع و الشبث و الكمون و تركتم أثقل الناموس الحق و الرحمة و الإيمان. كان ينبغي أن تعملوا هذه و لا تتركوا تلك» و مثله في لوقا 42111 ولي 41 منه يقول (عليه السلام): بل اعطوا ما عندكم صدقة فهوذا كل شي‏ء يكون نقيا لكم.

الفرقان في تفسير القرآن بالقرآن، ج‏13، ص: 143

أو الكل، حيث الإنسان أيا كان بإمكانه إيتاء الزكاة، و على أقل تقدير من سائر قواته إن لم يكن له قوة في مال.

ذلك! فلم يقرن أي واجب بصفة الإيمان العام إلا الزكوة، مما يدل على تعميمها لكل المؤمنين.

أم كيف تختص الزكوة بهذه التسع و هي معنية من الخاتم الذي أنفقه الإمام علي (عليه السلام) في ركوع الصلاة؟ حسب متواتر الروايات المفسرة آيته: «إِنَّما وَلِيُّكُمُ اللَّهُ وَ رَسُولُهُ وَ الَّذِينَ آمَنُوا الَّذِينَ يُقِيمُونَ الصَّلاةَ وَ يُؤْتُونَ الزَّكاةَ وَ هُمْ راكِعُونَ» (5: 55).

فلا تجد أيا من فروع الدين يقرن بالصلاة إلّا الزكوة، فقد

«فرض الله الزكوة مع الصلاة» «1»

في عدة آيات، و ليس ذلك إلّا لأهميتها و أعميتها، فالإنسان أبا كان قد يجد ما ينفقه، و لكن الصوم و الجهاد و الحج و الأمر و النهي و ما أشبه ليست على كافة المكلفين، اللّهم من توفرت فيه شروطها بظروفها.

هنا ننظر إلى خصوص الآيات و عمومها في حقل الزكوة، فلا نجد أية إشارة إلى اختصاصها بمال دون سواه، مما يحتم شمولها لكل الأموال دونما استثناء.

و من خصوصها: «وَ هُوَ الَّذِي أَنْشَأَ جَنَّاتٍ مَعْرُوشاتٍ وَ غَيْرَ مَعْرُوشاتٍ وَ النَّخْلَ وَ الزَّرْعَ مُخْتَلِفاً أُكُلُهُ وَ الزَّيْتُونَ وَ الرُّمَّانَ مُتَشابِهاً وَ غَيْرَ مُتَشابِهٍ كُلُوا مِنْ‏

\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_

(1).

الوسائل: 6: 5 صحيحة الفضلاء الأربع محمد بن مسلم و أبي بصير و بريد و فضيل كلهم عن أبي جعفر و أبي عبد الله (عليهما السلام) قالا: فرض الله الزكاة مع الصلاة.

و

عن النهج عن علي (عليه السلام) تعاهدوا أمر الصلاة و حافظوا عليها .. ثم إن الزكاة جعلة مع الصلاة قربانا لأهل الإسلام فمن أعطاها طيب النفس بها فإنها تجعل له كفارة و من النار حجابا و وقاية فلا يتبعها أحد نفسه و لا يكثرن عليها لهفة و إن من أعطاها غير طيب النفس بها يرجوا بها ما هو أفضل منها فهو جاهل بالسنة مغبون الأجر ضال العمل طويل الندم.

و

فيه عنه (عليه السلام) سوسوا إيمانكم بالصدقة و حصنوا أموالكم بالزكاة و ادفعوا أمواج البلاء بالدعاء.

الفرقان في تفسير القرآن بالقرآن، ج‏13، ص: 144

ثَمَرِهِ إِذا أَثْمَرَ وَ آتُوا حَقَّهُ يَوْمَ حَصادِهِ وَ لا تُسْرِفُوا إِنَّهُ لا يُحِبُّ الْمُسْرِفِينَ» (6: 143).

فضمير الغائب في «حقه» راجع- لأقل تقدير- إلى الأخير:

«وَ الزَّيْتُونَ وَ الرُّمَّانَ» و يكفي هذا تجاوزا عن التسعة الشهيرة! و لكنه راجع بظاهره- إلى كل المذكورات هنا، ف‏ «جَنَّاتٍ مَعْرُوشاتٍ وَ غَيْرَ مَعْرُوشاتٍ» تشمل كافة الجنات بكل الفواكه الناتجة عنها دونما استثناء، كما «الزَّرْعَ مُخْتَلِفاً أُكُلُهُ» تشمل كل ما يزرع، فأين حصر الزكاة في الغلات الأربع و نص الآية لا سيما في الزيتون و الرمان يعارضه.

ثم «حقه» تلمح صارحة بحق معلوم، و من ثم‏ «يَوْمَ حَصادِهِ» تختصه بيوم الحصاد، مما يخصصه بالزكوة، إذ لا حق معلوما يوم الحصاد إلّا الزكوة «1» و القول ألّا إسراف في الحق المعلوم، يرد هنا بأن المعلوم هو

\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_

(1).

الدر المنثور 3: 49- أخرج عبد بن حميد عن قتادة في الآية قال: الصدقة التي فيه ذكر لنا إن نبي اللَّه (صلى اللَّه عليه و آله و سلم) سن فيما سقت السماء أو العين السائحة أو سقى النيل أو كان بعلا العشر كاملا و فيما سقي بالرشا نصف العشر و هذا فيما يكال من الثمر، قال: و كان يقال إذا بلغت الثمرة خمسة أوسق و هو ثلاثمائة صاع فقد حقت فيه الزكاة قال: و كانوا يستحبون أن يعطى مما لا يكال من الثمرة على نحو ما يكال منها.

و

فيه أخرج ابن المنذر و النحاس و أبو الشيخ و ابن مردويه عن أبي سعيد الخدري عن النبي (صلى اللَّه عليه و آله و سلم) في الآية قال: «ما سقط من السنبل»

أقول: قد يعني واجب الزكاة دون نصاب في مكة قبل تقرير النصاب.

و

في نور الثقلين 1: 769 في تفسير العياشي عن سماعة عن أبي عبد اللَّه عن أبيه (عليهما السلام) عن النبي (صلى اللَّه عليه و آله و سلم) أنه كان يكره أن يصرم النخل بالليل و ان يحصد الزرع بالليل لأن اللَّه يقول: و آتوا حقه يوم حصاده قيل يا نبي اللَّه و ما حقه؟ قال: ناول منه المسكين و السائل.

أقول: و هذا من تفسير الآية مكيا قبل تقرير النصاب. و

فيه عن أبي بصير عن أبي عبد اللَّه (عليه السلام) في الآية فسماه اللَّه حقا قال قلت: و ما حقه يوم حصاده؟ قال: الضغث و تتأوله من حضرك من أهل الخاصة.

أقول: و هكذا الأمر هنا.

و

في الصحيح عن زرارة و محمد بن مسلم و أبي بصير في الآية «هذا من الصدقة يعطي المسكين القبضة بعد القبضة و من الجراذ الحفنة بعد الحفنة حتى يفرغ».

الفرقان في تفسير القرآن بالقرآن، ج‏13، ص: 145

العفو الوسط، و الإسراف يعم جانبي الإفراط و التفريط، ف «حقه» هو العفو الوسط إذ كان ذلك قبل تقرير نصابات الزكاة، فإنها ابتدأت من العهد المدني أم يعني الإسراف في المصرف، فكما لا تبذير فيه كذلك لا إسراف، و «حقه» إذا ما زاد عن حاجيات الحياة، فإن المبذر أو المسرف إنما ينقص فيهما عن‏ «حَقَّهُ يَوْمَ حَصادِهِ» توفيرا لنفسه، إسرافا أو تبذيرا أو كنزا، مثلثا من المحرمات لا يسمح لشي‏ء منها في شرعة اللَّه.

و لم يمنع جماعة من أعلام الفقهاء و المفسرين عن أن ذلك الحق هو الزكوة إلا مكية الآية، زعم أن فريضة الزكوة مدنية، رغم أن زهاء النصف من آيات الزكوة مكيات!.

و متضارب الروايات في تفسير «حَقَّهُ يَوْمَ حَصادِهِ» معروضة على هذه الآية حقها، فتطرح أو تول المخالفة لحقها «1» و هي لأقل تقدير تفرض حقا في الأكثر من التسعة المشهورة.

\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_

و

في الوسائل 6: 134 عن أبي مريم عن أبي عبد اللَّه (عليه السلام) في الآية قال: «تعطي المسكين يوم حصادك الضغث ثم إذا وقع في البيدر ثم إذا وقع في الصاع العشر و نصف العشر»

أقول: و هذا تفسير الآية مدنيا بعد تقرير النصاب. و

يعارضه خبر معاوية بن شريح سمعت أبا عبد اللَّه (عليه السلام) يقول: في الزرع حقان حق تؤخذ به و حق تعطيه قلت و ما الذي أؤخذ به و ما الذي أعطيه؟ قال: أما الذي تؤخذ به فالعشر و نصف العشر و أما الذي تعطيه فقول اللَّه عزّ و جلّ‏ «وَ آتُوا حَقَّهُ يَوْمَ حَصادِهِ» يعني من حضرك الشي‏ء بعد الشي‏ء و لا أعلمه إلا قال: الضغث ثم الضغث حتى يفرغ،

أقول: عله يعني الحق المحلق على النصاب لأنها نزلت قبل تقرير النصاب.

(1).

في فروع الكافي 3: 510 محمد بن مسلم قال: سألته عن الحبوب ما يزكى منها؟

قال: البر و الشعير و الذرة و الدخن و الأرز و السّلت و العدس و السمسم كل هذا يزكى و أشباهه.

أقول: السّلت هو الشعير أو غير ذي القشر منه.

و

فيه عن زرارة عن أبي عبد اللَّه (عليه السلام) مثله و قال: كل ما كيل بالصاع فبلغ الأوساق‏

الفرقان في تفسير القرآن بالقرآن، ج‏13، ص: 146

و منها يا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا أَنْفِقُوا مِنْ طَيِّباتِ ما كَسَبْتُمْ وَ مِمَّا أَخْرَجْنا لَكُمْ مِنَ الْأَرْضِ وَ لا تَيَمَّمُوا الْخَبِيثَ مِنْهُ تُنْفِقُونَ وَ لَسْتُمْ بِآخِذِيهِ إِلَّا أَنْ تُغْمِضُوا فِيهِ وَ اعْلَمُوا أَنَّ اللَّهَ غَنِيٌّ حَمِيدٌ. الشَّيْطانُ يَعِدُكُمُ الْفَقْرَ وَ يَأْمُرُكُمْ بِالْفَحْشاءِ وَ اللَّهُ يَعِدُكُمْ مَغْفِرَةً مِنْهُ وَ فَضْلًا وَ اللَّهُ واسِعٌ عَلِيمٌ. يُؤْتِي الْحِكْمَةَ ... وَ ما أَنْفَقْتُمْ مِنْ نَفَقَةٍ ... إِنْ تُبْدُوا الصَّدَقاتِ فَنِعِمَّا هِيَ وَ إِنْ تُخْفُوها وَ تُؤْتُوهَا الْفُقَراءَ فَهُوَ خَيْرٌ لَكُمْ (2: 271).

ف‏ «طَيِّباتِ ما كَسَبْتُمْ» تحلّق على كل المكاسب المحللة الطيبة تجارة و إجارة أماهيه؟ و كيف لا تشمل «ما كسبتم» أرباح التجارات و هو يقابل‏ «مِمَّا أَخْرَجْنا لَكُمْ مِنَ الْأَرْضِ».

ثم‏ «مِمَّا أَخْرَجْنا لَكُمْ مِنَ الْأَرْضِ» محلقة على كل نابتات الأرض، و لا تخرج الأموال كلها من هذين، و اختصاص «ما كسبتم» بالنقدين المسكوكين و «مِمَّا أَخْرَجْنا ..» بالغلات الأربع، من المستهجن جدا و ذكر «الصدقات» فيما بعد مما يبين و يعين أن الإنفاق هنا يعني واجب الزكوة، فهي واجبة في أرباح التجارات و هي خارجة عن التسعة! و لو كان القصد من طيبات ما كسبتم فقط النقدين و الأنعام لجاء بلفظهما الصريح ك «من النقدين و الأنعام» و الأنعام مذكورة بعدها، و كذلك‏ «مِمَّا أَخْرَجْنا لَكُمْ مِنَ الْأَرْضِ» لو عني منها «الغلات الأربع» لجاء بلفظها الخاص، إذا فواجب الإنفاق عام، و تخصيصه بالتسعة مستهجن مخالف لنص العموم غير القابلة للتخصيص.

و منها آيتا «حق معلوم: إِلَّا الْمُصَلِّينَ. الَّذِينَ هُمْ عَلى‏ صَلاتِهِمْ دائِمُونَ. وَ الَّذِينَ فِي أَمْوالِهِمْ حَقٌّ مَعْلُومٌ. لِلسَّائِلِ وَ الْمَحْرُومِ» (70:) 2) «وَ بِالْأَسْحارِ هُمْ يَسْتَغْفِرُونَ. وَ فِي أَمْوالِهِمْ حَقٌّ لِلسَّائِلِ وَ الْمَحْرُومِ» (51: 19) و

«ليس في المال حق سوى الزكوة» «1»

و هل إن «أموالهم» تختص بهذه التسعة، و لا يملكها إلا الأقلون.

\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_

فعليه الزكوة و قال: جعل رسول اللَّه (صلى اللَّه عليه و آله و سلم) الصدقة في كل شي‏ء أنبتت الأرض إلا ما كان في الخضر و البقول و كل شي‏ء يفسد من يومه.

(1). تفسير الرازي 13: 214 قال (صلى اللَّه عليه و آله و سلم): ...

الفرقان في تفسير القرآن بالقرآن، ج‏13، ص: 147

و من عموم الآيات التي هي كخصوصها كما النصوص: «خُذْ مِنْ أَمْوالِهِمْ صَدَقَةً تُطَهِّرُهُمْ وَ تُزَكِّيهِمْ بِها ..» (9: 103) حيث الجمع المضاف دليل الاستغراق، أ فليست ما سوى التسعة من أموالهم؟ و الأكثرية الساحقة يملكون منها ما لا يملكون! و لا تتحمل «أموالهم» التخصيص بالتسعة فإنه تخصيص الأكثر، و كيف يصح تخصيص عام يشمل مئات الصنوف من الأموال بتسعة فقط و هو مستهجن، فلا أقل من إشارة تناسب البعض.

ثم آيات فرض الإنفاق: «وَ أَنْفِقُوا مِمَّا جَعَلَكُمْ مُسْتَخْلَفِينَ فِيهِ» (57: 7) أ ترى أننا مستخلفون- فقط- في القلة القليلة التي يملكها الأقلون، دون الثلاثة الكثيرة التي يملكها الأكثرون، فالأقلون- إذا- مستحلفون ثم الأكثرون متخلفون! ..

أو ليست تلك الكثرة من مال اللَّه التي استخلفنا فيه كما نحن مستخلفون في هذه القلة؟! و قد نرى فرض الإنفاق‏ «مِمَّا رَزَقْناهُمْ» بعد فرض الصلاة في آيات أربع: «الَّذِينَ يُؤْمِنُونَ بِالْغَيْبِ وَ يُقِيمُونَ الصَّلاةَ وَ مِمَّا رَزَقْناهُمْ يُنْفِقُونَ» (2: 3)- «الَّذِينَ يُقِيمُونَ الصَّلاةَ وَ مِمَّا رَزَقْناهُمْ يُنْفِقُونَ. أُولئِكَ هُمُ الْمُؤْمِنُونَ حَقًّا» (8: 3)- «وَ الْمُقِيمِي الصَّلاةِ وَ مِمَّا رَزَقْناهُمْ يُنْفِقُونَ» (22: 35)- «قُلْ لِعِبادِيَ الَّذِينَ آمَنُوا يُقِيمُوا الصَّلاةَ وَ يُنْفِقُوا مِمَّا رَزَقْناهُمْ سِرًّا وَ عَلانِيَةً» (14: 31).

فلأن الصلاة تقرن فيما تقرن بالزكاة و قد قرنت هنا ب‏ «مِمَّا رَزَقْناهُمْ» فهي هي الزكاة، و كما أجمعت عليه كلمة المفسرين.

فهلّا تكون سائر الأرزاق- ما سوى التسعة- «مِمَّا رَزَقْناهُمْ»؟

فليست هي رزقا أم هي من رزق غير اللَّه؟ و لا يتحمل‏ «مِمَّا رَزَقْناهُمْ» التخصيص بالتسعة، فإنه من تخصيص الأكثر، و كذلك تخصيص النسخ حيث السنة لا تنسخ الكتاب و لا سيما إذا كانت معارضة بمثلها أو أكثر منها كما هنا.

الفرقان في تفسير القرآن بالقرآن، ج‏13، ص: 148

هذا- و هكذا آيات إيتاء المال ك‏ «آتَى الْمالَ عَلى‏ حُبِّهِ ذَوِي الْقُرْبى‏ وَ الْيَتامى‏ وَ الْمَساكِينَ» (2: 177) ف «إن الله تبارك و تعالى أشرك بين الأغنياء و الفقراء في الأموال فليس لهم أن يصرفوا إلى غير شركائهم» «1» ثم و لا نجد في مربع الآيات- إيتاء و إنفاقا و صدقات و زكوات- أي تحديد لمتعلّقها من الأموال، إلّا تعميما بنص، أو إطلاقا أو عموما يأبيان عن أي تحديد و تقييد.

ذلك، و لسنا نختص واجب الإنفاق بالزكوة لو لم تكن هي و الصدقات و الإنفاقات واحدة، و هي الصدقة حسب آيتنا «إِنَّمَا الصَّدَقاتُ» فواجب إيتاء المال كضريبة مستقيمة و غير مستقيمة هو واجب الرعاية على أية حال.

ذلك، و لأن الزكاة هي تزكية في جهات، ضميريا عن البخل،

\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_

(1). الكافي 3: 528 و العلل 2: 59 عن أبي المعزى عن أبي عبد اللّه (عليه السلام) قال: ... و

في الكافي 3: 524 عن الحلبي عن أبي عبد اللّه (عليه السلام) قال: باع أرضا من سليمان بن عبد الملك بمال فاشترط في بيعه أن يزكى هذا المال من عنده ست سنين.

و

فيه عن عبد اللّه بن سنان قال سمعت أبا عبد اللّه (عليه السلام) يقول: باع أبي من هشام بن عبد الملك أرضا له بكذا و كذا ألف دينار و اشترط عليه زكوة ذلك المال عشر سنين و إنما فعل ذلك لأن هشاما كان هو الوالي.

و

عن جعفر بن محمد عن أبيه عن أبيه عن علي بن أبي طالب (عليهم السلام) قال: من كان له مال و عليه مال فليحسب ماله و ما عليه فإن كان ماله فضل على مأتي درهم فليعط خمسة دراهم و إن لم يكن له فضل على مأتي درهم فليس عليه شي‏ء (الأشعثيات ص 54).

و

قولهم (عليهم السلام): «أيما رجل عنده مال و حال عليه الحول فانه يزكيه» (الحدائق الناضرة 12: 39)

و

عن جعفر بن محمد (عليهما السلام) أنه قال‏ في الذي يكون للرجل على الرجل إن كان غير ممنوع منه يأخذ متى شاء بلا خصومة و لا مدافعة فهو كسائر ما في يديه من ماله يزكيه و إن كان الذي هو عليه يدافعه و لا يصل إليه إلا بخصومة فزكاته على الذي في يديه و كذلك الحال الغائب و كذلك مهر المرأة على زوجها (البحار 20:

13).

و

عنه (صلى اللّه عليه و آله و سلم) قوله: «هاتوا ربع عشر أموالكم» (المختلف 2: 1).

الفرقان في تفسير القرآن بالقرآن، ج‏13، ص: 149

و ماليا و اجتماعيا و ما أشبه، فقد يعبر عن كل الإنفاقات- سوى الديات و الكفارات و ما أشبه- بالزكاة، كما يعبر عنها بالصدقات و الانفاقات و الإيتاءات.

ذلك، و ليست صدفة غير قاصدة تلحيق أحاديث التسعة- ككل- ب‏

«و عفى رسول الله (صلى الله عليه و آله و سلم) عما سوى ذلك»

فإنها لا تعني- إن صدرت و صحت- انه (صلى اللَّه عليه و آله و سلم) عفى عما فرضه اللَّه، بل هي إشارة إلى سياسة التدريج و المرحلية لتطبيق فريضة الزكوة.

فقد فرضت عليهم الزكوة في العهد المكي دون تحديد، اللّهم إلّا ما تسمح به أنفسهم، إذ لم تحدد فيه نصابات الزكاة، رعاية لأحوالهم في بداية الحال، و لأنه لم تكن في مكة أموال.

ثم تأكد الفرض في العهد المدني أمرا بأخذها: «خُذْ مِنْ أَمْوالِهِمْ صَدَقَةً تُطَهِّرُهُمْ وَ تُزَكِّيهِمْ بِها وَ صَلِّ عَلَيْهِمْ إِنَّ صَلاتَكَ سَكَنٌ لَهُمْ وَ اللَّهُ سَمِيعٌ عَلِيمٌ. أَ لَمْ يَعْلَمُوا أَنَّ اللَّهَ هُوَ يَقْبَلُ التَّوْبَةَ عَنْ عِبادِهِ وَ يَأْخُذُ الصَّدَقاتِ وَ أَنَّ اللَّهَ هُوَ التَّوَّابُ الرَّحِيمُ» (9: 104) ثم و قررت هنا النصابات لأموال خاصة، ثم عمت هذه التقديرات لكل الأموال كما فرض اللَّه.

و قد تلمح هذه بمجاراتهم في أخذ الزكاة كيلا تصعب عليهم مضطربين، فأخذ منهم في البداية هذه التسعة «و عفى عما سوى ذلك» مؤقتا حتى يتهيئوا «1».

\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_

(1). قد يدل على هذه المرحلية ما

رواه في الكافي عن علي بن مهزيار قال‏ قرأت في كتاب عبد اللَّه بن محمد إلى أبي الحسن (عليه السلام) جعلت فداك روي عن أبي عبد اللَّه (عليه السلام) انه قال: وضع رسول اللَّه (صلى اللَّه عليه و آله و سلم) الزكوة على تسعة أشياء .... و عفا عما سوى ذلك؟ فقال له القائل: عندنا شي‏ء كثير يكون أضعاف ذلك، فقال: و ما هو؟ فقال له: الأرز، فقال أبو عبد اللَّه (عليه السلام) أقول لك: إن رسول اللَّه (صلى اللَّه عليه و آله و سلم) وضع الزكوة على تسعة أشياء و عفا عما سوى ذلك و تقول عندنا أرز و عندنا ذرة و قد كانت الذرة على عهد رسول اللَّه (صلى اللَّه عليه و آله و سلم)؟ فوقع (عليه السلام): كذلك هو و الزكوة على كل ما كيل بالصاع.

الفرقان في تفسير القرآن بالقرآن، ج‏13، ص: 150

ثم طبق عليهم الفرض المطبق كما أمر اللَّه، و قد تتبين هذه المرحلية من مكاتيب للرسول (صلى اللَّه عليه و آله و سلم) إلى بعض الملوك و الشيوخ من حمير و نجران و اليمن حيث يلحّق فيها التسعة ب «فمن زاد خيرا فهو خير له» إشارة إلى تطبيق الفرض بكامله فيما بعد.

و من التأويل لروايات التسعة أنه لم يكن في البداية في زمن الرسول إلا هذه التسعة، أم هي الأكثرية الساحقة و غيرها لم يكن يؤتى بها.

و قد دلت روايات كثيرة على تلك الشمولية المحلقة على كل الأموال، في حقول الزراعة و التجارة «1» أماهيه من محاولات مالية، هي‏

\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_

أقول: هذا تقرير لمرحلية الزكاة و انها ليست فقط على التسعة كما يصرح به‏

توقيعه (عليه السلام) «الزكوة على كل ما كيل بالصاع»

ثم العفو عما سوى ذلك ليس من شؤون الرسول (صلى اللَّه عليه و آله و سلم) لأنه ليس شارعا و لا مخولا في التشريع و إنما هو رسول- و لئن قلت انه وحي أن يعفو فهو إذا نسخ لعمومات الكتاب إذ لا تتحمل التخصيص.

(1). و منها ما

رواه زرارة قال‏ قلت لأبي عبد اللَّه (عليه السلام) في الذرة شي‏ء؟ قال: الذرة و العدس و السلت و الحبوب منها مثل ما في الحنطة و الشعير و كل ما كيل بالصاع فبلغ الأوساق التي تجب فيها الزكوة فعليه فيه الزكاة (التهذيب 4: 65).

أقول: و كيف يحمل مثله على التقية و ذكر الثلاثة الاخر مع العدس زيادة في الإجابة عن مورد السؤال و التقية يقتصر فيها على الضرورة و ما هي الضرورة أولا في زيادة البقية و ثانيا في ذكر ضابطة عامة «كل ما كيل بالصاع ..»؟ ثم لا قائل بما زاد عن التسعة بين العامة حتى يحمل على التقية.

و منها

روي عن أبي عبد اللَّه (عليه السلام) انه قال: كل ما دخل في القفيز فهو يجري مجرى الحنطة و الشعير و التمر و الزبيب قال: فأخبرني جعلت فداك هل على هذا الأرز و ما أشبهه من الحبوب: الحمص و العدس زكوة؟ فوقع (عليه السلام) صدقوا الزكوة في كل شي‏ء كيل‏ (الكافي 3: 511 ح 4).

و كتب عبد اللَّه و

روى غير هذا الرجل عن أبي عبد اللَّه (عليه السلام) انه سأله عن الحبوب فقال: و ما هي؟ فقال: «السمسم و الأرز و الدخن و كل هذا غلة كالحنطة و الشعير فقال أبو عبد الله (عليه السلام) في الحبوب كلها زكوة» (الكافي 3: 510)

أقول: الدخن ذريرة تدخن بها البيوت.

و

عن محمد بن إسماعيل قال‏ قلت لأبي الحسن (عليه السلام) إن لنا رطبة و ارزا فما الذي علينا

الفرقان في تفسير القرآن بالقرآن، ج‏13، ص: 151

\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_

فيها؟ فقال (عليه السلام): أما الرطبة فليس عليك فيها شي‏ء و أما الأرز فما سقت السماء العشر و ما سقي بالدلو فنصف العشر من كل ما كلت بالصاع أو قال وكيل بالمكيال‏ (الكافي 3: 511 ح 5).

و

عن أبي مريم عن أبي عبد اللَّه (عليه السلام) قال: سألته عن الحرث ما يزكى منه؟ فقال (عليه السلام) البر و الشعير و الذرة و الأرز و السلت و العدس كل هذا مما يزكى و قال: «كل ما كيل بالصاع فبلغ الأوساق فعليه الزكوة» (المصدر).

و

عن سماعة قال‏ سألته عن الزكاة في الزبيب و التمر فقال: في كل خمسة أوساق وسق و الوسق ستون صاعا و الزكاة فيهما سواء فأما الطعام فالعشر فيما سقت السماء و أما ما سقي الغرب و الدوالي فإنما عليه نصف العشر (الكافي 3: 512 و التهذيب 4: 15 و الاستبصار 2:

16).

و

عن أبي بصير و محمد بن مسلم عن أبي جعفر (عليهما السلام) انهما قالا له: هذه الأرض التي يزارع أهلها ما ترى فيها؟ فقال (عليه السلام): كل أرض رفعها إليك السلطان مما حرثته فيها فعليك فيما أخرج اللَّه منها الذي قاطعك عليه و ليس على جميع ما أخرج اللَّه منها العشر إنما عليك العشر فيما يحصل في يدك بعد مقاسمته لك (الكافي 3: 513).

أقول: يقول صاحب المدارك بعد ذكر هذا الحديث: و هذه الرواية كالصريحة في عدم استثناء شي‏ء مما يخرج من الأرض .. فالمستفاد من النصوص الصحيحة وجوب الزكوة في جميع ما يخرج من الأرض بعد المقاسمة، و مثله صاحب الذخيرة في قوله: قال بعض الفضلاء هذه الرواية كالصريحة في عدم استثناء شي‏ء مما يخرج من الأرض سوى المقاسمة إذ المقام مقام بيان ما عسى أن يتوهم اندراجه في العموم .. و المستفاد من النصوص وجوب الزكوة في جميع ما يخرج من الأرض بعد المقاسمة.

و

عن الرضا (عليه السلام) في كتاب له إلى المأمون: و العشر من الحنطة و الشعير و التمر و الزبيب و كل ما يخرج من الأرض من الحبوب إذا بلغت خمسة أوساق ففيها العشر ان كان يسقي سيحا و إن كان يسقى بالدوالي ففيه نصف العشر للمعسر و الميسر (تحف العقول ص 415).

و

عن جعفر بن محمد (عليهما السلام) عن أبيه (عليه السلام) عن آبائه (عليهم السلام) عن رسول اللَّه (صلى اللَّه عليه و آله و سلم) أنه قال: و ما سقت السماء و الأنهار ففيها العشر و هذا حديث اثبته الخاص و العام عن رسول اللَّه (صلى اللَّه عليه و آله و سلم) و فيه أبين البيان على أن الزكوة تجب في كل ما أنبتت الأرض و لم يستثن رسول اللَّه (صلى اللَّه عليه‏

الفرقان في تفسير القرآن بالقرآن، ج‏13، ص: 152

\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_

و آله و سلم) من ذلك شيئا دون شي‏ء (دعائم الإسلام 1: 256- بحار الأنوار 20:

26).

و

فيه و روينا عن أهل البيت (عليهم السلام) عن طرق كثيرة و باسناده العامة عن رسول اللَّه (صلى اللَّه عليه و آله و سلم) و روينا عن جعفر بن محمد (عليهما السلام) أنه سئل عن السمسم و الأرز و غير ذلك من الحبوب هل تزكي؟ فقال: نعم كالحنطة و الشعير (المصدر ص 256).

و

عن عبد اللَّه بن سنان قال قال أبو عبد اللَّه (عليه السلام) أن صدقة الظلف و الخف تدفع إلى المتجملين و أما صدقة الذهب و الفضة و ما كيل بالقفيز فما أخرجت الأرض فإلى الفقراء المدقعين‏ (علل الشرائع).

أقول: هذه شطر من الأحاديث حول الزراعة من طرق أصحابنا و أما من طرق إخواننا فمنها

ما عن موسى بن طلحة عن معاذ بن جبل أن رسول اللَّه (صلى اللَّه عليه و آله و سلم) قال: فيما سقت السماء و البعل و السيل العشر و فيما سقي بالنضح نصف العشر و أن يكون ذلك في التمر و الحنطة و الحبوب و أما القثاء و البطيخ و الرمان و القضيب فقد عفا عنه رسول اللَّه (صلى اللَّه عليه و آله و سلم) (المستدرك للحاكم النيسابوري 1: 401)

أقول: الرمان خلاف نص القرآن في آيته الماضية «وَ الزَّيْتُونَ وَ الرُّمَّانَ ..».

أقول: و

قد أخرج في صحيح البخاري 1: 170 و الخراج ص 54 و صحيح مسلم 3: 67 و سنن ابن ماجة كلهم عن رسول اللَّه (صلى اللَّه عليه و آله و سلم) فيما سقت السماء و الأنهار و العيون أو كان بعلا العشر و فيما سقي بالنواضح نصف العشر.

و

في فتوح البلدان للبادري ص 83 عن موسى بن طلحة بن عبد اللَّه قال‏ قرأت كتاب معاذ بن جبل حين بعثه رسول اللَّه (صلى اللَّه عليه و آله و سلم) إلى اليمن فكان فيه أن تؤخذ الصدقة من الحنطة و الشعير و النمر و الزبيب و الذرة.

و فيه عن عمرو بن شعيب أن عاملا لعمر بن الخطاب على الطائف كتب إليه أن أصحاب العسل لا يرفعون إلينا ما كانوا يرفعون إلى رسول اللَّه (صلى اللَّه عليه و آله و سلم) و هو من كل عشرة زقاق زق، فكتب إليه عمر ان فعلوا فاحموا لهم أوديتهم و إلا فلا تحموها.

هذا- ثم أحاديث أخرى تدل على فرض الزكاة على جميع الأموال: منها ما

عن الحسن بن علي الوشا عن أبان عن شعيب قال أبو عبد اللَّه (عليه السلام): كل شي‏ء جرّ عليك المال فزكه و كل شي‏ء ورثته أو وهب لك فاستقل به‏ (الكافي 3: 527).

و

عن محمد بن مسلم عنه (عليه السلام) قال: كل مال عملت به فعليك فيه الزكوة إذا حال عليه الحول‏ (الكافي 3: 528).

و

عن رسول اللَّه (صلى اللَّه عليه و آله و سلم) انه أسقط الزكوة عن الدر و الياقوت و الجوهر كله ما

الفرقان في تفسير القرآن بالقرآن، ج‏13، ص: 153

المعول عليها لموافقة الكتاب، و روايات التسعة مأولة أو مطروحة بمخالفة الكتاب، و حمل الأولى على التقية يحمل معها الكتاب أيضا على التقية، رغم أن القائل بالشمولية في إخواننا عادم أم أقل من أصحابنا الإمامية، ثم الحمل على التقية مرحلة أخرى بعد العرض على الكتاب، و هذه الموانع الثلاثة هي مما تجعل الحمل على التقية هنا مخالفا للعقل و الكتاب و السنة، اللّهم إلّا أن تحمل أخبار التسعة على التقية لأنها مذهب العامة و سائر الأخبار هي مذهب أهل البيت (عليهم السلام) إذ لا نجد قائلا بها بين إخواننا!.

ذلك، و لئن لم تقبل أحاديث العفو تأويل سياسة التدرج أما أشبه فهي مطرودة، حيث الرسول (صلى اللَّه عليه و آله و سلم) ليس ليعفو عما فرضه اللَّه! و لا سيما عن حقوق الفقراء المعدمين رعاية للأغنياء.

فهل إن رسول الرحمة للعالمين يحن إلى الأغنياء تخلفا عما فرضه اللَّه عليهم من حقوق الفقراء، زحمة للفقراء و رحمة للأغنياء.

إن هذه فرية وقحة على ساحة الرسالة القدسية في حقول شتى!.

هذه آيات لواجب الزكوة الطليقة الشاملة على كل الأموال، و على ضوءها رواياتها، و الروايات الأخرى مأولة أو مطروحة لمخالفة الكتاب و السنة، لا سيما و بعض رواتها ليسوا من رعاتها، بل و من المطعونين الكذابين‏ «1» و مهما كانت أسناد بعضها صحيحة، و لكن المتون لا صحة لها

\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_

لم يرد به التجارة (البحار 20: 13 عن دعائم الإسلام)

و

فيه عن جعفر بن محمد (عليهما السلام) عن علي (عليه السلام) أن رسول اللَّه (صلى اللَّه عليه و آله و سلم) عفا عن الدور و الخدم و الكسوة و الأثاث ما لم يرد شي‏ء من ذلك التجارة.

و

عن زرارة عنه (عليه السلام) قال: «لكل شي‏ء زكاة و زكاة الأجسام الصيام» (الحدائق 13: 10).

و

عن الصادق (عليه السلام) قال قال النبي (صلى اللَّه عليه و آله و سلم) ملعون كل مال لا يزكى‏ (أربعين الشيخ البهائي الحديث الثامن عن هارون بن مسلم عن مسعدة بن صدقة عنه (عليه السلام)).

(1). منهم علي بن فضال الفطحي و كان يقول بامامة جعفر الكذاب و قد روى (48) حديثا في‏

الفرقان في تفسير القرآن بالقرآن، ج‏13، ص: 154

\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_

باب الزكوة هي بين ما أخرجه الشيخ الطوسي في التهذيب، و هي تحمل تناقضات في نفسها و مع أحاديث أخرى و اجحافات بحق الفقراء هضما لحقوقهم بحيل و سواها تنقص من حقوقهم و إليكم نماذج منها:

فحديثه الحادي عشر و هو الثامن عشر من التهذيب فيه‏

«ليس على البر زكوة»

و يضاده الحديث (29) فيه.

و (12) منه و هو (23)

من التهذيب‏ «ليس في الحلي زكاة و ان بلغ مائة ألف درهم».

و (13) منه و هو (24)

من التهذيب فيه‏ «سألت أبا عبد الله عن الحلي فيه زكوة قال: لا».

و (14) منه و هو (27)

منه فيه‏ «من فر بها (بالحلي) من الزكوة».

و (15) منه و هو (30)

منه فيه‏ «ليس في الفضة زكوة حتى تبلغ مأتي درهم و ليس في الكسو رشي».

و (16) منه و هو (32)

منه فيه‏ «إذا زاد على المأتي درهم أربعون درهما ففيها درهم و ليس فيما دون الأربعين شي‏ء».

و (18) منه و هو (35)

منه فيه‏ «في زكاة الحنطة و الشعير و التمر و الزبيب ليس فيما دون الخمسة أوساق شي‏ء»

و له معارض.

و (19) منه و هو (36)

منه فيه‏ «ليس في النخل صدقة حتى تبلغ خمسة أوساق»

و له معارض.

و (23) منه و هو (63)

منه فيه عن أبي عبد اللَّه (عليه السلام) «كان أبي يخالف الناس في مال اليتيم ليس عليه زكوة»

و له معارضات.

و (24) منه و هو (73)

منه فيه‏ ليس في مال اليتيم زكوة و ليس عليه صلاة و ليس على جميع غلاته من نخل أو زرع أو غلة زكوة و ان بلغ فليس عليه لما مضى زكوة و لا عليه لما يستقبل حتى يدرك فإذا أدرك كانت عليه زكاة واحدة.

و (26) منه و هو (80)

منه فيه‏ «ليس في الدين زكات».

و (28) منه و هو (79)

منه فيه‏ «ليس على المستقبل زكوة و ليس على أهل الأرض اليوم زكاة إلا من كان في يده شي‏ء مما اقطعه الرسول (صلى الله عليه و آله و سلم)».

و (29) منه و هو (104)

منه فيه‏ «ليس في شي‏ء من الحيوان زكاة غير هذه الأصناف الثلاثة ... و كل شي‏ء من هذه الصنوف من الدواجن و العوامل فليس فيها شي‏ء»

و له معارض.

و (31) منه و هو (127) منه فيه إعطاء الزكاة للأشراف و أصحاب البيوت و العبيد.

و (37) منه و هو (161)

منه فيه‏ «اعطوا من الزكاة بني هاشم فانها تحل لهم».

و (40) منه و هو (190)

منه فيه‏ «ليس في مال المضطرب به زكوة».

الفرقان في تفسير القرآن بالقرآن، ج‏13، ص: 155

إلّا ما يوافق القرآن.

ثم و على ضوء آية زكاة التجارة «يا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا أَنْفِقُوا مِنْ طَيِّباتِ ما كَسَبْتُمْ وَ مِمَّا أَخْرَجْنا لَكُمْ مِنَ الْأَرْضِ» (3: 367) روايات في فرض الزكوة على مال التجارة و إن كان لليتامى‏ «1».

\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_

هذه و عديد آخر و المجموع (48) حديثا يرويه هذا الفطحي الكذاب، سبعة منها هي من اثنى عشر حديثا في تعيين الزكاة في التسعة المعروفة.

و لقد أضاف في الوسائل بقية الاثنى عشر إلى أحاديث ابن فضال تكثيرا للدليل على حصر الزكاة في التسعة و لكنها مردودة و ان بلغت مئات.

2- زكاة مال التجارة حسب نقل الشيخ الطوسي في المبسوط قول أكثر أصحابنا و إن قال هو باستحبابها و إليكم أحاديثها:

في الوسائل 6: 46 عن إسماعيل بن عبد الخالق قال‏ سأله سعيد الأعرج و أنا اسمع فقال: إنا نكبس الزيت و السمن نطلب به التجارة فربما مكث عندنا السنة و السنتين هل عليه زكاة؟

قال: إن كنت تربح فيه شيئا أو تجد رأس مالك فعليك زكاته و إن كنت إنما تربص به لأنك لا تجد إلا وضيعة فليس عليك زكاة حتى يصير ذهبا أو فضة فإذا صار ذهبا أو فضة فزكه للسنة التي اتجرت فيها و فيه عن محمد بن مسلم قال سألت أبا عبد اللَّه (عليه السلام) عن رجل اشترى متاعا فكسد عليه متاعه و قد زكي ماله قبل أن يشتري المتاع متى يزكيه فقال: إن كان أمسك متاعه يبتغي به رأس ماله فليس عليه زكاة و إن كان حبسه بعد ما يجد رأس ماله فعليه الزكاة بعد ما أمسكه بعد رأس المال، قال: و سألته عن الرجل توضع عنده الأموال يعمل بها؟ فقال: إذا حال عليه الحول فليزكها.

و رواه مثله أبو الربيع الشامي عنه (عليه السلام) و خالد بن الحجاج الكرخي عنه (عليه السلام) و سماعة عنه (عليه السلام) و أبو بصير عنه (عليه السلام) و العلاء عنه (عليه السلام) و محمد بن أبي نصر عن الرضا (عليه السلام)

و ليس في شي‏ء منها لمحة الندب أبدا.

(1). كما في صحيح ابن مسلم و حسنه (الوسائل ب 13 من أبواب الزكاة ح 3 و 8) و خبر أبي الربيع الشامي (ح 4) و سعيد الأعرج (ح 1) و الكرخي (ح 5) و العلاء (ح 9) و أبي بصير (ح 7) و موثق سماعة (ح 6).

فالصحيح الأول قال‏ سألت أبا عبد اللَّه (عليه السلام) عن رجل اشترى متاعا فكسد عليه متاعه و قد زكى ماله قبل أن يشتري المتاع متى يزكيه؟ فقال: إن كان أمسك متاعه يبتغي به رأس ماله فليس عليه زكاة و إن كان حبسه بعد ما يجد رأس ماله فعليه الزكاة بعد ما أمسكه بعد رأس المال، و سألته عن الرجل توضع عنده الأموال يعمل بها؟ فقال: إذا حال عليه الحول فليزكها.

الفرقان في تفسير القرآن بالقرآن، ج‏13، ص: 156

ثم و حكمة الزكوات المذكورة في الروايات أنها كفاية عن كل حاجيات الفقراء، لا تناسب و انحصارها في هذه التسعة، لا سيما إذا اختص النقدان فيها بالذهب و الفضة المسكوكتين، و هي لم تعد- بعد- باقية إلّا في شطر من البلاد و الزمن، فهي الآن و منذ أمد بعيد لا توجد إلّا في مستودعات الأشياء العتيقة.

و ليس الدينار و الدرهم، أو المسكوك منهما في أحاديثنا إلّا نموذجين من النقد الرائج في تلك الأيام، و لكلّ يوم نقد، و قد انحصر اليوم في الأوراق النقدية الرائجة في كافة البلاد.

و كيف يصدق أن في مأتي درهم فضة مسكوكة زكاة و ليس في ملايين الليرات و الدولارات و التومانات زكاة؟ و شرعة الإسلام بمشاريعها تحلّق على كل عصر و مصر!.

أم كيف يصدق أن في خمسة أوسق من الغلات الأربع زكات، و ليس في خمسة آلاف أوساق من سائر النبات زكاة، و منها ما هي أغلى كالأرز و الزيتون و ما أشبه.

أم كيف يعقل أن في خمسة آبال زكاة و ليست في خمسين أو خمسمائة أما زاد من سيارات و باخرات و طائرات زكوة؟.

ذلك كله إضافة إلى أن شروطا لواجب الزكاة في هذه التسعة تجعلها كالعادمة إطلاقا.

فحين يختص واجب الزكاة في الأنعام بغير المعلوفة، فإن علفتها و إن في أيام قلائل فلا زكوة، و هناك من يعلفها فرارا عن الزكوة، أم و تقل‏

\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_

و الموثق قال: سألته عن الرجل يكون عنده المتاع موضوعا فيمكث عنده السنة و السنتين و أكثر من ذلك؟ قال: ليس عليه زكاة حتى يبيعه إلا أن يكون أعطى به رأس ماله فيمنعه من ذلك التماس الفضل فإذا هو فعل ذلك وجبت فيه الزكاة و إن لم يكن أعطى به رأس ماله فليس عليه زكاة حتى يبيعه و إن حبسه ما حبسه فإذا هو باعه فإنما عليه زكاة سنة واحدة.

الفرقان في تفسير القرآن بالقرآن، ج‏13، ص: 157

السائمة في كل أيام السنة «1» و ألا تكون عاملة، و لا ذكرا، و لا أنثى ترضع!، ثم و لا تبدّل بحيوان و سواه طوال السنة، بل تكون عاطلة أنثى دون ولد ترضعه و لا للأكل و اللبن! فأين- إذا- زكاة الأنعام؟.

و حين تختص زكوة النقدين بالمسكوك منها، و لكل من يملك الملايين منها تبديلها بسواها من أموال، أو كسرها فرارا عن زكاتها، فأين- إذا- زكاة النقدين.

و حين يشترط لواجب الزكوة في الغلات الأربع قدر نصاب كلّ في مكان واحد، و للمحتالين توزيع زرعها لعدة أماكن فأين- إذا- زكاة الغلات؟.

و هكذا يقضى على واجب الزكاة من قبل مختلقي روايات التسعة

\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_

(1). كما يقول المحقق في الشرايع: «و لا بد من استمرار السؤم جملة الحول فلو علفها بعضا و لو يوما استأنف الحول» و في الحدائق 12: 79 و اختار الشيخ في النهاية و المبسوط سقوطها بعلف اليوم، ثم يقول: و الظاهر أنه لا فرق في العلف الموجب لسقوط السؤم بين كونه من المالك أو الدابة نفسها أو علف الغير لها بإذن المالك أو بغير إذنه من مال المالك أو من مال نفسه و لا بين أن يكون لعذر يمنع من الرعي كالثلج و نحوه أم لا يصدق العلوفة في جميع هذه الصور.

ثم يقول: «ينبغي الاحتياط في عدم إسقاط الزكاة بعلف ساعة بل يوم في السنة».

أقول: فلو ملئت الدنيا انعاما لأمكن سقوط الزكاة بسهولة، بل و لا يتفق لأحد من أصحاب المواشي ألا يحتاج لعلف مواشيه حتى يوما واحدا في السنة!.

ثم و شرط ألا تكون عاملة يزيد في الطنبور نغمة أخرى، حيث الآبال و الباقر تستعمل في الأكثرية المطلقة للركوب و الفلح و الحمل، و ذلك خلاف ما

عن إسحاق بن عمار قال‏ سألته عن الإبل تكون للجمال أو تكون في بعض الأمصار أ تجري عليها الزكاة كما تجري على السائمة في البرية؟ قال: نعم‏ (التهذيب 4: 41 و 42 و الاستبصار 2: 24).

و شرط آخر ألا تكون ذكورا و لا للأكل بل للتجارة، و لا الأنثى التي لها نتاجان ترضعهما، و هنا تصل انعام الزكوة لحد الصغر!.

الفرقان في تفسير القرآن بالقرآن، ج‏13، ص: 158

و مشترطيها من ناحية، و من قبل المحتالين فيها من أخرى، فتظل حقوق الفقراء من الزكوة بين اختلاق و احتيال هباء منثورا!.

أو هكذا تكفي الزكوة للفقراء و

«إن الله عز و جل فرض للفقراء في مال الأغنياء ما يسعهم، و لو علم أن ذلك لا يسعهم لزادهم، إنهم لم يؤتوا من قبل فريضة الله عز و جل، و لكن أوتوا من قبل من منعهم حقهم لا مما فرض الله لهم، و لو أن الناس أدوا حقوقهم لكانوا عائشين بخير» «1».

أجل «و لكن أوتوا من قبل من منعهم حقهم» كالجامدين على التسعة، و على حرفية المسكوك من الذهب و الفضة، و على كل ما يروى أو به يفتي به مما يهضم حقوق الفقراء «لا مما فرض الله لهم»!.

إن اللَّه تعالى بحكمته العالية و رحمته الشاملة فرض للفقراء أيا كانوا و أيان ما يكفيهم من واجب الزكاة، ثم عديد من عباده فرضوا لهم ما لا يكفي قوتهم لأيام فضلا عن السنة.

لا تجد في القرآن إلا آية واحدة لفرض الخمس على فرض أنه يشمل كل العوائد، دون خصوص غنائم الحرب، ثم تجد بجنبها عشرات الآيات بحق الزكوة و عشرات عشرات بحق الإيتاءات و الإنفاقات و الصدقات التي تنحو كلها منحى الزكاة، قرنا بكثير منها بالصلاة مما تجعلها أهم الأركان الاقتصادية للمسلمين، فردية و جماعية، شعبية و حكومية.

فلما ذا إذا تعدم الزكاة فتوى و واقعا، و يحتل مكانها الخمس‏

\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_

(1). الوسائل 6: 3 الفقيه باسناده عن حريز عن زرارة و محمد بن مسلم عن أبي عبد اللَّه (عليه السلام) قال: .. و

فيه (عليه السلام) قال الصادق (عليه السلام): إنما وضعت الزكاة اختبارا للأغنياء و معونة للفقراء و لو أن الناس أدوا زكاة أموالهم ما بقي مسلم فقيرا محتاجا و لاستغنى بما فرض اللَّه له و إن الناس ما افتقروا و لا احتاجوا و لا جاعوا و لا عروا إلا بذنوب الأغنياء، و حقيق على اللَّه تبارك و تعالى أن يمنع رحمته ممن منع حق اللَّه في ماله و أقسم بالذي خلق الخلق و بسط الرزق انه ما ضاع مال في برّ و لا بحر إلّا بترك الزكاة .. و ان أحب الناس إلى اللَّه أسخاهم كفا و أسخى الناس من أدى زكاة ماله و لم يبخل على المؤمنين بما افترض اللَّه لهم في ماله.

الفرقان في تفسير القرآن بالقرآن، ج‏13، ص: 159

المخصوص بأشخاص خصوص ليس فيهم فقراء اللّهم إلّا المنتسبين بالآباء الى الرسول (صلى اللَّه عليه و آله و سلم)! خلافا للنصوص التي تعم الخمس لذرية الرسول، و هم كلهم من فاطمة (عليها السلام) و هي بنت الرسول (صلى اللَّه عليه و آله و سلم) فإذا لم تكن البنت من الذرية فذريتها أيضا ذكورا و إناثا ليسوا بذرية فكل ولد الرسول (صلى اللَّه عليه و آله و سلم) هم من فاطمة من علي (عليهما السلام) ذكورا و إناثا دونما فارق إلا فرق الجاهلية بينهما بأن الأناث غير منتسبات إلى الآباء!.

و قد

«بني الإسلام على الصلاة و الزكاة و الصوم و الحج و الولاية»

كما في متواتر الحديث عن النبي (صلى اللَّه عليه و آله و سلم) و أهل بيته (عليهم السلام)، و ليس منها الخمس!.

هذا- و لكن الزكاة التي فرضها اللَّه هي الكافية لكافة الفقراء بل و لحاجيات الدولة الإسلامية أيضا صرفا في المصالح العامة التي منها الجهاد و ما أشبه.

و هناك نصابات مقدرة و غير مقدرة للزكاة قضية مختلف الظروف و الحالات و الحاجات للشعب و الدولة الإسلامية.

فالمقدرة بين ربع العشر كما في النقود بمختلف عملاتها، و نصف العشر و العشر كما في الغلات و عامة المزروعات، و الخمس كما في المعادن و ما أشبه‏ «1».

و غير المقدرة بأقلها كما في الزكاة المكية التي لم تتقدر، و إنما «لِلزَّكاةِ فاعِلُونَ» أم‏ «آتُوا حَقَّهُ يَوْمَ حَصادِهِ» أم‏ «فِي أَمْوالِهِمْ حَقٌّ مَعْلُومٌ لِلسَّائِلِ وَ الْمَحْرُومِ».

أم أكثرها كما في الزكاة المدنية العليا «يَسْئَلُونَكَ ما ذا يُنْفِقُونَ قُلِ الْعَفْوَ» (2: 219) و هو الزائد عن حاجيات متعددة لأصحاب الأموال‏

\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_

(1). المجمع 1: 316 و البرهان 1: 212 و نور الثقلين 1: 175 هو المروي عن الباقر (عليه السلام).

الفرقان في تفسير القرآن بالقرآن، ج‏13، ص: 160

و

«ما فضل عن قوت السنة» «1»

، فلذلك يهدّد كانز الذهب و الفضة و إن اعطى مقدرات زكاتهما «الَّذِينَ يَكْنِزُونَ الذَّهَبَ وَ الْفِضَّةَ وَ لا يُنْفِقُونَها فِي سَبِيلِ اللَّهِ فَبَشِّرْهُمْ بِعَذابٍ أَلِيمٍ» (9: 36) «2».

و العفو هو الوسط بين الإسراف و الإقتار الممنوعين‏ «3»

\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_

(1). و

في الدر المنثور 1: 254- أخرج أحمد و مسلم و الترمذي عن أبي أمامة أن رسول الله (صلى الله عليه و آله و سلم) قال: يا ابن آدم إن تبذل الفضل خير لك و ان تمسكه شر لك و لا تلام على كفاف و ابدأ بمن تعول و اليد العليا خير من اليد السفلى ...

و

فيه أخرج أبو يعلى و الحاكم و صححه عن عبد الله بن مسعود قال قال رسول الله (صلى الله عليه و آله و سلم) الأيدي ثلاثة فيه اليد العليا و يد المعطي التي تلاها و يد السائل السفلى إلى يوم القيامة فاستعفف عن السؤال و عن المسألة ما استطعت فإن أعطيت خيرا فلير عليك و ابدأ بمن تعول و ارضخ من الفضل و لا تلام على الكفاف.

و

فيه أخرج أبو داود و ابن حيان و الحاكم عن مالك بن نضلة قال قال رسول الله (صلى الله عليه و آله و سلم) الأيدي ثلاثة ... فأعط الفضل و لا تعجز عن نفسك،

و

فيه أخرج البيهقي في شعب الإيمان عن كدير الضبي قال: أنى أعرابي النبي (صلى الله عليه و آله و سلم) فقال: نبئني بعمل يدخلني الجنة و يباعدني عن النار، قال: تقول العدل و تعطي الفضل، قال: هذا شديد لا أستطيع أن أقول العدل تحل ساعة و لا أن أعطي فضل مالي ...

أقول: العفو لغويا في الأصل هو القصد لتناول الشي‏ء، إلى إزالته، فالعفو على الذنب هو قصده لإزالته، و العفو في المال هو قصده- كذلك- لإزالته و لكن وسطا بين الإفراط و التفريط.

(2)

سأل عبيد الله بن علي الحلبي أبا عبد الله (عليه السلام) عن الكنز كم فيه فقال الخمس و عن المعادن كم فيها قال الخمس و عن الرصاص و الصفر و الحديد و ما كان من المعادن كم فيها فقال (عليه السلام) يؤخذ منها كما يؤخذ من معادن الذهب و الفضة (الفقيه 158)

و

فيه أيضا سئل أبو الحسن موسى بن جعفر (عليهما السلام) عما يخرج من البحر من اللؤلؤ و الياقوت و الزبرجد و عن معادن الذهب و الفضة هل فيها زكاة؟ فقال: إذا بلغ قيمته دينارا ففيه الخمس،

أقول: يعني من الخمس نصاب الزكاة في موارد السئوال كما يدل عليه الحديث الأول.

(3)

نور الثقلين 1: 210 القمي عن أبيه عن ابن أبي عمير عن رجل عن أبي عبد الله (عليه السلام) في الآية قال: الوسط.

و

في الدر المنثور 1: 255 قال رسول الله (صلى الله عليه و آله و سلم) كفى بالمرء إثما أن يحبس عمن يملك قوته،

و

في التهذيب 4: 98 نقلا عن الكافي بسند عن أبي الحسن‏

الفرقان في تفسير القرآن بالقرآن، ج‏13، ص: 161

وَ الَّذِينَ إِذا أَنْفَقُوا لَمْ يُسْرِفُوا وَ لَمْ يَقْتُرُوا وَ كانَ بَيْنَ ذلِكَ قَواماً (25: 67)- «وَ لا تَجْعَلْ يَدَكَ مَغْلُولَةً إِلى‏ عُنُقِكَ وَ لا تَبْسُطْها كُلَّ الْبَسْطِ فَتَقْعُدَ مَلُوماً مَحْسُوراً» (17: 29) ف‏ «كُلَّ الْبَسْطِ» هو ألّا يبقي لحاجته شيئا فيصبح فقيرا يتكفف الناس. و مرحلية الزكاة تقتضي عدم نصاب خاص في العهد المكي لأنه بداية الدعوة، و لقلة أموال المسلمين في مكة، و قد تحمل عليه الروايات التي تفسر بعض آيات الزكاة المكية بأنها تعني فرضا في الأموال سوى الزكوة، أي سوى ذات النصاب المدني، و إلّا فعلى كل واجب مالي زكاة، سواء أ كان بنصاب أم دون نصاب.

و ترى كيف لا تتعلق الزكوات بغير النقدين المسكوكين من النقود، و هي اليوم معيار الأموال بل هي ممولة الأموال، و ليس التعبير في قسم من أحاديث الزكوة بالنقدين، أو الدينار و الدرهم إلا تعبيرا عن النقود الرائجة في تلك الزمن‏ «1» و هل الزكوة تختص بزمن الدرهم و الدينار حتى تختص‏

\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_

الصيرفي قال: استعملني أمير المؤمنين علي بن أبي طالب (عليه السلام) على باب بانقياد و سواد من الكوفة فقال: «.. فإنما أمرنا أن نأخذ منهم العفو».

(1). ممن أفتى من فقهاءنا بشمولية الزكاة لكل النقود الرائجة المغفور له الشيخ محمد حسين آل كاشف الغطاء في رسالته الاستجوابية ص 259 عند السئوال:

«هذه الأوراق التي جرت المعاملة بها في هذه العصور كالدينار العراقي و النوط الإيراني أو الهذي أو الإنكليزي و نحوها هل تجب فيها الزكاة إذا بلغت النصاب و حال عليها الحول و هل تجري عليها سائر أحكام النقدين من الربا و التقابض في بيع الصرف أم لا؟».

فالجواب: الأصح إن هذه الأوراق حاكية و ممثلة للأموال النقدية المستودعة في البنوكية فمن بيده دينار أو نوط فهو رمز إلى أن له في البنك ليرة ذهبية أو نصف ليرة إنكليزية، أما نفس تلك الأوراق لو لا هذا الإعتبار فلا قيمة لها أصلا و جميع المعاملات التي تجري على تلك الأوراق أنما تجري عليها بتلك اللحاظ و على هذا فجميع أحكام النقدين ثابتة لها من وجوب الزكاة و حرمة الربا و لزوم التقابض و غير ذلك فيعتبر الدينار العراقي مثلا مثقالا ذهبيا مسكوكا بسكة المعاملة و العشرون دينار نصاب فإذا حال عليها الحول مستقرة لمالك واحد وجبت فيها الزكاة و هي نصف دينار أي نصف مثقال شرعي كما تقدم و هكذا.

كما و كرر هذه الفتوى في تحرير المجلة تحت المادة (130).

الفرقان في تفسير القرآن بالقرآن، ج‏13، ص: 162

بهما زكاتهما، و الشرعة الإسلامية بأحكامها الحكيمة خالدة على مر الزمن!.

و هل النقدان المسكوكان هما من الأموال و ليست الأوراق النقدية الأخرى منها و قد تكون عشرات أضعافهما؟.

و قد يجوز اختصاص النقدين المسكوكين بزكاتهما سنويا حتى يسقطا عن النصاب دون سائر النقود، و كما اختصت سائر التسعة بنصابات قد تأتي في نظائرها أم لا نصاب لها مقدرا، و إنما تزكي عفوا كأكثر تقدير، أو أقل منه قدر التقدير لأقل التقدير، و هكذا يجمع بين روايتي الزكاة في التسعة و سواها.

فلأن النقد الرائج محدود فلا يجوز ركازه، لذلك قررت الزكوة عليه ما دام في حد النصاب، بخلاف سائر الأموال التي لا تزكى إلا مرة واحدة، فقد يختص المسكوك بهذه الزكوة المتكررة سنويا «1»، حفاظا على عديد النقد المرسوم الرائج، و إذهابا لأصالته عند من يعشقه كأصل.

إنّ الجمود على حرفية بعض النصوص لواجب الزكاة في الذهب و الفضة المسكوكتين يجمد الزكاة اليوم في كافة النقود غير الذهبية و لا الفضية! و في البعض منها «في كل خمسة و عشرون» «2» و هو طليق بالنسبة لكافة العملات على مر الزمن، أو تقدر بقدر قيم الدراهم و الدنانير زمن‏

\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_

(1). كما

في التهذيب 4: 7 و الاستبصار 2: 12 عن علي بن يقطين قال: سألت أبا الحسن (عليه السلام) عن المال الذي لا يعمل به و لا يقلب؟ قال: تلزمه الزكوة في كل سنة إلا أن نسبك‏

أقول: فإذا سبك فلا زكوة فيه إلا سنة واحدة، فالزكوة المتواصلة لغير المقلوب هي كفارة ركازه و عدم إدارته.

و عليه يحمل‏

الحديث: «ليس في التبر زكوة إنما هي على الدنانير و الدراهم».

(2)

الوسائل 6 باب 7 من أبواب ما تجب فيه الزكاة ح 17 سأله (عليه السلام) ابن سنان في كم تجب الزكاة من المال؟ فقال: الزكاة الظاهرة أم الباطنة؟ فقال: ما هما؟ فقال:

«أما الظاهرة ففي كل ألف خمسة و عشرون و أما الباطنة فلا تستأثر على أخيك بما هو أحوج إليه منك».

الفرقان في تفسير القرآن بالقرآن، ج‏13، ص: 163

صدور مثل هذه الرواية «1».

و كما تجمد حرفية المسكوك من النقدين الزكاة عن عشرات أضعاف نصابهما في غير المسكوكة مهما كانت ركازا و كنزا، و هو خلاف نص آية الكنز غير المختصة بالمسكوك من النقدين!.

بل و كذلك الجمود في عشرات الأضعاف من المسكوكين التي يهبها أصحابها قبل تمام الحول، فرارا عن الزكوة ثم يستوهبونها.

فهناك فرار فتوى عن كثير من الأموال الزكوية حصرا في التسعة المعروف حالها، و هنا الفرار عن هذه الزهيدة التافهة لفتوى ثانية، و كل ذلك خلاف الحكمة الربانية لحقوق الفقراء المظلومين المهظومين.

ثم الجمود على الأنعام الثلاثة شرط السوم طول السنة و عدم العمالة «2» و عدم الذكورة، و عدم الرضاعة لولدين في أنثاها، و عدم اتخاذها للحمها «3»، و عدم تبديلها طول السنة بغيرها، يجمد الزكاة بأسرها عنها.

\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_

(1). و هنا روايات في تعلق الزكاة بالأثمان ككل منها

صحيح ابن مسلم عن أبي جعفر (عليه السلام) سئل عن الخضر فيها زكاة و ان بيعت بالمال العظيم؟ فقال: لا حتى يحول عليه الحول‏

و

صحيح الحلبي‏ قلت لأبي عبد اللَّه (عليه السلام) ما في الخضر؟

قال: و ما هي؟ قلت: القضب و البطيخ و مثله من الخضر؟ قال: ليس عليه شي‏ء إلا أن يباع مثله بمال فيحول عليه الحول ففيه الصدقة .. (الوسائل باب 11 من الزكاة ح 1 و 2).

(2) و أحاديثها متعارضة حملوا الدالة على عدم شرطيتها على الاستحباب دون أي وجه كما

في الوسائل (6: 81) صحيحة إسحاق بن عمار قال‏ سألت أبا إبراهيم (عليه السلام) عن الإبل العوامل عليها زكوة؟ فقال: نعم عليها زكاة

و يقابلها مثل‏

خبر زرارة عن أحدهما (عليهما السلام) قال: ليس في شي‏ء من الحيوان زكاة غير هذه الأصناف الثلاثة:

«الإبل و البقر و الغنم، و كل شي‏ء من هذه الأصناف من الدواجن و العوامل فليس فيها شي‏ء»

أقول: و هل تجد من الغنم عاملا حتى يستثنى مهما كان في الآخرين.

(3)

في الوسائل 6: 84 مرسل الصدوق عن أبي عبد اللَّه (عليه السلام) قال: «ليس في الأكيلة و لا في الربي التي تربى اثنين و لا شاة لبن و لا فحل الغنم صدقة»

و

في آخر عنه‏

الفرقان في تفسير القرآن بالقرآن، ج‏13، ص: 164

ثم الجمود على الغلات الأربع حتى مع الغض عن شروطها، يجعل لكل فقير و هم لأقل تقدير في كل ألف نصف أو يزيدون، مبلغا زهيدا قد لا يكفيهم لأسبوع أو شهر واحد، فضلا عن سائر الأصناف و سائر الحاجات للدولة الإسلامية!.

و ذلك إذا استمرت الغلات الأربع و الأنعام الثلاثة قوتا لغالب الناس، و لمحات من التقدم الصناعي توحي باحتلال مواد أخرى محلّها، و هي المستنتجة من البترول و نابتات بحرية تحمل فيتامينات و بروتوئينات كافية للتغذية «1».

\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_

(عليه السلام) قال: «لا تؤخذ الأكولة و الأكولة الكبيرة من الشاة تكون في الغنم و لا والدة و لا الكبش الفحل»

أقول: لعل الأخذ المنهي هو الأخذ للذبح، فيبقى الحديث الأول يتيما لا ناصر له إلا مخالفة الكتاب و السنة.

(1). ففي جريدة (كيهان) الإيرانية- 7/ 10/ 1347 هجرية شمسية ص 2 يقول ضمن نبإ توفيق (آبولو 8) تحت عنوان: رئيس جامعة طهران يعلن: تؤخذ صور من معادن القمر، بروفسور فضل اللَّه رضا قال: حتى السنة 1370 سوف تستحصل المواد الغذائية من عناصر، و قد برع شاب بهذا الصدد، و على ضوء الإمكانيات التي قررها له شركة البترول الإيراني، سمح له التحقيق حول صناعة بروتوئين من النفط، و في سنة/ 1380 20/ 100 المحاصيل الزراعية العالمية تحصل من البحار.

و في العدد (7947) 24/ 10/ 1348 ص 10 من نفس الجريدة مقال تحت عنوان «إمكانيات مشرقة ضد الجوع» إنه: خلال السنين الآتية تنحل مشكلة الجوع بمحاصيل غذائية من البترول و النابتات البحرية، و مما فيه:

1- لا يمضي بعيد من الزمن قد يوفق علماء أن يصنعوا من المواد الطبيعية أغذية نافعة يافعة تحمل بروتوئينات تساعد بقدر كثير عن التغذية العالمية ... ففي السنة الماضية في المجمع البترولي في مكسيكو، عرض جماعة من العلماء أن الزمن الضروري لكي يتغذى من لحم العجل إحدى عشر شهرا، حال أن بالإمكان أن نحصل على بروتوئين يوازيه خلال يوم واحد من البترول- و قد عرض علماء السوكيت في هذا المجمع أنهم يحصلون سنويا الآفات الأطنان من البروتوئين من البترول، و لأنهم لم يجد لها مصرفا يغذون بها الأنعام لكي تسمن فيستفاد من لحومها.

و في عملية التخمير على (غازوئيل) حين يزرعون خمس ك من هذا المخمر على النفط

الفرقان في تفسير القرآن بالقرآن، ج‏13، ص: 165

ذلك، و على حد تعبير الرسول (صلى اللّه عليه و آله و سلم) على ضوء آيات الصدقات العامة المحلقة على كل ما يمكن أن يتصدق به‏

«على كل مسلم صدقة فمن لم يجد فليعمل بالمعروف» «1»

و

«أفضل الصدقة جهد المقل» «2».

\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_

يحصلون على (1280) ك بروتوئين خلال ثمان و أربعين ساعة و جدية المحاصيل الغذائية من النفط بالغة لحد نوصي الأقطار النفطية ألا يستعجلوا في استخراجه.

2- استنتاج المواد الغذائية من النابتات البحرية، فقد تقدم العلم لحد يعتقد العلماء أنه لو عمت الزراعة كل الأراضي الفارغة و لم تكف- بعد- لحاجات البشرية، فبالإمكان أن نزرع في غير التراب.

فقد يستفاد من النابتات المائية التي هي على لون الماء المسماة ب (إسبرولين) و هي تحمل من البروتوئين 68/ 100 و كلوسيد 3- إلى- 30/ 100 و المادة الدسمة، و الفيتامينات 1- ب 1- ب 2- ب 6 و ب 12.

و قد تكفى (90) إلى (100) غرام من محاصيل هذه النابتات المائية. إيفاء ل «غالري»:

الحرارة- الضروري لشخص واحد دون حاجة إلى تغذية أخرى. و قد أثبت العلماء أن البعض من النابتات و المواد الصغيرة الحجم تحمل مواد غذائية غنية جدا.

و منها خضرة باسم (كلرلا) فبالإمكان أن تزرع بمساعدة المواد المعدنية في مياه واسعة الحجم، فقد يستفاد من كل عشرة آلاف مترا مربعا خمسون طنا من النباتات المائية، و هي بالقياس إلى محاصيل الحنطة زهاء مأة ضعف.

3- في الاستثمار من النباتات الوحشية في مكافة الجوع، فإن بالإمكان أن نستفيد من عديد من النباتات الوحشية.

4- استثمار الأراضي القطبية: تربية صالحة للنباتات المتعلقة ب (ليسنكو) المعمولة في السوكيت.

و هكذا في مجلة (دانشمند) الفارسية: العالم، العدد 7- 7/ 2/ 1349، سر شرح حول الأغذية الصناعية-: و هي البروتئين الذي يوجد في الحيوان- أنه بالإمكان الحصول عليه بطريقة أسهل مما في الحيوان.

ذلك و ما أشبه، مما يطمئن أنه سوف نستغني عن الفلاة و الانعام لحد كثير، قد نصل إلى ترك الكثير من الزرع و الماشية!.

(1). مفتاح كنوز السنة نقلا عن بخ- ك 24 ب 30 نس- ك 23 ب 56 مى- ك 20 ب 34 عد- ج 8 ص 337 ط- ح 1036 و 1038 و 1039.

(2) المصدر نقلا عن نس- ك 23 ب 49 حم- ثان ص 231.

الفرقان في تفسير القرآن بالقرآن، ج‏13، ص: 166

أ فهذه الزكات هي التي تكفي مؤنة للفقراء و سواهم، بهذه الشروط الغلاظ الشداد؟! أ هذه هي الزكاة الواجب توزيعها بين الثمانية كما في آيتها الحاضرة في بحثنا؟.

أ هذه التي تغني الفقراء لحد التزويج بها و الحج و سائر الحاجات الضرورية و الراجحة؟.

أ هذه التي تؤلّف قلوب الكفار بغزير إنعامها و قد يملك الكافر ألوفا مؤلفة؟.

أ هذه التي تكفي الغارمين، إزاحة عن غرمهم و إراحة في حياتهم؟.

أ هذه التي يصرف قسم منها في الرقاب، لا سيما إذا عني منهم فيمن يعنى المسجونون بديونهم أماذا؟.

أ هذه التي تصرف في سبيل اللَّه حجا و جهادا و دعوة إلى اللَّه بكل وسائل الدعوة و الإعلام؟.

و هذه التي تكفي أبناء السبيل و سائر الطوائف الثمان؟!.

أم هي زكاة الأموال كلها بمختلف النصابات المرحلية التي علياها «العفو» أن تزكي كلما زاد عن حاجياتك، و لكي تزول الطبقة العارمة الظالمة، و يتشابه المسلمون في حاجيات الحياة و سؤلها.

ذلك، و إليكم قياسا بين الخمس و الزكوة حسب الأكثرية المطلقة من الفتاوي:

الزكاة التي هي قرينة الصلاة و الإيمان و فرضها في زهاء ثلاثين آية مكية و مدنية، و هي لمصارف ثمانية:

1- تتعلق بتسعة أشياء، المهزولة المهزّلة!.

2- الزكاة محددة بنصابات خاصة.

3- لا زكاة بين نصابات الزكاة، فكما أن لأربعين شاة شاة واحدة، كذلك ل (120) شاة هي دون النصاب الثاني بواحدة.

الفرقان في تفسير القرآن بالقرآن، ج‏13، ص: 167

4- تستثنى الأنعام المعلوفة و العاملة و الذكورة و المرضعة و التي يقصد منها لحومها.

5- يشترط في زكاة النقدين كونهما مسكوكين بنصاب خاص.

6- يشترط في زكوة الأنعام و النقدين مضي سنة دون تصرف فيها.

7- الزكاة تقسم بين الصنوف الثمانية قدر الحاجات، مختصة بغير المنتسبين بالآباء إلى النبي (صلى اللَّه عليه و آله و سلم) من الفقراء و هم زهاء تسعون بالمائة من فقراء العالم الإسلامي!.

8- تدفع زكاة السادة إلى السادة كما لغيرهم.

9- تبديل الأشياء التسعة إلى غيرها يسقط فرض الزكوة.

و الخمس الذي تحمله آية واحدة يتيمة و مصرفه جماعة خصوص!:

1- يتعلق بكل الأموال دونما استثناء اللّهم إلا المواريث و الهبات في قول.

2- ليس للخمس نصاب.

3- إذ ليس في الخمس نصاب فليس فيه بين نصابين حتى يعفى عن الخمس.

4- لا استثناء في موارد الخمس إلا قليلا بأسره كالميراث.

5- ليس في خمسها نصاب و لا اشتراط كونهما مسكوكين.

6- لا يشترط في موارد الخمس مضي سنة و إنما هو إمهال.

7- الخمس سهمان اثنان، سهم للإمام و سهم للسادة من طريق الآباء، و ليسوا إلا زهاء عشر الفقراء في العالم الإسلامي!.

8- لا يدفع سهم السادة لغير هؤلاء السادة.

9- لا يسقط فرض الخمس أي تبديل.

و هكذا نجد الخمس الوفير و هو 20/ 100 من كل الأموال يختص 10/ 100 منه بالسادة من قبل الآباء، و الباقي سهم الإمام المخصوص حسب الفتاوى بطلاب علوم الدين إبقاء للحوزات العلمية، و ليس هؤلاء أكثر من 10/ 100 فقراء المسلمين! فقد يصل إلى كلّ من هؤلاء يوميا آلاف من التوامين.

الفرقان في تفسير القرآن بالقرآن، ج‏13، ص: 168

في حين أن الزكوة التي معدلها بين الكسور الثلاثة 6/ 100، ليست إلا من التسعة الهزيلة ذاتية و عرضية، هي تقسيم بين الأصناف الثمانية و هم 90/ 100 من المحاويج، فلا تصل منها إلى أيدي الفقراء و المساكين إلا قوت يوم- علّه- من السنة أما زاد!، فضلا عن سائر الموارد الثمانية التي تشكل البنية الاقتصادية للدولة الإسلامية.

ذلك، و مع العلم أن الإبل هو أقل الأنعام و في قليل من البلاد، فحين يشمل الإسلام كل المعمورة فكيف تبقى الإبل من موارد الزكاة و هي لا تشكل إلّا ضئيلا قليلا لا يذكر من الأموال الزكوية!.

و كما نعلم أن الحنطة و الشعير هما إلى القلة القليلة حيث ينوب منابهما سائر الحبوبات، بل و البترول و قسم من النباتات البحرية هما المقدمان في أنظار الأخصائيين الاقتصاديين ليحتلا مع سائر الحبوبات الموقع الأكثر مصرفا بين الناس، فهما- إذا- لا تشكلان- حتى لو بقيا على حالهما- إلّا كسرا ضئيلا من الزكاة، إضافة إلى القيود التي تقلل موارد الزكوة منهما!.

ثم النقدان المسكوكان هما- و منذ زمن بعيد- عادمان عن كونهما من النقود الرائجة، حيث احتلت سائر النقود من الأوراق و سواها الموقع الأعلى بنفسها.

و على هذا الحساب لا يبقى من هذه التسعة اليتيمة اللطيمة إلا نزر قليل من الزكوة، حيث لا يكفي لسد ثغر واحد من المصاريف الثمانية، و لا بكسر قليل بأقله.

فهذه هي الزكوة الإسلامية التي تسد كل الثغور الاقتصادية للمحاويج و سائر الحاجات الإسلامية؟!.

ذلك، و لا محمل صالحا لاختصاص الزكوة في الفتاوى بهذه التسعة، على قيود فيها تقللها على قلتها، إلّا أن أخذ الزكوة هو من شؤون رؤوساء الدولة الإسلامية، و الأكثرية المطلقة من هؤلاء منذ ارتحال الرسول (صلى اللَّه عليه و آله و سلم) كانوا ظالمين، يخضمون مال اللَّه خضم الإبل نبتة الربيع.

الفرقان في تفسير القرآن بالقرآن، ج‏13، ص: 169

لذلك رأوا من الصالح لتضعيف سواعد الظلم أن يقللوا من موارد الزكوة، و كما وردت في باب الخمس روايات بشأن تحليله على الشيعة بنفس الصدد!.

و لكنه- إن كان له مبرر لردح من الزمن- لا يبرر أن يفتي بذلك على مدار الزمن.

ثم و هنا طريق آخر لتضعيف سواعد الظلم هو أن يؤمر المسلمون بإيتاء الزكوة بذوات أيديهم للمحاويج، لا أن يختصوها بهذه التسع اللطيمة العديمة!.

و من هذا الطريق ما يروى من منع الزكوة عن الظالمين كما

يروى عن الإمام الحسن العسكري (عليه السلام) عن رسول اللَّه (صلى اللَّه عليه و آله و سلم) أنه قال: و لا تقصدوا أيضا بصدقاتكم و زكواتكم المعاندين لآل محمد (صلى اللَّه عليه و آله و سلم) المحبين لأعدائهم فإن المتصدق على أعدائنا كالسارق في حرم ربنا عزّ و جل و حرمي‏ «1».

\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_

(1). التفسير المنسوب إلى الإمام الحسن العسكري (عليه السلام) و منها ما

في التهذيب عن عبد اللَّه بن أبي يعفور قال‏ قلت لأبي عبد اللَّه (عليه السلام): جعلت فداك ما تقول في الزكوة لمن هي؟ قال فقال (عليه السلام): هي لأصحابك، قال: قلت: فإن فضل عنهم؟ قال: فأعد عليهم، قال: قلت فإن فضل عنهم؟ قال: فأعد عليهم، قال قلت فإن فضل عنهم؟ قال: فأعد عليهم، قال: فنعطي السؤال منها شيئا؟ قال: لا و اللَّه إلا التراب إلا أن ترحمه فإن رحمته فأعطه كسرة ثم أومأ بيده فوضع إبهامه على أصول أصابعه.

و

في الكافي و التهذيب عن عيص بن القاسم عن أبي عبد اللَّه (عليه السلام) في الزكوة: «ما أخذ منكم بنوا أمية فاحتسبوا و لا تعطوهم شيئا ما استطعتم فإن المال لا يبقى على هذا أن تزكيه مرتين».

و

في التهذيب عن إبراهيم الأوسي عن الرضا (عليه السلام) قال: سمعت أبي يقول: كنت عند أبي يوما فأتاه رجل قال: إني رجل من أهل الري ولي زكوة، إلى من ادفعها؟

فقال: إلينا، فقال: أليس الصدقة محرمة عليكم؟ فقال: بلى، إذا دفعتها إلى شيعتنا فقد دفعتها إلينا، فقال: إني لا أعرف لها أحدا، فقال: انتظر بها السنة، فقال: فإن‏

الفرقان في تفسير القرآن بالقرآن، ج‏13، ص: 170

صحيح أنهم كانوا مجبرين في إعطاء الزكوة من التسعة الشهيرة، لا محيد لهم عنها، و لكنه لا يبرر ذالك الإختصاص الامتصاص من حقوق الفقراء، فقد كان و لا بد أن يفتي بدفع بقية الزكوات لأهليها الآهلين لها بذوات أيدي الدافعين.

ذلك، فلا مبرر لفتوى اختصاص الزكوة بهذه التسعة لا مؤقتا و لا دائما، حيث النصوص المتظافرة كتابا و سنة دالة على العموم.

و حين تحمل أحاديث التعميم على التقية- و لا قائل به من العامة إلّا قليل هو أقل من الشيعة- فهل تحمل آيات التعميم- كذلك- على التقية؟.

و ترى مما ذا- إذا- التقية؟ و قضية التقية- و هي موافقة الأكثرية العامة في العامة- هي حمل أخبار التسعة على التقية لموافقتها فتاوى العامة و مخالفتها للكتاب و السنة دون أن تحمل أدلة التعميم آيات و روايات على التقية.

إذا فهذه تقية بغية غير نقية، شكلت حرمانا شاملا للفقراء و المحاويج، دون أي مبرر شرعي أو عقلي أو خلقي.

أ فهكذا يهرب من القرآن إلى أمثال هذه الأحاديث التي هي أحدوثات مخزية في الدين؟ و كما عن سلمان الفارسي مخاطبا ذلك الجيل المضل:

هربتم من القرآن إلى الأحاديث، وجدتم كتابا دقيقا حوسبتم فيه على‏

\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_

لم أصب لها أحدا؟ قال: انتظر بها سنتين حتى بلغ أربع سنين، ثم قال: «إن لم تصب لها أحدا فصرها صررا و اطرحها في البحر فإن الله عز و جل حرم أموالنا و أموال شيعتنا على عدونا»

أقول: لا يعنى من الطرح واقعة، و إنما هو تأكيد لحرمتها على أعداهم.

و هنا يقول القرطبي في جامع أحكام القرآن (9: 112) في تفسير سورة التين نقلا عن ابن العربي أن التين من أهم المؤون و هو من الأموال الزكوية، و السبب في عدم تصريح العلماء بوجوب الزكوة فيه إسراف الولاة في الزكوات و كأنها من أموالهم الخاصة، و ذهب الشافعي إلى عدم وجوب الزكوة في الزيتون- رغم أن فيه الزكوة- بنفس السبب.

الفرقان في تفسير القرآن بالقرآن، ج‏13، ص: 171

النقير و القطمير و الفتيل و حبة خردل فضاق عليكم و هربتم إلى الأحاديث التي اتسعت عليكم.

و

يروى عن علي عليه أفضل الصلاة و السلام: «أعزم على كل من كان عنده كتاب إلا رجع فمحاه، فإنما هلك الناس حيث اتبعوا أحاديث علماءهم و تركوا كتاب ربهم» «1»

و هذه المصارف الثمانية للزكوة حاصرة لا تنقص و لا تعدوا إلى سواها وقوفا على نص الآية حصرا ب «إنما» و قد حصرت الحاجيات الأصيلة للإسلام و المسلمين فيهم ثم لا أحد غيرهم.

و

قد «قال رجل يا رسول الله (صلى الله عليه و آله و سلم) أعطني من الصدقة» فقال: «إن الله لم يرض بحكم نبي و لا غيره في الصدقات حتى حكم هو فيها فجزأها ثمانية أجزاء فإن كنت من تلك الأجزاء أعطيتك حقك» «2».

و لا يشترط الفقر و المسكنة في الستة الأخرى كما هو ظاهر من‏

\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_

(1). رجال الكشي ص 2، و الحديث الثاني يرويه جابر بن عبد اللَّه عن عبد اللَّه بن يسار سمعت عليا (عليه السلام) يقول: ..

(2) الدر المنثور 3: 250- أخرج أبو داود و البغوي في معجمه و الطبراني و الدار قطني عن زياد بن حارث الصدائي قال قال رجل ... و

فيه أخرج ابن سعد عن زياد بن الحرث الصدائي قال: بينا أنا مع رسول اللَّه (صلى اللَّه عليه و آله و سلم) إذ جاء قوم يشكون عاملهم ثم قالوا يا رسول اللَّه (صلى اللَّه عليه و آله و سلم) أخذ بشي‏ء كان بيننا في الجاهلية فقال رسول اللَّه (صلى اللَّه عليه و آله و سلم) لا خير للمؤمن في الإمارة ثم قام رجل فقال يا رسول اللَّه (صلى اللَّه عليه و آله و سلم) اعطني من الصدقة فقال: إن اللَّه لم يكل قسمها إلى ملك مقرب و لا نبي مرسل حتى جزّأها ثمانية اجزاء فإن كنت جزء منها أعطيتك و إن كنت غنيا عنها فانما هي صداع في الرأس و داء في البطن.

و

فيه أخرج ابن أبي حاتم و ابن مردويه عن جابر قال‏ جاء أعرابي إلى النبي (صلى اللَّه عليه و آله و سلم) فسأله و هو يقسم قسما فاعرض عنه و جعل يقسم قال أ تعطي رعاء الشاء و اللَّه ما عدلت فقال (صلى اللَّه عليه و آله و سلم) ويحك من يعدل إذا أنا لم أعدل فأنزل اللَّه هذه الآية.

الفرقان في تفسير القرآن بالقرآن، ج‏13، ص: 172

عناوينها و

قد يروى عن النبي (صلى اللَّه عليه و آله و سلم) أنه «لا تحل الصدقة لغني إلا لخمسة لعامل عليها أو رجل اشتراها بماله أو غارم أو غاز في سبيل الله أو مسكين تصدق عليه فأهدى منها لغني» «1»

ثم و سائر الستة من الثمانية.

و قد تلمح مصارف الزكاة بمصاريفها صارحة أنها ثروة ضخمة بإمكانها إدارة الشؤون الاقتصادية للمملكة الواسعة الإسلامية المقصودة.

فمنهم «الفقراء و المساكين» فالفقير من الفقار و هو عظم الظهر، و المسكين من السكون، و هو الذي أسكنه العدم عن حركات الحياة، و لكن الفقير هو الذي أفقره العدم أي كسر فقاره فهو أسوء حالا من المسكين، فلذلك يتقدم على المسكين إذا جمعا و كما هنا، و قد ينفرد كما في آيات اثني عشر «2» و يذكر المسكين في (23) آية، و بينهما عموم مطلق فكل فقير مسكين و ليس كل مسكين فقيرا، و قد يتأيد ذلك الفارق ب‏ «أَمَّا السَّفِينَةُ فَكانَتْ لِمَساكِينَ يَعْمَلُونَ فِي الْبَحْرِ» (18: 79) سماهم مساكين و لهم سفينة بحرية، و إن لا تكفيهم مؤنة كاملة، مهما تأيد خلافها بالصحيح فإنه غير صحيح لمخالفة القرآن و اللغة إلا أن يؤول‏ «3» و كذلك‏ «أَطْعِمُوا الْبائِسَ الْفَقِيرَ» (22: 28) فلو كان المسكين أسوء حالا من الفقير لكان ذكره أحرى في موقف الإطعام.

و قد يكون الفقير «مِسْكِيناً ذا مَتْرَبَةٍ» (90: 16) و لذلك يتقدم في آية الصدقات على المسكين لتقدم حقه بحاجته.

و لو كان المسكين أسوء حالا من الفقير لكان هو الأخرى في التعبير عن حال الناس في‏ «يا أَيُّهَا النَّاسُ أَنْتُمُ الْفُقَراءُ إِلَى اللَّهِ» (35: 15)- «و الله غنى و أنتم الفقراء» (47: 38) كما و قد يعبر عن أسوء الأحوال‏

\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_

(1). المصدر أخرج ابن أبي شيبة و أبو داود و ابن ماجة و ابن المنذر و ابن مردويه عن أبي سعيد الخدري قال قال رسول اللَّه (صلى اللَّه عليه و آله و سلم): ..

(2) و هي 2: 268 و 3: 181 و 22: 28 و 28: 24 و 4: 6 و 135 و 2: 271 و 273 و 24: 32 و 35: 15 و 47: 38 و 59: 8.

(3) و هو

صحيح محمد بن مسلم عن أحدهما (عليهما السلام) أنه سأله عن الفقير و المسكين‏

الفرقان في تفسير القرآن بالقرآن، ج‏13، ص: 173

في الأخرى ب «فاقرة»: «وُجُوهٌ يَوْمَئِذٍ باسِرَةٌ. تَظُنُّ أَنْ يُفْعَلَ بِها فاقِرَةٌ» (75: 25).

ثم الترتيب الثماني مقصود هنا دونما فوضى، فكما الفقير أسوء حالا من المسكين، كذلك المسكين هو أسوء حالا من العاملين عليها، و إلى البقية الباقية حيث إن كل سابق أحوج من لاحقه، فالمؤلفة قلوبهم هم أحرى من الرقاب، فإنهم رقاب أسرى عقيديا و ليس الرقاب هكذا ككل، ثم الرقاب أحرى من الغارمين فإنهم أسرى بأنفسهم و هؤلاء بغرمهم في أموالهم، ثم في سبيل اللَّه الشاملة لكل سبيل اللَّه هي عامة بعد هؤلاء الخصوص حيث الكل لها صبغة «في سبيل الله» و من ثم «ابن السبيل» مصداق من مصاديقها.

ذلك و التقسيم ليس بين هؤلاء على حد سواء، و إنما لكلّ قدر الحاجة الضرورية ثم الزائدة عنها، و عند الدوران بينهم حيث لا تكفى الصدقات كلهم فالتقدم للأقدام فالأقدم ذكرا و حاجة.

و على أية حال فالفقير و المسكين هما اللذان لا يملكان القوت قدر الحاجة الضرورية، أم و لا يقدران على تحصيله دون عسر و حرج، أم و لا بعسر أو حرج، فالأولان قد يشك في جواز إعطاء الزكاة لهما، و لا شك في الأخيرين، ثم المتوسطان متوسطان، و مهما يكن من شي‏ء فلا ريب في تقدم الأخير على ما قبله، و الوسيط على ما قبله. ثم لا ريب في تقدم من له كل العناوين الثمانية على من دونه منها، فالفقير يتقدم على المسكين، و الفقير من أبناء السبيل يتقدم على أحدهما، و هكذا القياس.

\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_

فقال: الفقير الذي لا يسأل و المسكين الذي هو اجهد منه الذي يسأل‏ (الوسائل ب 1 ح 2 من مستحقي الزكاة)

أقول: علىّ أجهد منه و هو أسعى تعني سؤاله فالذي يسأل هو بطبيعة الحال اغني من الذي لا يسأل و قد قال اللَّه تعالى: «لِلْفُقَراءِ الَّذِينَ أُحْصِرُوا فِي سَبِيلِ اللَّهِ لا يَسْتَطِيعُونَ ضَرْباً فِي الْأَرْضِ يَحْسَبُهُمُ الْجاهِلُ أَغْنِياءَ مِنَ التَّعَفُّفِ تَعْرِفُهُمْ بِسِيماهُمْ لا يَسْئَلُونَ النَّاسَ إِلْحافاً ..» (2: 273).

الفرقان في تفسير القرآن بالقرآن، ج‏13، ص: 174

و يقابل «الفقراء و المساكين» الأغنياء و

«لا تحل الصدقة لغني» «1»

و هو أعم من غنى المال الحاضر، و الغائب بحرفة حاضرة كافية، أم بحرفة مقدورة غير محرجة، فليس الزكاة إلّا للساعين قدر مقدورهم بنقصان مؤنة، أو القصّر و العجزة الذين لا يقدرون على مؤنتهم، و لأن الزكاة دين للفقراء في أموال الأغنياء فلا بد من التحري في إيصالها إلى أهلها إلّا أن يخطأ قاصرا فقد يعفي عنه‏ «2».

\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_

(1). الوسائل 6: 158- 161 ح 8- 9- 11 و

في الدر المنثور 3: 352 عنه (صلى اللَّه عليه و آله و سلم) قال: لا تحل الصدقة لغني و لا ذي مرة سوي».

و

فيه أخرج ابن أبي شيبة و أبو داود و النسائي عن عبيد اللَّه بن عدي بن الخيار قال‏ أخبرني رجلان انهما أتيا النبي (صلى اللَّه عليه و آله و سلم) في حجة الوداع و هو يقسم بالصدقة فسألاه منها فرفع فينا البصر و خفضه فرآنا جلدين فقال ان شئتما اعطيتكما و لا حظ فيها لغني و لا لقوي مكتسب».

و يدل عليه‏

صحيحة زرارة عن أبي جعفر (عليهما السلام) قال: سمعته يقول: إن الصدقة لا تحل لمحترف و لا لذي مرة سوي قوي فتنزهوا عنها» (الكافي 3: 450 رقم 2).

و

عن زرارة عن أبي جعفر (عليهما السلام) قال قال رسول اللَّه (صلى اللَّه عليه و آله و سلم): لا تحل الصدقة لغني و لا لذي مرة سوي و لا لمحترف و لا لقوي، قلنا: ما معنى هذا؟

قال: لا تحل له أن يأخذها و هو يقدر على ما يكف نفسه عنها» (قرب الإسناد 72)

أقول: فلا تعني الغني المال الحاضر الوافي و لا الحرفة الحاضرة الوافية، بل تكفي القدرة على تحصيل المؤنة و إن كان تارك الحرفة تينلا، ثم يعني المحترف الذي تكفيه حرفته لمؤنته و إلا فليأخذ الناقص عنها على حرفته و يدل عليه‏

صحيحة معاوية بن وهب قال‏ سألت أبا عبد اللَّه (عليه السلام) عن الرجل يكون له ثلاثمائة درهم أو أربعمائة درهم و له عيال و هو يحترف فلا يصيب نفقته فيها أ يكسب فيأكلها و لا يأخذ الزكاة أو يأخذ الزكاة؟

قال: لا بل ينظر إلى فضلها فيقوت بها نفسه و من وسّعه ذلك من عياله و يأخذ البقية من الزكاة و يتصرف بهذه و لا ينفقها» (الكافي 3: 561 رقم 6).

(2) كما

في الصحيح عن عبيد بن زرارة قال‏ قلت لأبي عبد اللَّه (عليه السلام) رجل عارف ادى زكاته إلى غير أهلها زمانا هل عليه أن يؤديها ثانية إلى أهلها إذا علمهم؟ قال: نعم، قال قلت فإن لم يعرف لها أهلا فلم يؤدها أو لم يعلم أنها عليه فعلم بعد ذلك:؟ قال:

يؤديها إلى أهلها لما مضى، قال: قلت له: فإن لم يعلم أهلها فدفعها إلى من ليس هو لها بأهل و قد كان طلب و اجتهد ثم علم بعد ذلك سوء ما صنع؟ قال: ليس عليه أن يؤديها مرة أخرى» (الكافي 3: 546 رقم 2).

الفرقان في تفسير القرآن بالقرآن، ج‏13، ص: 175

و لا تشرط العدالة و لا الوثاقة و لا الإيمان في الفقراء و المساكين لإطلاق النص فيهما مهما كان التقدم للمؤمنين في دوران الأمر بينهم و بين الكافرين، فللفقر و المسكنة على أية حال نصيبهما كما لسائر العناوين الثمانية، و كلها مصبوغة بصبغة واحدة هي «سبيل اللَّه».

ثم‏ «الْعامِلِينَ عَلَيْها» هم عمال أخذ الزكاة، و هذا يلمح بما تصرح به الآية «خُذْ مِنْ أَمْوالِهِمْ صَدَقَةً» أن أمر أخذ الزكاة ليس إلا لإمام المسلمين و ليس فوضى جزاف، لأنها الضريبة الإسلامية العامة الكبرى التي بها تقام المصالح الإسلامية اقتصادية و روحية و سواها، فلا بد أن تكون بأيدي قادة المسلمين الصالحين.

و ترى كيف يتساءل حول أداء الزكاة بصورة شخصية و هي شأن حكومي؟ إذ لم تكن هنالك حكومة عادلة تستحق أخذ الزكوة!.

و هل يشترط في‏ «الْعامِلِينَ عَلَيْها» العدالة؟ الظاهر نعم حيث المال ليس لهم فحسب بل و لسائر الثمانية أيضا، فليكن العامل أمينا و كما

في الصحيح‏ «فإذا قبضته فلا توكل إلا ناصحا شفيقا أمينا حفيظا» «1»

و لكن الأمانة و الحفظ يكفيان للحفاظ على المال، و النصيحة و الشفقة تكفيان للجباية الصالحة، فلا تجب العدالة بل لا تكفي في عمالة الزكاة، فهي العمالة بالحق كما

يروى عن رسول اللَّه (صلى اللَّه عليه و آله و سلم): «العامل على الصدقة بالحق كالغازي حتى يرجع إلى بيته» «2».

ثم‏ «الْعامِلِينَ عَلَيْها» لهم من الزكاة حق العمالة و ليس حقّ الفقر حتى يحرم عليهم من الزكاة فتحرم عمالة الهاشميين لحرمة الصدقة عليهم، فلهم حق العمالة أيا كانوا، و كما يجوز للهاشمي أخذ الزكوة من سائر أهليها أجرة لعمالة أخرى أم تجارة أماهيه، بل و يجوز له الزكاة للفقر و المسكنة على الأقوى.

\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_

(1). هو قول أمير المؤمنين (عليه السلام) فيما رواه معاوية بن عمار عنه طويلا.

(2) الدر المنثور 3: 251- أخرج ابن أبي شيبة عن رافع بن خديج سمعت رسول اللَّه (صلى اللَّه عليه و آله و سلم) يقول: ..

الفرقان في تفسير القرآن بالقرآن، ج‏13، ص: 176

و علّ الصحيح‏ «1» في منعهم غير صحيح إلّا إذا أريد إعطاءهم من الزكوة لفقرهم إضافة إلى عمالتهم، و العلة في حرمة الزكاة عليهم عليلة، إذ كيف تكون الزكاة أوساخ ما في أيدي الناس و ليس الخمس و سواه مما في أيدي الناس هبة أو هدية أماهيه؟ ثم كيف تدفع أوساخ في سبيل اللَّه و «لَنْ تَنالُوا الْبِرَّ حَتَّى تُنْفِقُوا مِمَّا تُحِبُّونَ»! إذا فالرواية القائلة أنها أوساخ هي نفسها من الأوساخ و المختلقات الزور و الغرور التي دسها في أحاديثنا الغرور.

«وَ الْمُؤَلَّفَةِ قُلُوبُهُمْ» تشمل من تتألف قلوبهم إلى الإسلام و المسلمين بما يؤتون من الزكاة، سواء أ كانوا كفارا أو منافقين، أم و بأحرى ضعفاء الإيمان، تأليفا لهم إلى كامل الإيمان، و كما اللَّه يؤلف قلوب عباده بمواعيده الحسنى في الأولى و الأخرى.

و ليس يعني تأليف قلوب نافرة عن الإسلام، إليه بالمال، إغراءها بتلك الأموال كما يفعله الاستشراق المسيحي و ما أشبه، و إنما ذلك بعد كامل البيان و قاطع البرهان‏ «2»، حيث الإيمان الآتي بالمال هو ذاهب بالمال‏

\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_

(1). هو

صحيح العيص بن القاسم عن أبي عبد اللَّه (عليه السلام) قال: إن أناسا من بني هاشم أتوا رسول اللَّه (صلى اللَّه عليه و آله و سلم) فسألوه أن يستعملهم على صدقات المواشي و قالوا: يكون لنا هذا السهم الذي جعله اللَّه عزّ و جلّ للعاملين عليها فنحن أولى به فقال رسول اللَّه (صلى اللَّه عليه و آله و سلم) يا بني عبد المطلب إن الصدقة لا تحل لي و لا لكم و لكن قد وعدت الشفاعة (الكافي 4: 58 و التهذيب 1: 365).

(2)

نور الثقلين 2: 230 عن الصادق (عليه السلام) في حديث يفسر الثمانية «وَ الْمُؤَلَّفَةِ قُلُوبُهُمْ» قوم وحدوا اللَّه و لم تدخل المعرفة قلوبهم إن محمدا رسول اللَّه (صلى اللَّه عليه و آله و سلم) فكان رسول اللَّه (صلى اللَّه عليه و آله و سلم) يتألفهم و يعلمهم كيما يعرفوا فجعل اللَّه عزّ و جلّ لهم نصيبا في الصدقات لكي يعرفوا و يرغبوا، و فيه عن أصول الكافي عن أبي جعفر (عليهما السلام) قال: المؤلفة قلوبهم قوم وحدوا اللَّه و خلعوا عبادة من دون اللَّه و لم تدخل المعرفة قلوبهم إن محمدا (صلى اللَّه عليه و آله و سلم) رسول اللَّه و كان رسول اللَّه (صلى اللَّه عليه و آله و سلم) يتآلفهم و يعرفهم لكي ما يعرفوا و يعلمهم.

و

فيه عن تفسير القمي في الصحيح عن زرارة عن أبي جعفر (عليه السلام) قال‏ سألته عن قول‏

الفرقان في تفسير القرآن بالقرآن، ج‏13، ص: 177

بنفس المال في مزايدة الأموال التي تبذل لتأليف القلوب بين الدعايات المتضاربة من دعاة الأديان و المذاهب المشتتة.

إنما ذلك التأليف يجول في مجالاته المناسبة لهؤلاء الذين هم مقتنعون عقليا و عقائديا للإيمان، و إنما يحجزهم أو يبطئهم من الالتحاق إلى كتلة الإيمان فقرهم حين يفصلون عن سائر الكتل.

و من‏

«هم قوم كانوا يأتون رسول الله (صلى الله عليه و آله و سلم) قد أسلموا و كان يرضخ لهم من الصدقات فإذا أعطاهم من الصدقة فأصابوا منها خيرا قالوا هذا دين صالح و إن كان غير ذلك عابوه و تركوه» «1».

فالحكم الإسلامي يؤلف القلوب غير المسلمة بدعوات حقة ثم بأموال هي تكملات لتأليف قلوبهم، فإذا انفرد كل من التأليفين الأليفين عن الآخر أصبح التأليف ناقصا غير أليف، اللّهم إلا شذرا نزرا من الناس الذين تؤلف قلوبهم بتأليف ما حالا أو مالا.

و ليس تأليف القلوب النافرة يختص بزمن النبي (صلى اللَّه عليه و آله و سلم) فإنها لا تختص بزمنه و من غريب التعبير عن نصيب المؤلفة قلوبهم هو ما يروى عن الخليفة أبي بكر أنه الرشا و هو قطعها في‏

\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_

اللَّه عزّ و جل‏ «وَ الْمُؤَلَّفَةِ قُلُوبُهُمْ» قال: هم قوم وحدوا اللَّه عزّ و جلّ و خلعوا عبادة من يعبد من دون اللَّه و شهدوا أن لا إله إلّا اللَّه و أن محمدا رسول اللَّه (صلى اللَّه عليه و آله و سلم) و هم في ذلك شكّاك في بعض ما جاء به محمد (صلى اللَّه عليه و آله و سلم) فأمر اللَّه عزّ و جلّ نبيه أن يتآلفهم بالمال و العطاء لكي يحسن إسلامهم و يثبتوا على دينهم الذي دخلوا فيه و أقروا به أن ..

(1). الدر المنثور 3: 251- أخرج ابن جرير و ابن مردويه عن ابن عباس في الآية قال: هم قوم ...

و

فيه أخرج البخاري و ابن أبي حاتم و ابن مردويه عن أبي سعيد الخدري قال‏ بعث علي بن أبي طالب (عليه السلام) من اليمن إلى النبي (صلى اللَّه عليه و آله و سلم) بذهيبة فيها تربتها فسمها بين أربعة من المؤلفة الأقرع بن جالس الحنظلي و علقمة بن علاثة العامري و عيينة بن الفزاري و زيد الخيل الطائي فقالت قريش و الأنصار أ يقسم بين صناديد أهل نجد و يدعنا؟ فقال النبي (صلى اللَّه عليه و آله و سلم): إنما اتألفهم.

الفرقان في تفسير القرآن بالقرآن، ج‏13، ص: 178

الإسلام‏ «1»! و ليست الرشا إلّا في الحكم دون تأليف قلوب نافرة، إلى الإسلام الذي هو ثابت إلى يوم القيام ما كان هنا قلوب هي بحاجة إلى تأليف بالمال بعد تأليف الحال بناصع البيان و ناصحه.

ثم و ليس قلة الإسلام هي المبيحة- فقط- لتأليف القلوب، حتى إذا كثر فلا تأليف لقلوب آخرين كما رآه الخليفة عمر اجتهادا قاحلا أمام القرآن و نبي القرآن‏ «2».

و لا تختص‏ «الْمُؤَلَّفَةِ قُلُوبُهُمْ» بكفار أم منافقين أم ضعفاء الإيمان، و إنما هم‏ «الْمُؤَلَّفَةِ قُلُوبُهُمْ»، فإن أعطي ضعيف الإيمان و لم يؤلف قلبه إلى كامل الإيمان فليس هو من المؤلفة قلوبهم، و هكذا المنافق المقلوب قلبه، و إن أعطي مشرك أو موحّد يتألف به قلبه إلى ايمان فهو منهم، و أوسطهم الموحدون الذين تتألف قلوبهم بما يعطون.

ذلك، و من تأليف القلوب تخفيف العداء عنها للحق المرام أن تخفف وطأة المعاندين مهما بقيت خفيفة.

و هل لا يجوز إعطاء الزكاة- للمؤلفة قلوبهم- إلا لأهل الولاية كما

\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_

(1). المصدر أخرج البخاري في تاريخه و ابن المنذر و ابن أبي حاتم و أبو الشيخ قال: ليست اليوم مؤلفة قلوبهم إنما كان رجال يتألفهم النبي (صلى اللَّه عليه و آله و سلم) على الإسلام فلما إن كان أبو بكر قطع الرشا في الإسلام.

(2)

المصدر أخرج ابن أبي حاتم عن عبيدة السلماني قال‏ جاء عيينة بن حصنى و الأقرع بن حابس إلى أبي بكر فقالا يا خليفة رسول اللَّه (صلى اللَّه عليه و آله و سلم) إن عندنا أرضا سبخة ليس فيها كلاء و لا منفعة فإذا رأيت أن تعطيناها لعلنا نحرثها و نزرعها و لعل اللَّه أن ينفع بها فأقطعها إياها و كتب لهما بذلك كتابا و أشهد لهما فانطلقا إلى عمر ليشهداه على ما فيه فلما قرأ على عمر ما في الكتاب تناوله من أيديهما فتفل فيه فمحاه فتذمّرا و قالا له مقالة سيئة فقال عمر: إن رسول اللَّه (صلى اللَّه عليه و آله و سلم) كان يتألفهما و الإسلام يومئذ قليل و إن اللَّه قد أعز الإسلام فاذهبا فاجهدا جهد كما لا أرعى اللَّه عليكما أن أرعيتما،

أقول: و

في نور الثقلين 3: 232 عن زرارة عن أبي جعفر (عليهما السلام) قال: المؤلفة قلوبهم لم يكونوا فقط أكثر منهم اليوم.

الفرقان في تفسير القرآن بالقرآن، ج‏13، ص: 179

تدل عليه صحاح‏ «1» قد يجوز أن تعطى لمن يؤلف قلبه و يمال إلى الحق، فإن منعته عاند أكثر مما كان، فهم كلهم تشملهم‏ «الْمُؤَلَّفَةِ قُلُوبُهُمْ».

و لا تشرط العدالة في مستحق الزكاة ف‏ «مِنْهُمْ مَنْ يَلْمِزُكَ فِي الصَّدَقاتِ فَإِنْ أُعْطُوا مِنْها رَضُوا وَ إِنْ لَمْ يُعْطَوْا مِنْها إِذا هُمْ يَسْخَطُونَ» (9: 79) و الفقر كاد أن يكون كفرا!.

فحين يجوز إعطاء الزكاة لغير المسلم تأليفا لقلبه، فهلا يجوز إعطاءها لغير أهل الولاية تأليفا لقلوبهم أو لغير العدول سدا لثغرتهم، و هو بطبيعة الحال يؤلف قلوبهم أم يمنع عن تنافر أكثر مما كان‏ «2».

«وَ فِي الرِّقابِ» هي رقاب العبيد و الإماء، ثم رقاب المساجين غير الغارمين، الذين يطلقهم رهائن الأموال، فقد يصرف قسم من الزكوة في سبيل فك رقابهم عن أسر الرقية أماهيه من آصار.

ثم «الرقاب» تعم كل الرقاب المحتاجة في حلّها إلى صدقة! و المحتاجة إلى حلّ‏ «3» فأمّا الرقاب الغنية بما عندها من أموال أم أشغال،

\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_

(1). هي ما

رواه الكليني و ابن بابويه عن زرارة و بكير و الفضيل و محمد بن مسلم و بريد بن معاوية العجلي عن أبي جعفر و أبي عبد اللَّه (عليهما السلام) أنهما قالا في الرجل يكون في بعض هذه الأهواء الحرورية و المرجئة و العثمانية و القدرية ثم يتوب و يعرف هذا الأمر و يحسن رأيه يعيد كل صلاة صلاها أو صوم أو زكاة أو حج أو ليس عليه إعادة شي‏ء من ذلك؟ قال: «ليس عليه إعادة شي‏ء من ذلك غير الزكاة لا بد أن يؤديها لأنه وضع الزكاة في غير موضعها و أن موضعها أهل الولاية»

أقول: استثناء الزكاة لا يلائم‏ «فَمَنْ جاءَهُ مَوْعِظَةٌ مِنْ رَبِّهِ فَانْتَهى‏ فَلَهُ ما سَلَفَ» ثم و هو صد عن التوبة، بل قد يعطى مثله من نصيب المؤلفة قلوبهم فكيف يجب عليه إعادة الزكاة، ثم التعليل عليل فإنه لم يضع- فقط- الزكاة في غير موضعها بل و جل العقائد و الأعمال التي تخالف شرعة الولاية!.

(2) و يدل على الجواز معتبرة منها

صحيحة علي بن يقطين‏ أنه سئل أبا الحسن الأول (عليه السلام) عن زكاة الفطرة أ يصلح أن تعطي الجيران و الظئورة مما لا يعرف و لا ينصب؟ فقال: لا بأس بذلك إذا كان محتاجا.

(3) كما

في خبر أبي بصير عن أبي عبد اللَّه (عليه السلام) قال‏ سألته عن الرجل يجتمع عنده من الزكاة الخمسمائة و الستمائة يشتري بها نسمة و يعتقها؟ فقال: إذا يظلم قوما آخرين‏

الفرقان في تفسير القرآن بالقرآن، ج‏13، ص: 180

أو الغنية عن العتق، فليست هي مما تشمله «في الرقاب» حيث الحاجة أو مصلحة أخرى لا مندوحة لها هي المحور لصرف الزكاة، التي قررت- كأصل- للمحاويج أو الذين يستحقونها لعمل كالعاملين عليها.

و قد يشمل «في الرقاب»- و بأحرى- من عليه عتق رقبة و لا يجدها «1»، فإنه مجمع العنوانين «الغارمين» حيث عليه عتق رقبة و ليست عنده، و «في الرقاب» شرط توفر شروط الرقبة التي يشتري له من نصيب الزكاة لتعتق عنه، و منها ما كان تأليفا لقلب رقبة غير مؤمنة إلى الإيمان فهي مجتمع العنوانين، و قد تكفيها أنها من‏ «الْمُؤَلَّفَةِ قُلُوبُهُمْ» فحتى إذا كان حرا هو في أسر بمال قد يجوز فكه تأليفا لقلبه إلى الإيمان.

و قد تعني رواية القمي عن العالم توسعة في «الرقاب» حيث الكفارات فيها ليست لتعني فقط العتق بل و لا يصح في قتل الصيد و أمثاله من الكفارات، فهي تعني فك رقاب الغارمين للَّه فتشملهم «في الرقاب» كما قد تشملهم «الغارمين» و ما الطفه تنبيها!.

«و الغارمين» هم- على القدر المتيقن- المطلوبون بأموال دون تقصير و لا إسراف أو تبذير أم أي تصرف محظور «2»، فهم- إذا- الغارمون‏

\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_

حقوقهم، ثم مكث مليا ثم قال: الا ان يكون عبدا مسلما في ضرورة فيشتريه و يعتقه‏ (الكافي 3: 557).

و

مرسل الصدوق عن الصادق (عليه السلام) قال‏ سئل عن مكاتب عجز عن مكاتبته و قد أدى بعضها؟ قال: يؤدى عنه من مال الصدقة إن اللَّه تعالى يقول: «وَ فِي الرِّقابِ» (التهذيب 1: 325 و الفقيه 345).

(1).

عن تفسير القمي عن العالم (عليه السلام) قال: في الرقاب قوم لزمتهم كفارات في قتل الخطأ و في الظهار و في الإيمان و في قتل الصيد في الحرم و ليس عندهم ما يكفرون به و هم مؤمنون فجعل اللَّه تعالى لهم سهما في الصدقات ليكفر عنهم‏ (التهذيب 1: 364 و تفسير القمي 274).

(2) ف‏ «إِنَّ الْمُبَذِّرِينَ كانُوا إِخْوانَ الشَّياطِينِ» (:) ليس اللَّه ليعين إخوان الشياطين بأموال المساكين. و «إِنَّهُ لا يُحِبُّ الْمُسْرِفِينَ» (:) فكيف يتحبب إلى المسرفين‏

الفرقان في تفسير القرآن بالقرآن، ج‏13، ص: 181

في غير باطل أو محظور، و إن صرف في باطل ثم تاب فهل له من سهم الغارمين شي‏ء، حيث‏

التائب من الذنب كمن لا ذنب له‏

، و «فَمَنْ جاءَهُ مَوْعِظَةٌ مِنْ رَبِّهِ فَانْتَهى‏ فَلَهُ ما سَلَفَ»؟ كما و إطلاق الآية يشمله؟ أم لا نصيب له حيث صرفه في معصية، و الأخبار فيه مطلقة لا تتقيد بالتوبة، الأشبه هو الأول لإطلاق الآية، المتقيد به إطلاق الأخبار المقيدة بعدم صرفه في معصية، و أنه أحرى من غيره تشجيعا على نصوح التوبة، بل و أحرى من المؤلفة قلوبهم.

و قد يختص «الغارمين»- فيما يختص- بمن يعجز عن أداء دينه، و إلّا فهو غني لا تحل له الصدقة، و إن لم يملك إلا مؤنة سنته، إما أن يؤديها أو بعضها لغريمه أم يصرفها في مؤنته، فقد يشمله إطلاق الآية، مهما أخرجته الرواية لأنه غني، و لكنه يفتقر إذا أدى دينه، و الأحوط أن يؤدي دينه بمؤنته ثم يستكملها بالصدقة حيث يدخل- إذا- في نص الآية:

«الفقراء و المساكين» «1» و قد كان داخلا في إطلاق الآية: «و الغارمين»

\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_

بأموال المساكين، ثم اللَّه لا يحب العاصين، فكيف يزيدهم عصيانا أو يعينهم بأموال المساكين.

و

في خصوص الإسراف خبر الحسين بن علوان عن قرب الأسناد عن جعفر عن أبيه (عليهما السلام) إن عليا (عليه السلام) كان يقول: يعطى المستدينون من الصدقة و الزكاة دينهم كله ما بلغ إذا استدانوا في غير إسراف‏ (قرب الأسناد 146)

و هو يعمم الاستدانة في معصية اللَّه فإن صرف المال فيها من أسرف الإسراف.

و في عموم عدم المعصية أم في طاعة اللَّه‏

خبر محمد بن سليمان المروي في الكافي باب الديون عن رجل من أهل الجزيرة يكنى أبا محمد قال: سأل الرضا (عليه السلام) رجل و أنا أسمع- إلى أن قال (عليه السلام) في إنظار المديون: نعم ينتظر بقدر ما ينتهى خبره إلى الإمام فيقضي عنه ما عليه من الدين من سهم الغارمين إذا كان أنفقه في طاعة اللَّه عزّ و جلّ فإن كان أنفقه في معصية اللَّه فلا شي‏ء له على الإمام‏ (الكافي 5: 93- 94).

و

في الصحيح عن عبد الرحمن بن الحجاج قال: سألت أبا الحسن (عليه السلام) عن رجل عارف فاضل توفي و ترك دنيا لم يكن بمفسد و لا مسرف و لا معروف بالمسألة هل يقضي عنه من الزكاة الألف و الألفان؟ قال: نعم‏ (الكافي 3: 549).

(1). و قد يتأيد بما

عن مستطرفات السرائر نقلا عن كتاب المشيخة لابن محبوب عن أبي أيوب‏

الفرقان في تفسير القرآن بالقرآن، ج‏13، ص: 182

المشكوك شموله لهكذا غني، و النتيجة واحدة.

و هل يجب إحراز أنه لم يقصّر و لم يسرف أو يبذر أو لم يصرفه في معصية اللَّه؟ الظاهر نعم، إلّا أنه يكفي ظاهر حال المسلم المحمول على الصحة، لا سيما إذا ادّعى ذلك، ثم إطلاق «الغارمين» يشمل موارد الشك، و يقتصر على الخارج منه يقينا و هو المعروف من حاله صرفه في معصية اللَّه.

و هل يشترط في الغارم العدالة، أو الإيمان أو الإسلام؟ إطلاق الآية يرفضها كما يرفض كل شرط، اللّهم إلا الإسلام بل و الإيمان، فإن اشتراط ألا يعصى اللَّه في دينه هو اشتراط الإيمان، و الكافر عاص للَّه على أية حال في دين و سواه.

ثم الغارم إنما يأتى من الزكاة لفقره بالنسبة لدينه مهما كان غنيا في نفسه، فحصته من الزكاة إذا معلقة على عدم إمكانية أدائه على طول الخط، فإن أمكنه الأداء بعد دونما عسر و لا حرج فليرد ما أخذ قدر المكنة و الاستطاعة، فإنما حصص الزكاة لهؤلاء- ككل- هي لسد ثغور الحاجة قدرها، و أما المحتاج اليوم الغني غدا، فليس له من الزكاة إلّا قدر اليوم ثم يردها عند المكنة حسب المستطاع، إذا فحصة الزكاة للغارمين الذين يجدون فيما بعد ما يسدون ثغر الغرم، هي لهم قرض مؤقت و ليس ملكا طليقا.

و قد يشمل «الغارمين» الأغنياء الذين غرموا لغير مصالحهم الشخصية كإصلاح ذات البين بتحمل دية و ما أشبه من أموال، فسواء قدروا على أدائها أم لم يقدروا تشملهم «الغارمين» و يؤيده‏

قول النبي (صلى اللَّه عليه و آله و سلم) لا تحل الصدقة لغني إلا لخمس .. و رجلا تحمل حمالة ...

\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_

عن سماعة قال: سألت أبا عبد اللَّه (عليه السلام) عن الرجل منا يكون عنده الشي‏ء يتبلغ به و عليه دين أ يطعمه عياله حتى يأتيه اللَّه بميسرة فيقضي دينه أو يستقرض على ظهره في جدب الزمان و شرة المكاسب أو يقضي بما عند دينه و يقبل الصدقة؟ قال: يقضي بما عنده و يقبل الصدقة (السرائر 472).

الفرقان في تفسير القرآن بالقرآن، ج‏13، ص: 183

فكما لا يشترط الفقر في‏ «الْعامِلِينَ عَلَيْها وَ الْمُؤَلَّفَةِ قُلُوبُهُمْ» و من أشبه حفاظا على المصلحة الإسلامية، كذلك لا يشترط في الغارمين اللّهم إلا الغارم في مصالحه الشخصية و هو قادر على الأداء.

«وَ فِي سَبِيلِ اللَّهِ» و هي واسعة اتساع سبل اللَّه، المحلقة على كافة المصالح الإسلامية الواسعة، مهما كان من أبرزها سبيل الدعوة إلى اللَّه و الجهاد أو الدفاع في سبيل اللَّه، و لكنها ليست لتختص بهما، و إنما هي‏ «سَبِيلِ اللَّهِ» لا فقط ما ذكر من سبل اللَّه.

و قد تكون‏ «فِي سَبِيلِ اللَّهِ» هنا ضابطة عامة بعد موارد منها خاصة، و لا ريب أن‏ «سَبِيلِ اللَّهِ» هنا هي السبيل المحتاجة إلى مال ليس ليحصل من غير الصدقات التي هي للفقراء و المساكين، فلا بد لسبيل اللَّه- إذا- من فقر و حاجة كما للفقراء و المساكين، و كما

عن العالم (عليه السلام) قال‏ «وَ فِي سَبِيلِ اللَّهِ» قوم يخرجون إلى الجهاد و ليس عندهم ما ينفقون أو قوم من المؤمنين ليس عندهم ما يحجون به و في جميع سبل الخير فعلى الإمام أن يعطيهم من مال الصدقات حتى يقووا على الحج و الجهاد «1»،

إذا فالستة السابقة على‏ «فِي سَبِيلِ اللَّهِ» كما ابن السبيل بعدها، هي من المصاديق الهامة ل‏ «فِي سَبِيلِ اللَّهِ» فالفقراء و المساكين هما في قمة الأهمية، ثم العاملين عليها، و من بعدهم بعدهما، و لأنهم قد يخفون على المؤمنين كونهم من المصاديق الصادقة ل «فِي سَبِيلِ اللَّهِ» يذكرون تفصيليا، و هؤلاء مرتبون ذكرا حسب رتبهم، فما دام فقير لا تصل النوبة إلى مسكين، و ما داما هما لا تصل إلى العاملين عليها، إلا إذا كانوا منهما فهم أحرى من غير العاملين فقراء و مساكين، ثم و ما داموا هم لا تصل إلى المؤلفة قلوبهم، و ما داموا هم لا تصل إلى «في الرقاب» حيث المؤلفة قلوبهم هم رقاب و أسرى في ضلال العقيدة، فتحريرهم أحرى من الرقاب‏

\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_

(1). تفسير القمي 274 و التهذيب 1: 362 في حديث طويل.

و

في صحيحة علي بن يقطين المروية عن الفقيه‏ أنه قال لأبي الحسن (عليه السلام): يكون عندي المال من الزكاة أفا حج به مواليّ و أقاربي؟ قال: نعم» (الفقيه أبواب الزكاة رقم 60).

الفرقان في تفسير القرآن بالقرآن، ج‏13، ص: 184

في أبدانهم، ثم الرقاب أحرى من الغارمين حيث الرقاب هم أسرى بأنفسهم و الغارمون أسرى بما غرموا، و أما «فِي سَبِيلِ اللَّهِ» فهي ضابطة عامة تحلق على كافة سبل اللَّه، و لذلك كررت لها «في» لمحة إلى استقلالها و أهميتها، ثم ابن السبيل هو ابن سبيل اللَّه، فهما تعبيران عن جهات سبيل اللَّه و أشخاص السبيل كضابطتين عامتين، و المذكورون من قبل هم بين‏ «فِي سَبِيلِ اللَّهِ» و ابن السبيل، ف‏ «فِي الرِّقابِ وَ الْغارِمِينَ» هما من‏ «فِي سَبِيلِ اللَّهِ» حيث لا يملكون صدقة بأنفسهم، و إنما تصرف في صالحهم لمكان «في» و الباقون هم من أبناء سبيل اللَّه و لذلك ذكروا باللام حيث يملك الصدقة أشخاصهم.

«وَ ابْنِ السَّبِيلِ» و تراه- فقط- ابن سبيل اللَّه، و هو المنقطع عن ماله في سبيل من سبل اللَّه؟ إذا فابن السبيل في غير مرضاة اللَّه، أم و السبيل المباح الذي ليس مبغوضا و لا مرضيا للَّه، هو خارج عن‏ «ابْنِ السَّبِيلِ»؟

أم الخارج- فقط- هو سبيل غير اللَّه و هي المحرمة في شرعة اللَّه.

«السبيل» هنا هو «سَبِيلِ اللَّهِ» السابق ذكرها كضابطة لمصارف الصدقات، و شرط ابن السبيل كأقل تقدير ألّا يكون في سبيل غير اللَّه، فليكن في طاعة اللَّه أم دون معصية اللَّه فإنه أيضا طاعة اللَّه في عمل المباحات أم أيا كان من غير محظور، و هو المقصود من «طاعة الله» في بعض النصوص‏ «1» و ليس سبيل المباحات خارجة عن سبيل اللَّه حيث سبلها اللَّه و لم يمنع عنها ف‏ «ابْنِ السَّبِيلِ» هو الذي لا كافل له و هو منقطع عن ماله في الحال، و ليس في سبيل الحرام التي هي فقط خارجة عن السبيل.

و كذلك‏ «ابْنِ السَّبِيلِ» الذي هو غني في هذه السبيل، فلا بد له من رد ما أخذ ما أمكن، و هل يشترط في‏ «ابْنِ السَّبِيلِ» الفقر كالفقراء

\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_

(1). كما

رواه القمي في تفسيره عن العالم (عليه السلام) قال: و ابن السبيل أبناء الطريق الذين يكونون في الاسفار في طاعة اللَّه فيقطع عليهم و يذهب مالهم فعلى الإمام أن يردهم إلى أوطانهم من مال الصدقات‏ (التهذيب 1: 362 و تفسير القمي 274).

الفرقان في تفسير القرآن بالقرآن، ج‏13، ص: 185

و المساكين؟ ظاهر مقابلته بهما- لا، و لكن الغني في بلده يؤتى من الزكاة حتى يصل إلى بلده فيردها، إذ «لا تحل الصدقة لغني».

و ليس يختص ابن السبيل بالغريب عن وطنه، بل هو الغريب عن ماله سواء أ كان في وطنه و له مال في غيره، أم في الغربة و له مال في وطنه، أم ليس له مال على أية حال، فانه فقير و ابن سبيل، تحق له الزكاة لأمرين اثنين قدر ما يكفيه حتى يغنى.

و قد يتوسع‏ «ابْنِ السَّبِيلِ» إلى كل من هو يعمل في سبيل اللَّه كالدعوة إلى اللَّه، غير الواجبة عليه، أم و الواجبة، يدعو لحد إذا سئل ابن من هو، يقال: ابن سبيل اللَّه، حيث ترك كل صلة إلا الصلة باللَّه، و هو يعمل دوما في سبيل اللَّه، فلا يشترط- إذا- فيه الفقر، بل و الفقير المؤقت و المسكين تشملهما «الفقراء و المساكين» فكما لا يشترط الفقر و المسكنة في العاملين عليها و المؤلفة قلوبهم و في الرقاب، كذلك في‏ «ابْنِ السَّبِيلِ» مهما كانت الحاجة مفروضة في الكل من غير جهة الفقر و المسكنة.

و في التعبير عن الأربعة الأولى باللام الدال على الإختصاص الظاهر في الملك: «لِلْفُقَراءِ وَ الْمَساكِينِ وَ الْعامِلِينَ عَلَيْها وَ الْمُؤَلَّفَةِ قُلُوبُهُمْ» دليل أنهم يملكون نصيبهم من الزكاة.

ثم التعبير عن الآخرين بصيغة أخرى‏ «وَ فِي الرِّقابِ وَ الْغارِمِينَ وَ فِي سَبِيلِ اللَّهِ وَ ابْنِ السَّبِيلِ» لمكان «في» دليل على أن أصحابها لا يملكون نصيبهم و إنما يصرف في صالحهم ف «الرقاب» لا تملك و إنما تملك أن تعتق بنصيبها، و كذلك «الغارمين» فإن صار لهم وجد رجعوه، و كذلك قسم من‏ «فِي سَبِيلِ اللَّهِ».

و لا تجوز مطالبة الزكاة إلا بلين و رحمة و حنان و كما قال اللَّه‏ «وَ صَلِّ عَلَيْهِمْ إِنَّ صَلاتَكَ سَكَنٌ لَهُمْ» و

في الصحيح: قل يا عباد اللَّه أرسلني إليكم ولي اللَّه لآخذ منكم حق اللَّه في أموالكم فهل للَّه تعالى في أموالكم من حق فتؤدوه إلى وليه؟ فإن قال لك قائل:- لا- فلا

الفرقان في تفسير القرآن بالقرآن، ج‏13، ص: 186

تراجعه و إن أنعم لك منعم فانطلق معه .. «1».

و هل يجب تقسيم الأسهم الثمانية على سواء؟ لا دليل عليه و لا هو صحيح في نفسه، حيث الحاجات تختلف حسب مختلف الظروف و الحاجيات‏ «2» و الآية طليقة في التقسيم بينهم دون تسهيم بالسوية، بل و لا

\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_

(1). حديث مفصل عن الكافي.

(2)

الوسائل 6: 183 عن أبي عبد اللَّه (عليه السلام) في حديث أنه قال لعمرو بن عبيد في إحتجاجه له‏ ما تقول في الصدقة؟ فقرأ عليه الآية قال: نعم فكيف تقسمها؟ قال:

أقسمها على ثمانية أجزاء فأعطي كل جزء من الثمانية جزء، قال: و إن كان صنف منهم عشرة آلاف و صنف منهم رجلا واحدا أو رجلين أو ثلاثة جعلت لهذا الواحد ما جعلت للعشرة آلاف؟ قال: نعم، قال: و تجمع صدقات أهل الحضر و أهل البوادي فتجعلهم فيما سواء؟ قال: نعم، قال: فقد خالفت رسول اللَّه (صلى اللَّه عليه و آله و سلم) في كل ما قلت في سيرته، كان رسول اللَّه (صلى اللَّه عليه و آله و سلم) يقسم صدقة أهل البوادي في أهل البوادي و صدقة أهل الحضر في أهل الحضر و لا يقسمها بينهم بالسوية و إنما يقسمها على قدر ما يحضرها منهم و ما يرى ليس عليه في ذلك شي‏ء مؤقت موظف و إنما يصنع ذلك بما يرى على قدر من يحضرها منهم.

و

فيه عنه (عليه السلام) أتي النبي (صلى اللَّه عليه و آله و سلم) بشي‏ء يقسمه فلم يسع أهل الصفة جميعا فخص به أناسا منهم فخاف رسول اللَّه (صلى اللَّه عليه و آله و سلم) أن يكون قد دخل قلوب الآخرين شي‏ء فخرج إليهم فقال: معذرة إلى اللَّه عزّ و جلّ و إليكم يا أهل الصفة، إنا أوتينا بشي‏ء فأردنا أن نقسمه بينكم فلم يسعكم فخصصت به أناسا منكم خشينا جزعهم و هلعهم.

و

فيه عن العبد الصالح (عليه السلام) ... ثمانية أسهم يقسم بينهم في مواضعهم بقدر ما يستغنون به في سنتهم بلا ضيق و لا تقتير فإن فضل من ذلك شي‏ء رد إلى الوالي و ان نقص من ذلك شي‏ء و لم يكتفوا به كان على الوالي أن يمونهم من عنده بقدر سعتهم حتى يستغنوا- إلى أن قال-: و كان رسول اللَّه (صلى اللَّه عليه و آله و سلم) يقسم صدقات أهل البوادي في البوادي و صدقات أهل الحضر في أهل الحضر و لا يقسم بينهم بالسوية على ثمانية حتى يعطي أهل كل سهم ثمنا و لكن يقسمها على قدر من يحضره من أصناف الثمانية على قدر ما يقيم (يغني) كل صنف منهم بقدر سنته ليس في ذلك شي‏ء موقوف و لا مسمى و لا مؤلف إنما يصنع ذلك على قدر ما يرى و ما يحضره حتى يسد كل ناقة كل قوم منهم و إن فضل من ذلك فضل عرضوا المال جملة إلى غيرهم «.

و

فيه عن أبي عبد الله (عليه السلام) و إن كان بالمصر غير واحد فأعطهم إن قدرت جميعا».

الفرقان في تفسير القرآن بالقرآن، ج‏13، ص: 187

يصح حيث يختلف عديد هذه المصارف و مديدها.

فحين لا يوجد «الْعامِلِينَ عَلَيْها» في غياب الدولة الإسلامية فلا نصيب لهم، كحين لا توجد رقاب اللّهم إلّا ساير الرقاب التي تعتق عن رهنها بأموال لا تقدر على أداءها لتحلّلها، مثل رقاب من عليهم كفارات لا يقدرون على أداءها، و سائر الرقاب التي لا تنفك إلّا بمال حتى إذا كان قيدها بمعصية إذا تابت أصحابها.

و حين توجد فقراء و مساكين بوفرة و حاجات مدقعة فقد تضيق المجالات الأخرى، اللّهم إلا الأهم فالأهم من حيث كونه سبيل اللَّه، أو الأعم نفعا و الأتم من نفس الحيثية.

إذا فلا بد من نظام إسلامي ينتظم به سلك الإقتصاد و العدل في هذه السهام مهما كان في غياب الدولة الإسلامية، أن تقرّر كتل المسلمين قرارات فيما بينهم تقضي على فوضى التقسيم و التسهيم من بيت مال المسلمين حتى يأتي الفرج العام زمن الدولة المهدوية عليه آلاف التحية و السلام، أم تؤسس دولة أم دويلات اسلامية متضامنة مترابطة توطئ للمهدي (عليه السلام) مقدمه الشريف.

ثم‏ «فَرِيضَةً مِنَ اللَّهِ» ذيل الآية تفرض ذلك التقسيم إضافة إلى فرض الزكاة المقسومة على أهليها، فهي- إذا- فرض ذو بعدين و ما أهمه فرضا و أئمه و أعمه بين فرائض الإسلام!.

و هنا نعرف مدى خرافة مختلقة ضد المحاويج في حصر الزكوة في التسعة، و سلبها عن البقية، فالحديث المختلق‏

«ليس في الجوهر و أشباهه زكاة و إن كثر و ليس في نقر الفضة زكاة» «1».

\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_

(1).

فيه حديث يتيم محمد بن علي بن الحسين باسناده عن زرارة عن أبي جعفر (عليه السلام) قال: «ليس ي الجوهر ...»

و

عن يعقوب بن شعيب قال: سألت أبا عبد اللَّه (عليه السلام) عن الحلي أ يزكى؟ فقال: إذا لا يبقى منه شي‏ء و سأله بعضهم عن الحلي فيه زكوة؟ فقال: لا و لو بلغ مائة ألف.

و يخالفه ما

عن أبي الحسن قال‏ سألت أبا

الفرقان في تفسير القرآن بالقرآن، ج‏13، ص: 188

كما ليس في مكسور الدينار الذهبي و الدرهم الفضي زكاة، إنه و أشباهه لا يلائم مشروع الزكاة «وَ اللَّهُ عَلِيمٌ حَكِيمٌ».

أ فمن العلم بحاجات المحاويج، و الحكمة في إعانتهم، حصر الزكوة فيما حصرت فيه، و هناك من ذواخر الأموال و الجواهر الثمينة مئات آلاف أضعافها المكنوزة و سواها؟! و ماذا يحمل جماعة من أهل الفتوى على تأويل أضعاف الآيات و الأحاديث الواردة، في زكاة الأموال كلها و في زكاة مال التجارة، أن يؤلوها إلى استحباب و لا إشارة له في واحدة منها؟! فهل هم انتبهوا لما تغافل عنه المعصومون أم تجاهلوا؟.

تأويل كليل عليل ليس له أي دليل إلّا على خلافه لمن ينظر إلى أدلة الأحكام نظرة مستقيمة صافية ضافية.

و هلا تجوز الزكاة لذرية الرسول (صلى اللَّه عليه و آله و سلم)؟ قد يقال: لا لما ورد من أن الصدقة لهم محرمة، و لكن العلة العليلة المروية

«إن الصدقة أوساخ أيدي الناس» «1»

جارية في الخمس أكثر من الزكاة! أم تماثله حيث الكل مما في أيدي الناس دونما مايز بينهما في المكاسب، اللّهم إلّا إذا اختص الخمس بغنائم دار الحرب إذ لم يسع لها مسلم سعيه‏

\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_

عبد اللَّه (عليه السلام) عن الحلي عليه زكاة؟ قال: إنه ليس فيه زكاة و إن بلغ مائة ألف درهم، كان أبي يخالف الناس في هذا (الوسائل 6: 106- 107).

(1).

الوسائل 6: 186 عن أبي جعفر و أبي عبد اللَّه (عليهما السلام) قالا قال رسول اللَّه (صلى اللَّه عليه و آله و سلم): إن الصدقة أوساخ أيدي الناس و إن اللَّه قد حرّم علي منها و من غيرها ما قد حرّمه و ان الصدقة لا تحل لبني عبد المطلب.

أقول: و قد تعني الصدقة هنا غير الزكاة المفروضة، فتعني ما يتصدق به الناس إعطاء للفقراء، فهي محرمة على المعصومين ذودا عن كرامتهم.

و

فيه (360) عن الرضا (عليه السلام) في حديث الخمس المفصل: فلما جاءت قصة الصدقة نزه نفسه و رسوله و نزه أهل بيته فقال: إنما الصدقات .. فلما نزه نفسه عن الصدقة و نزه رسوله و نزه أهل بيته لا بل حرّم عليهم لأن الصدقة محرمة على محمد و آله و هي أوساخ أيدي الناس لا تحل لهم لأنهم طهروا من كل دنس و وسخ.

الفرقان في تفسير القرآن بالقرآن، ج‏13، ص: 189

في الأموال الزكوية! و لكنها أوسخ حيث الكفار الذين حصلوا عليها لم يطبقوا شرعة اللَّه في تحصيلها!.

أجل إنها قد لا تحل للرسول (صلى اللَّه عليه و آله و سلم) و الأئمة من آل الرسول (عليهم السلام) حرمة لمحتدهم و تعاليا عن افتقارهم إلى الناس، و كما

يروى عن أبي عبد اللَّه (عليه السلام) أنه قال: «أعطوا الزكاة من أرادها من بني هاشم فإنها تحل لهم و إنما حرم على النبي (صلى الله عليه و آله و سلم) و على الإمام الذي من بعده و على الأئمة (عليهم السلام)» «1».

و ليس مثل حرمة الزكاة على ذرية الرسول إلا كحرمة الخمس على ذريته من طريق الأم اعتبارا أنهم من الأدعياء، و ليس من الأدعياء إلا مختلق الرواية نفسها، المستدل فيها على حرمانهم بآية الأدعياء «2».

تذنيب فيه تقريب:

زكاة النقدين و هي 5/ 2 في المائة تعم كافة النقود على حسابهما لأنها الأصل في العملة.

\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_

(1). المصدر (187) محمد بن علي بن الحسين باسناده إلى أبي خديجة سالم بن مكرم الجمال عن أبي عبد اللَّه (عليه السلام). و

فيه (188) عن أبي عبد اللَّه (عليه السلام) أنه قال: لو حرمت علينا الصدقة لم يحل لنا أن نخرج إلى مكة لأن كل ماء بين مكة و المدينة فهو صدقة.

و

في محاسن البرقي 1: 14 عن عبد الرحمن بن عجلان قال: سألت أبا جعفر (عليه السلام) من قول اللَّه عزّ و جلّ: قل لا أسألكم عليه أجرا إلّا المودة في القربى، فقال: «هم الأئمة الذين لا يأكلون الصدقة و لا تحل لهم».

و من روات حديث حرمة الزكاة على الهاشميين هو علي بن الحسن الفضال و هو الراوي لحلها عليهم أيضا.

(2)

المصدر 6: (188) مرسل الكليني عن العبد الصالح في حديث طويل قال: و من كانت أمة من بني هاشم و أبوه من سائر قريش فإن الصدقات تحل له و ليس له من الخمس شي‏ء فإن اللَّه يقول: «ادْعُوهُمْ لِآبائِهِمْ»

أقول: هذه الآية تخص الأدعياء، فهل إن أولاد البنت من الأدعياء، إذا- و لا سمح اللَّه- الحسنان ليسا من أبناء الرسول (صلى اللَّه عليه و آله و سلم) بل هما من الأدعياء، لو كان الانتساب بالأم لا يعتبر نسبا!.

الفرقان في تفسير القرآن بالقرآن، ج‏13، ص: 190

و زكاة أموال التجارة هي زكاة النقدين بمقياسهما.

و زكاة الغلات و الفواكه هي 5/ 100 أو 10/ 100 حسب اختلاف السقي.

و زكاة سائر الحيوان ما أمكن قياسه على الأنعام الثلاث، و إلا ففي أسعارها، و هكذا السيارات و الباخرات و الطائرات و أشباهها.

ثم هذه الكسور هي الكسور المستقيمة لضريبة الزكوة، فإذا لم تف بالحاجات الهامة فأزيد منها و أزيد حتى العفو حيث‏ «يَسْئَلُونَكَ ما ذا يُنْفِقُونَ قُلِ الْعَفْوَ» و هو الزائد عن الحاجة المتعودة دون تبذير و لا إسراف، و لا تقتير و إجحاف، ف‏ «لا تَجْعَلْ يَدَكَ مَغْلُولَةً إِلى‏ عُنُقِكَ وَ لا تَبْسُطْها كُلَّ الْبَسْطِ فَتَقْعُدَ مَلُوماً مَحْسُوراً» (17: 29) «وَ الَّذِينَ إِذا أَنْفَقُوا لَمْ يُسْرِفُوا وَ لَمْ يَقْتُرُوا وَ كانَ بَيْنَ ذلِكَ قَواماً» (25: 67).

و الأوسط من هذه الطرق رد الخمس من كافة العوائد قبل المؤنة من تكفيه بهذا الرد مؤنة سنته، فيرد من كل عائدة خمسها في نفس الوقت دون انتظار لتمام سنته أم إنهاء مؤنته، ثم مؤنة سنة هي الغاية القصوى في الخمس و الزكوة، فإن أضرت بمن لا يملك أقل منه فإلى تقسيم كما يصح تسوية بين المحتاجين.

[سورة التوبة (9): الآيات 62 الى 73]

يَحْلِفُونَ بِاللَّهِ لَكُمْ لِيُرْضُوكُمْ وَ اللَّهُ وَ رَسُولُهُ أَحَقُّ أَنْ يُرْضُوهُ إِنْ كانُوا مُؤْمِنِينَ (62) أَ لَمْ يَعْلَمُوا أَنَّهُ مَنْ يُحادِدِ اللَّهَ وَ رَسُولَهُ فَأَنَّ لَهُ نارَ جَهَنَّمَ خالِداً فِيها ذلِكَ الْخِزْيُ الْعَظِيمُ (63) يَحْذَرُ الْمُنافِقُونَ أَنْ تُنَزَّلَ عَلَيْهِمْ سُورَةٌ تُنَبِّئُهُمْ بِما فِي قُلُوبِهِمْ قُلِ اسْتَهْزِؤُا إِنَّ اللَّهَ مُخْرِجٌ ما تَحْذَرُونَ (64) وَ لَئِنْ سَأَلْتَهُمْ لَيَقُولُنَّ إِنَّما كُنَّا نَخُوضُ وَ نَلْعَبُ قُلْ أَ بِاللَّهِ وَ آياتِهِ وَ رَسُولِهِ كُنْتُمْ تَسْتَهْزِؤُنَ (65) لا تَعْتَذِرُوا قَدْ كَفَرْتُمْ بَعْدَ إِيمانِكُمْ إِنْ نَعْفُ عَنْ طائِفَةٍ مِنْكُمْ نُعَذِّبْ طائِفَةً بِأَنَّهُمْ كانُوا مُجْرِمِينَ (66)

الْمُنافِقُونَ وَ الْمُنافِقاتُ بَعْضُهُمْ مِنْ بَعْضٍ يَأْمُرُونَ بِالْمُنْكَرِ وَ يَنْهَوْنَ عَنِ الْمَعْرُوفِ وَ يَقْبِضُونَ أَيْدِيَهُمْ نَسُوا اللَّهَ فَنَسِيَهُمْ إِنَّ الْمُنافِقِينَ هُمُ الْفاسِقُونَ (67) وَعَدَ اللَّهُ الْمُنافِقِينَ وَ الْمُنافِقاتِ وَ الْكُفَّارَ نارَ جَهَنَّمَ خالِدِينَ فِيها هِيَ حَسْبُهُمْ وَ لَعَنَهُمُ اللَّهُ وَ لَهُمْ عَذابٌ مُقِيمٌ (68) كَالَّذِينَ مِنْ قَبْلِكُمْ كانُوا أَشَدَّ مِنْكُمْ قُوَّةً وَ أَكْثَرَ أَمْوالاً وَ أَوْلاداً فَاسْتَمْتَعُوا بِخَلاقِهِمْ فَاسْتَمْتَعْتُمْ بِخَلاقِكُمْ كَمَا اسْتَمْتَعَ الَّذِينَ مِنْ قَبْلِكُمْ بِخَلاقِهِمْ وَ خُضْتُمْ كَالَّذِي خاضُوا أُولئِكَ حَبِطَتْ أَعْمالُهُمْ فِي الدُّنْيا وَ الْآخِرَةِ وَ أُولئِكَ هُمُ الْخاسِرُونَ (69) أَ لَمْ يَأْتِهِمْ نَبَأُ الَّذِينَ مِنْ قَبْلِهِمْ قَوْمِ نُوحٍ وَ عادٍ وَ ثَمُودَ وَ قَوْمِ إِبْراهِيمَ وَ أَصْحابِ مَدْيَنَ وَ الْمُؤْتَفِكاتِ أَتَتْهُمْ رُسُلُهُمْ بِالْبَيِّناتِ فَما كانَ اللَّهُ لِيَظْلِمَهُمْ وَ لكِنْ كانُوا أَنْفُسَهُمْ يَظْلِمُونَ (70) وَ الْمُؤْمِنُونَ وَ الْمُؤْمِناتُ بَعْضُهُمْ أَوْلِياءُ بَعْضٍ يَأْمُرُونَ بِالْمَعْرُوفِ وَ يَنْهَوْنَ عَنِ الْمُنْكَرِ وَ يُقِيمُونَ الصَّلاةَ وَ يُؤْتُونَ الزَّكاةَ وَ يُطِيعُونَ اللَّهَ وَ رَسُولَهُ أُولئِكَ سَيَرْحَمُهُمُ اللَّهُ إِنَّ اللَّهَ عَزِيزٌ حَكِيمٌ (71)

وَعَدَ اللَّهُ الْمُؤْمِنِينَ وَ الْمُؤْمِناتِ جَنَّاتٍ تَجْرِي مِنْ تَحْتِهَا الْأَنْهارُ خالِدِينَ فِيها وَ مَساكِنَ طَيِّبَةً فِي جَنَّاتِ عَدْنٍ وَ رِضْوانٌ مِنَ اللَّهِ أَكْبَرُ ذلِكَ هُوَ الْفَوْزُ الْعَظِيمُ (72) يا أَيُّهَا النَّبِيُّ جاهِدِ الْكُفَّارَ وَ الْمُنافِقِينَ وَ اغْلُظْ عَلَيْهِمْ وَ مَأْواهُمْ جَهَنَّمُ وَ بِئْسَ الْمَصِيرُ (73)

الفرقان في تفسير القرآن بالقرآن، ج‏13، ص: 193

وَ مِنْهُمُ الَّذِينَ يُؤْذُونَ النَّبِيَّ وَ يَقُولُونَ هُوَ أُذُنٌ قُلْ أُذُنُ خَيْرٍ لَكُمْ يُؤْمِنُ بِاللَّهِ وَ يُؤْمِنُ لِلْمُؤْمِنِينَ وَ رَحْمَةٌ لِلَّذِينَ آمَنُوا مِنْكُمْ وَ الَّذِينَ يُؤْذُونَ رَسُولَ اللَّهِ لَهُمْ عَذابٌ أَلِيمٌ (61).

هنا «و يقولون» المضارعة تعم كافة القيلات- منذ نزول هذه الآية حتى القيامة الكبرى- حول أنه «أذن» من أذن الوحي نكاية عليه أنه لا يصدر عن عقليته الإنسانية و لا سائر العقول، بل «هو أذن» فقط لوحي السماء؟.

و ذلك- رغم ما يزعم- ليس له إلّا فضيلة، حيث إن أذن الوحي لا يخطأ قصورا و لا تقصيرا، و سائر الأذن خاطئة تقصيرا أو قصورا.

ثم «هو أذن» صاغ لكلّ من يكلمه، فليس له رأي تصديقا أو تكذيبا، ف «هو أذن» مهانة و إهانة بساحة النبوة كأنه يتقبل ما يسمح دون تحرّ عن حق القول و باطله، و هكذا «أذن» شر حيث يجتمع في تقبل صاحبه شرا إلى خير، و المتضادات بل و المتناقضات، و الجواب كلمة واحدة «قُلْ أُذُنُ خَيْرٍ لَكُمْ» عاقلا فيما يسمع، عادلا فيما يقبل أم يرد، و هو في كونه‏ «أُذُنُ خَيْرٍ لَكُمْ يُؤْمِنُ بِاللَّهِ» فلا يسمع إلا بإذن اللَّه على ضوء الإيمان باللَّه، أو يسلب أو يوجب ما يسمعه إلّا بإذن اللَّه، فهو اذن الوحي اللَّه و لكلام الناس، و أين أذن من أذن؟ «وَ يُؤْمِنُ لِلْمُؤْمِنِينَ» باللَّه.

و ترى ذلك‏ «يُؤْمِنُ بِاللَّهِ» كافيا عما سواه من إيمان، فما هو دور «وَ يُؤْمِنُ لِلْمُؤْمِنِينَ» «يؤمن له» هو إيمان لصالح من يؤمن له، إيمانا باللَّه لصالح المؤمنين، و أنه يؤمن المؤمنين عن كل بأس و بؤس و خوف، فهو- إذا- للمؤمنين حيث يجعلهم في أمنه لما يسمع منهم قضية إيمانهم فيما يقولون، و عناية أخرى هي تصديقة المؤمنين ك‏ «ما أَنْتَ بِمُؤْمِنٍ لَنا» «فَما

الفرقان في تفسير القرآن بالقرآن، ج‏13، ص: 194

آمَنَ لِمُوسى‏ إِلَّا ذُرِّيَّةٌ مِنْ قَوْمِهِ» «أَ نُؤْمِنُ لَكَ وَ اتَّبَعَكَ الْأَرْذَلُونَ» «آمَنْتُمْ لَهُ قَبْلَ أَنْ آذَنَ لَكُمْ» ثم «و رحمة» ككل، بأذنه و لسانه و كل أحواله و أعماله‏ «لِلَّذِينَ آمَنُوا مِنْكُمْ» أيها المنافقون، فهو «أُذُنُ خَيْرٍ» للمؤمنين باللَّه، و «أذن خير للذين آمنوا منكم» باللَّه ف «يؤمن. يؤمن. رحمة» هي من أدلة أنه‏ «أُذُنُ خَيْرٍ لَكُمْ» حيث المؤمن باللَّه و المؤمن للمؤمنين و رحمة لهم، هو بطبيعة الحال‏ «أُذُنُ خَيْرٍ لَكُمْ».

و لأن المفعول به في‏ «يُؤْمِنُ لِلْمُؤْمِنِينَ» محذوف، فقد يعني فيما يعنيه يؤمن المنافقين أن يجعلهم في أمن من صراح التكذيب لصالح المؤمنين، حتى يقفوا عند حدهم، تخفيفا عن جزرهم و مدهم، أو يؤمنوا كما آمن هؤلاء، إذا ف‏ «يُؤْمِنُ بِاللَّهِ» أن يجعل نفسه في أمن باللَّه، و يؤمن للمؤمنين، أن يجعل أذنه صاغيا طليقا لصالح المؤمنين، صغيا لأقوالهم الصادقة فهو لصالحهم، و صغيا لأقوال المنافقين الكاذبة، و هو أيضا لصالحهم، حيث القسوة في المواجهة ترجع بالضرر عليهم، ثم في تصليحه غير الصالح من أقاويل المؤمنين و سواهم‏ «يُؤْمِنُ لِلْمُؤْمِنِينَ» أمنا للمتكلم بإجابة صالحة لصالح المؤمنين، و قد يعني‏ «يُؤْمِنُ بِاللَّهِ» إضافة إلى إيمانه نفسه باللَّه، إيمان الأمة أن يجعلهم في أمن باللَّه، ثم «و يؤمن» جو الحياة «للمؤمنين» بذلك الإيمان المزدوج باللَّه، مع جعل المنافقين أيضا في أمن دون قسوة زائدة، لصالح المؤمنين، إلا إذا لزم الأمر أن يقسوا معهم.

ثم‏ «وَ الَّذِينَ يُؤْذُونَ رَسُولَ اللَّهِ» بقولهم «هو اذن» و ما أشبه‏ «لَهُمْ عَذابٌ أَلِيمٌ» في الدنيا و الآخرة.

و هكذا يكون داعية الحق أنه يسمع إلى كل قائل صادق فيصدقه أم كاذب فيرشده دونما غلظة كيلا يفلت، فيخيّل إلى البسطاء أنه مصدق كلما يسمعه‏ «1».

\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_

(1). الدر المنثور 3: 253 عن ابن عباس في الآية يعني انه يسمع كل أحد قال اللَّه عزّ و جل:

«قُلْ أُذُنُ خَيْرٍ لَكُمْ ..».

و

في نور الثقلين 2: 236 عن تفسير القمي‏ كان سبب نزولها أن عبد اللَّه بن نفيل كان منافقا

الفرقان في تفسير القرآن بالقرآن، ج‏13، ص: 195

فمن الناس من لا يسمع إلى أي قائل فلا يهتدي به ضال، أو يسمع إلى أي قائل فيه خلط للحق بالباطل، و هذان هما أذنا شر، و أما الداعية الرسالية فهو «أذن خير» ليس في سماعه إلى كل أحد إلّا خير، فإن كان حقا يصدفه و يزيده، و إن كان باطلا يرشده.

أجل انه (صلى اللَّه عليه و آله و سلم) أذن صاغ طليق لمثل الإمام علي أمير المؤمنين (عليه السلام) إذ لا يقول إلا حقا مستحقا للإصغاء و لذلك أيضا سموه أذنا إزراء بساحته و مسا بكرامته، فقد ذكر (صلى اللَّه عليه و آله و سلم) عليا و ما أوصى اللَّه فيه و ذكر المنافقين و الآثمين و المستهزئين بالإسلام و كثرة أذاهم لي حتى سموني أذنا و زعموا أني كذلك‏

\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_

و كان يقعد إلى رسول اللَّه (صلى اللَّه عليه و آله و سلم) فيسمع كلامه و ينقله إلى المنافقين و ينّم عليه فنزل جبرئيل (عليه السلام) على رسول اللَّه (صلى اللَّه عليه و آله و سلم) فقال يا رسول اللَّه أن رجلا ينم عليك و ينقل حديثك إلى المنافقين فقال رسول اللَّه (صلى اللَّه عليه و آله و سلم): من هو؟ فقال: الرجل الأسود الكثير شعر الرأس ينظر بعينين كأنهما قدران و ينطق بلسان الشيطان فدعاه رسول اللَّه (صلى اللَّه عليه و آله و سلم) فأخبره ف حلف اللَّه انه لم يفعل فقال رسول اللَّه (صلى اللَّه عليه و آله و سلم) قد قبلت ذلك منك فلا تقعد فرجع إلى أصحابه فقال: إن محمدا اذن أخبره اللَّه أني أنم عليه و أنقل أخباره فقبل و أخبرته أني لم أفعل ذلك فقبل فأنزل اللَّه على نبيه‏ «وَ مِنْهُمُ الَّذِينَ يُؤْذُونَ النَّبِيَّ ..» أي يصدق اللَّه فيما يقول له و يصدقك فيما تعتذر إليه في الظاهر و لا يصدقك في الباطن‏

أقول: دليلا على عدم تصديقه في الباطن ظاهر قوله (صلى اللَّه عليه و آله و سلم) له:

«فلا تقعد» فلو كان تصديقا له في براءته لم يكن إذا دور ل «لا تقعد» فهذا إذا تكذيب بلسان التصديق لكيلا ينفضوا من حوله.

و

في تفسير الفخر الرازي 16: 116 روى الأصم‏ أن رجلا منهم قال لقومه: إن كان ما يقول محمد حقا فنحن شر من الحمير فسمعها ابن امرأته فقال: و اللَّه أنه لحق و إنك أشر من حمارك، ثم بلغ النبي (صلى اللَّه عليه و آله و سلم) ذلك فقال بعضهم: إنما محمد اذن و لو لقيته و حلفت له ليصدقنك فنزلت الآية على وفق قوله فقال القائل يا رسول اللَّه (صلى اللَّه عليه و آله و سلم): لم أسلم قط قبل اليوم و إن هذا الغلام لعظيم الثمن على و اللَّه لأشكرنه ثم قال الأصم: أظهر اللَّه تعالى عن المنافقين وجوه كفرهم التي كانوا يرونها لتكون حجة للرسول و لينزجروا.

الفرقان في تفسير القرآن بالقرآن، ج‏13، ص: 196

لكثرة ملازمته إياي و إقبالي عليه حتى أنزل اللَّه‏ «1».

ذلك، فأذن شر أو خليط بينه و بين خير خارج عن مثلث الإيمانين و رحمة، فعلى الدعاة إلى اللَّه أن يكونوا «أُذُنُ خَيْرٍ» حتى للمنافقين و الكافرين، أن يصغوا إليهم لصالحهم المرام عند اللَّه، فكما على الطبيب أن يسمع إلى المريض ليعرف علته، و إلى الصحيح ليعرف صحته، فيصلح المريض إلى الصحيح، كذلك و بأحرى «طبيب دوار بطبه» عليه أن يكون‏ «أُذُنُ خَيْرٍ» صاغيا صغي خير للمؤمنين، و رحمة للذين آمنوا و هدى للآخرين.

أجل، إنه أذن طليق لوحي اللَّه ليبلغه إلى الناس، و أذن يستمع إلى المؤمنين ليرشدهم إلى الأصلح في حالهم، و أذن يستمع إلى المتحرّين عن الحق ليوصلهم إليه، و أذن للآخرين علّه يردهم عن الردى و يهديهم إلى سبيل الرشاد و الهدى.

فليس‏ «هُوَ أُذُنٌ» سمعا لكل قول تصديقا دون تفطن إلى غش القول و زوره و غروره.

ذلك، و قد تعني‏ «أُذُنُ خَيْرٍ» كلا وجهي إضافة الموصوف إلى صفته و سواها، فعلى الأولى هو خير أذن، و على الأخرى أذن لخير لكم و ليس أذنا لشر لكم، و الفرق بينهما أن الأولى تعني خير الأذن و إن سمع كذبا، و الثانية أذنا لخير فلا يسمع كذبا، و الجمع أجمع و أجمل.

و قد تلمح‏ «وَ يُؤْمِنُ لِلْمُؤْمِنِينَ» أن صغي قول هو لصالح المؤمنين محبور دون محظور، مهما كان اغتيابا، و كما استثني في نصح المستشير و ما

\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_

(1).

نور الثقلين 2: 236 في كتاب الإحتجاج للطبرسي باسناده إلى محمد بن علي الباقر عن النبي (صلى اللَّه عليه و آله و سلم) حديث طويل يقول فيه‏ و قد ذكر عليا (عليه السلام) ... حتى أنزل اللَّه ... على الذين يزعمون أني أذن و لو شئت أن أسمي بأسمائهم لسميت و ان أومي إليهم بأعيانهم لأومأت و أن أدل عليهم لدللت و لكني و اللَّه في أمورهم قد تكرمت.

الفرقان في تفسير القرآن بالقرآن، ج‏13، ص: 197

أشبه، و هكذا يصدق المروي عن باقر العلوم (عليه السلام) «1» فالصاغي قولا لصالح المؤمنين أو الأصلح لهم محبور مهما كان القول اغتيابا أو اعتيابا، و الصاغي لطالحهم محظور مهما كان القول صادقا.

يَحْلِفُونَ بِاللَّهِ لَكُمْ لِيُرْضُوكُمْ وَ اللَّهُ وَ رَسُولُهُ أَحَقُّ أَنْ يُرْضُوهُ إِنْ كانُوا مُؤْمِنِينَ (62).

«.. ليرضوكم» تصديقا لهم أنهم موافقون و ليسوا بمنافقين‏ «2» «و اللَّه» أصالة «و رسوله» رسالة «أَحَقُّ أَنْ يُرْضُوهُ» هو، حيث الرسول لا يستقل أمامه و بجنبه، فلذلك يصح إفراد الضمير رغم عديد المرجع‏ «إِنْ كانُوا مُؤْمِنِينَ» باللَّه كما يدعون، فليصلحوا فيما بينهم و بين اللَّه يصلح اللَّه بينهم و بين الناس.

و هنا «أحق» تفضيلا هو في موقف المجازاة، أن لو كان لغير اللَّه حق أمام اللَّه فهو أحق، أم على الحقيقة إذ للمؤمنين حق لإيمانهم باللَّه، و لكن اللَّه أحق أن ترضوه لأنه محور الحق و الإيمان، فما ذا يكون الناس- و إن كانوا مؤمنين- أمام اللَّه، و لكن الذي لا يؤمن باللَّه و لا يعفو له، هو

\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_

(1). كما

في تفسير العياشي عن حماد بن سنان عن أبي عبد اللَّه (عليه السلام) قال: إني أردت أن أستبضع فلانا بضاعة إلى اليمن فأتيت إلى أبي جعفر (عليه السلام) فقلت له:

إني أريد أن أستبضع فلانا فقال لي: أما علمت أنه يشرب الخمر؟ فقلت: قد بلغني من المؤمنين أنهم يقولون ذلك فقال صدقهم أن اللَّه عزّ و جلّ يقول: «يُؤْمِنُ بِاللَّهِ وَ يُؤْمِنُ لِلْمُؤْمِنِينَ» فقال: يعني يصدق اللَّه و يصدق المؤمنين لأنه كان رؤوفا رحيما بالمؤمنين.

(2)

الدر المنثور 3: 253- أخرج ابن المنذر و ابن أبي حاتم عن قتادة قال: ذكر لنا أن رجلا من المنافقين قال: و اللَّه ان هؤلاء لخيارنا و أشرافنا و إن كان ما يقول محمد حقا لهم شر من الخمر فسمعها رجل من المسلمين فقال: و اللَّه أن ما يقول محمد لحق و لأنت شر من الحمار فسعى بها الرجل إلى نبي اللَّه (صلى اللَّه عليه و آله و سلم) فأخبره فأرسل إلى الرجل فدعاه فقال: ما حملك على الذين قلت؟ فجعل يلتعن و يحلف باللَّه ما قال ذلك و جعل الرجل المسلم يقول: اللّهم صدق الصادق و كذب الكاذب فانزل اللَّه تعالى في ذلك: «يَحْلِفُونَ بِاللَّهِ لَكُمْ لِيُرْضُوكُمْ ..» و فيه عن السدي مثله‏

و سمى الرجل المسلم:

عامر بن قيس من الأنصار.

الفرقان في تفسير القرآن بالقرآن، ج‏13، ص: 198

بطبيعة الحال تختص عنايته بالناس، و قضية الإيمان باللَّه هي التوحيد في الرضاءه كعبادته و طاعته، فإن مرضات الناس لا تحقق، لاختلافهم فيها بمناقضات و مضادات، و مرضات اللَّه موحّدة في عبادته و طاعته دون سواه، فالعقل يحكم و لا سيما على ضوء الإيمان باللَّه أن توحّد مرضات اللَّه دون عناية لمرضات من سواه أيا كان، إلّا من هو مرضاته مرضات اللَّه و مشيته مشية اللَّه‏ «وَ ما تَشاؤُنَ إِلَّا أَنْ يَشاءَ اللَّهُ» فقد تطلب مرضاتهم على هامش مرضات اللَّه، و لأنها أيضا من مرضات اللَّه كما و «إِنْ كُنْتُمْ تُحِبُّونَ اللَّهَ فَاتَّبِعُونِي يُحْبِبْكُمُ اللَّهُ».

فمحاولة إرضاء الناس خبل و جنة إذ إن مرضات الناس مختلفة أو متناقضة، و لو حصلت على مرضاتهم جميعا فليس لك إلا رضاهم جميعا ثم محاولة إرضاء اللَّه هي عقل و رحمة، فإن مرضاته واحدة غير متفرقة، إذا فالعقل يحكم كما الشرع أن نحاول في تحصيل إرضاء اللَّه، رضي ناس أم سخطوا، و لو أسخطت بمرضاة اللَّه كل الناس لم يضروك شيئا، و إن أسخطت اللَّه بمرضات من الناس فهو كل الضرر.

فالأصل في الحياة العاقلة الإيمانية تحصيل مرضات اللَّه بتطبيق شرعته بلسان رسوله في وحي الكتاب و السنة ف‏ «اللَّهُ وَ رَسُولُهُ أَحَقُّ أَنْ يُرْضُوهُ» يفرد فيها الضمير لإفراد الرضا للَّه وحده، حيث الرسول ليس يستقل أمام اللَّه حتى يستغل مرضاته أمامه.

و كيف نحصل على مرضات اللَّه؟.

أن نكون من الصادقين: «قالَ اللَّهُ هذا يَوْمُ يَنْفَعُ الصَّادِقِينَ صِدْقُهُمْ لَهُمْ جَنَّاتٌ تَجْرِي مِنْ تَحْتِهَا الْأَنْهارُ خالِدِينَ فِيها أَبَداً رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمْ وَ رَضُوا عَنْهُ ذلِكَ الْفَوْزُ الْعَظِيمُ» (5: 119).

و من السابقين بإحسان: «وَ السَّابِقُونَ الْأَوَّلُونَ مِنَ الْمُهاجِرِينَ وَ الْأَنْصارِ وَ الَّذِينَ اتَّبَعُوهُمْ بِإِحْسانٍ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمْ وَ رَضُوا عَنْهُ وَ أَعَدَّ لَهُمْ جَنَّاتٍ تَجْرِي تَحْتَهَا الْأَنْهارُ خالِدِينَ فِيها أَبَداً ذلِكَ الْفَوْزُ الْعَظِيمُ» (9: 100).

الفرقان في تفسير القرآن بالقرآن، ج‏13، ص: 199

و المبايعين الرسول شرط عدم النقض: «لَقَدْ رَضِيَ اللَّهُ عَنِ الْمُؤْمِنِينَ إِذْ يُبايِعُونَكَ تَحْتَ الشَّجَرَةِ فَعَلِمَ ما فِي قُلُوبِهِمْ فَأَنْزَلَ السَّكِينَةَ عَلَيْهِمْ وَ أَثابَهُمْ فَتْحاً قَرِيباً ..» (48: 18).

و ألّا يوادّوا من حاد اللَّه و رسوله: «.. أُولئِكَ كَتَبَ فِي قُلُوبِهِمُ الْإِيمانَ وَ أَيَّدَهُمْ بِرُوحٍ مِنْهُ وَ يُدْخِلُهُمْ جَنَّاتٍ تَجْرِي مِنْ تَحْتِهَا الْأَنْهارُ خالِدِينَ فِيها رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمْ وَ رَضُوا عَنْهُ أُولئِكَ حِزْبُ اللَّهِ أَلا إِنَّ حِزْبَ اللَّهِ هُمُ الْمُفْلِحُونَ» (58: 22).

ذلك‏ «وَ الَّذِينَ يُؤْذُونَ رَسُولَ اللَّهِ لَهُمْ عَذابٌ أَلِيمٌ» ضابطة ثابتة إلى يوم الدين، و

قد تواتر عن النبي (صلى اللَّه عليه و آله و سلم) قوله في أهل بيته المعصومين (عليهم السلام): «من آذاني في عترتي فعليه لعنة الله» «1»

«اشتد غضب الله على من آذاني في عترتي» «2»

«حرمت الجنة على من ظلم أهل بيتي و آذاني في عترتي» «3»

«من آذى أحدا من أهل بيتي قطع ما بيني و بينه» «4»

و بخصوص علي (عليه السلام):

«من آذى هذا فقد آذاني و من آذاني فقد آذى الله» «5»

«من آذى عليا بعث يوم القيامة يهوديا أو نصرانيا» «6»

«من آذى عليا فقد آذاني» «7»

و بخصوص فاطمة سلام اللَّه عليها

«من آذاها فقد آذاني» «8»

«يؤذيني ما آذاها» «9».

و «إِنَّ الَّذِينَ آمَنُوا وَ عَمِلُوا الصَّالِحاتِ أُولئِكَ هُمْ خَيْرُ الْبَرِيَّةِ. جَزاؤُهُمْ عِنْدَ رَبِّهِمْ جَنَّاتُ عَدْنٍ تَجْرِي مِنْ تَحْتِهَا الْأَنْهارُ خالِدِينَ فِيها أَبَداً رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمْ وَ رَضُوا عَنْهُ ذلِكَ لِمَنْ خَشِيَ رَبَّهُ» (98: 8).

و النفوس المطمئنة باللَّه:

\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_

(1) هذه على الترتيب تجدها في ملحقات إحقاق الحق 18: 458- 18: 439- 440، 544 و 9: 518، 520- 18: 461- 5: 73- 11: 47- 48 و 19: 317- 2334 و 6: 390 و 7: 384 و 461 و 5- 6: 380- 394 و 16: 588- 599 و 21: 537- 543- 10: 187- 199، 209- 211- 19: 83- 84. أخرج في هذه‏المجلدات متواتر الروآيات حول هذه المضامين عن رسول الله (صلى الله عليه و آله و سلم).

(2) هذه على الترتيب تجدها في ملحقات إحقاق الحق 18: 458- 18: 439- 440، 544 و 9: 518، 520- 18: 461- 5: 73- 11: 47- 48 و 19: 317- 2334 و 6: 390 و 7: 384 و 461 و 5- 6: 380- 394 و 16: 588- 599 و 21: 537- 543- 10: 187- 199، 209- 211- 19: 83- 84. أخرج في هذه‏المجلدات متواتر الروآيات حول هذه المضامين عن رسول الله (صلى الله عليه و آله و سلم).

(3) هذه على الترتيب تجدها في ملحقات إحقاق الحق 18: 458- 18: 439- 440، 544 و 9: 518، 520- 18: 461- 5: 73- 11: 47- 48 و 19: 317- 2334 و 6: 390 و 7: 384 و 461 و 5- 6: 380- 394 و 16: 588- 599 و 21: 537- 543- 10: 187- 199، 209- 211- 19: 83- 84. أخرج في هذه‏المجلدات متواتر الروآيات حول هذه المضامين عن رسول الله (صلى الله عليه و آله و سلم).

(4) هذه على الترتيب تجدها في ملحقات إحقاق الحق 18: 458- 18: 439- 440، 544 و 9: 518، 520- 18: 461- 5: 73- 11: 47- 48 و 19: 317- 2334 و 6: 390 و 7: 384 و 461 و 5- 6: 380- 394 و 16: 588- 599 و 21: 537- 543- 10: 187- 199، 209- 211- 19: 83- 84. أخرج في هذه‏المجلدات متواتر الروآيات حول هذه المضامين عن رسول الله (صلى الله عليه و آله و سلم).

(5) هذه على الترتيب تجدها في ملحقات إحقاق الحق 18: 458- 18: 439- 440، 544 و 9: 518، 520- 18: 461- 5: 73- 11: 47- 48 و 19: 317- 2334 و 6: 390 و 7: 384 و 461 و 5- 6: 380- 394 و 16: 588- 599 و 21: 537- 543- 10: 187- 199، 209- 211- 19: 83- 84. أخرج في هذه‏المجلدات متواتر الروآيات حول هذه المضامين عن رسول الله (صلى الله عليه و آله و سلم).

(6) هذه على الترتيب تجدها في ملحقات إحقاق الحق 18: 458- 18: 439- 440، 544 و 9: 518، 520- 18: 461- 5: 73- 11: 47- 48 و 19: 317- 2334 و 6: 390 و 7: 384 و 461 و 5- 6: 380- 394 و 16: 588- 599 و 21: 537- 543- 10: 187- 199، 209- 211- 19: 83- 84. أخرج في هذه‏المجلدات متواتر الروآيات حول هذه المضامين عن رسول الله (صلى الله عليه و آله و سلم).

(7) هذه على الترتيب تجدها في ملحقات إحقاق الحق 18: 458- 18: 439- 440، 544 و 9: 518، 520- 18: 461- 5: 73- 11: 47- 48 و 19: 317- 2334 و 6: 390 و 7: 384 و 461 و 5- 6: 380- 394 و 16: 588- 599 و 21: 537- 543- 10: 187- 199، 209- 211- 19: 83- 84. أخرج في هذه‏المجلدات متواتر الروآيات حول هذه المضامين عن رسول الله (صلى الله عليه و آله و سلم).

(8) هذه على الترتيب تجدها في ملحقات إحقاق الحق 18: 458- 18: 439- 440، 544 و 9: 518، 520- 18: 461- 5: 73- 11: 47- 48 و 19: 317- 2334 و 6: 390 و 7: 384 و 461 و 5- 6: 380- 394 و 16: 588- 599 و 21: 537- 543- 10: 187- 199، 209- 211- 19: 83- 84. أخرج في هذه‏المجلدات متواتر الروآيات حول هذه المضامين عن رسول الله (صلى الله عليه و آله و سلم).

(9) هذه على الترتيب تجدها في ملحقات إحقاق الحق 18: 458- 18: 439- 440، 544 و 9: 518، 520- 18: 461- 5: 73- 11: 47- 48 و 19: 317- 2334 و 6: 390 و 7: 384 و 461 و 5- 6: 380- 394 و 16: 588- 599 و 21: 537- 543- 10: 187- 199، 209- 211- 19: 83- 84. أخرج في هذه‏المجلدات متواتر الروآيات حول هذه المضامين عن رسول الله (صلى الله عليه و آله و سلم).

الفرقان في تفسير القرآن بالقرآن، ج‏13، ص: 200

«يا أَيَّتُهَا النَّفْسُ الْمُطْمَئِنَّةُ ارْجِعِي إِلى‏ رَبِّكِ راضِيَةً مَرْضِيَّةً فَادْخُلِي فِي عِبادِي وَ ادْخُلِي جَنَّتِي» (89: 28).

فالمؤمنون العاملون الصالحات الصادقون السابقون في الإيمان، المبايعون الرسول، الذين يخشون ربهم فهم من حزب اللَّه، و لا يوادون من حاد اللَّه و رسوله و لو كانوا آباءهم أو إخوانهم أو عشيرتهم، و لهم نفوس مطمئنة باللَّه، أولئك الذين رضي اللَّه عنهم و رضوا عنه.

و هذه درجات سبع تغلق على دركات سبع من جحيم التخلفات عن مرضات اللَّه.

أَ لَمْ يَعْلَمُوا أَنَّهُ مَنْ يُحادِدِ اللَّهَ وَ رَسُولَهُ فَأَنَّ لَهُ نارَ جَهَنَّمَ خالِداً فِيها ذلِكَ الْخِزْيُ الْعَظِيمُ (63).

محادة اللَّه هي اعتباره في حد دون حدودهم، في كل قضايا الربوبية أم بعضها، و كأنهم آلهة من دون اللَّه، و إن في قضية واحدة من قضايا الربوبية، كطليق العبودية و الطاعة، فهم ممن‏ «اتَّخَذَ إِلهَهُ هَواهُ» «وَ قالَ اللَّهُ لا تَتَّخِذُوا إِلهَيْنِ اثْنَيْنِ»!.

و محادة الرسول هي اعتباره في حد دون حدودهم، و كأنهم يوحي إليهم كما هو، فلا عليهم أن يتبعوه‏ «مَنْ يُطِعِ الرَّسُولَ فَقَدْ أَطاعَ اللَّهَ»!.

و لأن المحادة تحديد من ناحية فاعلها المحاد، ثم اللَّه ليس ليحاد، فقد تعني أن هؤلاء يجعلون للَّه حدا كما اللَّه جاعل لهم حدا، و ليس للَّه حد في ألوهيته أو ربوبيته و عبادته و طاعته، إذا فالمحادة تعني في مغزاها التفوق على اللَّه تعالى في قرار حد من ناحية العبد كأنه إله للَّه، يملك اللَّه أن يحد له ربوبيته، و من ذلك محادته بحد الخلق كوحدة حقيقة الوجود و ما أشبه!.

و المحادة الإلهية و الرسولية، و من ثم الرسالية، تعني استقلالا بجنب اللَّه و رسله و رسالاته، فاستغلالا لطائشة الأهواء بحريتها الطليقة، و إذا «فَأَنَّ لَهُ نارَ جَهَنَّمَ» فإنه بنفسه جهنم هنا، ثم في الأخرى يؤجج بنيرانها «خالِداً فِيها ذلِكَ الْخِزْيُ الْعَظِيمُ».

أجل و «إِنَّ الَّذِينَ يُحَادُّونَ اللَّهَ وَ رَسُولَهُ كُبِتُوا كَما كُبِتَ الَّذِينَ مِن‏

الفرقان في تفسير القرآن بالقرآن، ج‏13، ص: 201

قَبْلِهِمْ» (58: 5) «إِنَّ الَّذِينَ يُحَادُّونَ اللَّهَ وَ رَسُولَهُ أُولئِكَ فِي الْأَذَلِّينَ» (58: 20).

فحين تعني المحادة- مفاعلة- أنهم يحاولون أن يجعلوا للَّه حدا في الألوهية و الربوبية، و للرسول حدا في الرسالة كما يشتهون، بديلا عما يجعل اللَّه لهم حدا على أية حال، و يجعل لهم الرسول حدا في رسالته- حدا بحد- فهم من أنحس مصاديق‏ «وَ مِنَ النَّاسِ مَنْ يَعْبُدُ اللَّهَ عَلى‏ حَرْفٍ فَإِنْ أَصابَهُ خَيْرٌ اطْمَأَنَّ بِهِ وَ إِنْ أَصابَتْهُ فِتْنَةٌ انْقَلَبَ عَلى‏ وَجْهِهِ ..» (22:) 11).

متاجرة مهاترة بينهم و بين اللَّه و رسوله و كأنهم إلهة للَّه كما اللَّه إلههم، و أنهم رسل إلى الرسول كما الرسول رسول إليهم، أخذا للعصا من البين و جعلا للبلد شطرين!.

فمن هو العبد حتى يحاد اللَّه و رسوله أو يشاقق اللَّه و رسوله، تنزيلا لساحة الربوبية و الرسالة و ترفيعا لقاعة العبودية.

يَحْذَرُ الْمُنافِقُونَ أَنْ تُنَزَّلَ عَلَيْهِمْ سُورَةٌ تُنَبِّئُهُمْ بِما فِي قُلُوبِهِمْ قُلِ اسْتَهْزِؤُا إِنَّ اللَّهَ مُخْرِجٌ ما تَحْذَرُونَ (64).

«سورة» هنا تعني إلى سورة المنافقين الخاصة بفضحهم، هذه السورة التي ثلثا آياتها أم تزيد نازلة بشأنهم الشائن، فقد جربوا خلال أعمالهم المنافقة أن اللَّه ليس ليذرهم يفتنون المؤمنين عن دينهم، و هكذا سائر السور التي تتحدث عنهم في آيات، و قد تشمل «سورة» جموع آيات سواء أ كانت سورة مصطلحة أم أية سورة هي من السور المحيط بما يحيط، فإن آيات المنافقين بارزة الدلالة، ظاهرة المدلول، مهما تفرقت بين سائر الآيات، فضلا عما اجتمعت كما هنا في ثمان و أربعين آية «1»

\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_

(1). و هي الآيات التالية التي تخصهم 38- 44- الى- 50- 52- إلى- 54- 56- 58- 61- إلى- 69- 73- 74- 76- 77- 79- 80- إلى- 87- 90- 93- إلى- 96- 101- 107- إلى- 110- 125- 126- 127.

الفرقان في تفسير القرآن بالقرآن، ج‏13، ص: 202

تتوارد على فضحهم بما يقولون، أو ما ينوون و ما يفعلون و ما يضمرون من عداء عارم ضد المؤمنين، و لقد سميت التوبة البراءة- فيما سميت- ب «الفاضحة» حيث تحمل فضحهم أكثر من كل سورة في القرآن، فلذلك لا حرج هنا و لا حذر على المؤمنين، فليكيدوا هم كيدهم و يميدوا ميدهم، ف‏ «قُلِ اسْتَهْزِؤُا إِنَّ اللَّهَ مُخْرِجٌ ما تَحْذَرُونَ» «1».

ثم‏ «سُورَةٌ تُنَبِّئُهُمْ» لا تعني التي تختص بهم، و إنما ما تحمل فضحهم بكثير أو قليل، إذا فكل السورة التي تتحدث عنهم هي معنية ب‏ «سُورَةٌ تُنَبِّئُهُمْ».

و هنا «عليهم» لا تعني نزول سورة وحيا إليهم، و إنما تعني «على» فضحا و إضرارا بهم، و لقد جربوا أن اللَّه ليس ليخفي على رسوله مكائدهم الظاهرة بينهم ضد المؤمنين، و المبطنة عندهم، فالرسول (صلى اللَّه عليه و آله و سلم) هو نفسه يعرفهم في لحن القول: «وَ لَوْ نَشاءُ لَأَرَيْناكَهُمْ فَلَعَرَفْتَهُمْ بِسِيماهُمْ وَ لَتَعْرِفَنَّهُمْ فِي لَحْنِ الْقَوْلِ وَ اللَّهُ يَعْلَمُ أَعْمالَكُمْ» (47:) 30).

ذلك، فلا يرد على الآية ما خيّل إلى ناس بسطاء أم شياطين أن كيف‏ «يَحْذَرُ الْمُنافِقُونَ» و هم لا يؤمنون بالوحي فضلا «أَنْ تُنَزَّلَ عَلَيْهِمْ سُورَةٌ» و هي لا تنزل إلّا على رسول الوحي؟.

هذا لأنهم‏ «جَحَدُوا بِها وَ اسْتَيْقَنَتْها أَنْفُسُهُمْ ظُلْماً وَ عُلُوًّا» فهم على‏

\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_

(1).

نور الثقلين 2: 236 عن تفسير القمي في الآية قال: كان قوم من المنافقين لما خرج رسول اللَّه (صلى اللَّه عليه و آله و سلم) إلى تبوك يتحدثون فيما بينهم و يقولون: أ يرى محمد أن حرب الروم مثل حرب غيرهم لا يرجع منهم أحد أبدا، فقال بعضهم: ما أخلفه أن يخبر اللَّه محمدا بما كنا فيه و بما في قلوبنا و ينزل عليه قرآنا يقرأه الناس و قالوا هذا على حد الاستهزاء فقال رسول اللَّه (صلى اللَّه عليه و آله و سلم) لعمار بن ياسر:

ألحق القوم فإنهم قد احترقوا فلحقهم عمار فقال: ما قلتم؟ قالوا: ما قلنا شيئا إنما كنا نقول شيئا على حد اللعب و المزاح فأنزل اللَّه‏ «وَ لَئِنْ سَأَلْتَهُمْ لَيَقُولُنَّ إِنَّما كُنَّا نَخُوضُ وَ نَلْعَبُ قُلْ أَ بِاللَّهِ وَ آياتِهِ وَ رَسُولِهِ كُنْتُمْ تَسْتَهْزِؤُنَ».

الفرقان في تفسير القرآن بالقرآن، ج‏13، ص: 203

استيقانهم بحق الوحي يجحدونه ظالمين، و اللَّه يخبر عن طويتهم أنهم يحذرون بما هم يعرفون الوحي و ما هم مجربون، حيث تكرر إنباءات اللَّه و رسوله و المؤمنين عن نياتهم و طوياتهم، و عن قالاتهم سابقة و لا حقة.

و هنا «اللَّهَ مُخْرِجٌ ما تَحْذَرُونَ» يعني إخراجه عن مخبئه، فإخراجا لمخبئه، و الأمر الظاهر الذي يمكن الحصول عليه بتجسس و تحسس ليس ليخرج، إنما يخرج المكتوم غير المعلوم، و لقد بلغ من حذرهم أن تنزل عليهم سورة تنبئهم أنهم‏ «يَحْسَبُونَ كُلَّ صَيْحَةٍ عَلَيْهِمْ» (63: 4).

ذلك، ثم الحذر لا يلازم العلم بالمحذور المحظور، فقد يكفيه مجرد احتمال، فهب إن هؤلاء المنافقين لم يكونوا على يقين بصدق الوحي، و لكن احتماله على أية حال وارد، إذ لا يملكون برهانا على كذبه، و ساطعة البراهين على صدقه ظاهرة باهرة.

و قد يحتمل إضافة إلى ما قدمناه أن ضمير الجمع الغائب في «عليهم- تنبئهم» راجع إلى المؤمنين و في «قلوبهم» إليهم أنفسهم، و الأول أرجح و الجمع أنجح.

و من ناحية أخرى في «عليهم» قد يوجه بأنهم عائشون خلال المؤمنين، فالآيات التي تعنيهم كأنها منزلة عليهم، و قد يقربه‏ «وَ اذْكُرُوا نِعْمَتَ اللَّهِ عَلَيْكُمْ وَ ما أَنْزَلَ عَلَيْكُمْ مِنَ الْكِتابِ وَ الْحِكْمَةِ يَعِظُكُمْ بِهِ» (2:) 231) حيث تعني «على» نزولا بشأنهم دون أن يوحي إليهم تنزيلا لوحي الكتاب- دون وسيط الرسول- عليهم‏ «1».

\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_

(1).

في تفسير الفخر الرازي 16: 120 قال الحسن‏ اجتمع اثنا عشر رجلا من المنافقين على أمر من النفاق فأخبر جبريل الرسول (صلى اللَّه عليه و آله و سلم) بأسمائهم فقال (صلى اللَّه عليه و آله و سلم): إن أناسا اجتمعوا على كيت و كيت فليقوموا و ليعترفوا و ليستغفروا ربهم حتى اشفع لهم فلم يقوموا فقال (صلى اللَّه عليه و آله و سلم) بعد ذلك: قم يا فلان و يا فلان حتى أتى عليهم ثم قالوا: نعترف و نستغفر فقال: الآن؟ أنا كنت في أول الأمر أطيب نفسا بالشفاعة و اللَّه كان أسرع في الإجابة أخرجوا عني اخرجوا عني فلم يزل يقول حتى خرجوا بالكلية، و فيه قال الأصم: إن عند رجوع رسول اللَّه (صلى اللَّه عليه و آله و سلم)

الفرقان في تفسير القرآن بالقرآن، ج‏13، ص: 204

و وجه آخر في ذلك الحذر أنه كان على سبيل الاستهزاء كما يؤيده‏ «قُلِ اسْتَهْزِؤُا ..».

ذلك حذرهم في أنفسهم فحظرهم فيما ينزل عليهم ثم هم يتساءلون:

وَ لَئِنْ سَأَلْتَهُمْ لَيَقُولُنَّ إِنَّما كُنَّا نَخُوضُ وَ نَلْعَبُ قُلْ أَ بِاللَّهِ وَ آياتِهِ وَ رَسُولِهِ كُنْتُمْ تَسْتَهْزِؤُنَ (65).

«لَئِنْ سَأَلْتَهُمْ» عن هزءهم بالرسول (صلى اللَّه عليه و آله و سلم) و الذين معه، و ما في قلوبهم من طويات خبيثة «ليقولن ..» و هذا إخبار يغيب مستقبل، و كان لهم ألا يقولوه لمّا سمعوا الوحي هكذا يفضحهم، و لكنهم قالوه كما قال اللَّه عنهم‏ «إِنَّما كُنَّا نَخُوضُ وَ نَلْعَبُ» و هل الخوض في آيات اللَّه و اللعب باللَّه و رسوله يبرره أي مبرر، و ذلك استهزاء صريخ صريح: «قُلْ أَ بِاللَّهِ وَ آياتِهِ وَ رَسُولِهِ كُنْتُمْ تَسْتَهْزِؤُنَ»؟ و قد قال (صلى اللَّه عليه و آله و سلم) لهم‏ «1» ما قال.

\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_

و سلم) من تبوك وقف له على العقبة إثنا عشر رجلا ليفتكوا به فأخبره جبرئيل و كانوا متلثمين في ليلة مظلمة و أمره أن يرسل لهم من يضرب وجوه رواحلهم فأمر حذيفة بذلك فضربها حتى نحاهم ثم قال: من عرفت من القوم؟ فقال: لم أعرف منهم أحدا فذكر النبي (صلى اللَّه عليه و آله و سلم) أسماءهم وعدهم له و قال: إن جبرئيل أخبرني بذلك فقال حذيفة: ألا تبعث إليهم ليقتلوا؟ فقال: أكره أن تقول العرب قاتل محمد بأصحابه حتى إذا ظفر صار يقتلهم بل يكفينا اللَّه ذلك.

(1).

الدر المنثور 3: 254- أخرج ابن جرير و ابن أبي حاتم و أبو الشيخ و ابن مردويه عن عبد اللَّه بن عمر قال‏ قال رجل في غزوة تبوك في مجلس يوما: ما رأينا مثل قرآننا هؤلاء لا أرغب بطونا و لا أكذب ألسنة و لا أجبن عند اللقاء فقال رجل في المجلس كذبت و لكنك منافق لأخبرن رسول اللَّه (صلى اللَّه عليه و آله و سلم) فبلغ ذلك رسول اللَّه (صلى اللَّه عليه و آله و سلم) و نزل القرآن قال عبد اللَّه: فأنا رأيته متعلقا بحقب ناقة رسول اللَّه (صلى اللَّه عليه و آله و سلم) و الحجارة تنكيه و هو يقول يا رسول اللَّه إنما كنا نخوض و نلعب و النبي (صلى اللَّه عليه و آله و سلم) يقول: أ باللَّه و آياته و رسوله كنتم تستهزءون،

و

فيه عن قتادة في الآية قال‏ بينما رسول اللَّه (صلى اللَّه عليه و آله و سلم) في غزوته إلى تبوك و بين يديه أناس من المنافقين فقالوا: أ يرجو هذا الرجل أن يفتح له قصور الشام‏

الفرقان في تفسير القرآن بالقرآن، ج‏13، ص: 205

و هنا «تستهزءون» تعمم حكم الاستهزاء- و هو الكفر و الارتداد- إلى كل من يستهزأ بالدين مهما كان مسلما مؤمنا، فضلا عن المنافقين، إذ لا يعني الاستهزاء- فقط- النكران، بل هو شديد النكران، فمن منكر ساكت لا يستهزأ، و أما المستهزء فهو منكر ماقت!.

و يا له عذرا غادرا: «نَخُوضُ وَ نَلْعَبُ» و كيف يخاض في الدين و يلعب به إلّا بنكران هازئ، حيث الحق لا يتحمل الخوض و اللعب إلّا بذلك النكران البعيد و الكفر الشديد!.

لا تَعْتَذِرُوا قَدْ كَفَرْتُمْ بَعْدَ إِيمانِكُمْ إِنْ نَعْفُ عَنْ طائِفَةٍ مِنْكُمْ نُعَذِّبْ طائِفَةً بِأَنَّهُمْ كانُوا مُجْرِمِينَ (66).

«لا تعتذروا» حيث لا عاذرة عن الكفر المتعمّد و «قَدْ كَفَرْتُمْ بَعْدَ إِيمانِكُمْ» و هنا تقابل الإيمان بالكفر دليل على أنهم بين منافقين و بسطاء مضلّلين، فكفر طائفة منهم بعد إيمانهم هو جاهر الكفر بعد ظاهر الإيمان فلا يعفى عنهم، و كفر طائفة أخرى هو واقع الكفر بعد واقع الإيمان، فلذلك يصح هنا التقسيم‏ «إِنْ نَعْفُ عَنْ طائِفَةٍ مِنْكُمْ» و هم المضللون حين يتوبون.

«نُعَذِّبْ طائِفَةً» أخرى‏ «بِأَنَّهُمْ كانُوا مُجْرِمِينَ» حيث تعرّق الإجرام و تعمّق في قلوبهم، فهم رؤوساء الضلالة و حملة مشاعل المتاهة و الغواية حيث عاشوا ردحا بعيدا من الزمن ذلك الإجرام فكيف يعفى عنهم فهم- إذا- لا يتوبون‏ «فَإِنْ يَتُوبُوا يَكُ خَيْراً لَهُمْ وَ إِنْ يَتَوَلَّوْا يُعَذِّبْهُمُ اللَّهُ عَذاباً أَلِيماً فِي الدُّنْيا وَ الْآخِرَةِ ..» (74)، خلاف الأولين الذين كان كفرهم بسيطا

\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_

و حصونها هيهات هيهات فأطلع اللَّه نبيه (صلى اللَّه عليه و آله و سلم) على ذلك فقال نبي اللَّه (صلى اللَّه عليه و آله و سلم) احبسوا على هؤلاء الركب فأتاهم فقال: قلتم كذا قلتم كذا؟ قالوا يا نبي اللَّه إنما كنا نخوض و نلعب فأنزل اللَّه فيهم ما تسمعون‏

، و

فيه عن سعيد بن جبير قال: بينما النبي (صلى اللَّه عليه و آله و سلم) في مسيره و أناس من المنافقين يسيرون أمامه فقالوا: إن كان ما يقول محمد حقا فلنحن شر من الحمير فأنزل اللَّه تعالى ما قالوا فأرسل إليهم ما كنتم تقولون فقالوا: إنما كنا نخوض و نلعب.

الفرقان في تفسير القرآن بالقرآن، ج‏13، ص: 206

دون تعنّد و تعمق‏ «1».

و احتمال ثان أن يختص العفو بحاضر العذاب دون مستقبله لاختلاف دركات نفاقهم شدة و ضعفاء، و لكن الظاهر هو الأول ف «نعف» إذ يتوبون، و «نعذب» إذ لا يتوبون، أم و توبتهم توبة نفاق غير وفاق.

هنا يذكر «بَعْدَ إِيمانِكُمْ» لتشمل الذين آمنوا ثم كفروا و نافقوا عن جهل و بساطة، إلى هؤلاء الذين أسلموا منافقين، ثم ازدادوا كفرا و نفاقا، و لذلك لما يفرد الآخرون يبدل الإيمان فيهم بالإسلام: «وَ لَقَدْ قالُوا كَلِمَةَ الْكُفْرِ وَ كَفَرُوا بَعْدَ إِسْلامِهِمْ».

و وجه ثالث أن الإيمان يعم الإيمان باللسان إلى الإيمان بالجنان و الأركان، و كما يخاطب الذين آمنوا بوظائف عامة فتشمل كل من أقر بالإيمان.

و وجه رابع أنه صحيح الإيمان و خفيفة الذي يزول بعارض مّا، و كما ل‏ «الَّذِي آتَيْناهُ آياتِنا فَانْسَلَخَ مِنْها فَأَتْبَعَهُ الشَّيْطانُ فَكانَ مِنَ الْغاوِينَ» (7:)

\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_

(1).

نور الثقلين 2: 238 عن تفسير القمي في رواية أبي الجارود عن أبي جعفر (عليه السلام) في قوله: «لا تعتذروا ..» قال: هؤلاء قوم كانوا مؤمنين صادقين ارتابوا و شكوا و نافقوا بعد إيمانهم و كانوا أربعة نفر، و قوله: «إِنْ نَعْفُ عَنْ طائِفَةٍ مِنْكُمْ» كان أحد الأربعة مخشى بن الحمير فاعترف و تاب و قال يا رسول اللَّه (صلى اللَّه عليه و آله و سلم) أهلكني اسمي فسماه رسول اللَّه (صلى اللَّه عليه و آله و سلم) عبد اللَّه بن عبد الرحمن فقال: يا رب اجعلني شهيدا حيث لا يعلم أحد أين أنا فقتل يوم اليمامة و لم يعلم أين قتل فهو الذي عفى اللَّه عنه.

أقول: لم يسم هذا الواحد طائفة فانه شأن لنزول الآية و هي تعني كل من يصلح للعفو كأمثاله على مدار الزمن، و كما الطائفة الأخرى لا تعني الآخرين بأعيانهم.

و

في الدر المنثور 3: 255- أخرج عبد الرزاق و ابن المنذر و أبو الشيخ عن الكلبي‏ أن رسول اللَّه (صلى اللَّه عليه و آله و سلم) لما أقبل من غزوة تبوك و بين يديه ثلاثة رهط استهزءوا باللَّه و برسوله و بالقرآن، قال كان رجل منهم لم يمالئهم في الحديث يسير مجانبا لهم يقال له يزيد بن وديعة فنزلت إن نعف عن طائفة منكم نعذب طائفة، قال: الطائفة رجل واحد.

الفرقان في تفسير القرآن بالقرآن، ج‏13، ص: 207

176) و هكذا «الَّذِينَ آمَنُوا ثُمَّ كَفَرُوا ثُمَّ آمَنُوا ثُمَّ كَفَرُوا ثُمَّ ازْدادُوا كُفْراً» (4: 137).

و القول ألا ملازمة لعذاب طائفة بالعفو عن طائفة، خاو دون تأمل، حيث العذاب هنا شامل قضية الحال، فمعنى الشرطية- إذا- «إِنْ نَعْفُ عَنْ طائِفَةٍ مِنْكُمْ» لمصلحة ملزمة أو راجحة، فلا يستلزم أن نعف عن طائفة أخرى دون أية مصلحة.

و ترى إذا كان طائفة منهم يعفى عنهم فهم إذا معذورون، فكيف يخاطبون مع غير المعفو عنهم ب «لا تعتذروا»؟

إنهم ككل غير معذورين عن كفرهم بعد إيمانهم و كذبهم أنهم لم يقولوا كلمة الكفر، و إنما العفو لمن تاب توبة صالحة و لم يكن كفره عن ضلال و إجرام عريق.

ف‏ «إِنْ نَعْفُ عَنْ طائِفَةٍ مِنْكُمْ» كشرط في هذا الحقل‏ «نُعَذِّبْ طائِفَةً» كجزاء لذلك الشرط، إشعارا بأن العفو عن طائفة لا يخلّف العفو عن أخرى لاختلافهما في المغزى: «بِأَنَّهُمْ كانُوا مُجْرِمِينَ» مضلّلين، قد تعرق الإجرام في نفوسهم، و أولئك كانوا مجرمين مضلّلين لم يعيشوا الأجرام.

فمجال العفو واسع فاسح ما لم يتعمق الكفر في النفوس فكانت التوبة إذا نصوحا دون أي غدر و نفاق مسوح‏ الْمُنافِقُونَ وَ الْمُنافِقاتُ بَعْضُهُمْ مِنْ بَعْضٍ يَأْمُرُونَ بِالْمُنْكَرِ وَ يَنْهَوْنَ عَنِ الْمَعْرُوفِ وَ يَقْبِضُونَ أَيْدِيَهُمْ نَسُوا اللَّهَ فَنَسِيَهُمْ إِنَّ الْمُنافِقِينَ هُمُ الْفاسِقُونَ (67).

مباعضة لعينة منافقة في مباضعة الإيمان الموافقة، تشكل مناصرة في حقل النفاق، و من قضاياها الرزايا: «يَأْمُرُونَ بِالْمُنْكَرِ وَ يَنْهَوْنَ عَنِ الْمَعْرُوفِ» بكل طاقاتهم و إمكانياتهم‏ «وَ يَقْبِضُونَ أَيْدِيَهُمْ» عن كل خير مادي أو معنوي لقبيل الإيمان، و ذلك لأنهم‏ «نَسُوا اللَّهَ» نسيان تجاهل و تغافل معمّد معنّد «فنسيهم» في كل حقول الرحمة و العناية، حيث‏

الفرقان في تفسير القرآن بالقرآن، ج‏13، ص: 208

عاملهم معاملة الناسي التارك لما هو كافله، «فنسيهم» في كافة الرحمات الرحيمية الخاصة بالمؤمنين و المتحرين عن الإيمان، نسيانا جزاء نسيان، وفاقا لذلك العصيان‏ «وَ لا يُظْلَمُونَ فَتِيلًا».

«فَنَسِيَهُمْ» حيث‏ «نَسُوا اللَّهَ» و «إِنَّ الْمُنافِقِينَ هُمُ الْفاسِقُونَ» كأن لا فاسق سواهم، حيث تعمق فيهم الفسوق و تحمّق لأسفل دركاته، فلأنهم في الدرك الأسفل من فسوق الكفر، لذلك فهم‏ «فِي الدَّرْكِ الْأَسْفَلِ مِنَ النَّارِ».

أجل و إن اللَّه لا يسهو و لا ينسى، و إنما ينسى و يسهو المخلوق و المحدث، ألا تسمعه عزّ و جلّ يقول: «وَ ما كانَ رَبُّكَ نَسِيًّا» و إنما يجازي من نسيه و نسي لقاء يومه بأن ينسيهم أنفسهم كما قال تعالى:

«و لا تكونوا كالذين نسوا الله فأنساهم أنفسهم أولئك هم الفاسقون، و قال عز و جل: فاليوم ننساهم كما نسوا لقاء يومهم هذا، أي: نتركهم كما تركوا الاستعداد للقاء يومهم هذا» «1».

فقد «نَسُوا اللَّهَ» إذ تركوا طاعة اللَّه «فنسيهم»: فتركهم‏ «2» تركا جزاء ترك في الأولى و الآخرة.

و هنا نتلمح أن ترك الأمر بالمعروف و النهي عن المنكر إلى معاكسة الأمر بينهما، و إلى قبض اليد عن الرحمة، كل ذلك من نسيان اللَّه و عصيانه.

و في ضم «المنافقات» هنا إلى «المنافقين» تحليق لنفاقهم على قبيلي الذكور و الأناث، فإن لهن دورا دائرا مائرا في عمليات النفاق، إضافة إلى كيدهن العظيم في حقل النفاق، كما و المعروف المنهي عنه و المنكر المأمور به يعمان كل حقول المعروف و المنكر، عقيديا و علميا

\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_

(1). نور الثقلين 2: 239 في عيون الأخبار و التوحيد للصدوق باسناده إلى عبد العزيز بن مسلم قال: سألت الرضا (عليه السلام) عن قول اللَّه تعالى: نسوا اللَّه فنسيهم فقال: ..

(2) المصدر في تفسير العياشي عن جابر عن أبي جعفر (عليهما السلام) «نَسُوا اللَّهَ».

الفرقان في تفسير القرآن بالقرآن، ج‏13، ص: 209

و عمليا و ثقافيا و سياسيا و اقتصاديا و حربيا، دركات سبع من جحيم المباعضة المنافقة في المباضعة عن الموافقة.

إنهم ككل‏ «بَعْضُهُمْ مِنْ بَعْضٍ» طبيعة واحدة و طينة واحدة، سوء الطوية و لؤم السريرة، و كل همز و لمز و دس و غمز، و ضعف عن صريح المواجهة و صريخ العقيدة، و كل ذلك ينعكس في كل سلوكهم و مسالكهم، معاكسين كل خير إلى شر، و كل شر إلى خير، ركسة و نكسة محلقة على كل كيانهم.

و هنا أسس البلاء، المنعكس على العقيدة و الخلق و العملية أماهيه، هو «نَسُوا اللَّهَ» في ألوهيته و ربوبيته و علمه و قدرته و واجب معرفته و عبوديته و طاعته، و نشأة حسابه و جزاءه‏ «فَأَوْرَدَهُمُ النَّارَ وَ بِئْسَ الْوِرْدُ الْمَوْرُودُ» و لذلك:

وَعَدَ اللَّهُ الْمُنافِقِينَ وَ الْمُنافِقاتِ وَ الْكُفَّارَ نارَ جَهَنَّمَ خالِدِينَ فِيها هِيَ حَسْبُهُمْ وَ لَعَنَهُمُ اللَّهُ وَ لَهُمْ عَذابٌ مُقِيمٌ (68).

هنا «و الكفار» تعميم بعد تخصيص، تأخيرا لهم عن المنافقين تدليلا على أنهم‏ «فِي الدَّرْكِ الْأَسْفَلِ مِنَ النَّارِ»، ثم‏ «خالِدِينَ فِيها» هو الخلود ما دامت النار و «هي حسبهم» في قسطاس العدل، خلودا في النار قدر خلودهم في بواعث النار، فكما كانوا مقيمين على نفاقهم و كفرهم حتى الموت، كذلك‏ «لَهُمْ عَذابٌ مُقِيمٌ» في النار ما داموا هم و دامت النار، بل ليست النار إلّا حصيلة نفاقهم و كفرهم المحدود في أصله و فصله‏ «وَ جَزاءُ سَيِّئَةٍ سَيِّئَةٌ مِثْلُها» و ما أشبه برهان قاطع لا مرد له بين سائر البراهين أن للنار و الخالدين فيها نهاية بنهاية العذاب المستحق لمن لا يستحقون ثوابا، قضية عدل اللَّه و قسطه.

فلا يعني مقيم العذاب إقامته معهم إلى غير نهاية، فإنها ظلم إلى غير نهاية، و إنما «مقيم» كمقيم الاستحقاق و قدره، حيث الزيادة على قدر الاستحقاق ظلم مهما كانت محدودة، فضلا عن كونها غير محدودة كما يهرفه هارفون و يخرفه خارفون أم قاصرون في إدراك الحق بحق اللَّه العدل الرحيم.

الفرقان في تفسير القرآن بالقرآن، ج‏13، ص: 210

هنا لأهل النار الخالدين‏ «عَذابٌ مُقِيمٌ» قضية عدل اللَّه و نقمته- «وَ ما هُمْ بِخارِجِينَ مِنْها وَ لَهُمْ عَذابٌ مُقِيمٌ» (5: 37) مقيم ما قامت النار دون خروج عنها، و ليس فناء من في النار مع النار خروجا منها، و الإقامة اللّانهائية لأهل النار في النار خروج عن العدل و النصفة و عوذا باللَّه.

و هناك لأهل الجنة «نَعِيمٌ مُقِيمٌ» قضية فضل اللَّه و رحمته، فأين مقيم من مقيم، مقيم يقيمه عدل اللَّه فله نهاية، و مقيم يقيمه فضل اللَّه فليست له نهاية، بل هو عطاء غير مجذوذ «1»، حيث: «يُبَشِّرُهُمْ رَبُّهُمْ بِرَحْمَةٍ مِنْهُ وَ رِضْوانٍ وَ جَنَّاتٍ لَهُمْ فِيها نَعِيمٌ مُقِيمٌ» (5: 37).

و ترى ما هو الفارق بين ثالوث: «نار جهنم- خالدين فيها- وَ لَهُمْ عَذابٌ مُقِيمٌ»؟

هنا قوس تصاعدي أن لهم أولا: «نارَ جَهَنَّمَ» و لكن ليس لزامه خلودهم فيها، فبعض الداخلين فيها هم غير خالدين، كبعض العصاة من الموحدين، حيث يخرجون عن النار دون خلود فيها هو البقاء مدة طويلة،

\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_

(1).

في تفسير العياشي عن ثوير عن علي بن الحسين (عليهما السلام) قال: إذا صار أهل الجنة في الجنة و دخل ولي اللَّه إلى جنانه و مساكنه و أتكئ كل مؤمن على أريكته حفنة حذامه و تهدلت عليه الثمار و تفجرت حوله العيون و جرت من تحتها الأنهار و بسطت له الزرابي و وضعت له النمارق و أتته الحذام بما شاءت هواه من قبل أن يسألهم ذلك، قال:

و تخرج عليه الحور العين من الجنان فيمكثون بذلك ما شاء اللَّه، ثم إن الجبار يشرف عليهم فيقول لهم: أوليائي و أهل طاعتي و سكان جنتي في جواري ألا هل أنبؤكم بخير ما أنتم فيه؟ فيقولون: ربنا و أي شي‏ء خير مما نحن فيه فيما اشتهت أنفسنا و لذت أعيننا من النعم في جوار الكريم؟- قال: فيعود عليهم القول فيقولون ربنا نعم فأتنا بخير مما نحن فيه فيقول تبارك و تعالى لهم: رضاي عنكم و محبتي لكم خير و أعظم مما أنتم فيه، قال:

فيقولون نعم يا ربنا رضاك عنا و محبتك لنا خير و أطيب لأنفسنا ثم قرء علي بن الحسين (عليهما السلام) هذه الآية «وَعَدَ اللَّهُ الْمُؤْمِنِينَ ..»

و

في الدر المنثور أخرج ابن مردويه عن جابر قال قال رسول اللَّه (صلى اللَّه عليه و آله و سلم): إذا دخل أهل الجنة الجنة قال اللَّه: هل تشتهون شيئا فأزيدكم؟ قالوا: يا ربنا و هل بقي شي‏ء إلا و قد أنلتناه؟ فيقول:

نعم رضاي فلا أسخط عليكم أبدا.

الفرقان في تفسير القرآن بالقرآن، ج‏13، ص: 211

فثانيا: «خالِدِينَ فِيها» مدة طويلة هي منقسمة بين عذاب مؤقت و عذاب مقيم، ثم ثالثا «لَهُمْ عَذابٌ مُقِيمٌ» أبدي ما داموا هم و دامت النار، فلا يخرجون عن النار، و لا تخمد النار و هم أحياء، بل هما متقارنان، يقيمون مع مقيم العذاب، كما أن مقيم العذاب معهم ما داموا أحياء، فهم:

كَالَّذِينَ مِنْ قَبْلِكُمْ كانُوا أَشَدَّ مِنْكُمْ قُوَّةً وَ أَكْثَرَ أَمْوالًا وَ أَوْلاداً فَاسْتَمْتَعُوا بِخَلاقِهِمْ فَاسْتَمْتَعْتُمْ بِخَلاقِكُمْ كَمَا اسْتَمْتَعَ الَّذِينَ مِنْ قَبْلِكُمْ بِخَلاقِهِمْ وَ خُضْتُمْ كَالَّذِي خاضُوا أُولئِكَ حَبِطَتْ أَعْمالُهُمْ فِي الدُّنْيا وَ الْآخِرَةِ وَ أُولئِكَ هُمُ الْخاسِرُونَ (69).

هؤلاء الأنكاد الأبعاد هم‏ «كَالَّذِينَ مِنْ قَبْلِكُمْ» منافقين و كافرين تشابهت قلوبكم و هم‏ «كانُوا أَشَدَّ مِنْكُمْ قُوَّةً وَ أَكْثَرَ أَمْوالًا وَ أَوْلاداً».

و قضية هذه المشابهة اللعينة أنهم على كثرة قوتهم و أموالهم و أولادهم‏ «فَاسْتَمْتَعُوا بِخَلاقِهِمْ» و هو النصيب المكتسب صالحا أو صالحا حسب مختلف الخلق، و هو ما خلق للإنسان في الحياة الدنيا ذريعة للأخرى، فالخلاق الصالح هو نصيب صالح في الأخرى، و كما الخلاق الطالح هو نصيب طالح فيها، و لا يعني سلب الخلاق يوم الأخرى إلّا سلب صالحه المرتقب حيث أتلف خلاقه في الأولى‏ «فَمِنَ النَّاسِ مَنْ يَقُولُ رَبَّنا آتِنا فِي الدُّنْيا وَ ما لَهُ فِي الْآخِرَةِ مِنْ خَلاقٍ» (2: 200) «وَ لَقَدْ عَلِمُوا لَمَنِ اشْتَراهُ ما لَهُ فِي الْآخِرَةِ مِنْ خَلاقٍ» (2: 102).

ذلك، و الخلاق: النصيب المكتسب، هو المخلوق في أصله لكل مكلف، و هو يكلّف بالتذرع به إلى مرضات اللَّه، و هو الفطرة و العقلية الصالحة و كافة الطاقات الأنفسية ظاهرية و باطنية، التي هباها اللَّه إيانا لنكون له من الشاكرين.

ذلك الخلاق قد يستمتع بها متعة الحياة الدنيا لمن‏ «مَنْ كانَ يُرِيدُ الْحَياةَ الدُّنْيا وَ زِينَتَها نُوَفِّ إِلَيْهِمْ أَعْمالَهُمْ فِيها وَ هُمْ فِيها لا يُبْخَسُونَ. أُولئِكَ الَّذِينَ لَيْسَ لَهُمْ فِي الْآخِرَةِ إِلَّا النَّارُ وَ حَبِطَ ما صَنَعُوا فِيها وَ باطِلٌ ما كانُوا يَعْمَلُونَ» (11: 16).

الفرقان في تفسير القرآن بالقرآن، ج‏13، ص: 212

فقد نسوا نصيبهم من الدنيا ذريعة للآخرة، ذلك لأنهم «استمتعوا بِخَلاقِهِمْ» متعة الحياة الدنيا، «فَاسْتَمْتَعْتُمْ بِخَلاقِكُمْ كَمَا اسْتَمْتَعَ الَّذِينَ مِنْ قَبْلِكُمْ بِخَلاقِهِمْ» استمتاعا متشابها بين سلف و خلف في الخلاق، خلاق الحياة الدنيا بحذافيرها، التي خلقها اللَّه لصالحنا، و لكنها اختلفت عن صالح مغزاها بسيّئ الخلق إبصارا إليها فأعمتهم، دون إبصار بها حتى تبصّرهم.

كما «و خضتم» في آيات اللَّه ناكرين مستهزئين‏ «كَالَّذِي خاضُوا»:

كما خاضوا ف‏ «أُولئِكَ حَبِطَتْ أَعْمالُهُمْ» سلفا و خلفا «وَ أُولئِكَ هُمُ الْخاسِرُونَ» كأن لا خاسر سواهم.

و «أعمالهم» هنا هي الحسنة في نفس الذات حيث السيئات هي حابطات دون إحباط، فأعمالهم الحسنة التي قد تفلت من ذات أيديهم حابطة غير ثابتة إذ «إِنَّما يَتَقَبَّلُ اللَّهُ مِنَ الْمُتَّقِينَ» فهي حابطة في الآخرة ليس لهم بها فيها من أجر، ثم أعمالهم التي يعملونها في الدنيا لإزهاق الحق وفّت ساعده و كسر عضده، هي حابطة فيها إذ لا يقدرون أن يضروا اللَّه بها شيئا، فإنما النافع لهم منها في هذه الأدنى متعة الحياة الدنيا ليس إلّا.

و هنا ضمير الجمع في «خاضوا» غير راجع إلى «الذي» حتى يصبح ممسكا على أدب القرآن لهؤلاء الذين ليس لهم أدب إلّا الخوض في آيات اللَّه البينات، بل هو راجع إلى‏ «الَّذِينَ مِنْ قَبْلِكُمْ» و «الذي» هو عبارة أخرى عن أصل الخوض، تعني «كما خاضوا» «1». و لأن زيادة المباني تدل على زيادة المعاني، فقد تعني «الذي» هنا بديلا عن «ما»

\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_

(1). فضمير الصلة للموصول هو غائب مفرد «خاضوه» راجعا إلى «الذين» و ليس الراجع هو ضمير الجمع في «خاضوا» حتى يخالف الأدب خلافا لخلاف الأدب من هؤلاء الخائضين في القرآن، فقد حاولوا طول القرون القرآنية أن يمسوا من كرامة وحيه فلم ينالوا ما يبغون، رغم الكثير من أتعابهم في هذه البغية الظالمة، مما يدل على صالح الوحي القرآني دون آية نقطة سوداء في أدب اللفظ و حدب المعنى.

الفرقان في تفسير القرآن بالقرآن، ج‏13، ص: 213

عمق الخوض و حمقه من‏ «الَّذِينَ مِنْ قَبْلِكُمْ» فأنتم الأوغاد الأنكاد تتابعونهم في: كم خاضوا و كيف خاضوا، المعنيين ب‏ «كَالَّذِي خاضُوا» كما و كيفا.

و الخوض في آيات اللَّه يشمل كل حدث في الإسلام و كما

يروى عن النبي (صلى اللَّه عليه و آله و سلم): أحذركم أن تحدثوا حدثا في الإسلام و علم أنه سيفعل ذلك أقوام من هذه الأمة فقال اللَّه: «فَاسْتَمْتَعُوا بِخَلاقِهِمْ» «1».

فكما يحدث من أحكام و أعمال و سنن لا توافق الكتاب و السنة، إنها ككل أحداث في الإسلام بإحداث ما ليس منه فيه.

ذلك فقد

«كانُوا أَشَدَّ مِنْكُمْ قُوَّةً وَ أَكْثَرَ أَمْوالًا وَ أَوْلاداً» و اعلموا عباد اللَّه أنكم و ما أنتم فيه من هذه الدنيا على سبيل من مضى قبلكم، ممن كان أطول منكم أعمارا، و أعمر ديارا، و أبعد آثارا، أصبحت أصواتهم هامدة، و رياحهم راكدة، و أجسادهم بالية، و ديارهم خالية، و آثارهم عافية، فاستبدلوا بالقصور المشيّدة، و النمارق الممهّدة، الصخور و الجبال المسنّدة، و القبور اللاطئة الملحدة، التي قد بني بالخراب فناءها، و شيد بالتراب بناءها، فمحلها مقترب، و ساكنها مغترب، بين أهل محلة موحشين، و أهل فراغ متشاغلين، لا يستأنسون بالأوطان، و لا يتواصلون تواصل الجيران .. و كأن قد صرتم إلى ما صاروا إليه، و ارتهنكم ذلك المضجع، و ضمّكم ذلك المستودع، فكيف بكم لو تناهت بكم الأمور، و بعثرت القبور، (الخطبة 217).

أَ لَمْ يَأْتِهِمْ نَبَأُ الَّذِينَ مِنْ قَبْلِهِمْ قَوْمِ نُوحٍ وَ عادٍ وَ ثَمُودَ وَ قَوْمِ إِبْراهِيمَ وَ أَصْحابِ مَدْيَنَ وَ الْمُؤْتَفِكاتِ أَتَتْهُمْ رُسُلُهُمْ بِالْبَيِّناتِ فَما كانَ اللَّهُ لِيَظْلِمَهُمْ وَ لكِنْ كانُوا أَنْفُسَهُمْ يَظْلِمُونَ (70).

\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_

(1). الدر المنثور 3: 255- أخرج أبو الشيخ عن الربيع أن رسول اللَّه (صلى اللَّه عليه و آله و سلم) حذركم ...

الفرقان في تفسير القرآن بالقرآن، ج‏13، ص: 214

«أَ لَمْ يَأْتِهِمْ» و قد أتاهم بألسنة الوحي منافقين و كتابيين، بل و مشركين و ملحدين، حيث الأنباء متناقلة متداولة بين كل الأمم مهما قلّت أو كثرت، و من أهم هذه الأنباء نبأ قوم نوح غرقا، و عاد و هم قوم هود حيث أهلكوا بريح صرصر عاتية، و ثمود و هم قوم صالح حيث أخذتهم الرجفة، و قوم إبراهيم بما فعلوا به حرقا زعمهم فغلبوا هنالك و انقلبوا صاغرين، ثم أهلك ملكهم نمرود و سلب عنهم النعمة، و أصحاب مدين أهلكوا بعذاب يوم الظلمة بكل مهانة و ذلة، و بصورة عامة «وَ الْمُؤْتَفِكاتِ» و هي المنقلبات بقراها حيث جعلت أعاليها أسافلها كقوم لوط، فقد عم عذاب الاستئصال بمختلف صورة أمثال هؤلاء الطغاة الغاوين البغات فأصبحوا مثلا للآخرين‏ «1».

و لأن النبأ هو خبر ذو فائدة عظيمة، فهو هنا منقسم إلى‏ «أَتَتْهُمْ رُسُلُهُمْ بِالْبَيِّناتِ» و ما أتاهم من عذابات تكذيبا لهذه البينات‏ «فَما كانَ اللَّهُ لِيَظْلِمَهُمْ» هنا و هناك‏ «وَ لكِنْ كانُوا أَنْفُسَهُمْ يَظْلِمُونَ» تكذيبا للبينات و ابتلاء بالمثلات و المؤتفكات.

إنهم ظلموا انتقاصا أنفسهم النجيسة النحيسة، حيث الانتقاص بظلمهم ليس ليرد على اللَّه و على الحق، و مهما ورد على أهل الحق في حيوية مادية- و ليست روحية- فخلفيتها الأصيلة هي واردة عليهم أنفسهم، إذ لا تذرهم ما هم أحياء في مثلث النشآت.

فمن نبأ هؤلاء الأنكاد: «فَجَعَلْناهُمْ سَلَفاً وَ مَثَلًا لِلْآخِرِينَ» (43:) 56) ثم أولئك الآخرون يستمتعون غير شاعرين، سائرين سبيل الهلكى متغافلين، فقوم نوح يغمرهم الطوفان و يطويهم إليهم في تيار الفناء

\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_

(1).

نور الثقلين 2: في من لا يحضره الفقيه روى جويرية بن مسهر قال‏ أقبلنا مع أمير المؤمنين (عليه السلام) من قتل الخوارج حتى إذا قطعنا في أرض بابل حضرت صلاة العصر فنزل أمير المؤمنين (عليه السلام) و نزل الناس فقال علي (عليه السلام): أيها الناس إن هذه الأرض ملعونة قد عذبت في الدهر ثلاث مرات- أو مرتين- و هي تتوقع الثالثة و هي إحدى المؤتفكات.

الفرقان في تفسير القرآن بالقرآن، ج‏13، ص: 215

المرهوب، و أمثالهم من هؤلاء المذكورين و سواهم.

و هكذا تكون النفس المنحرفة المنجرفة إلى هوّات، حيث تبطرها النعمة فتحوّل نعمة و نقمة، و لا تنتفع بعظات الغابرين و لا تعتبر، و لا تنفتح بصائرهم لإدراك سنة اللَّه التي لا تتحول، فلا تبصر مهاوي و مصارع الأقوياء الأغوياء قبلها.

هذه هي الضفّة المنافقة و الكافرة، و من ثم الضفّة الإيمانية:

وَ الْمُؤْمِنُونَ وَ الْمُؤْمِناتُ بَعْضُهُمْ أَوْلِياءُ بَعْضٍ يَأْمُرُونَ بِالْمَعْرُوفِ وَ يَنْهَوْنَ عَنِ الْمُنْكَرِ وَ يُقِيمُونَ الصَّلاةَ وَ يُؤْتُونَ الزَّكاةَ وَ يُطِيعُونَ اللَّهَ وَ رَسُولَهُ أُولئِكَ سَيَرْحَمُهُمُ اللَّهُ إِنَّ اللَّهَ عَزِيزٌ حَكِيمٌ (71).

هذه الولاية هي ولاية المحبة و الرقابة و النصرة التامة الطامة على بعضهم البعض، أن يلي كل أمر الآخر في خطوات الدعوة إلى سبيل اللَّه بالحكمة و الموعظة الحسنة- دون الولاية الشرعية الخاصة بمدراء الشريعة- و في نهاية المطاف و عند كمال الدعوة و معرفة كاملة بالمعروف و المنكر- و شروط أخرى مفروضة التحصيل قدر المستطاع- «يَأْمُرُونَ بِالْمَعْرُوفِ وَ يَنْهَوْنَ عَنِ الْمُنْكَرِ» فكل فاعل منهم لمعروف و تارك لمنكر يأمر تارك هذا المعروف و ينهي مقترف هذا المنكر، و كما يأتمر فيما هو تاركه بفاعله و ينتهي فيما هو فاعله بتاركه، تآمرا بالمعروف و تناهيا عن المنكر، فيكون كلّ مرآتا للآخر يرى صالحه فيريه إياه أمرا به، و يرى طالحه فيريه إياه نهيا عنه، دون تدخل لعوامل الفرقة بين صفوفهم، فحيثما وجدت فرقة في هذه الجماعة المؤمنة فثمة تدخل عنصر غريب عن طبيعتها و عقيدتها، و ثمة غرض أو مرض يمنع السمة الأولى التي قررها العليم الخبير.

و هذه الصفات الخمس في المؤمنين: الأمر بالمعروف و النهي عن المنكر و إقام الصلاة و إيتاء الزكوة و طاعة اللَّه و رسوله، هذه تقابل صفات للمنافقين: الأمر بالمنكر و النهي عن المعروف و نسيان اللَّه و قبض الأيدي، و عصيان اللَّه.

و تلك الولاية هي قمة الولايات الإيمانية المحكمة المتحكمة بين‏

الفرقان في تفسير القرآن بالقرآن، ج‏13، ص: 216

المؤمنين، كخطوة أولى في الدعوة و كما قال اللّه: «عَلَيْكُمْ أَنْفُسَكُمْ لا يَضُرُّكُمْ مَنْ ضَلَّ إِذَا اهْتَدَيْتُمْ» (5: 105) في وجه من وجوهه العدّة، و لأن‏ «الْمُؤْمِنُونَ وَ الْمُؤْمِناتُ» هنا «كما المنافقون و المنافقات» هناك جمعان يحلّقان على كل من يحمل إيمانا أو نفاقا، فقد يعني الجمع فيها جمع كل خلف إلى سلفه، سلسلة موصولة مع بعضها البعض، يتابع كلّ خلف سلفه، كما يتابع بعضهم بعضا في كل سلف و كل خلف، دون انفصام في عدّتهم عن عدّتهم إيمانا أو نفاقا، مباعضة شاملة تخطّيا عن فواصل الزمان و المكان و الأواصر حيث يجمع كلّا عقيدته الخاصة به في حقل الإيمان.

فالولاية الإيمانية هي امتداد بين أهليها طول الزمان و عرض المكان، و هكذا الولاية الكافرة نفاقا و سواه، طالما الولاية الإيمانية عريقة لا تنفصم، و الولاية الكافرة هي في انفصام دائم، فلذلك هم‏ «بَعْضُهُمْ مِنْ بَعْضٍ» و أولئك الأكارم‏ «بَعْضُهُمْ أَوْلِياءُ بَعْضٍ».

فالولاية الصادقة بحاجة إلى نجدة و شجاعة جادّة، و إلى تعاون صارم و تكاليف قائمة و ليست هكذا ولاية النفاق.

و لأن «يأمرون و ينهون» هنا محذوف المتعلّق فقد يشملان إلى التآمر و التناهي فيما بينهم التعاون الصالح في أمر الآخرين و نهيهم بعد كامل الدعوة العاذرة البينة.

ذلك‏ «وَ يُقِيمُونَ الصَّلاةَ» صلة باللَّه‏ «وَ يُؤْتُونَ الزَّكاةَ» صلة بعباد اللَّه بأمر اللَّه‏ «وَ يُطِيعُونَ اللَّهَ» أصلا في الطاعة، متمثلة في كتاب اللَّه «و رسوله» فرعا فيها رسالة عن اللَّه، متمثلة في سنة رسول اللَّه (صلى اللَّه عليه و آله و سلم) و لأن هذه الثلاثة هي من ميزات الإيمان معدودة في عديد الولاية الإيمانية فلتكن في رقابة جماهيرية أن يقيموا الصلاة و يؤتوا الزكوة و يطيعوا اللَّه و رسوله في حقل الولاية و بصورة جمعية متضامنة، فكما أن تطبيق المعروف و ترك المنكر شخصيا و لا يكفي، بل و يليها واجب الأمر و النهي، كذلك إقام الصلاة و إيتاء الزكوة و طاعة اللَّه و رسوله، فعند ذلك‏

الفرقان في تفسير القرآن بالقرآن، ج‏13، ص: 217

يرحمهم الله رحمة عالية تشملهم، حيث تجعلهم أقوياء أمام الأغوياء، ف‏ «لَنْ يَضُرُّوكُمْ إِلَّا أَذىً» على ضوء هذه الحياة الإيمانية التضامنية، و كما هي مذكورة في آل عمران من قوله تعالى: «يا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا اتَّقُوا اللَّهَ حَقَّ تُقاتِهِ ..» إلى‏ «لَنْ يَضُرُّوكُمْ». ف‏ «أُولئِكَ سَيَرْحَمُهُمُ اللَّهُ» في الدنيا و الآخرة ف‏ «إِنَّا لَنَنْصُرُ رُسُلَنا وَ الَّذِينَ آمَنُوا فِي الْحَياةِ الدُّنْيا وَ يَوْمَ يَقُومُ الْأَشْهادُ» «إِنَّ اللَّهَ عَزِيزٌ حَكِيمٌ».

إذا فالخارجون عن هذه الخماسية المجيدة خارجون عن رحمة اللَّه إلى عذابه.

ذلك، و هل إن من قضايا تلك الولاية الإيمانية أن يحمل مؤمن مؤمنة أو تحمل مؤمنة مؤمنا بأمان إيمان و ظل ظليل رباني؟ أجل‏

«فإن المؤمن محرم المؤمنة ..» «1»

و لكن في غير ما هو مخصوص بالمحارم الرسميين أقرباء و أنسباء، حيث إن الولاية الطليقة الصالحة تقتضي ذلك الحمل رعاية لصالح بعضهم البعض.

ذلك ف‏ «الْمُؤْمِنُونَ وَ الْمُؤْمِناتُ» لإخائهم في اللَّه يتحابون بجلال اللَّه و الولاية للَّه و

«رأس العقل بعد الإيمان بالله مداراة الناس و لن يهلك رجل بعد مشورة و أهل المعروف في الدنيا أهل المعروف في الآخرة و أهل المنكر في الدنيا أهل المنكر في الآخرة» «2».

\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_

(1).

نور الثقلين 2: 240 في تفسير العياشي عن صفوان الجمال قال‏ قلت لأبي عبد اللَّه (عليه السلام) بأبي و أمي تأتيني المرأة المسلمة قد عرفتني بعملي و عرفتها بإسلامها و حبها إياكم و ولايتها لكم و ليس لها محرم؟ قال: فإذا جائتك المرأة المسلمة فاحملها فإن المؤمن محرم المؤمنة و تلا هذه الآية «وَ الْمُؤْمِنُونَ وَ الْمُؤْمِناتُ بَعْضُهُمْ أَوْلِياءُ بَعْضٍ».

(2) الدر المنثور 3: 256- أخرج ابن أبي شيبة و ابن أبي الدنيا عن سعيد بن المسيب قال قال رسول اللَّه (صلى اللَّه عليه و آله و سلم): .. أقول و ذيل الحديث مروي عنه (صلى اللَّه عليه و آله و سلم) بطريق كثيرة و ألفاظ عدة و منها ما

عن أبي سعيد الخدري قال قال رسول اللَّه (صلى اللَّه عليه و آله و سلم): إن أحب عباد اللَّه إلى اللَّه عز و جلّ من حبب إليه المعروف و حبب إليه فعاله،

و

فيه عنه قال قال رسول اللَّه (صلى اللَّه عليه و آله و سلم): إن اللَّه جعل للمعروف وجوها من خلقه و حبب إليهم فعاله و وجه طلاب المعروف إليهم‏

الفرقان في تفسير القرآن بالقرآن، ج‏13، ص: 218

و لأن هذه الولاية الجماهيرية هي من لزامات الإيمان، فعلى كافة المؤمنين و المؤمنات أن يحصلوا على جدارة هذه الولاية، تقديما لكل طاقاتهم و إمكانياتهم في هذه السبيل بمقدماتها، كالدعوة بالحكمة و الموعظة الحسنة، فليكن كل واعظا آمرا ناهيا غيره كما يعظ و يأمر و ينهى نفسه، بادئا بنفسه حتى يصلح واعظا لغيره.

و حين يصبح الجو في المجتمع الإيماني جو الدعوة و العظة و الأمر و النهي بشروطها، فقد يسلم ذلك الجو الطاهر، القاهر على التخلفات عن كافة النكبات، و لكي يربي العائشين فيه من غير المؤمنين فضلا عن المؤمنين أنفسهم.

ذلك، فكل فاعل لمنكر أو تارك لمعروف عليه مسئولية مضاعفة ما دام في ذلك الجو معروف متروك أو منكر مفعول، أولاهما هي التخلف الشخصي عن شرعة اللَّه، و ثانيتها التخلف عن جدارة الولاية بالنسبة لأمثاله من المتخلفين.

ذلك و هنا «بَعْضُهُمْ أَوْلِياءُ بَعْضٍ» حيث اقتسموا إلى بعضين اثنين، قد يعنى من البعض الأول الجامعون لشروط الولاية ككل، كالعدول في كل شي‏ء، و معهم الجامعون لشروط الولاية في بعض الأمور، ثم المولى عليهم هم المقصرون، فهناك ولاية من طرف واحد، ثم موالاة بين بعض و بعض حسب مختلف التخلفات فيهما.

إذا فهم بين آمرين و ناهين من جانب و مأمورين و منتهين من جانب آخر، و آخر متآمرين و متناهين فيما إذا اشتركوا في ترك واجب و اقتراف محرم.

و قد تعني الأمة الآمرة الناهية و هم خير أمة أخرجت للناس الأولين،

\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_

و يسر عليهم إعطاءه كما يسر الغيث إلى الأرض الجدبة ليحييها و يحيى به أهلها و إن اللَّه جعل للمعروف أعداء من خلقه بغض إليهم المعروف و بعض إليهم فعاله و حظر عليهم إعطاءه كما يحظر الغيث عن الأرض الجدبة ليهلكها و يهلك بها أهلها و ما يعفو اللَّه أكثر.

الفرقان في تفسير القرآن بالقرآن، ج‏13، ص: 219

ثم يليهم الآخرون المتآمرون المتناهون، فولاية الأولين في حقل الأمر و النهي طليقة، و هي للآخرين محدودة بما هم فيه غير مقتصرين.

ثم لا ولاية لتاركي المعروف و مقتر في المنكر إلا- علّها- فيما هم فاعلوه من معروف أو تاركوه من منكر.

فالمقصر المطلق لا ولاية له على أحد في هذا الحقل، و العادل المطلق له الولاية المطلقة فيه، و العوان بينهما له ولاية نسبية فيما لا يقصر فيه.

ذلك، و لأن العدالة المطلقة قلما توجد بين المسلمين، و لا كفاية في هذه القلة القليلة قياما لواجب الأمر و النهي، و نصوص آيات و على ضوءها روايات لا تمنع إلّا عن الأمر بمعروف آمره تاركه، و عن النهي عن منكر ناهيه فاعله، ثم و آيات واجب الأمر و النهي بوجه الكفاية طليقة أو عامة يكتفى بتخصيصها أو تقييدها بالآمر التارك لما يأمر، و الناهي الفاعل لما ينهى، إذا فواجب الأمر و النهي غير ساقط عن الباقين مهما كانوا باغين في غير ما يأمرون به و ينهون عنه.

و ترى المجاهر بالفسق له أو عليه أن ينهى عن فسق آخر؟ و في أمره و نهيه مزرءة بشرعة اللَّه، و منقصة أو معاكسة في التأثير!.

«أَ تَأْمُرُونَ النَّاسَ بِالْبِرِّ وَ تَنْسَوْنَ أَنْفُسَكُمْ» قد تمنع عن الآمر بالبر الناسي نفسه فيه، و لكنها محددة بنفس البر الذي به يأمرون، و إلا رجعت مشكلة عدم كفاءة العدول في كل شي‏ء، ثم‏ «لِمَ تَقُولُونَ ما لا تَفْعَلُونَ. كَبُرَ مَقْتاً عِنْدَ اللَّهِ أَنْ تَقُولُوا ما لا تَفْعَلُونَ» تحدد المحرم الماقت في القول أمرا و سواه بما لا يفعله نفسه.

صحيح أن في الأمر و النهي من غير العادل منقصة في التأثير و لكنه ليس- مع الوصف- عدم التأثير، إذ لا حجة للمأمور و المنهي في عدم ائتماره و انتهاءه بأن الآمر تارك لما يأمر، أو الناهي فاعل لما ينهى.

ثم آية التناهي نص في واجب النهي و الانتهاء، و لو كانت العدالة الطليقة شرطا لوجوب- فضلا عن جواز- الأمر و النهي فلا دور إذا للتناهي،

الفرقان في تفسير القرآن بالقرآن، ج‏13، ص: 220

كما و أن التناهي تعاون على البر و التقوى و هو فرض جماعي بين الجماعة المؤمنة.

فكما يجب على المكلفين فعل الواجبات و ترك المحرمات فرضا شخصيا على أشخاصهم كذلك يجب التآمر و التناهي و ليس إلّا في غير العدل المطلق.

إذا فالواجب الأول على كل المكلفين وقاية أنفسهم بصورة عادلة طليقة، ثم وقاية الآخرين، و حين يفسق المكلف أحيانا و يعدل أخرى، فهو حالة عدله مفروض عليه أن يكلف التاركين له أن يحققوه، أمرا بمعروف هو فاعله، و نهيا عن منكر هو تاركه، دونما تعد طوره أن يأمر بمتروكه و ينهى عن مفعوله، مهما كان خفية فضلا عن كونه جهرا.

فالمصلي التارك للصوم و الصائم التارك للصلاة، يجب عليهما التآمر بأن يأمر الأول الثاني بالصلاة، و يأمر الثاني الأول بالصوم، و هكذا التناهي.

و لو لا خلق جو التآمر و التناهي لأظلم الجوّ بصورة واسعة شاسعة إذ لا كفاءة في العدول الطليقين في شي‏ء.

فهنا- في حقل واجب الأمر و النهي- هذه الآية هي أعم الآيات فيهما، ثم تخصص ب‏ «وَ لْتَكُنْ مِنْكُمْ أُمَّةٌ» ثم تخصص آية الأمة هذه ب‏ «أَ تَأْمُرُونَ النَّاسَ بِالْبِرِّ ..» و «لِمَ تَقُولُونَ ما لا تَفْعَلُونَ» و «ما أُرِيدُ أَنْ أُخالِفَكُمْ إِلى‏ ما أَنْهاكُمْ عَنْهُ» و هذه الثلاث تنضبط دلاليا ب‏ «كانُوا لا يَتَناهَوْنَ عَنْ مُنكَرٍ فَعَلُوهُ».

و المهم في هذا البين ضرورة استمرارية لسان الأمر و النهي بين المؤمنين، متجنبين عن سوء التأثير إن لم يكن لهما حسن التأثير.

ففاعل المنكر و تارك المعروف جهارا، محرم عليه الأمر و النهي فيما لا يفعله من معروف أو لا يتركه من منكر، قطعا، ثم يتلوه غير الجاهر فيما يأمر و ينهي، لمكان الإطلاق في هذه الآيات الثلاث.

و من ثم الجاهر بغير ما يأمر أو ينهى، فالأشبه وجوبهما عليه إلا إذا

الفرقان في تفسير القرآن بالقرآن، ج‏13، ص: 221

أثر سوء في المأمور و المنهي.

ثم غير الجاهر بغير ما يأمر و ينهي، فإنه مع العدل المطلق من القدر المتيقن للوجوب.

ذلك، و لا يعني جواز التأثير في حقل الأمر و النهي أن يؤثرا بالفعل، بل و إن أثرا في المستقبل أم بتكرار الأمر و النهي، أم و لأقل تقدير كانا حجة على المتخلفين أم مزيد حجة عليهم، حيث الدعوة الربانية تمحور «عُذْراً أَوْ نُذْراً» (77: 6) كيف لا؟ و قد عذب الذين تركوا النهي عن السوء- فيما لم يؤثر- إلى جانب فاعلي السوء في مزرءة السبت: «إِذْ قالَتْ أُمَّةٌ مِنْهُمْ لِمَ تَعِظُونَ قَوْماً اللَّهُ مُهْلِكُهُمْ أَوْ مُعَذِّبُهُمْ عَذاباً شَدِيداً قالُوا مَعْذِرَةً إِلى‏ رَبِّكُمْ وَ لَعَلَّهُمْ يَتَّقُونَ. فَلَمَّا نَسُوا ما ذُكِّرُوا بِهِ أَنْجَيْنَا الَّذِينَ يَنْهَوْنَ عَنِ السُّوءِ وَ أَخَذْنَا الَّذِينَ ظَلَمُوا بِعَذابٍ بَئِيسٍ بِما كانُوا يَفْسُقُونَ. فَلَمَّا عَتَوْا عَنْ ما نُهُوا عَنْهُ قُلْنا لَهُمْ كُونُوا قِرَدَةً خاسِئِينَ» (7: 166).

فقد دخل التاركون النهي عن المنكر هنا في الظالمين‏ «بِعَذابٍ بَئِيسٍ بِما كانُوا يَفْسُقُونَ» و لم يكن ليؤثر النهي كما لم يؤثر!.

فلا يشترط في وجوب الأمر و النهي التأثير و لا جوازه بالفعل و لا مستقبلا، بل يكفى كونها حجة على المتخلفين.

و هكذا شرط الأمن من الضرر إلا إذا فاق ضرر ترك المعروف و فعل المنكر، ف‏ «وَ أْمُرْ بِالْمَعْرُوفِ وَ انْهَ عَنِ الْمُنْكَرِ وَ اصْبِرْ عَلى‏ ما أَصابَكَ إِنَّ ذلِكَ مِنْ عَزْمِ الْأُمُورِ» (31: 17) و ليست الإصابة هنا إلا من مخلفات الأمر و النهي.

وَعَدَ اللَّهُ الْمُؤْمِنِينَ وَ الْمُؤْمِناتِ جَنَّاتٍ تَجْرِي مِنْ تَحْتِهَا الْأَنْهارُ خالِدِينَ فِيها وَ مَساكِنَ طَيِّبَةً فِي جَنَّاتِ عَدْنٍ وَ رِضْوانٌ مِنَ اللَّهِ أَكْبَرُ ذلِكَ هُوَ الْفَوْزُ الْعَظِيمُ (72).

«وَ رِضْوانٌ مِنَ اللَّهِ أَكْبَرُ» من‏ «جَنَّاتٍ تَجْرِي مِنْ تَحْتِهَا الْأَنْهارُ خالِدِينَ فِيها وَ مَساكِنَ طَيِّبَةً فِي جَنَّاتِ عَدْنٍ» ف‏

«لنعيم أهل الجنة برضوان الله عنهم‏

الفرقان في تفسير القرآن بالقرآن، ج‏13، ص: 222

أفضل من نعيمهم بما في الجنان» «1».

فأين حظوة روحية ب‏ «رِضْوانٌ مِنَ اللَّهِ» معرفية و عبودية و زلفى، من حظوة جسدية في جناتها؟ مع كل مواصفاتها على لسان الرسول (صلى اللَّه عليه و آله و سلم) «2».

و هنا «رضوان» تنكير قاصد لأقل رضوان إلى كثيرة و أكثره، فقليل الرضوان أكبر من كثير الجنان و «ذلِكَ هُوَ الْفَوْزُ الْعَظِيمُ» جمعا بين رضوان و هذه الجنان‏ «فَبِأَيِّ آلاءِ رَبِّكُما تُكَذِّبانِ».

و كما أن السالكين إلى اللَّه يوم الدنيا يفضّلون مرضات اللَّه على مرضات أنفسهم، كذلك يوم الأخرى، ففي هذه الجنات رضوان لأنفسهم، و أين هي من‏ «رِضْوانٌ مِنَ اللَّهِ»؟ و قد «رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمْ وَ رَضُوا عَنْهُ ذلِكَ الْفَوْزُ الْعَظِيمُ» (5: 119) «رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمْ وَ رَضُوا عَنْهُ أُولئِكَ حِزْبُ اللَّهِ» (58: 22) «رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمْ وَ رَضُوا عَنْهُ ذلِكَ لِمَنْ خَشِيَ رَبَّهُ» (98: 8).

فحزب اللَّه الذين يخشون ربهم هم المرضيون عند اللَّه في الدنيا و الآخرة و «ذلِكَ هُوَ الْفَوْزُ الْعَظِيمُ».

أجل‏ «وَ رِضْوانٌ مِنَ اللَّهِ» هو أقصى الغايات و أنهى النهايات‏

\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_

(1). الدر المنثور 3: 257- أخرج ابن أبي حاتم عن أبي عبد الملك الجهني قال قال رسول اللَّه (صلى اللَّه عليه و آله و سلم): .. و

فيه عن أبي سعيد الخدري قال قال رسول اللَّه (صلى اللَّه عليه و آله و سلم): إن اللَّه يقول لأهل الجنة يا أهل الجنة فيقولون لبيك يا ربنا و سعديك و الخير في يديك فيقول: هل رضيتم؟ فيقولون ربنا و ما لنا لا نرضى و قد أعطيتنا ما لم تعطه أحدا من خلقك فيقول: ألا أعطيكم أفضل من ذلك؟ قالوا: يا رب و أي شي‏ء أفضل من ذلك؟ قال: أحل عليكم رضوان فلا أسخط عليكم بعده أبدا.

(2)

تفسير الفخر الرازي 16: 132 عن أبي هريرة قلت يا رسول اللَّه (صلى اللَّه عليه و آله و سلم) حدثني عن الجنة ما بناءها؟ فقال: لبنة من ذهب و لبنة من فضة و ملاطها المسك الأذفر و ترابها الزعفران و خصاءها الدر و الياقوت فيها النعيم بلا بؤس و الخلود بلا موت لا تبلى ثيابه و لا يغنى شبابه.

الفرقان في تفسير القرآن بالقرآن، ج‏13، ص: 223

للسالكين إلى اللَّه، الهائمين إياه، و لو أن أهل اللَّه خيّروا بين رضوان من اللَّه في عذاب أليم جسيم، و بين غير رضوان و نعيم مقيم، لكانوا يقدمون رضوانه على سائر نعيمه، و إنما يفضلون الجنات لأنها محال أهل كرامة اللَّه و الزلفى من اللَّه.

ثم‏ «الْمُؤْمِنُونَ وَ الْمُؤْمِناتُ» هنا هم الموصوفون بمخمس صفات الإيمان في الآية السالفة، دون من يحمل مجرد الإيمان عقيديا و إن لأدناها.

إذا ف‏ «جَنَّاتٍ تَجْرِي مِنْ تَحْتِهَا الْأَنْهارُ» دون حساب، هي من مواعيدهم عند اللَّه، ثم سائر المؤمنين و المؤمنات هم محاسبون بتركهم صفات الإيمان الخمس، و قد يدخلون النار دون قرار ثم يخرجون إلى‏ «جَنَّاتٍ تَجْرِي مِنْ تَحْتِهَا الْأَنْهارُ».

أم ترى‏ «رِضْوانٌ مِنَ اللَّهِ أَكْبَرُ» إضافة إلى‏ «جَنَّاتٍ تَجْرِي مِنْ تَحْتِهَا الْأَنْهارُ» ذلك لمن لا يرحمهم اللَّه من التاركين لشروط الإيمان الأصلية؟!.

[سورة التوبة (9): الآيات 74 الى 86]

يَحْلِفُونَ بِاللَّهِ ما قالُوا وَ لَقَدْ قالُوا كَلِمَةَ الْكُفْرِ وَ كَفَرُوا بَعْدَ إِسْلامِهِمْ وَ هَمُّوا بِما لَمْ يَنالُوا وَ ما نَقَمُوا إِلاَّ أَنْ أَغْناهُمُ اللَّهُ وَ رَسُولُهُ مِنْ فَضْلِهِ فَإِنْ يَتُوبُوا يَكُ خَيْراً لَهُمْ وَ إِنْ يَتَوَلَّوْا يُعَذِّبْهُمُ اللَّهُ عَذاباً أَلِيماً فِي الدُّنْيا وَ الْآخِرَةِ وَ ما لَهُمْ فِي الْأَرْضِ مِنْ وَلِيٍّ وَ لا نَصِيرٍ (74) وَ مِنْهُمْ مَنْ عاهَدَ اللَّهَ لَئِنْ آتانا مِنْ فَضْلِهِ لَنَصَّدَّقَنَّ وَ لَنَكُونَنَّ مِنَ الصَّالِحِينَ (75) فَلَمَّا آتاهُمْ مِنْ فَضْلِهِ بَخِلُوا بِهِ وَ تَوَلَّوْا وَ هُمْ مُعْرِضُونَ (76) فَأَعْقَبَهُمْ نِفاقاً فِي قُلُوبِهِمْ إِلى‏ يَوْمِ يَلْقَوْنَهُ بِما أَخْلَفُوا اللَّهَ ما وَعَدُوهُ وَ بِما كانُوا يَكْذِبُونَ (77) أَ لَمْ يَعْلَمُوا أَنَّ اللَّهَ يَعْلَمُ سِرَّهُمْ وَ نَجْواهُمْ وَ أَنَّ اللَّهَ عَلاَّمُ الْغُيُوبِ (78)

الَّذِينَ يَلْمِزُونَ الْمُطَّوِّعِينَ مِنَ الْمُؤْمِنِينَ فِي الصَّدَقاتِ وَ الَّذِينَ لا يَجِدُونَ إِلاَّ جُهْدَهُمْ فَيَسْخَرُونَ مِنْهُمْ سَخِرَ اللَّهُ مِنْهُمْ وَ لَهُمْ عَذابٌ أَلِيمٌ (79) اسْتَغْفِرْ لَهُمْ أَوْ لا تَسْتَغْفِرْ لَهُمْ إِنْ تَسْتَغْفِرْ لَهُمْ سَبْعِينَ مَرَّةً فَلَنْ يَغْفِرَ اللَّهُ لَهُمْ ذلِكَ بِأَنَّهُمْ كَفَرُوا بِاللَّهِ وَ رَسُولِهِ وَ اللَّهُ لا يَهْدِي الْقَوْمَ الْفاسِقِينَ (80) فَرِحَ الْمُخَلَّفُونَ بِمَقْعَدِهِمْ خِلافَ رَسُولِ اللَّهِ وَ كَرِهُوا أَنْ يُجاهِدُوا بِأَمْوالِهِمْ وَ أَنْفُسِهِمْ فِي سَبِيلِ اللَّهِ وَ قالُوا لا تَنْفِرُوا فِي الْحَرِّ قُلْ نارُ جَهَنَّمَ أَشَدُّ حَرًّا لَوْ كانُوا يَفْقَهُونَ (81) فَلْيَضْحَكُوا قَلِيلاً وَ لْيَبْكُوا كَثِيراً جَزاءً بِما كانُوا يَكْسِبُونَ (82) فَإِنْ رَجَعَكَ اللَّهُ إِلى‏ طائِفَةٍ مِنْهُمْ فَاسْتَأْذَنُوكَ لِلْخُرُوجِ فَقُلْ لَنْ تَخْرُجُوا مَعِيَ أَبَداً وَ لَنْ تُقاتِلُوا مَعِيَ عَدُوًّا إِنَّكُمْ رَضِيتُمْ بِالْقُعُودِ أَوَّلَ مَرَّةٍ فَاقْعُدُوا مَعَ الْخالِفِينَ (83)

وَ لا تُصَلِّ عَلى‏ أَحَدٍ مِنْهُمْ ماتَ أَبَداً وَ لا تَقُمْ عَلى‏ قَبْرِهِ إِنَّهُمْ كَفَرُوا بِاللَّهِ وَ رَسُولِهِ وَ ماتُوا وَ هُمْ فاسِقُونَ (84) وَ لا تُعْجِبْكَ أَمْوالُهُمْ وَ أَوْلادُهُمْ إِنَّما يُرِيدُ اللَّهُ أَنْ يُعَذِّبَهُمْ بِها فِي الدُّنْيا وَ تَزْهَقَ أَنْفُسُهُمْ وَ هُمْ كافِرُونَ (85) وَ إِذا أُنْزِلَتْ سُورَةٌ أَنْ آمِنُوا بِاللَّهِ وَ جاهِدُوا مَعَ رَسُولِهِ اسْتَأْذَنَكَ أُولُوا الطَّوْلِ مِنْهُمْ وَ قالُوا ذَرْنا نَكُنْ مَعَ الْقاعِدِينَ (86)

الفرقان في تفسير القرآن بالقرآن، ج‏13، ص: 225

يا أَيُّهَا النَّبِيُّ جاهِدِ الْكُفَّارَ وَ الْمُنافِقِينَ وَ اغْلُظْ عَلَيْهِمْ وَ مَأْواهُمْ جَهَنَّمُ وَ بِئْسَ الْمَصِيرُ (73).

أ تراها نزلت «جاهد الكفار بالمنافقين» إذ «إن رسول الله (صلى الله عليه و آله و سلم) لم يقابل منافقا قط، إنما كان يتألفهم» «1» و المنافق إن لم يقاتل لا يقاتل به إذ «لَوْ خَرَجُوا فِيكُمْ ما زادُوكُمْ إِلَّا خَبالًا وَ لَأَوْضَعُوا خِلالَكُمْ يَبْغُونَكُمُ الْفِتْنَةَ وَ فِيكُمْ سَمَّاعُونَ لَهُمْ وَ اللَّهُ عَلِيمٌ بِالظَّالِمِينَ»! فإنما يقاتل بالمؤمنين الموثوقين، فهذا هو نفسه خبال و إيضاع و تضييع أن يخيّل بالآية أنها هكذا أنزلت!.

أم هي كماهيه و لكن الجهاد لا يختص بالقتال فمن جهاد المنافقين إلزامهم على الفرائض‏ «2» كما التزموا بها بإقرارهم أنفسهم لما اسلموا، كما

\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_

(1).

نور الثقلين 2: 241 مجمع البيان روى عن أبي عبد اللَّه (عليه السلام) أنه قرأ «جاهد الكفار بالمنافقين» قال: إن ..

و

فيه روى‏ في قراءة أهل البيت (عليهم السلام) «جاهد الكفار بالمنافقين» قالوا: لأن النبي (صلى اللَّه عليه و آله و سلم) لم يكن يقاتل المنافقين و لكن كان يتألفهم و لأن المنافقين لا يظهرون الكفر و عليم اللَّه بكفرهم لا يبيح قتلهم إذا كانوا يظهرون الإيمان.

(2) المصدر في تفسير القمي عن أبي جعفر (عليه السلام) قال: ...

الفرقان في تفسير القرآن بالقرآن، ج‏13، ص: 226

منه التلطف معهم على حائطة، و تأليف قلوبهم لكي يتحوّلوا عن إقرارهم باللسان إلى إقرارهم بالجنان إيمانا يدخلهم في حقل المؤمنين.

كما و منه- إذا لزم الأمر- قتالهم و كما قاتلهم علي (عليه السلام) فجهاد علي (عليه السلام) جهاد رسول اللَّه (صلى اللَّه عليه و آله و سلم) «1».

إذا فجهاد الكفار هو حملهم بالحكمة و الموعظة الحسنة إلى إقرار الإيمان ثم إلى قراره، و إلّا فالقتال، ثم جهاد المنافقين هو إلزامهم على ما أقروا به، ثم التزامهم بواقع الإيمان و إلّا فالقتال.

فلا يعني «جاهد» إلّا المجاهدة بمختلف درجاتها، مهما لا يصل في المنافقين إلى قتال إلّا في حالات قلال، ف «لما نزلت‏ جاهِدِ الْكُفَّارَ وَ الْمُنافِقِينَ» أمر رسول اللَّه (صلى اللَّه عليه و آله و سلم) أن يجاهد بيده، فإن لم يستطع فبقلبه، فإن لم يستطع فبلسانه فإن لم يستطع فليلقه بوجه مكفهر «2».

فهنا «وَ اغْلُظْ عَلَيْهِمْ» مرحلة أخيرة حاسمة بين مرحليات الدعوة في خطوات المجاهدة، و قتالهم إن لزم الأمر مطوي في‏ «وَ اغْلُظْ عَلَيْهِمْ».

ذلك، ف «جاهد» الشامل للقتال في آخر المجال، «وَ اغْلُظْ عَلَيْهِمْ» الدال على غلظهم في الجهاد، هما دليلان اثنان على أن «جاهد» لا يختص بالقتال، إذ لا دور ل «أغلظ» بعد «جاهد» إن عني به القتال، و لا غلظ أغلظ من القتال.

\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_

(1).

المصدر عن تفسير القمي عن أبي عبد اللَّه (عليه السلام) في قوله‏ «يا أَيُّهَا النَّبِيُّ جاهِدِ الْكُفَّارَ وَ الْمُنافِقِينَ» قال: هكذا نزلت فجاهد رسول اللَّه (صلى اللَّه عليه و آله و سلم) الكفار و جاهد علي (عليه السلام) المنافقين فجهاد علي ..

و

فيه عن أمالي الشيخ الطوسي بإسناده إلى ابن عباس قال: لما نزلت هذه الآية قال النبي (صلى اللَّه عليه و آله و سلم): لأجاهدن العمالقة يعني الكفار و أتاه جبرئيل (عليه السلام) قال: أنت أو علي.

(2) الدر المنثور 3: 258- أخرج البيهقي في شعب الإيمان عن ابن مسعود قال لما نزلت ..

الفرقان في تفسير القرآن بالقرآن، ج‏13، ص: 227

ذلك، فالمجاهدة في سبيل اللَّه هي الصراع الدائم للسالكين إلى اللَّه، سلبا لما سوى اللَّه و شرعته، و إيجابا للَّه بشرعته، فقد يدخل في نطاقها كافة المحاولات في هذه السبيل لتكون كلمة الذين كفروا السفلى و كلمة اللَّه هي العليا.

إذا فكافة الإجراءات الإيمانية لتحقيق كلمة «لا إِلهَ إِلَّا اللَّهُ» هي مجاهدات في سبيل اللَّه، سلبا للكفر و جلبا إلى الإيمان.

و كما ليست هذه المجاهدات لونا واحدا و شكلا فاردا، كذلك مجاهدة الكفار و المنافقين، كلّ كما تقتضيه حاله و مجاله، و ليس‏ «اغْلُظْ عَلَيْهِمْ» إلّا مرحلة أخيرة حاسمة بعد مرحليات المجاهدات اللطيفة العطيفة، و منها- مع الدعوة بالحكمة و الموعظة الحسنة- تأليف قلوب نافرة بمال ف‏ «الَّذِينَ آمَنُوا وَ هاجَرُوا وَ جاهَدُوا فِي سَبِيلِ اللَّهِ بِأَمْوالِهِمْ وَ أَنْفُسِهِمْ أَعْظَمُ دَرَجَةً عِنْدَ اللَّهِ» (9: 20) و هي بصورة طليقة «الَّذِينَ جاهَدُوا فِينا لَنَهْدِيَنَّهُمْ سُبُلَنا وَ إِنَّ اللَّهَ لَمَعَ الْمُحْسِنِينَ» (29: 69).

فهكذا «جاهِدِ الْكُفَّارَ وَ الْمُنافِقِينَ وَ اغْلُظْ عَلَيْهِمْ» هنا و في التحريم (9) «وَ مَأْواهُمْ جَهَنَّمُ وَ بِئْسَ الْمَصِيرُ» و لأن المنافقين هم أخطر من الكفار واقعيا مهما كانوا أقرب إلى المسلمين ظاهريا فجهادهم- إذا- أكثر منهم و أوعر، فالمنافق- كما الكافر- نار حيثما دار، و إخماد النار واجب المؤمنين الأحرار، و لكي تبقى الحياة المسلمة سليمة أمينة عن الأشرار، بذلا لكل جهد في إصلاح الأمر مهما بلغ به الأمر في ذلك الأمر، حفاظا على الإمرة الإسلامية و الكتلة المسلمة عن همجات و هجمات أنفسية أو دعائية أماهيه؟. و إلى‏ «وَ اغْلُظْ عَلَيْهِمْ» فإنه أغلظ المجاهدة و آخر المطاف فيها بما في الغلظ من قتالهم إذا لزم الأمر، فآخر الدواء الكي.

ذلك و لقد كان الرسول (صلى اللَّه عليه و آله و سلم) يلاين المنافقين كثيرا علّهم يلينون عن شدتهم، و يفيقون عن غفوتهم، و يغضي عنهم كثيرا علّهم يغضون، بالغا معهم في الصفح و الحلم و الساحة غايتها، فإذا انتهى أمد اللين فلتكن الشدة بمراحلها، فإن لم تنفع فالحسم القاطع، و ذلك عند ما يتظاهرون بمظاهر الكفر، و كما في النص التالي:

يَحْلِفُونَ بِاللَّهِ ما قالُوا وَ لَقَدْ قالُوا كَلِمَةَ الْكُفْرِ وَ كَفَرُوا بَعْدَ إِسْلامِهِمْ‏

الفرقان في تفسير القرآن بالقرآن، ج‏13، ص: 228

وَ هَمُّوا بِما لَمْ يَنالُوا وَ ما نَقَمُوا إِلَّا أَنْ أَغْناهُمُ اللَّهُ وَ رَسُولُهُ مِنْ فَضْلِهِ فَإِنْ يَتُوبُوا يَكُ خَيْراً لَهُمْ وَ إِنْ يَتَوَلَّوْا يُعَذِّبْهُمُ اللَّهُ عَذاباً أَلِيماً فِي الدُّنْيا وَ الْآخِرَةِ وَ ما لَهُمْ فِي الْأَرْضِ مِنْ وَلِيٍّ وَ لا نَصِيرٍ (74).

«يَحْلِفُونَ بِاللَّهِ ما قالُوا» ما قالوه و غالوا فيه مثل «لا تفتني»- يلمزك في الصدقات- هو أذن- إنما كنا نخوض و نلعب «في استهزاءهم» خضتم كالذي خاضوا- كما مضت.

أم و ما يروى عن قالاتهم القالة الغائلة ك و اللَّه لئن كان هذا الرجل صادقا لنحن شر من الحمير «1» و ما شتموه‏ «2» ك «سمن كلبك يأكلك» «3» دركات سبع جهنمية من قالاتهم الكافرة و محاولاتهم الماكرة في مختلف المجالات‏ «وَ كَفَرُوا بَعْدَ إِسْلامِهِمْ» بألسنتهم فإن كلمة الكفر تنقض كلمة الإسلام، و «إسلامهم» هنا تعم من آمن منهم بلسانه و قلبه كافر، أم لمّا يدخل الإيمان في قلبه، أم دخل دخيلا قليلا ضئيلا، فكفروا بقالاتهم الكافرة بعد إسلامهم بأيّ من زواياه الثلاث، حيث إن قالة الكفر تنقض قالة الإسلام على أية حال.

ثم‏ «وَ هَمُّوا بِما لَمْ يَنالُوا» من اغتيال النبي الأقدس (صلى اللَّه عليه‏

\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_

(1). قد مضت روايات عن الدر المنثور بهذا المعنى.

(2)

الدر المنثور 3: 258 عن ابن عباس قال‏ كان رسول اللَّه (صلى اللَّه عليه و آله و سلم) جالسا في ظل شجرة فقال: أنه سيأتيكم إنسان ينظر إليكم بعيني شيطان فإذا جاء فلا تكلموه فلم يلبثوا أن طلع رجل أزرق فدعاه رسول اللَّه (صلى اللَّه عليه و آله و سلم) فقال على م تشتمني أنت و أصحابك؟ فانطلق الرجل فجاء أصحابه فحلفوا باللَّه ما قالوا حتى تجاوز عنهم و أنزل اللَّه: «يَحْلِفُونَ بِاللَّهِ ما قالُوا ..».

(3) المصدر عن قتادة قال ذكر لنا أن رجلين اقتتلا أحدهما من جهينة و الآخر من غفار و كانت جهينة حلفاء الأنصار فظهر الغفاري على الجهني فقال عبد اللَّه بن أبي للأوس انصروا أخاكم و اللَّه ما مثلنا و مثل محمد إلا كما قال القائل: سمن كلبك يأكلك، و اللَّه لئن رجعنا إلى المدينة ليخرجن الأعز منها الأذل فسعى بها رجل من المسلمين إلى رسول اللَّه (صلى اللَّه عليه و آله و سلم) فأرسل إليه فسأله فجعل يحلف باللَّه ما قالوا و لقد قالوا كلمة الكفر.

الفرقان في تفسير القرآن بالقرآن، ج‏13، ص: 229

و آله و سلم) و قد سماهم اللَّه تعالى لنبيه (صلى اللَّه عليه و آله و سلم) «1».

\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_

(1).

المصدر أخرج ابن أبي حاتم و أبو الشيخ عن الضحاك في الآية هم الذين أرادوا أن يدفعوا النبي (صلى اللَّه عليه و آله و سلم) ليلة العقبة و كانوا قد اجمعوا أن يقتلوا رسول اللَّه (صلى اللَّه عليه و آله و سلم) و هم معه في بعض أسفاره فجعلوا يلتمسون غرمة حتى أخذ في عقبة فتقدم بعضهم و تأخر بعضهم و ذلك ليلا قالوا إذا أخذ في العقبة دفعناه عن راحلته في الوادي فسمع حذيفة و هو يسوق النبي (صلى اللَّه عليه و آله و سلم) و كان قائده تلك الليلة عمار و سائقه حذيفة بن اليمان فسمع حذيفة وقع أخفاف الإبل فالتفت فإذا هو بقوم متلثمين فقال إليكم يا أعداء اللَّه فأمسكوا و مضى النبي (صلى اللَّه عليه و آله و سلم) حتى نزل منزله الذي أراد فلما أصبح أرسل إليهم كلهم فقال: أردتم كذا و كذا فحلفوا باللَّه ما قالوا و لا أرادوا الذي سألهم عنه فذلك قوله: يحلفون ...

و

فيه عن ابن عباس في الآية قال: هم رجل يقال له الأسود بقتل رسول اللَّه (صلى اللَّه عليه و آله و سلم) و فيه عن عروة في قصة تبوك المفصلة فقال النبي (صلى اللَّه عليه و آله و سلم): هل علمتم ما كان شأنهم و ما أرادوه؟ قالوا: لا و اللَّه يا رسول اللَّه قال: فإنهم مكروا ليسيروا معي حتى إذا طلعت الشمس طرحوني منها، قالوا: أ فلا تأمر بهم يا رسول اللَّه فضرب أعناقهم؟ قال:

أكره أن يتحدث الناس و يقولوا: إن محمدا وضع يده في أصحابه، فسماهم لهما و قال اكتماهم، و فيه أخرج البيهقي في الدلائل عن ابن إسحاق نحوه و زاد بعد قوله الحذيفة هل عرفت من القوم أحدا فقال لا، فقال رسول اللَّه (صلى اللَّه عليه و آله و سلم) إن اللَّه أخبرني بأسمائهم و أسماء آبائهم و سأخبرك بهم إن شاء اللَّه عند وجه الصبح فلما أصبح سماهم له: عبد اللَّه بن أبي سعد و سعد بن أبي سرح و أبا حاصر الأعرابي و عامر أو أبا عامر و الجلاس بن سويد بن الصامت و مجمع بن حارثة و مليحا التيمي و حصين بن غير و طعمة بن أبيرق و عبد اللَّه بن عيينة و مرة بن ربيع فهم إثنا عشر رجلا حاربوا اللَّه و رسوله و أرادوه فأطلع اللَّه نبيه (صلى اللَّه عليه و آله و سلم) ذلك و ذلك قوله عزّ و جلّ: و هموا بما لم ينالوا و كان أبو عامر رأسهم و له بنوا مسجد الضرار و هو أبو حنظلة غسيل الملائكة.

و

فيه من حديث حذيفة بن اليمان‏ قلنا يا رسول اللَّه (صلى اللَّه عليه و آله و سلم) ألا تبعث إلى عشائرهم حتى يبعث إليك كل قوم برأس صاحبهم؟ قال: لا، إني أكره أن تحدث العرب بينها أن محمدا قاتل بقوم حتى إذا أظهره اللَّه بهم أقبل عليهم يقتلهم ثم قال:

اللّهم أرمهم بالدبيلة قلنا يا رسول اللَّه (صلى اللَّه عليه و آله و سلم) و ما الدبيلة؟ قال:

شهاب من نار يوضع على نياط قلب أحدهم فيهلك.

و

في نور الثقلين 2: 243 في تفسير العياشي عن جابر بن أرقم عن أخيه زيد بن أرقم قال: لما أقام النبي (صلى اللَّه عليه و آله و سلم) عليا (عليه السلام) بغدير خم و بلغ فيه عن اللَّه ما

الفرقان في تفسير القرآن بالقرآن، ج‏13، ص: 230

«وَ ما نَقَمُوا» من رسول اللَّه (صلى اللَّه عليه و آله و سلم) و الذين معه‏ «إِلَّا أَنْ أَغْناهُمُ اللَّهُ وَ رَسُولُهُ مِنْ فَضْلِهِ» بما حصلوا عليه من غنائم الغزوات و بسط الأمن و الرياحة المعيشية في ظل الإسلام، أ فهذه هي السيئة التي قدمها لهم الإسلام حتى ينقمون منه هكذا؟.

و هنا «رسوله» كما مضى ليس يعني إلا رسالة البلاغ، فلذلك أفرد الضمير للَّه بعد «رسوله» في «من فضله»، و لأن اللَّه لا يدخل في حساب العدد حتى يردف بغيره في عدّ، كما أن‏ «وَ رَسُولُهُ مِنْ فَضْلِهِ» فقد تعني‏ «أَغْناهُمُ اللَّهُ وَ رَسُولُهُ مِنْ فَضْلِهِ»: اللَّه، و هذا من مقابلة النعمة بالنقمة و ما أنحسها و أشرسها من هؤلاء الأغباش الأنكاد!.

ذلك، ثم أنظر إلى بالغة الرحمة و سابغتها الموعودة لهؤلاء الخونة إن‏

\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_

بلغ ثم نزل انصرفنا إلى رحالنا و كان إلى جانب خبائي خباء نفر من قريش و هم ثلاثة و معي حذيفة اليمان فسمعنا أحد الثلاثة و هو يقول: و اللَّه أن محمدا الأحمق إن يرى أن الأمر يستقيم لعلي من بعده، و قال الآخرون أ تجعله الأحمق ألم تعلم أنه مجنون قد كاد أنه يصرع عند امرأة ابن أبي كبشة، و قال الثالث: دعوه إن شاء أن يكون أحمق و إن شاء أن يكون مجنونا و اللَّه ما يكون ما يقول أبدا فغضب حذيفة من مقالتهم فرفع جانب الخباء فأدخل رأسه إليهم و قال: فعلتموها و رسول اللَّه بين أظهركم، و وحي اللَّه ينزل إليكم؟

و اللَّه لأخبرنه بكرة مقالتكم، فقالوا له: يا عبد اللَّه و انك لههنا و قد سمعت ما قلنا؟ أكتم علينا فإن لكل جوار أمانة، فقال لهم: ما هذا من جوار الأمانة و لا مجالسها، ما نصحت اللَّه و رسوله إن أنا طويت عنه هذا الحديث، فقالوا له: يا عبد اللَّه فاصنع ما شئت لنحلفن انا لم نقل و انك قد كذبت علينا افتراه يصدقك و يكذبنا و نحن ثلاثة؟ فقال لهم: أما أنا فلا أبالي إذا أديت النصيحة إلى اللَّه و إلى رسوله فقولوا ما شئتم أن تقولوا، ثم مضى حتى أتى رسول اللَّه (صلى اللَّه عليه و آله و سلم) و علي إلى جانب محتب بحمايل سيفه فأخبره بمقالة القوم فبعث إليهم رسول اللَّه (صلى اللَّه عليه و آله و سلم) فأتوه فقال لهم: ما ذا قلتم؟ فقالوا: و اللَّه ما قلنا شيئا فإن كنت أبلغت عنا شيئا فمكذوب علينا فهبط جبرئيل بهذه الآية: «يَحْلِفُونَ بِاللَّهِ» و قال علي عند ذلك ليقولوا ما شاءوا و اللَّه إن قلبي بين أضلاعي و إن سيفي لفي عنقي و لأن هموا لأهمين فقال جبرئيل (عليه السلام) للنبي (صلى اللَّه عليه و آله و سلم): أخبر الأمر الذي هو كائن فأخبرني النبي (صلى اللَّه عليه و آله و سلم) عليا بما أخبر به جبرئيل فقال: إذا اصبر للمقادير.

الفرقان في تفسير القرآن بالقرآن، ج‏13، ص: 231

تابوا عن ارتدادهم: «فَإِنْ يَتُوبُوا يَكُ خَيْراً لَهُمْ» و هذا نص في قبول توبتهم لصريح وعد الخير «وَ إِنْ يَتَوَلَّوْا» معرضين على ما هم عليه من الكفر و النكران‏ «يُعَذِّبْهُمُ اللَّهُ عَذاباً أَلِيماً فِي الدُّنْيا وَ الْآخِرَةِ» و من عذاب الدنيا خروجهم عن قوة الإسلام و أمنه، و قتلهم قضية حكم الارتداد المعمّد دون توبة، إذا فتوبة المرتد مقبولة بذلك النص، و لكن المنافق المتعمق المتحقق في نفاقه، المتعرق في كفره، ليس ليتوب و كما توعده اللَّه بالعذاب من ذي قبل‏ «إِنْ نَعْفُ عَنْ طائِفَةٍ مِنْكُمْ نُعَذِّبْ طائِفَةً بِأَنَّهُمْ كانُوا مُجْرِمِينَ» (66)، ثم‏ «وَ ما لَهُمْ فِي الْأَرْضِ مِنْ وَلِيٍّ وَ لا نَصِيرٍ».

ذلك، فكلمة الكفر إضافة إلى باطنه، تقلب الإنسان ظهر بطن، فالحذر الحذر من حصائد الألسنة و كما

عن النبي (صلى اللَّه عليه و آله و سلم): «و هل يكب الناس على مناخرهم في النار إلا حصائد ألسنتهم» «1»

فإن أكثر معاثر الأقدام، و مصارع الأنام هي من جرائر ألسنتهم عليهم، و عواقب الأقوال السيئة التي تؤثر عنهم، فالألسنة هي الزارعة و هي الحاصدة ما تزرعها.

وَ مِنْهُمْ مَنْ عاهَدَ اللَّهَ لَئِنْ آتانا مِنْ فَضْلِهِ لَنَصَّدَّقَنَّ وَ لَنَكُونَنَّ مِنَ الصَّالِحِينَ (75) فَلَمَّا آتاهُمْ مِنْ فَضْلِهِ بَخِلُوا بِهِ وَ تَوَلَّوْا وَ هُمْ مُعْرِضُونَ (76).

معاهدة على شرط «لَئِنْ آتانا مِنْ فَضْلِهِ» فهم أنحس ممن‏ «يَعْبُدُ اللَّهَ عَلى‏ حَرْفٍ فَإِنْ أَصابَهُ خَيْرٌ اطْمَأَنَّ بِهِ وَ إِنْ أَصابَتْهُ فِتْنَةٌ انْقَلَبَ عَلى‏ وَجْهِهِ» (22: 11) «فَلَمَّا آتاهُمْ مِنْ فَضْلِهِ» و أخذوا يعيشون على رغد عيش و طمأنينة جأش «بخلوا به» نقضا ل «لنصدقن» ثم‏ «وَ تَوَلَّوْا وَ هُمْ مُعْرِضُونَ» نقضا ل‏ «لَنَكُونَنَّ مِنَ الصَّالِحِينَ» و ذلك من أنحس الخيانة الكافرة، فهل هم بعد يوفّقون لتوبة حتى يتوب اللَّه عليهم كما وعد «فَإِنْ يَتُوبُوا يَكُ خَيْراً لَهُمْ»!.

ذلك، و قد يجري بصورة خفيفة في غير المنافق من ضعيف في‏

\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_

(1). المجازات النبوية للسيد الشريف الرضي (98).

الفرقان في تفسير القرآن بالقرآن، ج‏13، ص: 232

إيمانه كثعلبة بن خاطب و من أشبه‏ «1» و لكن النص يحمل صورة ثقيلة لا تحمل مثل ثعلبة إلّا جريا في خفيفها.

و لأن تخلف العهد نفاق فيه، و لا سيما إذا أضيف إليه الإعراض، فقد يدوم ذلك النفاق عقابا معقبا:

فَأَعْقَبَهُمْ نِفاقاً فِي قُلُوبِهِمْ إِلى‏ يَوْمِ يَلْقَوْنَهُ بِما أَخْلَفُوا اللَّهَ ما وَعَدُوهُ وَ بِما كانُوا يَكْذِبُونَ (77) أَ لَمْ يَعْلَمُوا أَنَّ اللَّهَ يَعْلَمُ سِرَّهُمْ وَ نَجْواهُمْ وَ أَنَّ اللَّهَ عَلَّامُ الْغُيُوبِ (78).

«فأعقبهم» ذلك النفاق الكافر، ف «أعقبهم» اللَّه، بذلك‏ «نِفاقاً فِي قُلُوبِهِمْ» عريقا يبقى‏ «إِلى‏ يَوْمِ يَلْقَوْنَهُ» أعقبهم‏ «بِما أَخْلَفُوا اللَّهَ ما وَعَدُوهُ وَ بِما كانُوا يَكْذِبُونَ»: إعقابا بإعقابهم عقابا هنا، جزاء وفاقا، «بَلى‏ مَنْ كَسَبَ سَيِّئَةً وَ أَحاطَتْ بِهِ خَطِيئَتُهُ فَأُولئِكَ أَصْحابُ النَّارِ هُمْ فِيها خالِدُونَ».

فكما الإيمان يعقب إيمانا على إيمان و هدى على هدى: «الَّذِينَ اهْتَدَوْا زادَهُمْ هُدىً وَ آتاهُمْ تَقْواهُمْ» كذلك الكفر و النفاق يعقبان كفرا و نفاقا على القلوب‏ «إِلى‏ يَوْمِ يَلْقَوْنَهُ» فلا يوفقون لتوبة إذ صدت على قلوبهم منافذ النور إلى مهاوي النار: «جَهَنَّمَ يَصْلَوْنَها وَ بِئْسَ الْقَرارُ».

\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_

(1).

مجمع البيان قيل‏ نزلت في ثعلبة بن خاطب و كان من الأنصار قال للنبي (صلى اللَّه عليه و آله و سلم): ادع اللَّه أن يرزقني مالا، فقال: يا ثعلبة قليل تؤدي شكره خير من كثير لا تطيقه أما لك في رسول اللَّه أسوة حسنة؟ و الذي نفسي بيده لو أردت أن تسير الجبال معي ذهبا و فضة لسارت، ثم أتاه بعد ذلك فقال يا رسول اللَّه (صلى اللَّه عليه و آله و سلم) أدع اللَّه أن يرزقني مالا و الذي بعثك بالحق لئن رزقني مالا لأعطين كل ذي حقه حقه، فقال:

اللّهم أرزق ثعلبة، قال: فاتخذ غنما فنمت كما ينمى الدود فضاقت عليه المدينة فتنخى منها فنزل واديا من أوديتها ثم كثرت حتى تباعد عن المدينة فاشتغل بذلك عن الجمعة و الجماعة فبعث رسول اللَّه (صلى اللَّه عليه و آله و سلم) المصدق ليأخذ الصدقة فأبى و بخل و قال: ما هذه إلا أخت الجزية، فقال رسول اللَّه (صلى اللَّه عليه و آله و سلم) يا ويل ثعلبة فأنزل اللَّه عزّ و جلّ الآيات.

الفرقان في تفسير القرآن بالقرآن، ج‏13، ص: 233

«أَ لَمْ يَعْلَمُوا أَنَّ اللَّهَ يَعْلَمُ سِرَّهُمْ وَ نَجْواهُمْ» و هم يسيرون بالكفر و يتناجون بالإثم و العدوان و معصية الرسول‏ «وَ أَنَّ اللَّهَ عَلَّامُ الْغُيُوبِ» سرا و نجوى و أخفى منهما غيبا، كالنيات المستقبلة و الأفعال الآتية، فالسر قبال التجوي، و «أخفى» هو الأخفى منهما.

فما دام النفاق غير مرتكن في القلب أمكن إزالته، فإذا ارتكن معمّدا متواترا فأصبح القلب ركاما من النفاق لم تمكن إزالته، و حتى إذا أرادها حيث‏ «خَتَمَ اللَّهُ عَلى‏ قُلُوبِهِمْ» بما كانوا يفعلون.

و هنا «يَوْمِ يَلْقَوْنَهُ» هو لقاء العلم حيث يكشف الغطاء، و هو لقاء عالم اللَّه حيث لا خيرة للعبد، و يوم لقاء الحساب و الجزاء بلقاء وعد اللَّه، فهو يوم الموت، ثم لا دور للنفاق إلا الجزاء الوفاق.

و هنا «ما وعدوه» تحلّق على كافة المواعيد الربانية فطرية و عقلية، ثم قالية و حالية إخلافا حليقا، طليقا عن «ما وعدوه» ثم هم «يكذبون».

فمن بذور النفاق الكافر إخلاف وعد اللَّه و تكذيبه، و

قد يروي عن النبي (صلى اللَّه عليه و آله و سلم) «آية المنافق ثلاث: إذا حدث كذب و إذا وعد أخلف و إذا أئتمن خان» «1»

و هؤلاء هم:

الَّذِينَ يَلْمِزُونَ الْمُطَّوِّعِينَ مِنَ الْمُؤْمِنِينَ فِي الصَّدَقاتِ وَ الَّذِينَ لا يَجِدُونَ إِلَّا جُهْدَهُمْ فَيَسْخَرُونَ مِنْهُمْ سَخِرَ اللَّهُ مِنْهُمْ وَ لَهُمْ عَذابٌ أَلِيمٌ (79).

«الْمُطَّوِّعِينَ مِنَ الْمُؤْمِنِينَ» هم المتطوعون في كل شي‏ء للَّه، متطوعين «في الصدقات» تطوعا لواجب الصدقة و راجحها، حيث يصدّقون بالزائد عن حاجاتهم المتعوّدة، فهم أولاء الأنكاد «يلمزونهم» تعييبا و تأنيبا في كل تطوعاتهم و «في الصدقات» و «يلمزون- الَّذِينَ لا يَجِدُونَ إِلَّا جُهْدَهُمْ» و هم يصّدّقون مجهودهم‏ «فَيَسْخَرُونَ مِنْهُمْ» فهؤلاء

\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_

(1). الدر المنثور 3: 261- أخرج البخاري و مسلم و الترمذي و النسائي عن أبي هريرة عن النبي (صلى اللَّه عليه و آله و سلم): ...

الفرقان في تفسير القرآن بالقرآن، ج‏13، ص: 234

«سَخِرَ اللَّهُ مِنْهُمْ» في الدنيا و الآخرة بما يعقبهم من العذاب و التباب، سخرية بسخرية و أين هي من هيه؟، حيث‏ «لَهُمْ عَذابٌ أَلِيمٌ» و

«إن الله تعالى لا يسخر و لا يستهزأ و لا يمكر و لا يخادع و لكنه تعالى يجازيهم جزاء السخرية و جزاء الاستهزاء و جزاء المكر و الخديعة تعالى عما يقول الظالمون علوا كبيرا» «1».

و هنا التطوع الإيماني في اللَّه له بعد ان اثنان: تكلف في الطوع في واجب أو راجح في واسع من الجهد، ثم تكلف فيه في أصل الجهد و هو ضيقه و جهد المقل‏ «2» و هما من سماحة الإيمان فليس هنا واقع التكلف، إنما هو ظرفه لمن لا ينفق، فاللّامزون الساخرون من هؤلاء هم الساخرون من شرعة اللَّه و سماحته في أمره بالإنفاق و التصدق و لا سيما جهد المقل، و

«قد أفلح المزهد المجهد قد أفلح المزهد المجهد» «3».

\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_

(1). نور الثقلين 2: 247 في عيون الاخبار باسناده إلى الحسن بن علي بن فضال عن الرضا (عليه السلام): ..

(2)

نور الثقلين 2: 246 في تفسير القمي في الآية جاء سالم بن عمير الأنصاري بصاع من تمر فقال يا رسول اللَّه (صلى اللَّه عليه و آله و سلم) كنت ليلتي أجر الجرير حتى عملت بصاعين من تمر فأقرضته أحدهما فأمسكته و أما الآخر فأقرضته ربي فأمر رسول اللَّه (صلى اللَّه عليه و آله و سلم) أن ينثره في الصدقات فسخر منه المنافقون و قالوا: و اللَّه أن اللَّه لغني عن هذا الصاع ما يصنع اللَّه بصاعه شيئا و لكن أبا عقيل أراد أن يذكر نفسه ليعطي من الصدقات فقال اللَّه: سخر اللَّه منهم و لهم عذاب أليم.

و

فيه عن المجمع روى عن النبي (صلى اللَّه عليه و آله و سلم) انه سئل فقيل يا رسول اللَّه أي الصدقة أفضل؟ قال: جهد المقل.

و

في الدر المنثور 3: 262 عن أبي هريرة قال قال رسول اللَّه (صلى اللَّه عليه و آله و سلم) تصدقوا فإني أريد أن أبعث بعثا فجاء عبد الرحمن فقال يا رسول اللَّه (صلى اللَّه عليه و آله و سلم) عندي أربعة آلاف ألفين أقرضهما ربي و ألفين لعيالي فقال: بارك اللَّه لك فيما أعطيت و بارك اللَّه لك فيما أمسكت و جاء رجل من الأنصار فقال يا رسول اللَّه (صلى اللَّه عليه و آله و سلم) إني بت أجر الجرير فأصبت صاعين من تمر فصاعا أقرضته ربي و صاعا لعيالي فلمزه المنافقون قالوا: و اللَّه ما أعطى ابن عوف الذي أعطى إلا رياء و قالوا: أو لم يكن اللَّه و رسوله غنيين عن صاع هذا؟ فأنزل اللَّه‏ «الَّذِينَ يَلْمِزُونَ ..».

(3)

المصدر أخرج عبد اللَّه بن أحمد في زوائد الزهد عن أبي السليل قال: وقف علينا شيخ‏

الفرقان في تفسير القرآن بالقرآن، ج‏13، ص: 235

أجل، جهد المقل المزهد هو أفضل الصدقة و لكن‏

«أبدا بمن تعول» «1»

و أما «يُؤْثِرُونَ عَلى‏ أَنْفُسِهِمْ وَ لَوْ كانَ بِهِمْ خَصاصَةٌ» فلا تعني حرمان من تعول، إنما هو إيثار بعد واجب النفقة، و إلا فهو إيثار الإعسار المحظور في شرعة اللَّه لمكان النهي: «وَ لا تَجْعَلْ يَدَكَ مَغْلُولَةً إِلى‏ عُنُقِكَ» و «يَسْئَلُونَكَ ما ذا يُنْفِقُونَ قُلِ الْعَفْوَ»: الزائد عن الحاجة الطبيعية، و بغير إسراف أو تبذير و لا إقتار.

أجل و إن هؤلاء المنافقين البخلاء عما يتوجب عليهم قد يتعدى بخلهم إلى منفقين غيرهم ساخرين منهم و مستهزئين بهم، تقولا و تغولا على هؤلاء المؤمنين السمحين المنبعثين إلى الصدقات بكل طواعية نفس و رضا قلب، حيث يتطوعون تكلفا متعودا في غير ما تكلف أو تخلّف، حيث طوعوا أنفسهم لكل المشاق في سبيل اللَّه لحد أصبحت المشقة لهم راحة، و الصعوبة لهم رياحة دون أية عاهة.

ذلك لأن هؤلاء الأنكاد الساخرين لا يدركون المشاعر الرفرافة المنبعثة من هذه الذوات الطاهرة الغامرة من حب اللَّه و حب أهل اللَّه.

فهؤلاء الأغباش العباد لا توبة لهم و لا غفران حيث «أعقبهم‏ نِفاقاً فِي قُلُوبِهِمْ إِلى‏ يَوْمِ يَلْقَوْنَهُ» ف:

\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_

في مجلسنا فقال: حدثني أبي أو عمي أنه شهد رسول الله (صلى الله عليه و آله و سلم) بالبقيع قال: من يتصدق اليوم بصدقة أشهد له بها عند الله يوم القيامة فجاء رجل لا و الله ما بالبقيع رجل أشد سواد وجه منه و لا أقصر قامة و لا أذم في عين منه بناقة، لا و الله ما بالبقيع شي‏ء أحسن منها فقال رسول الله (صلى الله عليه و آله و سلم): هذه صدقة؟

قال: نعم يا رسول الله (صلى الله عليه و آله و سلم) فلمزه رجل فقال: يتصدق بها و الله لهي خير منه فسمع رسول الله (صلى الله عليه و آله و سلم) كلمته فقال: كذبت بل هو خير منك و منها ثلاثة مرارا ثم قال رسول الله (صلى الله عليه و آله و سلم): إلا من قال بيده هكذا أو هكذا و قليل ما هم ثم قال: قد أفلح المزهد المجهد مرتين.

(1).

المصدر عن أبي هريرة أنه قال يا رسول الله (صلى الله عليه و آله و سلم) أي الصدقة أفضل؟ قال: جهد المقل و ابدأ بمن تعول.

الفرقان في تفسير القرآن بالقرآن، ج‏13، ص: 236

اسْتَغْفِرْ لَهُمْ أَوْ لا تَسْتَغْفِرْ لَهُمْ إِنْ تَسْتَغْفِرْ لَهُمْ سَبْعِينَ مَرَّةً فَلَنْ يَغْفِرَ اللَّهُ لَهُمْ ذلِكَ بِأَنَّهُمْ كَفَرُوا بِاللَّهِ وَ رَسُولِهِ وَ اللَّهُ لا يَهْدِي الْقَوْمَ الْفاسِقِينَ (80).

هنا «سبعين» عدد غير محدّد، حيث أتي به هنا للتكثير، بقرينة «لن» حيث تحيل الغفر عن بكرته على أية حال و قبلها مساوات الاستغفار و تركه أيا كان، و من بعد «بِأَنَّهُمْ كَفَرُوا» فهذه الثلاثة آيات بينات لكون «سبعين» واردة مورد التكثير دون حد لعده، و من ثم‏ «سَواءٌ عَلَيْهِمْ أَسْتَغْفَرْتَ لَهُمْ أَمْ لَمْ تَسْتَغْفِرْ لَهُمْ لَنْ يَغْفِرَ اللَّهُ لَهُمْ» تحيل غفرهم على أية حال، فلا يصدق المفترى على الرسول (صلى اللَّه عليه و آله و سلم) أن‏

يقول: «لأزيدن على السبعين» «1»

فيبدوا هنا أنه بدا له أن يستغفر لهم أم بدأ يستغفر لمكان‏ «فَإِنْ يَتُوبُوا يَكُ خَيْراً لَهُمْ» فهنا اللَّه يخبره أن مصير هؤلاء مقرر، و حسابهم مختوم محتوم، فلا مجال لتوبتهم أو الاستغفار لهم، فالقلب حين يختم عليه و يسد عنه كل منافذ النور فلا مجال بعده إليه من نور: «وَ مَنْ لَمْ يَجْعَلِ اللَّهُ لَهُ نُوراً فَما لَهُ مِنْ نُورٍ».

و هنا «اسْتَغْفِرْ لَهُمْ» أمرا «أَوْ لا تَسْتَغْفِرْ لَهُمْ» نهيا هما سيان في واقع الاستغفار «فَلَنْ يَغْفِرَ اللَّهُ لَهُمْ» و ليس الاستغفار إلّا لغفر برجائه، و حين لا رجاء فالاستغفار لغو ينزّه عنه ساحة الرسول (صلى اللَّه عليه و آله و سلم).

\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_

(1).

الدر المنثور 3: 264- أخرج ابن جرير و ابن أبي حاتم عن عروة أن عبد اللَّه بن أبي قال لأصحابه: لو لا أنكم تنفقون على محمد و أصحابه لا نفضوا من حوله و هو القائل:

ليخرجن الأعز منها الأذل فأنزل اللَّه الآية قال النبي (صلى اللَّه عليه و آله و سلم) لأزيدن على السبعين فأنزل اللَّه‏ «سَواءٌ عَلَيْهِمْ أَسْتَغْفَرْتَ لَهُمْ أَمْ لَمْ تَسْتَغْفِرْ لَهُمْ لَنْ يَغْفِرَ اللَّهُ لَهُمْ».

و

في نور الثقلين: 2: 247 عن تفسير العياشي عن العباس بن هلال عن أبي الحسن الرضا (عليه السلام) قال: إن اللَّه تعالى قال لمحمد (صلى اللَّه عليه و آله و سلم): «إِنْ تَسْتَغْفِرْ لَهُمْ سَبْعِينَ مَرَّةً فَلَنْ يَغْفِرَ اللَّهُ لَهُمْ» فاستغفر لهم مائة مرة ليغفر لهم فأنزل اللَّه‏ «سَواءٌ عَلَيْهِمْ أَسْتَغْفَرْتَ لَهُمْ أَمْ لَمْ تَسْتَغْفِرْ لَهُمْ لَنْ يَغْفِرَ اللَّهُ لَهُمْ» و قال «لا تصل على أحد منهم مات أبدا و لا تقم على قبره، فلم يستغفر لهم بعد ذلك و لم يقم على قبر واحد منهم».

الفرقان في تفسير القرآن بالقرآن، ج‏13، ص: 237

ذلك و مثله كثير مثل‏ «أَنْفِقُوا طَوْعاً أَوْ كَرْهاً لَنْ يُتَقَبَّلَ مِنْكُمْ» «سَواءٌ عَلَيْهِمْ أَسْتَغْفَرْتَ لَهُمْ أَمْ لَمْ تَسْتَغْفِرْ لَهُمْ لَنْ يَغْفِرَ اللَّهُ لَهُمْ إِنَّ اللَّهَ لا يَهْدِي الْقَوْمَ الْفاسِقِينَ» (64: 6).

و المستفاد من «لن يغفر» بعد «أَسْتَغْفَرْتَ لَهُمْ أَمْ لَمْ تَسْتَغْفِرْ» و من بعد «بِأَنَّهُمْ كَفَرُوا ..» أنه يحرم الاستغفار لمن تبين أنه من أصحاب الجحيم، و قد تبين الرسول (صلى اللَّه عليه و آله و سلم) ببيان اللَّه تعالى ذلك فلم يستغفر لهم و لن، إذ «ما كانَ لِلنَّبِيِّ وَ الَّذِينَ آمَنُوا أَنْ يَسْتَغْفِرُوا لِلْمُشْرِكِينَ وَ لَوْ كانُوا أُولِي قُرْبى‏ مِنْ بَعْدِ ما تَبَيَّنَ لَهُمْ أَنَّهُمْ أَصْحابُ الْجَحِيمِ» (9: 113).

أ فبعد ما تبين للنبي (صلى اللَّه عليه و آله و سلم) بعد بيان اللَّه أن هؤلاء المنافقين لا يستغفر لهم، يخلد بخلده أن يستغفر لهم مأة مرة تأويلا ل‏ «سَبْعِينَ مَرَّةً» المحظورة بنفس العدد، و هذه القرائن القاطعة تؤكد أنه فقط للتكثير، فلو استغفر لهم مليارات المرات إلى يوم القيامة فلن يغفر اللَّه لهم.

أ فهكذا تهتك ساحة الرسول (صلى اللَّه عليه و آله و سلم) القدسية أنه لم يتبين ببيان اللَّه حرمة الاستغفار لهم فاستغفر مأة أو حاول؟!.

فَرِحَ الْمُخَلَّفُونَ بِمَقْعَدِهِمْ خِلافَ رَسُولِ اللَّهِ وَ كَرِهُوا أَنْ يُجاهِدُوا بِأَمْوالِهِمْ وَ أَنْفُسِهِمْ فِي سَبِيلِ اللَّهِ وَ قالُوا لا تَنْفِرُوا فِي الْحَرِّ قُلْ نارُ جَهَنَّمَ أَشَدُّ حَرًّا لَوْ كانُوا يَفْقَهُونَ (81).

«المخلّفون» هم الذين خلّفوا عن الجهاد بما تخلّفوا استئذانا لقعودهم و هم فرحون‏ «بِمَقْعَدِهِمْ خِلافَ رَسُولِ اللَّهِ» حيث خالفوا أمر قائد القوات الرسولي نفاقا عارما «وَ كَرِهُوا أَنْ يُجاهِدُوا بِأَمْوالِهِمْ وَ أَنْفُسِهِمْ فِي سَبِيلِ اللَّهِ» كراهية هي طبيعتهم المنافقة الكافرة، و من قالهم في قعودهم خلاف رسول اللَّه: «لا تَنْفِرُوا فِي الْحَرِّ» «1» تظاهرا بمصلحية الحفاظ على‏

\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_

(1).

الدر المنثور 3: 265 عن ابن عباس‏ أن رسول اللَّه (صلى اللَّه عليه و آله و سلم) أمر

الفرقان في تفسير القرآن بالقرآن، ج‏13، ص: 238

نفوسهم، رغم أن واجب الجهاد- و لا سيما في استنفاره العام- لا يعرف حرا و لا بردا و ما أشبه‏ «قُلْ نارُ جَهَنَّمَ» المؤججة على المخلّفين المخالفين‏ «أَشَدُّ حَرًّا» مما تزعمون‏ «لَوْ كانُوا يَفْقَهُونَ» الحق المرام، بتفقه صالح ينتج لهم علما غائبا بعلم حاضر، و لكنهم‏ «يَعْلَمُونَ ظاهِراً مِنَ الْحَياةِ الدُّنْيا وَ هُمْ عَنِ الْآخِرَةِ هُمْ غافِلُونَ»- و هنا «لو» تحيل فقههم عن تقصير تحول إلى قصور، كما أن «لن يغفر» إحالة بما اختاروا ذلك النفاق و ثبتوا عليه قصورا عن تقصير.

و هنا «خلاف» دون «خلف» تعني معنى زائدا عن الخلف و هو أنه خلف الخلف، حيث تخلفوا أم خلّفوا، فإنهم بين من استاذن متخلفا و من نهي عن الخروج، ف «المخلفون» دون «المتخلفون» لكي تشمل إلى المستأذنين للقعود آخرين منعوا عن الخروج، سواء الذين استأذنوا منهم للخروج: «فَإِنْ رَجَعَكَ اللَّهُ إِلى‏ طائِفَةٍ مِنْهُمْ فَاسْتَأْذَنُوكَ لِلْخُرُوجِ فَقُلْ لَنْ تَخْرُجُوا مَعِيَ أَبَداً ... فَاقْعُدُوا مَعَ الْخالِفِينَ» (83) أم لم يستأذنوا للخروج أم قعود و هم منعوا عن الخروج، ثالوث منحوس من «المخلّفين» هم فرحون بمقعدهم خلاف رسول اللَّه، و ما «قالُوا لا تَنْفِرُوا فِي الْحَرِّ» إلّا الأولين، و لكن «المخلّفون» تعم إليهم الآخرين.

ذلك، و إن كانوا هم يشفقون من ذلك الحر، و يؤثرون راحة الجسد المسترخية في ظلال، على راحة الروح بروح و رضوان، فما هم فاعلون- إذا- بحر جهنم و هي أشد حرا و امدّ طولا و طولا؟ .. إنها لسخرية مريرة و هي حقيقة لهم حقيقة بهم، إذا:

\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_

الناس أن ينبعثوا معه و ذلك في الصيف فقال رجال يا رسول اللَّه الحر شديد و لا نستطيع الخروج فلا تنفروا في الحر فقال اللَّه: قل نار جهنم أشد حرا لو كانوا يفقهون فأمره بالخروج.

و

فيه أخرج ابن مردويه عن جابر بن عبد اللَّه قال: استدار برسول اللَّه (صلى اللَّه عليه و آله و سلم) رجال من المنافقين حين أذن للجد بن قيس ليستأذنوه و يقولون: يا رسول اللَّه ائذن لنا فإنا لا نستطيع أن نتفر في الحر فأذن لهم و أعرض عنهم فأنزل اللَّه في ذلك: «قُلْ نارُ جَهَنَّمَ أَشَدُّ حَرًّا ..».

الفرقان في تفسير القرآن بالقرآن، ج‏13، ص: 239

فَلْيَضْحَكُوا قَلِيلًا وَ لْيَبْكُوا كَثِيراً جَزاءً بِما كانُوا يَكْسِبُونَ (82).

هل الأمران هنا تكليفيان؟ و المنافق لا يأتمر بأمر فكيف يكلف به؟! إنهما تعجيزيان‏ «فَلْيَضْحَكُوا قَلِيلًا» هنا كما هم ضاحكون فرحون بمقعدهم خلاف رسول اللَّه، و مهما حسبوه كثيرا و لكنه في الحق قليل‏ «1»:

«فَما مَتاعُ الْحَياةِ الدُّنْيا فِي الْآخِرَةِ إِلَّا قَلِيلٌ» (9: 38) ثم‏ «وَ لْيَبْكُوا كَثِيراً» هنا لو يعلمون ما هو حالهم بمآلهم، و بعد الموت تحسرا و تأسفا على ما مضى و تخوفا على الحاضر هناك و المستقبل.

إذا فلا واقع لأمر ضحكهم بعد الموت، و إنما «فليضحكوا» هنا قليلا و كل حياة الدنيا قليل، «و ليبكوا» هنا و هناك «كثيرا» و هو في نفسه كثير فضلا عن نسبته إلى ما هنا.

و هنا «جَزاءً بِما كانُوا يَكْسِبُونَ» كما تختص البكاء الكثير باليوم الأخير، كذلك تختصهما جميعا بالمنافقين و الكافرين، فلا تشمل المؤمنين، اللّهم إلا غضا عن «جزاء» تأويلا ل «فليضحكوا ..» و كما

يروى عن النبي (صلى اللَّه عليه و آله و سلم): «و الله لو تعلمون ما أعلم لضحكتم قليلا و لبكيتم كثيرا» «2».

ذلك، فقد يعني الأمران هنا إلى التعجيز التكليف مهما لا

\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_

(1). الدر المنثور 3: 65 عن ابن عباس في الآية قال: الدنيا قليل فليضحكوا فيها ما شاءوا فإذا انقطعت الدنيا و صاروا إلى اللَّه استأنفوا بكاء لا ينقطع أبدا.

(2)

المصدر أخرج ابن مردويه عن أنس قال قال رسول اللَّه (صلى اللَّه عليه و آله و سلم): إني أرى ما لا ترون و اسمع ما لا تسمعون أطت السماء و حق لها أن تئط ما فيها موضع أصابع إلا و ملك واضع جبهته للَّه ساجدا و اللَّه لا تعلمون ما أعلم ... و ما تلذذتم بالنساء على الفرش و لخرجتم إلى الصعدات تجأرون إلى اللَّه لوددت أني كنت شجرة تعضد.

و في مفتاح كنوز السنة مثله‏

نقلا عن: بخ- ك 16 ب 2، ك 67 ب 107، ك 81 ب 27، ك 83 ب 3، تر- ك 34 ب 9، مج- ك 37 ب 19. مى- ك 20 ب 26، حم ثان ص 257 و 312 و 417 و 432 و 453 و 467 و 477 و 502، ثالث ص 102 و 126 و 154 و 180 و 192 و 210 و 217 و 240 و 245 و 251 و 268 و 290، خامس ص 173، سادس ص 81 و 164، ط- ح 2071.

الفرقان في تفسير القرآن بالقرآن، ج‏13، ص: 240

يأتمرون، أن على الكفار و المنافقين أن يقللوا من ضحكهم هنا و يكثروا من البكاء بما قدمت لهم أنفسهم‏ «جَزاءً بِما كانُوا يَكْسِبُونَ» هنا، ثم‏ «لْيَبْكُوا كَثِيراً» جزاء هناك.

و كذلك الأمر للمؤمنين تغاضيا عن الجزاء السوء، بل حصولا على الحسنى في الحياة الأخرى حيث الضحك الكثير آية الغفلة و الغفوة، مهما كان المؤمن بشره في وجهه و حزنه في قلبه، فهو حين يضحك حزين على ما يرى في الأرض من الفساد.

ذلك، و على كل مقصر مؤمنا أو كافرا أن يبكي كثيرا على تقصيره و قصوره، و تخضعا للَّه.

و طبيعة الحال في الكافر الغافل و المؤمن المستغفل أن يكون فرحا، و تعاكسها في المؤمن النابه أن يكون قرحا، فالكافر فرح بحريته في شهواته و له رفاق فيها كثير، و ليس قرحا إلا قليلا فيما لا ينال شهوة أو تناله مصيبة.

و المؤمن قرح حيث الإيمان هو قيد الفتك، و لما يرى في الأرض من الفساد الكثير و رفاقه في الإيمان قليل.

و الضحك المحظور للمؤمن هو الناشئ عن الغفلة، دون الضحك بشرا تلطيفا لجو المجتمع الذي يعيشه، فإنه محبور، و قد كان النبي (صلى اللَّه عليه و آله و سلم) مبتسما.

إذا فالضحك و البكاء هما ظاهرتان- في الأغلب- لفرح أو قرح في القلب، فلأن قلب المؤمن قرح بما يرى من نفسه و من سواه، فهو باك و إن لم يظهر بكاءه، حيث الأصل في البكاء هو انكماش النفس، كما أن قلب الكافر فرح مرح حيث يعيش حرية أهواءه و معه رفاقه الكثير مهما لم يظهر فرحه.

فالأصل في‏ «فَلْيَضْحَكُوا قَلِيلًا وَ لْيَبْكُوا كَثِيراً» هم غير المؤمنين، هنا لو عرفوا مآلهم بحالهم الكافرة، و هناك ليس إلا البكاء شاءوا أم أبوا.

ثم الأصل في المؤمنين أن يكونوا فرحي القلب‏ «فَلْيَضْحَكُوا قَلِيلًا»

الفرقان في تفسير القرآن بالقرآن، ج‏13، ص: 241

بمظهره و قلوبهم باكية، «وَ لْيَبْكُوا كَثِيراً» بمظهره و سواه و قلوبهم حاكية.

و لا يعني‏

حديث النبي (صلى اللَّه عليه و آله و سلم) بقوله‏ «و الله لو تعلمون ما أعلم لضحكتم قليلا و لبكيتم كثيرا»

إلا تأويلا للآية دون تفسير، لأن مال الضحك إلى فرح القلب و المؤمن قرح القلب بما يعلم الأمثل فالأمثل.

و لأن «فليضحكوا و ليبكوا» أمران غائبان فلا يعنيان إلّا حتمية قليل الضحك و كثير البكاء، و الأول لا محالة واقع في الدنيا حيث إن الضحك فيها مهما كان كثيرا فهو بجنب بكاء الآخرة قليل.

ثم الثاني لا محالة واقع في الأخرى شاءوا أم أبوا دونما حاجة إلى أمر.

ثم لو كانوا يفقهون هنا «فَلْيَضْحَكُوا قَلِيلًا» حين الغفلة «وَ لْيَبْكُوا كَثِيراً» عند النبهة بما قدمت لهم أنفسهم لأخراهم.

فَإِنْ رَجَعَكَ اللَّهُ إِلى‏ طائِفَةٍ مِنْهُمْ فَاسْتَأْذَنُوكَ لِلْخُرُوجِ فَقُلْ لَنْ تَخْرُجُوا مَعِيَ أَبَداً وَ لَنْ تُقاتِلُوا مَعِيَ عَدُوًّا إِنَّكُمْ رَضِيتُمْ بِالْقُعُودِ أَوَّلَ مَرَّةٍ فَاقْعُدُوا مَعَ الْخالِفِينَ (83).

هنا نفاق معاكس من هؤلاء الأنكاد، فقد رضوا بالقعود أول مرة باستئذان، و هم أولاء يستأذنون للخروج هنا ثاني مرة، و الجواب كلمة واحدة:

«لَنْ تَخْرُجُوا مَعِيَ أَبَداً وَ لَنْ تُقاتِلُوا مَعِيَ عَدُوًّا» فسواء عليكم استأذنتم للقعود أم للخروج فالقصد واحد هو القعود «فَاقْعُدُوا مَعَ الْخالِفِينَ» مستأذنين للخروج أو القعود، و غير مستأذنين.

هنا «فَإِنْ رَجَعَكَ اللَّهُ» بعد الإنتصار «إِلى‏ طائِفَةٍ مِنْهُمْ» لم يخرجوا دون استئذان أم قعدوا باستئذان‏ «فَاسْتَأْذَنُوكَ لِلْخُرُوجِ» لغزوة أخرى نظرة الإنتصار أم تعمية لقصد القعود، «فقل ..» ل‏ «إِنَّكُمْ رَضِيتُمْ بِالْقُعُودِ أَوَّلَ مَرَّةٍ» فما أنتم إلا قاعدين، إذا «فَاقْعُدُوا مَعَ الْخالِفِينَ» فلا حاجة إليكم بعد على أية حال، فإنكم أنتم الخالفون على أية حال، فمهما كانوا هم خالفين صراحا فأنتم خالفون قصدا حيث كنتم معهم أوّل مرة، و الخالف‏

الفرقان في تفسير القرآن بالقرآن، ج‏13، ص: 242

لغويا هو المخالف و هو الفاسد، فلا يعني الخلف الصالح حيث العبارة الشاملة للكل «القاعدين» ثم‏ «رَضُوا بِأَنْ يَكُونُوا مَعَ الْخَوالِفِ» هي الأخرى شاهدة على معنى الخالف.

فقد نزلت هذه الآية على الرسول (صلى اللَّه عليه و آله و سلم) و هو في غزوة تبوك، و هذه الطائفة منهم كان لهم مزدوج النفاق حيث استأذنوه للخروج لغزوة أخرى بعد ما استأذنوا للقعود عن تبوك، و هذه من الملاحم القرآنية أن يخبر جمعا من المنافقين ان لن يخرجوا و لم يخرجوا و إن تكذيبا لهذه الملحمة، و كما في جمع من الكافرين‏ «سَواءٌ عَلَيْهِمْ أَ أَنْذَرْتَهُمْ أَمْ لَمْ تُنْذِرْهُمْ لا يُؤْمِنُونَ» و الخالفون هنا هم القاعدون الأولون المستأذنون للقعود، و هم هنا لا يستأذنون للخروج، فلا تعني معهم المعذورين من المؤمنين حيث المعية المعنية هي المحظورة، فإنما الخالفون هم المخلّفون الفرحون بمقعدهم خلاف رسول اللَّه، دون الضعفاء و المرضى و الذين لا يجدون ما ينفقون.

و هكذا يواجه الجندي المتخلف الخالف ألا حاجة إليه في غزوة سهلة حين يرفض النفر في غزوة صعبة ملتوية، حيث يتبين القصد من الخروج إذا أنه تعمية القعود الأول نفاقا بعد نفاق.

و الدعوات الربانية و لا سيما القتال في سبيل اللَّه بحاجة ماسة إلى صالحين صلبين مستقيمين مصممين صامدين في طويل الكفاح الشاق المرير، و الصف الفاشل، المتخلل فيه الضعاف المسترخون، ليس ليصمد كما يرام، حيث يخذلونه في ساعة الشدة و العسرة، فلينبذوا بعيدا عن ذلك الصف، مقاتلين في سبيل اللَّه كأنهم بنيان مرصوص غير واه و لا مرضوض، خالصين عن كل دخل و دجل.

فالتسامح مع الخالفين في ساعة العسرة لساعة الرخاء و اليسرة- حيث يعودون بمظهر المتطوعين- ذلك التسامح هو خيانة للصف كله، و جناية على الدعوة كلها، فإلى المفاصلة التامة لكي يخلص الصف عن تسرب النفاق‏ «فَاقْعُدُوا مَعَ الْخالِفِينَ» المجانسين إياكم، و ابعدوا عن المناضلين غير المجانسين لكم.

الفرقان في تفسير القرآن بالقرآن، ج‏13، ص: 243

هذه هي حياتهم الجهنمية، و إلى حياتهم الأخرى حيث لا يشاركون مع المؤمنين في صلاة عليهم و لا تجهيز جنازة اللّهم إلّا غسلا و كفنا و دفنا هي قضية ظاهر الإسلام:

وَ لا تُصَلِّ عَلى‏ أَحَدٍ مِنْهُمْ ماتَ أَبَداً وَ لا تَقُمْ عَلى‏ قَبْرِهِ إِنَّهُمْ كَفَرُوا بِاللَّهِ وَ رَسُولِهِ وَ ماتُوا وَ هُمْ فاسِقُونَ (84).

و تراه صلى على أحد منهم مات أو قام على قبره فنهي بعد عن ذلك؟ طبيعة الحال في إجراء أحكام الإسلام على المنافقين تقتضي أن يصلي عليهم أو و يقوم على قبورهم كسائر المسلمين، اللّهم إلّا أن ينهي عن البعض من الطقوس الإسلامية بحقهم، و من ناحية أخرى نهي (صلى اللَّه عليه و آله و سلم) من ذي قبل أن يستغفر لهم، و من مفروضات الصلاة على الميت الاستغفار له، و قضية الجمع بين الأمرين أن يصلي عليهم‏ «1» دون استغفار، فلسائر المسلمين تكبيرات خمس و لهم أربع‏ «2» حيث تنقص صلاتهم الدعاء لهم، فلما نهي عن الصلاة عليهم ترك هذه الأربع أيضا

\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_

(1).

الدر المنثور 3: 266- أخرج ابن المنذر عن عمر بن الخطاب قال‏ لما مرض عبد اللَّه بن أبي ابن سلول مرضه الذي مات فيه عاده رسول اللَّه (صلى اللَّه عليه و آله و سلم) فلما مات صلى عليه و قام على قبره، قال: و اللَّه إن مكثنا إلا ليالي حتى نزلت‏ «وَ لا تُصَلِّ عَلى‏ أَحَدٍ مِنْهُمْ ماتَ أَبَداً ..»

و

فيه أخرج ابن ماجة و البراز و ابن جرير و أبو الشيخ و ابن مردويه عن جابر قال: مات رأس المنافقين بالمدينة فأوصى أن يصلي عليه النبي (صلى اللَّه عليه و آله و سلم) و أن يكفنه في قميصه فجاء ابنه إلى النبي (صلى اللَّه عليه و آله و سلم) فقال: أبي أوصى أن يكفن في قميصك فصلى عليه و ألبسه قميصه و قام على قبره فأنزل اللَّه‏ «وَ لا تُصَلِّ ..».

و

فيه عن أنس أن رسول اللَّه (صلى اللَّه عليه و آله و سلم) أراد أن يصلي على عبد اللَّه بن أبي فأخذ جبرئيل (عليه السلام) بثوبه و قال: «وَ لا تُصَلِّ عَلى‏ أَحَدٍ مِنْهُمْ ماتَ أَبَداً وَ لا تَقُمْ عَلى‏ قَبْرِهِ».

(2)

نور الثقلين 2: 250 عن الكافي عن علي بن إبراهيم عن أبي عبد اللَّه (عليه السلام) قال: كان رسول اللَّه (صلى اللَّه عليه و آله و سلم) يكبر على قوم خمسا و على قوم آخرين أربعا و إذا كبر على رجل أربعا أنهم بالنفاق.

الفرقان في تفسير القرآن بالقرآن، ج‏13، ص: 244

خلاف ما يروى، فإنها صورة الصلاة و قد نهي عنها مطلقا «1» اللّهم إلا أن يعني من الصلاة الدعاء.

ذلك و مما يزيد الصلاة عليهم ترجيحا حرمة أقاربهم المؤمنين و جذب آخرين من المنافقين إلى الإيمان، قضية هذه الرحمة الواسعة الإسلامية.

فلو أنه صلى على عبد اللَّه بن أبي رأس المنافقين و بعث بقميصه ليكفن فيه، أم و قام على قبره- و ذلك قبل نهيه عن هذا و ذلك- لم يكن بذلك موبّخا مؤنّبا، بل و كان ترك الصلاة قبل نهيه محظورا، مهما انقلب بعد نهيه محبورا، فإنه (صلى اللَّه عليه و آله و سلم) وقف لأمر اللَّه و نهيه، دون هواه أم أهواء من سواه إلا سبيل اللَّه و هداه.

إذا فكيف يتجرأ عمر أن ينهى رسول اللَّه (صلى اللَّه عليه و آله و سلم) عما أمره اللَّه و إن كان ينهاه اللَّه بعد، ينهاه و يجذب ثوبه هتكا لساحته و مسا من كرامته؟ فهل هو أعلم منه بأحكام اللَّه، أو أحوط منه على شرعة اللَّه، و هل يعد ذلك- بعد- من مكارم الخليفة أن نزل وحي اللَّه بعد على هواه، خلافا لهوى رسول اللَّه (صلى اللَّه عليه و آله و سلم) «وَ لَوِ اتَّبَعَ الْحَقُّ أَهْواءَهُمْ لَفَسَدَتِ السَّماواتُ وَ الْأَرْضُ».

إن هذه القولات الغولات إلا هرطقات حمقاء و اللَّه و رسوله منها براء، فإنها تفضيل رذيل لعمر على رسول اللَّه (صلى اللَّه عليه و آله و سلم) فالغريق يتشبث بكل حشيش.

هذا و من غريب الهرطقات أن عمر ينهاه (صلى اللَّه عليه و آله و سلم) عن الصلاة عليهم بعد نزول هذه الآية، ويكأنه (صلى اللَّه عليه‏

\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_

(1).

المصدر عن الكافي عنه عن محمد بن مهاجر عن أمه عن أم سلمة قالت سمعت أبا عبد اللَّه (عليه السلام) يقول: كان رسول اللَّه (صلى اللَّه عليه و آله و سلم) إذا صلى على ميت كبر و تشهد ثم كبر و صلى على الأنبياء ثم كبر و دعا للمؤمنين ثم كبر الرابعة و دعا للميت ثم كبر و انصرف فلما نهاه اللَّه عزّ و جل عن الصلاة على المنافقين كبر و تشهد ثم كبر و صلى على النبيين صلى اللَّه عليهم ثم كبر و دعا للمؤمنين ثم كبر الرابعة و انصرف و لم يدع للميت.

الفرقان في تفسير القرآن بالقرآن، ج‏13، ص: 245

و آله و سلم) يعارض الوحي و عمر يحارزه؟ «1».

فسواء أصلى عليه قبل نزول النهي عنها، أم وقف أمامه كهيئة المصلي عليه، فلا مغمز عليه في شي‏ء منهما، و قد أجابه الرسول (صلى اللَّه عليه و آله و سلم) في الثاني:

و ما يدريك ما قلت له: فإني قلت له:

اللّهم أحش قبره نارا و سلط عليه الحيات و العقارب.

ذلك، و الجهاد من أكبر الواجبات، و التقاعس و التواني عنه من أكبر المحرمات‏

«فإن الجهاد باب من أبواب الجنة فتحه الله لخاصة أولياءه، و هو لباس التقوى و درع الله الحصينة، و جنته الوثيقة، فمن تركه رغبة

\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_

(1).

المصدر في الدلائل عن ابن عمر قال: لما توفي عبد الله بن أبي بن سلول أتى ابنه عبد الله رسول الله (صلى الله عليه و آله و سلم) فسأله أن يعطيه قميصه ليكفنه فيه فأعطاه ثم سأله أن يصلي عليه فقام رسول الله (صلى الله عليه و آله و سلم) فقام عمر بن الخطاب فأخذ ثوبه فقال يا رسول الله (صلى الله عليه و آله و سلم) أ تصلي عليه و قد نهاك الله أن تصلي على المنافقين فقال: أن ربي خيرني و قال استغفر لهم أو لا تستغفر لهم ..» و سأزيد على السبعين، فقال: انه منافق فصلى عليه فأنزل اللَّه‏ «وَ لا تُصَلِّ ..» أقول هنا متناقضة بين صدر الحديث و ذيله و نسبة سوء الفهم إلى الرسول (صلى اللَّه عليه و آله و سلم) في «استغفر ..» فيا له من مختلق يراد منه تبجيل الخليفة و تخجيل الرسول (صلى اللَّه عليه و آله و سلم)!

و

في نور الثقلين 2: 250 في تفسير العياشي عن حنان بن سدير عن أبيه عن أبي جعفر (عليهما السلام) توفي رجل من المنافقين فأرسل إلى ابنه أن إذا أردتم أن يخرجوا فأعلموني فلما حضر أمره أرسلوا إلى النبي (صلى اللَّه عليه و آله و سلم) فأقبل نحوهم حتى أخذ بيد ابنه في الجنازة فمضى، قال فتصدى له عمر ثم قال: يا رسول اللَّه أما نهاك ربك عن هذا أن تصلي على أحد منهم مات أبدا و لا تقم على قبره؟ فلم يجبه النبي (صلى اللَّه عليه و آله و سلم) قال: فلما كان قبل أن ينتهوا به إلى القبر قال عمر أيضا لرسول اللَّه (صلى اللَّه عليه و آله و سلم): أما نهاك اللَّه عن أن تصلي على أحد منهم مات أبدا أو تقوم على قبره؟ «ذلك ب إِنَّهُمْ كَفَرُوا بِاللَّهِ وَ رَسُولِهِ وَ ماتُوا وَ هُمْ فاسِقُونَ» فقال النبي (صلى اللَّه عليه و آله و سلم) لعمر عند ذلك: ما رأيتنا صلينا على جنازة و لا قمنا له على قبر ثم قال: إن ابنه رجل من المؤمنين و كان يحق علينا أداء حقه، و قال له عمر:

أعوذ باللَّه من سخط اللَّه و سخطك يا رسول اللَّه.

الفرقان في تفسير القرآن بالقرآن، ج‏13، ص: 246

عنه، ألبسه اللَّه ثوب الذل و شملة البلاء، و ديّث بالصغار و القماء، و ضرب على قلبه بالإسهاب، و أديل الحق منه بتضييع الجهاد و سيم الخسف و منع النّصف- ألا و إني قد دعوتكم إلى قتال هؤلاء القوم ليلا و نهارا و سرا و إعلانا، و قلت لكم: أغزوهم قبل أن يغزوكم، فو اللَّه ما غزي قوم قط في عقر دارهم إلّا ذلوا، فتواكلتم و تخاذلتم، حتى شنّت عليكم الغارات، و ملكت عليكم الأوطان، و هذا أخو غامد و قد وردت خيله الأنبار و قد قتل حسان بن حسان البكري، و أزال خيلكم عن مسالحها، و لقد بلغني أن الرجل منهم كان يدخل على المرأة المسلمة و الأخرى المعاهدة فينتزع حجلها و قلبها و قلائدها و رغاثها، ما تمنع منه إلا بالاسترجاع و الاسترحام، ثم انصرفوا وافرين، ما نال رجلا منهم كلم، و لا أريق لهم دم، فلو أن إمرأ مسلما مات بعد هذا أسفا ما كان به ملوما، بل كان به عندي جديرا- فيا عجبا عجبا، و اللَّه يميت القلب و يجلب الهمّ اجتماع هؤلاء القوم على باطلهم و تفرقكم عن حقكم، فقبحا لكم و ترحا حين صرتم غرضا يرمى، يغار عليكم و لا تغيرون، و تغرزون و لا تغرزون، و يعصى اللَّه و ترضون- فإذا أمرتكم بالسير إليهم في أيام الحر قلتم هذه حمّارة القيظ، أمهلنا يسبّح عنا الحر، و إذا أمرتكم بالسير إليهم في الشتاء قلتم هذه صبّارة القرّ، أمهلنا ينسلخ عنا البرد، كل هذا فرارا من الحر و القر، فإذا كنتم من الحر و القر تفرون، فأنتم و اللَّه من السيف أفرّ- يا أشباه الرجال و لا رجال، حلوم الأطفال، و عقول ربات الحجال، لوددت أني لم أركم و لم أعرفكم، معرفة و اللَّه جرّت ندما، و أعقبت سدما، قاتلكم اللَّه لقد ملأتم قلبي قيحا، و شحنتم صدري غيظا، و جرّعتموني نغب التهمام أنفاسا، و أفسدتم عليّ رأيي بالعصيان و الخذلان حتى قالت قريش: إن ابن أبي طالب رجل شجاع و لكن لا علم له بالحرب، للَّه أبوهم! و هل أحد منكم أشد لهما مراسا و أقدم فيها مقاما مني، لقد نهضت فيها و ما بلغت العشرين، و ها أنا ذا قد ذرفت على‏

الفرقان في تفسير القرآن بالقرآن، ج‏13، ص: 247

الستين، و لكن لا رأي لمن لا يطاع» (الخطبة 27)

و مهما يكن من شي‏ء فلم يقف عمر موقفه في نهيه (صلى اللَّه عليه و آله و سلم) إلّا محظورا يدل على نقصه في إيمانه أو نقضه إيمانه أن يبادر الرسول (صلى اللَّه عليه و آله و سلم) بلفظة قول أم جذبة ثوب تأنيبا عجيبا كأنه خالف وحي اللَّه أم لم يعرف معناه!.

فالرسول (صلى اللَّه عليه و آله و سلم) هنا بين حالات ثلاث: أنه صلى على ابن أبي دونما استغفار له لآية النهي عنه، و قبل آية النهي عن الصلاة، فقد أدّى واجبه، فكيف ينهى- إذا- عن واجبه؟.

أم لم يصل عليه إذ سبقه النهي عن الصلاة، و إنما وقف أمامه كصورة المصلي، حرمة لابنه المؤمن و علّه يؤمن بذلك ألف من المنافقين و قد آمنوا، و هو في الأول أولى، و لا تطارده: «وَ لَوْ لا أَنْ ثَبَّتْناكَ لَقَدْ كِدْتَ تَرْكَنُ إِلَيْهِمْ شَيْئاً قَلِيلًا. إِذاً لَأَذَقْناكَ ضِعْفَ الْحَياةِ وَ ضِعْفَ الْمَماتِ ثُمَّ لا تَجِدُ لَكَ عَلَيْنا نَصِيراً» (7: 75) لأنها ليست بشأنه مع المنافقين، و أن هذه الملاينة هي ليست مع المنافق بل هي مع ابنه، ثم لا تعني- على أية حال- ركونا إلى المنافقين، أو ترى إعطاء نصيب من الزكوة لهم تأليفا لقلوبهم ركونا إليهم، و قد أمر به اللَّه! أم ترى وعد الغفران لهم إن تابوا ركونا إليهم؟ و هو نص كتاب اللَّه!.

أم صلى عليه دون استغفار بعد النهي عنها؟ و هذا مس من كرامته في عدالته فضلا عن عصمته! و مهما اختلفت الروايات بين هذه الثلاث فهي متفقة على أمرين أمرين: أن عمر نهاه قبل النهي عن الصلاة و بعده، و كما اتفقت في‏

أنه (صلى اللَّه عليه و آله و سلم) أرسله بثوبه ليغطي به و لما ذكروا القميص قال: «و ما يغني عنه قميصي، و الله إني أرجو أن يسلم به أكثر من ألف من بني الخزرج» «1».

\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_

(1).

الدر المنثور 3: 266- أخرج أبو الشيخ عن قتادة قال: وقف نبي اللَّه (صلى اللَّه عليه و آله و سلم) على عبد اللَّه بن أبي فدعاه فأغلظ له و تناول لحية النبي (صلى اللَّه عليه و آله و سلم) فقال أبو أيوب: كف يدك عن لحية رسول اللَّه (صلى اللَّه عليه و آله و سلم) فو اللَّه‏

الفرقان في تفسير القرآن بالقرآن، ج‏13، ص: 248

أجل، و لما ذا لا يبعث إليه قميصه (صلى اللَّه عليه و آله و سلم) و قد طلبه و طلبه ابنه قضية وصيته، و ابنه هذا من كرام المؤمنين، و قد يلمح طلبه قميصه أنه آمن و اهتدى حتى أخبره جبرئيل أنه مات كافرا، ثم العباس عم النبي (صلى اللَّه عليه و آله و سلم) لما أخذ أسيرا يوم بدر لم يجدوا له قميصا و كان رجلا طويلا فكساه عبد اللَّه قميصه، و هكذا المشركون لما قالوا له يوم الحديبية: إنا لا ننقاد لمحمد، فقال لا، إن لي في رسول اللَّه أسوة حسنة، فقد يشكره الرسول (صلى اللَّه عليه و آله و سلم) على هذه المواقف و كما يشكر ابنه على موقفه المشكور في الإيمان، ثم اللَّه نهاه عن رد السائل.

أ فلا يكفي كل ذلك مبررا لإجابة طلبته في قميصه، و أن يصلي عليه- إن كانت قبل النهي عنها- أو يقف أمامه كهيئة المصلي و هو لا يصلي؟!.

أجل‏ «لا تُصَلِ‏ ... وَ لا تَقُمْ‏ ... إِنَّهُمْ كَفَرُوا بِاللَّهِ وَ رَسُولِهِ وَ ماتُوا وَ هُمْ فاسِقُونَ» فليس- فقط- الكفر باللَّه و رسوله مانعا عن سماح الصلاة عليهم و القيام على قبرهم، بل‏ «وَ ماتُوا وَ هُمْ فاسِقُونَ» خارجون عن طاعة اللَّه متظاهرين بباطن كفرهم، حيث الفسق يخص ظاهر التخلف، و تقدم الكفر هنا دليل أنه فسق الكفر، فحين يظهر الكفر من الفاسق و المنافق يلحق بالكفار الرسميين الخارجين عن كل أحكام الإسلام.

فلا مجرد الفسق يكفي و لا مجرد الكفر في الباطن دون تظاهر به، إنما هو الجمع بين كفر الباطن و الظاهر، و أن يموتوا و هم فاسقون بذلك‏

\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_

لئن أذن لي لأضعن فيك السلاح، و أنه مرض فأرسل إلى النبي (صلى اللَّه عليه و آله و سلم) يدعوه فدعا بقميصه فقال عمر: و اللَّه ما هو بأهل أن تأتيه، قال: بلى فأتاه فقال: أهلكتك موادتك اليهود، قال: إنما دعوتك لتستغفر لي و لم أدعك لتؤنبني، قال: اعطني قميصك لأكفن فيه، فأعطاه و نفث في جلده و نزل في قبره فأنزل اللَّه‏ «وَ لا تُصَلِّ عَلى‏ أَحَدٍ مِنْهُمْ ماتَ أَبَداً ..» قال: فذكروا القميص، قال: و ما يغني عنه قميصي و اللَّه لأرجو أن يسلم به أكثر من ألف من بني الخزرج.

الفرقان في تفسير القرآن بالقرآن، ج‏13، ص: 249

الكفر، فمن مات بكفر باطن دون ظاهر الكفر، أو مات بفسق دون باطن الكفر، فهما محكومان بمظاهر أحكام الإسلام اللّهم إلا ما استثناه الدليل كالصلاة عليه و القيام على قبره كما هنا.

و لا تعني الصلاة هنا فقط الدعاء فإن صيغته السائغة هي الدعاء، و قد سبق النهي عن الدعاء لمن تبين أنهم من أصحاب الجحيم، فهي- إذا- الصلاة على الأموات، فقد كانت أربع تكبيرات دون دعاء قبل نزول هذه الآية، ثم منع عنها مهما ليس فيها دعاء.

ذلك، فالمستفاد من الآية حرمة الصلاة على الكافر منافقا و سواه، إلا إذا لم يظهر الكفر حيث التكاليف مبنية على الظاهر و كما

يروى عن النبي (صلى اللَّه عليه و آله و سلم): «نحن نحكم بالظاهر و الله تعالى يتولى السرائر»

، ثم و وجوبها على المسلم أيا كان، ف‏

«صل على من مات من أهل القبلة و حسابه على الله» «1»

و

«صلوا على المرجوم من أمتي و على القاتل نفسه من أمتي لا تدعوا أحدا من أمتي بلا صلاة» «2».

و مهما كانت أمثال هذه الأخبار ضعيفة السند أو المتن فالآية هي قوية المتن و السند، و لم تستثن من واجب الصلاة على الأموات إلّا المنافقين الرسميين‏ «كَفَرُوا بِاللَّهِ وَ رَسُولِهِ وَ ماتُوا وَ هُمْ فاسِقُونَ» سواء أ كان كفرهم صراحا خروجا إليه بعد إسلامهم، أم خفية فإنهم كذلك كافرون مهما شملتهم أحكام الإسلام في الظاهر، و لكن الآية نصت على استثناء الصلاة عليهم و القيام على قبورهم و الاستغفار لهم.

و الولد البالغ ست سنين و لا سيما الذي يعقل الصلاة يصلى عليه لتظافر المعتبرة عليه، و هذا من قضايا إلحاق من لم يبلغ الحلم من المسلمين بمن بلغه.

\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_

(1). هو خبر أبي طلحة بن زيد عن أبي عبد اللَّه (عليه السلام) عن أبيه (عليه السلام) قال:

صل .. (الوسائل كتاب الطهارة أبواب صلاة الجنازة ب 37 ح 2).

(2) هو خبر السكوني عن جعفر عن أبيه عن آبائه (عليهم السلام) قال قال رسول اللَّه (صلى اللَّه عليه و آله و سلم): ... (المصدر ح 3).

الفرقان في تفسير القرآن بالقرآن، ج‏13، ص: 250

ذلك، و الخبر المشهور للميت المسلم في «اللهم إنا لا نعلم منه إلا خيرا» ليس يعني إلّا خير الإسلام فقط أمام سواه اللاإسلام و دون إسلام، لا و خير الأعمال، و الّا كان كذبا بالنسبة لفساق المسلمين، أم كان المفروض ترك هذه الشهادة؟ و هي من ضمن الصلاة!.

فهؤلاء المنافقون لا كرامة لهم أحياء و أمواتا، فلا تصل على أحد منهم مات أبدا و لا تقم على قبره ...:

وَ لا تُعْجِبْكَ أَمْوالُهُمْ وَ أَوْلادُهُمْ إِنَّما يُرِيدُ اللَّهُ أَنْ يُعَذِّبَهُمْ بِها فِي الدُّنْيا وَ تَزْهَقَ أَنْفُسُهُمْ وَ هُمْ كافِرُونَ (85).

و لقد مضت نظيرتها (55) بعد المنع عن قبول نفقاتهم بتلك المناسبة، و هنا تكرارها إلا بقليل من ألفاظها بعد منع الصلاة عليهم و القيام على قبرهم، فلا تكرار في متطلّب الموقف مهما كان تكرارا في لفظ الآية.

[سورة التوبة (9): الآيات 87 الى 97]

رَضُوا بِأَنْ يَكُونُوا مَعَ الْخَوالِفِ وَ طُبِعَ عَلى‏ قُلُوبِهِمْ فَهُمْ لا يَفْقَهُونَ (87) لكِنِ الرَّسُولُ وَ الَّذِينَ آمَنُوا مَعَهُ جاهَدُوا بِأَمْوالِهِمْ وَ أَنْفُسِهِمْ وَ أُولئِكَ لَهُمُ الْخَيْراتُ وَ أُولئِكَ هُمُ الْمُفْلِحُونَ (88) أَعَدَّ اللَّهُ لَهُمْ جَنَّاتٍ تَجْرِي مِنْ تَحْتِهَا الْأَنْهارُ خالِدِينَ فِيها ذلِكَ الْفَوْزُ الْعَظِيمُ (89) وَ جاءَ الْمُعَذِّرُونَ مِنَ الْأَعْرابِ لِيُؤْذَنَ لَهُمْ وَ قَعَدَ الَّذِينَ كَذَبُوا اللَّهَ وَ رَسُولَهُ سَيُصِيبُ الَّذِينَ كَفَرُوا مِنْهُمْ عَذابٌ أَلِيمٌ (90) لَيْسَ عَلَى الضُّعَفاءِ وَ لا عَلَى الْمَرْضى‏ وَ لا عَلَى الَّذِينَ لا يَجِدُونَ ما يُنْفِقُونَ حَرَجٌ إِذا نَصَحُوا لِلَّهِ وَ رَسُولِهِ ما عَلَى الْمُحْسِنِينَ مِنْ سَبِيلٍ وَ اللَّهُ غَفُورٌ رَحِيمٌ (91)

وَ لا عَلَى الَّذِينَ إِذا ما أَتَوْكَ لِتَحْمِلَهُمْ قُلْتَ لا أَجِدُ ما أَحْمِلُكُمْ عَلَيْهِ تَوَلَّوْا وَ أَعْيُنُهُمْ تَفِيضُ مِنَ الدَّمْعِ حَزَناً أَلاَّ يَجِدُوا ما يُنْفِقُونَ (92) إِنَّمَا السَّبِيلُ عَلَى الَّذِينَ يَسْتَأْذِنُونَكَ وَ هُمْ أَغْنِياءُ رَضُوا بِأَنْ يَكُونُوا مَعَ الْخَوالِفِ وَ طَبَعَ اللَّهُ عَلى‏ قُلُوبِهِمْ فَهُمْ لا يَعْلَمُونَ (93) يَعْتَذِرُونَ إِلَيْكُمْ إِذا رَجَعْتُمْ إِلَيْهِمْ قُلْ لا تَعْتَذِرُوا لَنْ نُؤْمِنَ لَكُمْ قَدْ نَبَّأَنَا اللَّهُ مِنْ أَخْبارِكُمْ وَ سَيَرَى اللَّهُ عَمَلَكُمْ وَ رَسُولُهُ ثُمَّ تُرَدُّونَ إِلى‏ عالِمِ الْغَيْبِ وَ الشَّهادَةِ فَيُنَبِّئُكُمْ بِما كُنْتُمْ تَعْمَلُونَ (94) سَيَحْلِفُونَ بِاللَّهِ لَكُمْ إِذَا انْقَلَبْتُمْ إِلَيْهِمْ لِتُعْرِضُوا عَنْهُمْ فَأَعْرِضُوا عَنْهُمْ إِنَّهُمْ رِجْسٌ وَ مَأْواهُمْ جَهَنَّمُ جَزاءً بِما كانُوا يَكْسِبُونَ (95) يَحْلِفُونَ لَكُمْ لِتَرْضَوْا عَنْهُمْ فَإِنْ تَرْضَوْا عَنْهُمْ فَإِنَّ اللَّهَ لا يَرْضى‏ عَنِ الْقَوْمِ الْفاسِقِينَ (96)

الْأَعْرابُ أَشَدُّ كُفْراً وَ نِفاقاً وَ أَجْدَرُ أَلاَّ يَعْلَمُوا حُدُودَ ما أَنْزَلَ اللَّهُ عَلى‏ رَسُولِهِ وَ اللَّهُ عَلِيمٌ حَكِيمٌ (97)

الفرقان في تفسير القرآن بالقرآن، ج‏13، ص: 252

وَ إِذا أُنْزِلَتْ سُورَةٌ أَنْ آمِنُوا بِاللَّهِ وَ جاهِدُوا مَعَ رَسُولِهِ اسْتَأْذَنَكَ أُولُوا الطَّوْلِ مِنْهُمْ وَ قالُوا ذَرْنا نَكُنْ مَعَ الْقاعِدِينَ (86).

«سُورَةٌ أَنْ آمِنُوا» قد تعني إلى «سورة» كاملة تحمل الأمر بالإيمان و الجهاد، مجموعة آيات تحملهما، بل و لا سورة في القرآن كاملة تحمل أمرهم بالإيمان و الجهاد، فإن سورة «المنافقون» الخاصة بهم لا تحملهما، فالمعني من «سورة» هنا هو مجموعة من آيات تعني غرضا واحدا.

«اسْتَأْذَنَكَ أُولُوا الطَّوْلِ مِنْهُمْ»: بسعة في المال و قوة في البدن، حيث الطول يعمهما، فرغم أنهم الذين يجب عليهم أن يستقدموا نراهم يستأخرون قائلين: «ذَرْنا نَكُنْ مَعَ الْقاعِدِينَ».

هم يقولون‏ «ذَرْنا نَكُنْ مَعَ الْقاعِدِينَ» الذين قعدوا عن القتال معذورين، و لكنهم في الحق قاعدون مع سائر الخالفين:

رَضُوا بِأَنْ يَكُونُوا مَعَ الْخَوالِفِ وَ طُبِعَ عَلى‏ قُلُوبِهِمْ فَهُمْ لا يَفْقَهُونَ (87).

«الخوالف» جمع خالفة و تاءها للتأنيث اعتبارا بأنهن النساء، «1»،

\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_

(1).

نور الثقلين 2: 251 في تفسير العياشي عن جابر عن أبي جعفر (عليه السلام) في‏

الفرقان في تفسير القرآن بالقرآن، ج‏13، ص: 253

و سائر الضّعفان، و المعذورين مهما كانوا من أشجع الشجعان المناضلين.

و ذلك لأنهم أجمع يظلون في أمكنتهم دون خروج للحرب مهما اختلفت أعذارهم، و منهم غير معذورين.

و من الخالفين النساء حيث يقمن في دور الحي بعد رحيل الرجال، سمّين بها تشبيها لهن بالأعمدة تكون في أواخر البيوت المضروبة، لأنهن كماهيه خوالف في البيوت لكثرة لزومهن إياها.

أم و هي للمبالغة، و هم المتخلفون على مكنتهم بدنيا و ماليا، فالخوالف تشمل المتخلفين قاصرين و مقصرين، و كون القادرين على الخروج كالخوالف المتخلفين قصورا أو تقصيرا تنديد بهم شديد ف‏ «طُبِعَ عَلى‏ قُلُوبِهِمْ» أكثر ممن سواهم «فهم يفقهون» الحقائق المعنية، و فاعل الطبع هنا هم أنفسهم، ثم اللَّه طبع على قلوبهم بما طبعوا «فَلَمَّا زاغُوا أَزاغَ اللَّهُ قُلُوبَهُمْ» ف «الخالفين» هنا تعني المقصرين منهم إلى القاصرين، و قد يعنى معهم العدول الصالحون.

فيا لهم- على طولهم- من بؤس و خذلان حيث رضوا بأن يكونوا مع الخوالف المتخلفين المقصرين و المخلفين القاصرين، فهم على طولهم بين مقصر و قاصر.

ذلك و من «الخوالف» الصالحين من خلّفهم رسول اللَّه (صلى اللَّه عليه و آله و سلم) من أشجع الشجعان كما

خلف رسول اللَّه (صلى اللَّه عليه و آله و سلم) عليا في غزوة تبوك و هو يبكي و يقول تخلفني مع الخوالف فقال رسول اللَّه (صلى اللَّه عليه و آله و سلم): «ألا ترضى أن تكون مني بمنزلة هارون من موسى إلا النبوة» «1».

\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_

قوله: «رَضُوا بِأَنْ يَكُونُوا مَعَ الْخَوالِفِ» فقال: النساء انهم قالوا «إِنَّ بُيُوتَنا عَوْرَةٌ» و كان بيوتهم في أطراف البيوت حيث ينفرد الناس فأكذبهم اللَّه قال: «وَ ما هِيَ بِعَوْرَةٍ إِنْ يُرِيدُونَ إِلَّا فِراراً» و هي رفيعة السمك حصينة.

(1).

الدر المنثور 3: 266- أخرج ابن مردويه عن سعد بن أبي وقاص‏ أن علي بن أبي طالب (عليه السلام) خرج مع النبي (صلى اللَّه عليه و آله و سلم) حتى جاء ثنية الوداع يريد تبوك و علي يبكي ...

الفرقان في تفسير القرآن بالقرآن، ج‏13، ص: 254

و لأن «رضوا ..» هنا في موقف التنديد فالقصد من مثلث الخوالف- إذا- هم دون الأخير المخلّف على قوته ليكون خليفة الرسول (صلى اللَّه عليه و آله و سلم) بعد غيابه و حتى إيابه.

ذلك، و هنا «أن آمنوا» خطابا موجها إلى المنافقين دليل أنهم ليسوا داخلين في المؤمنين، مهما شملتهم خطابات الإيمان فيما لا قرينة فيه على اختصاصها بإيمان القلب.

و هنا «أُولُوا الطَّوْلِ» هم الرؤساء الذين عليهم التقدم في أمر الجهاد، لطولهم و لكونهم يقتدى بهم، ففي تركهم الجهاد- إذا- ثالوث من التخلفات، تخلف دون عذر، و تخلف على طول، و تخلف يخلّف تخلف الآخرين التابعين لهم.

فمن الناس من لا حول له و لا طول و هو يتقدم للجهاد و ما أكرمهم! و منهم من يملك كل حول و طول و لا يتقدم و ما الأمهم و ألعنهم، و منهم عوان بينهما متوسطين، فهم عوان بينهما «وَ أَنْ لَيْسَ لِلْإِنْسانِ إِلَّا ما سَعى‏».

و أولوا الطول من المنافقين هم متخاذلون على طولهم، استخذاء أمام واجب الجهاد، فهنا خطتان، خطة الالتواء و الانكماش و التخلف و الرضي بالأدنى، هي خطة المنافقين، و خطة الاستقامة و البذل و الكرامة، هي خطة المؤمنين، و مهما لم يعرف اللَّه- ما عرف من المنافقين- لغير الرسول (صلى اللَّه عليه و آله و سلم) و الحاضرين معه زمن الوحي، و لكنه عرّفهم بكل معالمهم في أقوالهم و أحوالهم و أفعالهم، ما يرسم لنا خطة لهم لئيمة معروفة على مدار الزمن.

فكما أن معرفة الشيطان بخطواته تكفينا عن معرفته بشخصه، كذلك معرفة المنافقين مهما كانوا أشطن من الشياطين.

ذلك، و إن للذل ضريبة كما أن للعز ضريبة، و لكن ضريبة الذل أفدح بكثير و أقدح، فرغم ما يخيل إلى بعض النفوس أن ضريبته الكرامة باهظة فتختار الذل هربا من تكاليف الكرامة، الباهظة، فتعيش عيشة

الفرقان في تفسير القرآن بالقرآن، ج‏13، ص: 255

رخيصة تافهة، قلقة مفزعة، تخاف من ظلها، و تفرق من صداها ف‏ «يَحْسَبُونَ كُلَّ صَيْحَةٍ عَلَيْهِمْ» و «لَتَجِدَنَّهُمْ أَحْرَصَ النَّاسِ عَلى‏ حَياةٍ ..» رغم كل ذلك نجدهم يؤدون ضريبة أفدح من ضريبة الكرامة، حيث يؤدون ضرائب الذل من كل أنفسهم و نفائسهم و هم لا يفقهون أن لهم كل الشرور و هم الفالجون المفلجون:

لكِنِ الرَّسُولُ وَ الَّذِينَ آمَنُوا مَعَهُ جاهَدُوا بِأَمْوالِهِمْ وَ أَنْفُسِهِمْ وَ أُولئِكَ لَهُمُ الْخَيْراتُ وَ أُولئِكَ هُمُ الْمُفْلِحُونَ (88) أَعَدَّ اللَّهُ لَهُمْ جَنَّاتٍ تَجْرِي مِنْ تَحْتِهَا الْأَنْهارُ خالِدِينَ فِيها ذلِكَ الْفَوْزُ الْعَظِيمُ (89).

«لكن» هؤلاء هم طراز آخر حيث أدوا كل ضرائب الإيمان، رسوليا من الرسول و رساليا من الذين آمنوا معه، ف‏ «جاهَدُوا بِأَمْوالِهِمْ وَ أَنْفُسِهِمْ» في كل ميادين الجهاد «وَ أُولئِكَ لَهُمُ الْخَيْراتُ» كلها «وَ أُولئِكَ هُمُ الْمُفْلِحُونَ» في ملتويات الحياة هنا و في الأخرى، و من الأخرى: «أَعَدَّ اللَّهُ لَهُمْ جَنَّاتٍ تَجْرِي مِنْ تَحْتِهَا الْأَنْهارُ خالِدِينَ فِيها ذلِكَ الْفَوْزُ الْعَظِيمُ».

وَ جاءَ الْمُعَذِّرُونَ مِنَ الْأَعْرابِ لِيُؤْذَنَ لَهُمْ وَ قَعَدَ الَّذِينَ كَذَبُوا اللَّهَ وَ رَسُولَهُ سَيُصِيبُ الَّذِينَ كَفَرُوا مِنْهُمْ عَذابٌ أَلِيمٌ (90).

هنا «الْمُعَذِّرُونَ مِنَ الْأَعْرابِ» هم قسم آخر من الخالفين، فالأعراب هم أهل البوادي، البعيدون عن صالح المعرفة الإيمانية، و إنما «المعذرون» دون «العاذرون- أو- المعتذرون» لتشمل إلى هؤلاء من يعتذر لمن سواه، اعتذارا لأنفسهم إعذارا و لمن سواهم.

ثم‏ «قَعَدَ الَّذِينَ» دون «قعدوا» تلمح أن المعذّرين لم يقعدوا كلهم، إنما هم‏ «الَّذِينَ كَذَبُوا اللَّهَ وَ رَسُولَهُ» و الآخرون خرجوا كما خرج الآخرون، و لذلك‏ «سَيُصِيبُ الَّذِينَ كَفَرُوا مِنْهُمْ» و هم‏ «الَّذِينَ كَذَبُوا اللَّهَ وَ رَسُولَهُ» منهم‏ «عَذابٌ أَلِيمٌ».

ثم‏ «كَفَرُوا مِنْهُمْ»: «المعذرون» دليل أنهم بين كافر نفاقا، و بين معذور يعتذر لنفسه و لمن أشبهه، و بين غير معذور قد يخرج و قد لا يخرج و الأولون من المعذرين هم المهددون بعذاب أليم.

الفرقان في تفسير القرآن بالقرآن، ج‏13، ص: 256

فلو أنهم كلهم كانوا قاصرين معذورين، فما هو المرجع لضمير الجمع في «منهم»؟ و لا يصلح‏ «الَّذِينَ كَذَبُوا ..» له مرجعا حيث الكاذبون اللَّه و رسوله كلهم كافرون.

و لكن «كذبوا» مخففة دون مثقلة ليست لتنافي الإيمان، حيث المعذّر إذا كذب في اعتذاره فقد كذب اللَّه و رسوله إذا ف «المعذرون» تشمل الصادقين منهم و الكاذبين، و الآخرون هم أعم من الكافرين و سواهم، و الكافرون منهم هم المهدّدون بعذاب أليم.

إذا «قَعَدَ الَّذِينَ كَذَبُوا اللَّهَ وَ رَسُولَهُ» هم بين كافرين منهم و سواهم لاشتراكهم في ذلك الكذب فإنه دركات، كما الصدق درجات.

ذلك، و إلى الإفصاح عن المعذورين بين المعذّرين و سواهم، حيث أعذرهم اللَّه:

لَيْسَ عَلَى الضُّعَفاءِ وَ لا عَلَى الْمَرْضى‏ وَ لا عَلَى الَّذِينَ لا يَجِدُونَ ما يُنْفِقُونَ حَرَجٌ إِذا نَصَحُوا لِلَّهِ وَ رَسُولِهِ ما عَلَى الْمُحْسِنِينَ مِنْ سَبِيلٍ وَ اللَّهُ غَفُورٌ رَحِيمٌ (91) وَ لا عَلَى الَّذِينَ إِذا ما أَتَوْكَ لِتَحْمِلَهُمْ قُلْتَ لا أَجِدُ ما أَحْمِلُكُمْ عَلَيْهِ تَوَلَّوْا وَ أَعْيُنُهُمْ تَفِيضُ مِنَ الدَّمْعِ حَزَناً أَلَّا يَجِدُوا ما يُنْفِقُونَ (92).

هؤلاء الأربع ليس عليهم حرج إذا قعدوا «1» و إن كان الخروج لهم أرجح لمكان‏ «وَ اللَّهُ غَفُورٌ رَحِيمٌ» فلا غفر إلا عن متروك واجب أو راجح،

\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_

(1).

في الدر المنثور 3: 267 عن زيد بن ثابت قال: كنت أكتب لرسول اللَّه (صلى اللَّه عليه و آله و سلم) براءة فكنت أكتب ما أنزل اللَّه عليه و اني لواضع القلم على أذني إذ أمرنا بالقتال فجعل رسول اللَّه (صلى اللَّه عليه و آله و سلم) ينظر ما ذا ينزل عليه إذ جاء أعمى فقال: كيف بي يا رسول اللَّه (صلى اللَّه عليه و آله و سلم) و أنا أعمى؟ فنزلت‏ «لَيْسَ عَلَى الضُّعَفاءِ ..» و في المجمع نزلت في ابن أم مكتوم و كان ضرير البصر جاء إلى النبي (صلى اللَّه عليه و آله و سلم) فقال يا نبي اللَّه إني شيخ ضرير خفيف الحال نحيف الجسم و ليس لي قائد فهل لي رخصة في التخلف عن الجهاد؟ فسكت النبي (صلى اللَّه عليه و آله و سلم) فأنزل اللَّه الآية.

الفرقان في تفسير القرآن بالقرآن، ج‏13، ص: 257

فحين لا يجب الجهاد فقد يبقى راجحا، فإن بإمكان الضعيف على ضعفه و المريض على مرضه و الفقير على فقره، بإمكانهم الجهاد قدر وسعهم، أم- و لأقل تقدير- أن يكثّروا عديد المجاهدين في المنظر، فإن له أثرا في تخويف العدو، فلذلك قد يجب خروجهم كما في الاستنفار العام و قد مضى‏ «1».

ثم و نفي الحرج عن هؤلاء مشروط بما «إِذا نَصَحُوا لِلَّهِ وَ رَسُولِهِ» إحسانا إلى الجهاد و تقوية للمجاهدين، و ليس فقط أن يسكتوا عن تفشيلهم و تفليلهم فتقليلهم فإنه كفر في حقل الجهاد، بل‏ «إِذا نَصَحُوا لِلَّهِ وَ رَسُولِهِ» نصحا موجها إلى المجاهدين، تقوية لهم و تشويقا، أم توجيها لتكتيكات حربية، أم حفاظا على أهليهم و ما أشبه من حذمات وراء الجبهة، و نصحا للخاملين المعذّرين دون عذر، أن يتسابقوا إلى جبهات النضال.

فحين يعذر المؤمن و يخرج أن يجاهد بنفسه و ماله، فلا يعذر- إذا- عن سائر الجهاد المعني بالنصحية لصالح المجاهدين و الجهاد، توجيها وجيها كما يستطيعون لتقوية العدد و العدد في هذه السبيل.

فهؤلاء هم المحسنون في حقل الجهاد، غير المحرجين قضية إعذارهم للخروج‏ «ما عَلَى الْمُحْسِنِينَ مِنْ سَبِيلٍ» الإحراج للإخراج‏ «وَ اللَّهُ غَفُورٌ» لهم‏ «رَحِيمٌ» بهم، إذ لم يقصّروا في الجهاد مهما تركوا راجحا في سبيله.

و لقد بلغت النصيحة للَّه و لرسوله لحد

يقول عنها الرسول (صلى اللَّه‏

\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_

(1).

نور الثقلين 2: 252 في أصول الكافي عن أبي عبد اللَّه (عليه السلام) قال: و كذلك إذا نظرت في جميع الأشياء لم تجد أحدا في ضيق و لم تجد أحدا إلا و للَّه عليه الحجة و للَّه فيه المشية و لا أقول أنهم ما شاؤا صنعوا ثم قال: «إن الله يهدي و يضل، و قال: و ما أمروا إلا بدون سعتهم، و كل شي‏ء أمر الناس فهم يسعون له و كل شي‏ء لا يسعون له فهو موضوع عنهم و لكن الناس لا خير فيهم ثم تلا: لَيْسَ عَلَى الضُّعَفاءِ ...» فوضع عنهم‏ «ما عَلَى الْمُحْسِنِينَ مِنْ سَبِيلٍ وَ اللَّهُ غَفُورٌ رَحِيمٌ» «وَ لا عَلَى الَّذِينَ ..» فوضع عنهم لأنهم لا يجدون.

الفرقان في تفسير القرآن بالقرآن، ج‏13، ص: 258

عليه و آله و سلم) «الدين النصيحة» و لمن؟ «لله و لكتابه و لرسوله و لدين الله و لأئمة المسلمين و عامتهم» «1» و «على إقام الصلاة و إيتاء الزكاة و النصح لكل مسلم» «2»

و هنا في حقل الجهاد ترغيبا إليه و إعانة عليه.

و بصيغة أخرى‏

«الناصح لله الذي يؤثر حق الله على حق الناس و إذا حدث له أمران، أو بدا له أمر الدنيا و أمر الآخرة بدأ الذي للآخرة ثم تفرغ للذي للدنيا» «3».

و لقد اعتبر الناصح للَّه و لرسوله هنا من قمة المحسنين، ثم أطلقت كضابطة: «ما عَلَى الْمُحْسِنِينَ مِنْ سَبِيلٍ» لإحراجهم فيما يفلت من أيديهم غير مقصرين، و هناك فروع عدة متفرعة على هذه الضابطة:

الإحسان في حقل العقيدة يكفّر لمما فيها.

الإحسان في حقل العمل كفارة لتقصير فيه كالتوبة عن الذنب‏ «4»

\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_

(1). المصدر أخرج مسلم و أبو داود و النسائي عن تميم الداري أن رسول اللَّه (صلى اللَّه عليه و آله و سلم) قال: .. قالوا لمن يا رسول اللَّه (صلى اللَّه عليه و آله و سلم)؟ للَّه ..، و رواه عنه (صلى اللَّه عليه و آله و سلم) بإسقاط «و لكتابه» ابن عمر.

و

في نور الثقلين 2: 253 في كتاب الخصال عن تميم الداري قال قال رسول اللَّه (صلى اللَّه عليه و آله و سلم): من يضمن لي خمسا أضمن له الجنة، قيل و ما هي يا رسول اللَّه لا (صلى اللَّه عليه و آله و سلم): قال: النصيحة للَّه عزّ و جلّ و النصيحة لرسوله و النصيحة لكتاب اللَّه و النصيحة لدين اللَّه و النصيحة لجماعة المسلمين.

(2) و

فيه أخرج البخاري و مسلم و الترمذي عن جرير قال‏ بايعت النبي (صلى اللَّه عليه و آله و سلم) على إقام الصلاة و إيتاء الزكاة و النصح لكل مسلم‏

و

فيه أخرج أحمد و الحكيم الترمذي عن أبي أمامة عن النبي (صلى اللَّه عليه و آله و سلم) قال: قال اللَّه عزّ و جلّ:

أحب ما تعبدني به عبدي إلى النصح لي.

(3) الدر المنثور 3: 267- أخرج ابن أبي شيبة و أحمد في الزهد و الحكيم الترمذي في نوادر الأصول و ابن أبي حاتم عن أبي ثمامة الصائدي قال قال الحواريون يا روح اللَّه أخبر من الناصح للَّه؟ قال: الذي ..

(4)

نور الثقلين 2: 252 في الفقيه قال الصادق (عليه السلام): شفاعتنا لأهل الكبائر من شيعتنا، فأما التائبون فإن اللَّه عزّ و جلّ يقول: «ما عَلَى الْمُحْسِنِينَ مِنْ سَبِيلٍ».

الفرقان في تفسير القرآن بالقرآن، ج‏13، ص: 259

و اجتناب كبائر السيئات، و الإتيان بكبائر الحسنات، و سائر المكفّرات المسرودة في القرآن.

الإحسان في الحفاظ على الأمانة يكفر عن ضياعها فلا بديل عنها على المؤتمن، بل و كل محسن إذا تفلّت عنه- قصورا دون تقصير- إضرار مالي على غيره، فلا سبيل إلى تحريجه في أخذ بديله عنه، اللّهم إلّا بدليل قاطع لا مردّ عنه، أم يقال إنه خارج عن «المحسنين» مهما لم يكن من المسيئين أيضا، فكما أن دم المسلم ليس ليذهب هدرا في قتل الخطأ، كذلك مال المسلم، فإن حرمة مال المسلم كحرمة دمه.

فالذي يضيّع مال المسلم أمانة و سواها، هو مسي‏ء عاص للَّه، و هو مديون ما ضيّعه، و أما الذي يضيع مال مسلم عنده دون تقصير، فإن كان محسنا شملت الآية، و أما القاصر في ضياع مال المسلم فلا هو محسن و لا مسي‏ء، فكيف يدخل في نطاق الآية؟ و هنا ضابطة الغرامة محكّمة بمجرد ضياع مال، فإنما الإحسان حسب هذه الآية هو الذي يستثني الغرامة.

و هنا «المحسنين» تعني الذين يحسنون في عمل مّا، فلا سبيل عليهم فيه مهما كان عليهم سبيل فيما يسيئون، أم عمل خارج عن كلا الإحسان و الإساءة.

و في حقل الأمانة لا يصدق الإحسان إلّا ما كانت مجانية الحفاظ عليها أم أقل من القدر المستحق على تأمل فيه، و أما الأمانة المستأجر فيها بأجرة عادلة، فهي تجارة قد لا تدخل في نطاق الآية، فإن موردها هو النصح للَّه و رسوله في حقل الجهاد، و ليس له فيهما بديل من مال و سواه.

فالتجارة العادلة و إن كانت مرضية للَّه محبورة في شرعة اللَّه و لكنها ليست إحسانا حيث يتطلب تقديما دون مقابل أم زيادة على المستحق.

فالقدر المعلوم من نفي السبيل هو حقل الإحسان الخالص، دون ما دونه مهما لم يكن إساءة.

ثم الحرج المنفي هنا و في كل مجالات المسؤوليات يختص بالمحسنين في سبيل اللَّه، الناصحين للَّه و رسوله، و ليس المستثنى إلّا

الفرقان في تفسير القرآن بالقرآن، ج‏13، ص: 260

الضعف المحرج، و المرض المحرج، و النفقة المحرجة، فأما الذين لا حرج عليهم للخروج من هؤلاء فهم خارجون عن الاستثناء كسائر الخارجين.

و لأن «المحسنين» طليقة، فالسبيل المنفية بحقهم ليست إلا في طليق إحسانهم، فما عليهم من سبيل في الدنيا و الآخرة، و أما الذين خلطوا إحسانا بإساءة، في متن الأمر أو مقدماته الآفاقية أو الأنفسية، فلا تنفى عنهم هذه السبيل.

ذلك، ثم «الضعفاء» هم كل هؤلاء الذين لا يستطيعون جهادا لضعيف ذاتي كالشيخوخة و ما أشبه، لحدّ لا نفع في جهادهم اللّهم إلا قليلا لا يجبر زهاق أنفسهم.

«و المرضى» هم غير المستطيعين لضعف عارض، فإن استطاعوا علاجا غير محرج قبل فوات الأوان فمفروض قضية استطاعة الجهاد باستطاعة ما يعدّ له.

و «الَّذِينَ لا يَجِدُونَ ما يُنْفِقُونَ» لا تعني وجدان المال الحاضر، بل و هو وجدان ما يحصل به مال قدر المقدور، من شغل و أية محاولة أخرى صالحة في شرعة اللَّه غير محرجة و لا معسرة.

فكما أن‏ «فَلَمْ تَجِدُوا ماءً» لا تعني عدم الوجود، بل هو عدم الاستطاعة لاستعماله في الطهارة، كذلك «لا يجدون هنا» فإن وجده بعمل فيه أجرة، أم قبول هدية أو هبة أو صدقة، أو استقراض و ما أشبه، ما لا يمس من حرمته و كرامته الإيمانية، فهو واجد لما ينفقه في الجهاد.

ثم الذي عنده مال قدر نفقة العيال، هو غير واجد لما ينفقه لتقدم واجب النفقة على العيال، على نفقة الجهاد.

و أخيرا حين لا يجد هو و لكن يجد عند الرسول (صلى اللَّه عليه و آله و سلم) فهو أيضا واجد حيث المعذور هنا: «الَّذِينَ إِذا ما أَتَوْكَ لِتَحْمِلَهُمْ قُلْتَ لا أَجِدُ ما أَحْمِلُكُمْ عَلَيْهِ‏ ... أَلَّا يَجِدُوا ما يُنْفِقُونَ» لا من عند أنفسهم و لا عند الرسول (صلى اللَّه عليه و آله و سلم).

الفرقان في تفسير القرآن بالقرآن، ج‏13، ص: 261

ذلك، و لأن الذين يأتون الرسول (صلى اللَّه عليه و آله و سلم) ليحملهم فلا يتحملهم، هم بالغون أعلى قمم النصح عمليا للجهاد، لذلك لم يشترط في عدم تحريجهم‏ «إِذا نَصَحُوا لِلَّهِ وَ رَسُولِهِ» فإنهم من أحسن المحسنين.

و قد نزلت الآية الثانية في البكائين‏ «1» و قد يروى أنهم سألوه الحملان من النعال‏ «2» و هي أقل ما يحملهم للجهاد! و

قد قال فيهم رسول اللَّه (صلى اللَّه عليه و آله و سلم) أمام المجاهدين: لقد خلفتم بالمدينة أقواما ما أنفقتم من نفقة و لا قطعتم واديا و لا نلتم من عدو نيلا إلّا و قد شركوكم في الأجر ثم قرأ الآية «3».

إِنَّمَا السَّبِيلُ عَلَى الَّذِينَ يَسْتَأْذِنُونَكَ وَ هُمْ أَغْنِياءُ رَضُوا بِأَنْ يَكُونُوا مَعَ الْخَوالِفِ وَ طَبَعَ اللَّهُ عَلى‏ قُلُوبِهِمْ فَهُمْ لا يَعْلَمُونَ (93).

هنا يختص السبيل في الوجد و الإنفاق ب‏ الَّذِينَ يَسْتَأْذِنُونَكَ وَ هُمْ أَغْنِياءُ

\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_

(1).

الدر المنثور 3: 267- أخرج ابن جرير عن محمد بن كعب قال‏ جاء ناس من أصحاب رسول اللَّه (صلى اللَّه عليه و آله و سلم) يستحملونه فقال: لا أجد ما أحملكم عليه فأنزل اللَّه‏ «وَ لا عَلَى الَّذِينَ ..»

قال: و هم سبعة نفر من بني عمر بن عوف سالم بن عمير و من بني وافن حرمي بن عمرو و من بني مازن ابن النجار عبد الرحمن بن كعب يكنى أبا ليلى و من بني المعلى سلمان بن ضخر و من بني حارثة عبد الرحمن بن زيد أبو عبلة و من بني سلمة عمرو بن غنمة و عبد اللَّه بن عمرو المزني.

(2) المصدر أخرج ابن المنذر عن علي بن صالح قال حدثني مشيخة من جهينة قالوا: أدركنا الذين سألوا رسول اللَّه (صلى اللَّه عليه و آله و سلم) الحملان فقالوا ما سألناه إلا الحملان على النعال، و فيه أخرج ابن أبي حاتم و أبو الشيخ عن إبراهيم بن أدهم في الآية قال: ما سألوه الدواب ما سألوه إلا النعال .. و عن الحسن مثله.

(3) الدر المنثور 3: 267- أخرج ابن أبي حاتم عن الحسن قال قال رسول اللَّه (صلى اللَّه عليه و آله و سلم): .. و

فيه أخرج ابن جرير و ابن مردويه عن ابن عباس قال: أمر رسول اللَّه (صلى اللَّه عليه و آله و سلم) الناس أن ينبعثوا غازين فجاءت عصابة من أصحابه فيهم عبد اللَّه بن معقل المزني فقالوا يا رسول اللَّه (صلى اللَّه عليه و آله و سلم) احملنا فقال:

و اللَّه ما أجد ما أحملكم عليه فتولوا و لهم بكاء و عز عليهم أن يحبسوا عن الجهاد و لا يجدون نفقة و لا محملا فأنزل اللَّه عذرهم‏ «وَ لا عَلَى الَّذِينَ إِذا ما أَتَوْكَ ..».

الفرقان في تفسير القرآن بالقرآن، ج‏13، ص: 262

و القصد من الغنى هنا ما يتمكن فيه من الإنفاق للجهاد بنفسه إن أمكن و بمن سواه، و تجهيزا لمن لا يجد، إن لم يمكن، فمسؤولية الجهاد طليقة قدر الإمكانية بالنفس و النفيس، بالدم و المال و التوجيهات الحربية و النصائح الراجعة إلى صالح الحرب و ما سواها من سبل اللَّه.

«رَضُوا بِأَنْ يَكُونُوا مَعَ الْخَوالِفِ» المتخلّفين عن مكنتهم أو القاصرين العجّز نساء و رجالا و أطفالا «وَ طَبَعَ اللَّهُ عَلى‏ قُلُوبِهِمْ فَهُمْ لا يَعْلَمُونَ» مدى جريمتهم النكراء في التخلف عن الجهاد في سبيل اللَّه.

يَعْتَذِرُونَ إِلَيْكُمْ إِذا رَجَعْتُمْ إِلَيْهِمْ قُلْ لا تَعْتَذِرُوا لَنْ نُؤْمِنَ لَكُمْ قَدْ نَبَّأَنَا اللَّهُ مِنْ أَخْبارِكُمْ وَ سَيَرَى اللَّهُ عَمَلَكُمْ وَ رَسُولُهُ ثُمَّ تُرَدُّونَ إِلى‏ عالِمِ الْغَيْبِ وَ الشَّهادَةِ فَيُنَبِّئُكُمْ بِما كُنْتُمْ تَعْمَلُونَ (94).

«يَعْتَذِرُونَ إِلَيْكُمْ»: المجاهدين، غادرين إذ مضى ما مضى و أنتم سالمون‏ «إِذا رَجَعْتُمْ إِلَيْهِمْ» من النضال‏ «قُلْ لا تَعْتَذِرُوا» إذ «لَنْ نُؤْمِنَ لَكُمْ» ثقة بصدقكم قضية اعتذاركم.

و لأن «لن» تؤيد السلب فقد تدل على أنهم غادرون في اعتذارهم و سواه على طول الخط حتى يلاقوا يومهم الذين كانوا يوعدون.

إذ «قَدْ نَبَّأَنَا اللَّهُ مِنْ أَخْبارِكُمْ» أن لن تؤمنوا ف‏ «لَنْ نُؤْمِنَ لَكُمْ» إيمان التأمين لتصديقكم و أمنه‏ «وَ سَيَرَى اللَّهُ عَمَلَكُمْ وَ رَسُولُهُ» في المستقبل كما مضى «ثم» بعد مثلث زمان الغدر و النفاق، المحلق على حياة التكليف ككل‏ «تُرَدُّونَ إِلى‏ عالِمِ الْغَيْبِ وَ الشَّهادَةِ» و هناك‏ «فَيُنَبِّئُكُمْ بِما كُنْتُمْ تَعْمَلُونَ» إنباء عرض الأعمال كما صدرت، و إنباء النتيجة كما أنتجت: «يَوْمَ تَجِدُ كُلُّ نَفْسٍ ما عَمِلَتْ مِنْ خَيْرٍ مُحْضَراً وَ ما عَمِلَتْ مِنْ سُوءٍ تَوَدُّ لَوْ أَنَّ بَيْنَها وَ بَيْنَهُ أَمَداً بَعِيداً وَ يُحَذِّرُكُمُ اللَّهُ نَفْسَهُ وَ اللَّهُ رَؤُفٌ بِالْعِبادِ» (3: 30).

سَيَحْلِفُونَ بِاللَّهِ لَكُمْ إِذَا انْقَلَبْتُمْ إِلَيْهِمْ لِتُعْرِضُوا عَنْهُمْ فَأَعْرِضُوا عَنْهُمْ إِنَّهُمْ رِجْسٌ وَ مَأْواهُمْ جَهَنَّمُ جَزاءً بِما كانُوا يَكْسِبُونَ (95).

«سَيَحْلِفُونَ بِاللَّهِ» معتذرين أنهم صادقون، أم و مهما يكن في أمر

الفرقان في تفسير القرآن بالقرآن، ج‏13، ص: 263

«لِتُعْرِضُوا عَنْهُمْ» دونما تنديد و استجواب‏ «فَأَعْرِضُوا عَنْهُمْ» إعراضا قضية النفاق، فقد لا يعني الإعراض المأمور به الإعراض المطلوب لهم، بل هو بعد التنديد و التنكيد إعراض عنهم بجعلهم في عزلة كأنهم لا شي‏ء، فلا تحدثوهم بعد و لا تعاشروهم و لا تواصلوهم أبدا، فقد وقعت المفاصلة التامة ل‏ «إِنَّهُمْ رِجْسٌ» فلا ترجسوا أنفسكم الطاهرة بمصاحبتهم، و لا يرجى منهم أي خير حيث سدوا على أنفسهم كل منافذه‏ «وَ مَأْواهُمْ جَهَنَّمُ جَزاءً بِما كانُوا يَكْسِبُونَ» و ليس التلطّف مع منافق أو كافر إلّا بغية انجذابه إلى الإيمان.

و هنا «إِنَّهُمْ رِجْسٌ» قد تؤيد عدم نجاسة أبدان الكفار، حيث الرجس و هو أنجس من النجس- و كما اختص ب «لَحْمَ خِنزِيرٍ» مع ردفه بالميتة و الدم‏ «فَإِنَّهُ رِجْسٌ»- إنه لم ينجس أبدان المنافقين فكيف ينجس النجس أبدان المشركين، فإنما هي رجاسة روحية لهم هي أرجس و أنجس من أرواح الكافرين، و لذلك‏ «إِنَّ الْمُنافِقِينَ فِي الدَّرْكِ الْأَسْفَلِ مِنَ النَّارِ».

فذلك- إذا- تجسيم حسي للدنس المعنوي، ترجيسا لأرواحهم النحسة، مما يدعو إلى التقذر و الاشمئزاز، فهم رجس يلوث الأرواح، و نجس يدنس المشاعر، كالجثة المنتنة في وسط الأحياء حيث تؤذي و تعدي.

و هنا نتبين أن التجنب عن الأرجاس الروحية هو واجب المؤمنين، اللّهم إلّا إذا أثرت فيهم الدعوة الربانية أو أحتمل التأثير، فأما إذا كان‏ «سَواءٌ عَلَيْهِمْ أَ أَنْذَرْتَهُمْ أَمْ لَمْ تُنْذِرْهُمْ لا يُؤْمِنُونَ» فهنا الإعراض عنهم للمؤمنين، مهما كان للرسول (صلى اللَّه عليه و آله و سلم) موقف آخر هو أوسع من سائر المواقف.

يَحْلِفُونَ لَكُمْ لِتَرْضَوْا عَنْهُمْ فَإِنْ تَرْضَوْا عَنْهُمْ فَإِنَّ اللَّهَ لا يَرْضى‏ عَنِ الْقَوْمِ الْفاسِقِينَ (96).

فالمؤمن لا يرضى إلا ما يرضاه اللَّه فكيف ترضون عنهم بحلف و سواه‏ «فَإِنَّ اللَّهَ لا يَرْضى‏ عَنِ الْقَوْمِ الْفاسِقِينَ» و

في حديث النبي (صلى اللَّه عليه‏

الفرقان في تفسير القرآن بالقرآن، ج‏13، ص: 264

و آله و سلم) قال: «من التمس رضا الله بسخط الناس رضي الله عنه، و أرضى عنه الناس و من التمس رضا الناس بسخط الله سخط الله عليه و أسخط عليه الناس» «1»

و

عن الإمام الرضا (عليه السلام): «من خاف الله أخاف الله منه كل شي‏ء و من لم يخفف الله أخافه الله من كل شي‏ء».

[سورة التوبة (9): الآيات 98 الى 107]

وَ مِنَ الْأَعْرابِ مَنْ يَتَّخِذُ ما يُنْفِقُ مَغْرَماً وَ يَتَرَبَّصُ بِكُمُ الدَّوائِرَ عَلَيْهِمْ دائِرَةُ السَّوْءِ وَ اللَّهُ سَمِيعٌ عَلِيمٌ (98) وَ مِنَ الْأَعْرابِ مَنْ يُؤْمِنُ بِاللَّهِ وَ الْيَوْمِ الْآخِرِ وَ يَتَّخِذُ ما يُنْفِقُ قُرُباتٍ عِنْدَ اللَّهِ وَ صَلَواتِ الرَّسُولِ أَلا إِنَّها قُرْبَةٌ لَهُمْ سَيُدْخِلُهُمُ اللَّهُ فِي رَحْمَتِهِ إِنَّ اللَّهَ غَفُورٌ رَحِيمٌ (99) وَ السَّابِقُونَ الْأَوَّلُونَ مِنَ الْمُهاجِرِينَ وَ الْأَنْصارِ وَ الَّذِينَ اتَّبَعُوهُمْ بِإِحْسانٍ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمْ وَ رَضُوا عَنْهُ وَ أَعَدَّ لَهُمْ جَنَّاتٍ تَجْرِي تَحْتَهَا الْأَنْهارُ خالِدِينَ فِيها أَبَداً ذلِكَ الْفَوْزُ الْعَظِيمُ (100) وَ مِمَّنْ حَوْلَكُمْ مِنَ الْأَعْرابِ مُنافِقُونَ وَ مِنْ أَهْلِ الْمَدِينَةِ مَرَدُوا عَلَى النِّفاقِ لا تَعْلَمُهُمْ نَحْنُ نَعْلَمُهُمْ سَنُعَذِّبُهُمْ مَرَّتَيْنِ ثُمَّ يُرَدُّونَ إِلى‏ عَذابٍ عَظِيمٍ (101) وَ آخَرُونَ اعْتَرَفُوا بِذُنُوبِهِمْ خَلَطُوا عَمَلاً صالِحاً وَ آخَرَ سَيِّئاً عَسَى اللَّهُ أَنْ يَتُوبَ عَلَيْهِمْ إِنَّ اللَّهَ غَفُورٌ رَحِيمٌ (102)

خُذْ مِنْ أَمْوالِهِمْ صَدَقَةً تُطَهِّرُهُمْ وَ تُزَكِّيهِمْ بِها وَ صَلِّ عَلَيْهِمْ إِنَّ صَلاتَكَ سَكَنٌ لَهُمْ وَ اللَّهُ سَمِيعٌ عَلِيمٌ (103) أَ لَمْ يَعْلَمُوا أَنَّ اللَّهَ هُوَ يَقْبَلُ التَّوْبَةَ عَنْ عِبادِهِ وَ يَأْخُذُ الصَّدَقاتِ وَ أَنَّ اللَّهَ هُوَ التَّوَّابُ الرَّحِيمُ (104) وَ قُلِ اعْمَلُوا فَسَيَرَى اللَّهُ عَمَلَكُمْ وَ رَسُولُهُ وَ الْمُؤْمِنُونَ وَ سَتُرَدُّونَ إِلى‏ عالِمِ الْغَيْبِ وَ الشَّهادَةِ فَيُنَبِّئُكُمْ بِما كُنْتُمْ تَعْمَلُونَ (105) وَ آخَرُونَ مُرْجَوْنَ لِأَمْرِ اللَّهِ إِمَّا يُعَذِّبُهُمْ وَ إِمَّا يَتُوبُ عَلَيْهِمْ وَ اللَّهُ عَلِيمٌ حَكِيمٌ (106) وَ الَّذِينَ اتَّخَذُوا مَسْجِداً ضِراراً وَ كُفْراً وَ تَفْرِيقاً بَيْنَ الْمُؤْمِنِينَ وَ إِرْصاداً لِمَنْ حارَبَ اللَّهَ وَ رَسُولَهُ مِنْ قَبْلُ وَ لَيَحْلِفُنَّ إِنْ أَرَدْنا إِلاَّ الْحُسْنى‏ وَ اللَّهُ يَشْهَدُ إِنَّهُمْ لَكاذِبُونَ (107)

\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_

(1). نور الثقلين 2: 254 عن المجمع جاء في الحديث.

الفرقان في تفسير القرآن بالقرآن، ج‏13، ص: 266

الْأَعْرابُ أَشَدُّ كُفْراً وَ نِفاقاً وَ أَجْدَرُ أَلَّا يَعْلَمُوا حُدُودَ ما أَنْزَلَ اللَّهُ عَلى‏ رَسُولِهِ وَ اللَّهُ عَلِيمٌ حَكِيمٌ (97).

تأتي «الأعراب» في عشرة كاملة من نصوص القرآن، في كلها تنديدات بهم إلّا واحد هو: «وَ مِنَ الْأَعْرابِ مَنْ يُؤْمِنُ بِاللَّهِ» (99) مما يدل على أنهم ككل إلا نزر قليل غارقون في الضلالة و المتاهة «1»، اللّهم إلّا نص ثان قد يعذرهم إذ لمّا يصلوا إلى الإيمان و هم يتحرون عنه: «قالَتِ الْأَعْرابُ آمَنَّا قُلْ لَمْ تُؤْمِنُوا وَ لكِنْ قُولُوا أَسْلَمْنا وَ لَمَّا يَدْخُلِ الْإِيمانُ فِي قُلُوبِكُمْ» (49: 14).

و لا تعني «الأعراب»- على كل حال- الأمة العربية، إنما هي من العرب: الظهور، كإعراب الكلمة فإنه إظهارها في حالتها الأدبية في الجملة، و العربي هو الظاهر كما و «عَرَبِيٌّ مُبِينٌ» هو الظاهر المظهر، و في عربية القرآن ظهوران اثنان: أصل اللغة فإنها أعرب اللغات و أظهرها تأدية لمعانيها، و شاكلة البيان المتميز في القرآن. فهم- إذا- أهل البوادي، البعيدون بطبيعة المناخ الصحراوي، عن الثقافة الإسلامية، سواء أ كانوا من الأمة العربية أم سائر الأمم، دون اختصاص بمن يتكلم باللغة العربية، حيث اللغة و لا سيما العربية لا تخرف أو تضل حتى يكون المتكلم بها أشد كفرا و نفاقا ممن سواهم، و أجدر ألّا يعلموا حدود ما أنزل اللَّه على رسوله ممن سواهم.

\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_

(1). الدر المنثور 3: 269- أخرج أبو الشيخ عن ابن سيرين قال: إذا تلا أحدكم هذه الآية «الْأَعْرابُ أَشَدُّ ..» فليتل الآية الأخرى و لا يسكت‏ «وَ مِنَ الْأَعْرابِ مَنْ يُؤْمِنُ بِاللَّهِ وَ الْيَوْمِ الْآخِرِ».

الفرقان في تفسير القرآن بالقرآن، ج‏13، ص: 267

فطبيعة البدوية المحشورة مع الدواب، غير المحشورة مع المثقفين في الدين، و البعيدة عن مراكز الثقافة الإسلامية، إنها تبعدهم عن صالح العقلية الإنسانية فضلا عن العقلية الإيمانية، حيث الغفلة و الجفوة و الجفاء كأنها أدغمت في طبايعهم، فهم إلى النسناس أقرب منهم إلى الناس.

أذا فهكذا البلاد- مهما كانت عظيمة- البعيدة عن الثقافة الإيمانية بأي سبب كان، إنهم من هؤلاء الأعراب الذين‏ «أَشَدُّ كُفْراً وَ نِفاقاً ..».

فلقد حق‏

قول الرسول (صلى اللَّه عليه و آله و سلم): «من بدا جفا- من سكن البادية جفا» «1»

و كان زيد بن صوحان يحدث فقال أعرابي إن حديثك ليعجبني و إن يدك لتريبني، فقال: أم تراها الشمال؟

فقال الأعرابي: و اللَّه ما أدري اليمين يقطعون أم الشمال، قال زيد:

صدق اللَّه: «الْأَعْرابُ أَشَدُّ كُفْراً وَ نِفاقاً ..» «2».

ففي حقل الكفر و النفاق نجد الأعراب‏ «أَشَدُّ كُفْراً وَ نِفاقاً وَ أَجْدَرُ أَلَّا يَعْلَمُوا حُدُودَ ما أَنْزَلَ اللَّهُ» فكفارهم أشد كفرا ممن سواهم، و منافقوهم أشد نفاقا ممن سواهم، و جهالهم بحدود ما أنزل اللَّه على رسوله أجدر ألا يعلموا حدود ما أنزل اللَّه على رسوله‏ «3» و هذه الجدارة ناشئة من ظروف حياتهم القاسية العاصية المستعصية و ما تنشئه في طباعهم من جفوة و نكدة، و بعد بعيد عن صالح المعرفة، فالمادية الأصيلة في حياتهم لها دور سائد صامد في القيم القمم عندهم من الحصائل المادية.

\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_

(1).

الدر المنثور 3: 269، الأول عن أبي هريرة قال قال رسول اللَّه (صلى اللَّه عليه و آله و سلم): من بدأ جفا و من اتبع الصيد غفل و من أتى السلطان افتتن، و ما ازداد من السلطان قربا إلا ازداد من اللَّه بعدا،

و الثاني عن ابن عباس عن النبي (صلى اللَّه عليه و آله و سلم) قال: من سكن ..

(2) المصدر أخرج ابن سعد و ابن أبي حاتم عن إبراهيم النخعي قال: ..

(3) الدر المنثور 3: 268- أخرج أبو الشيخ عن الضحاك في قوله: «الْأَعْرابُ أَشَدُّ كُفْراً وَ نِفاقاً» قال: من منافقي المدينة «وَ أَجْدَرُ أَلَّا يَعْلَمُوا حُدُودَ ما أَنْزَلَ اللَّهُ عَلى‏ رَسُولِهِ» يعنى الفرائض و ما أمروا به عن الجهاد.

الفرقان في تفسير القرآن بالقرآن، ج‏13، ص: 268

فهم- إذا- في ذلك الثالوث أردئ من المؤمنين، و هذه طبيعة الحال لمن سكن البادية، بادية بادية عن الثقافة الإسلامية مهما كانت مدنية متحضرة بالحضارة المادية.

لذلك نسمع متظافر

الحديث يقول: «تفقهوا في الدين فإنه من لم يتفقه في الدين فهو إعرابي- عليكم بالتفقه في الدين و لا تكونوا اعرابا فإنه من لم يتفقه في دين الله لم ينظر الله إليه يوم القيامة و لم يزك له عملا» «1».

و هذا هو المعني من‏

حديث الصادق (عليه السلام): «نحن بنو هاشم و شيعتنا العرب و ساير الناس الأعراب» «2»

فالعرب هنا هم الظاهرون الباهرون، الفاهمون شرعة الحق بمشايعة الشرعة الهاشمية المحمدية (صلى اللَّه عليه و آله و سلم) و الأعراب هم البدويون البعيدون عن ذلك.

و هكذا يعني من حديثه الآخر

«نحن الناس و شيعتنا أشباه الناس و سائر الناس نسناس»

حيث القصد من «شيعتنا» أشياع الحق الصراح القراح، دون خليط بالباطل أيا كان.

إذا ففي حقل الكفر و النفاق و الجهل «الأعراب» بمعناها الصالح هم‏ «أَشَدُّ كُفْراً وَ نِفاقاً» و جهلا بحدود اللَّه، و في حقل الإيمان و الوفاق و العلم، هم- بطبيعة الحال- أقل حظا في هذه الزوايا الثلاث.

لذلك كله لم يبعث اللَّه رسولا قط من الأعراب: البدويين، و إنما من القرى مدنا و سواها: «وَ ما أَرْسَلْنا مِنْ قَبْلِكَ إِلَّا رِجالًا نُوحِي إِلَيْهِمْ مِنْ أَهْلِ الْقُرى‏» (12: 109).

و حين يهدي أعرابي لرسول اللَّه (صلى اللَّه عليه و آله و سلم) هدية

\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_

(1). نور الثقلين 2: 254، الأول في الكافي عن علي بن أبي حمزة قال: سمعت أبا عبد اللَّه (عليه السلام) يقول: .. إن اللَّه يقول في كتابه‏ «لِيَتَفَقَّهُوا فِي الدِّينِ ..» و الثاني فيه عن المفضل بن عمر قال سمعت أبا عبد اللَّه (عليه السلام) يقول: ..

(2) المصدر.

الفرقان في تفسير القرآن بالقرآن، ج‏13، ص: 269

فيرد عليه بأضعافها حتى يرضى يقول: «لقد هممت ألا أقبل هدية إلا من قرشي أو ثقفي أو أنصاري أو أوسي» لأن هؤلاء ليسوا من الأعراب البدويين.

ذلك، و من قسوتهم أن‏

«قدم ناس من الأعراب على رسول الله (صلى الله عليه و آله و سلم) فقالوا: أ تقبلون صبيانكم؟ قالوا: نعم، قالوا: لكنا و الله ما نقبل فقال رسول الله (صلى الله عليه و آله و سلم):

و ما أملك إن كان الله نزع منكم الرحمة» «1».

و هكذا نسمع تاريخ الأعراب قبل إسلامهم و بعده عن طابع الجفوة و الفظاظة في نفوسهم.

وَ مِنَ الْأَعْرابِ مَنْ يَتَّخِذُ ما يُنْفِقُ مَغْرَماً وَ يَتَرَبَّصُ بِكُمُ الدَّوائِرَ عَلَيْهِمْ دائِرَةُ السَّوْءِ وَ اللَّهُ سَمِيعٌ عَلِيمٌ (98).

«و من» هؤلاء «الأعراب» الذين هم أشد كفرا و نفاقا و أجدر ألّا يعلموا حدود ما أنزل اللَّه على رسوله‏ «مَنْ يَتَّخِذُ ما يُنْفِقُ» مصلحية الحفاظ على ظاهر الإيمان «يتخذ» ه «مغرما» تألفا، إذ لا يؤمن باللَّه حتى يكون إنفاقه في سبيل اللَّه فيرجو ثواب اللَّه، ثم‏ «وَ يَتَرَبَّصُ بِكُمُ الدَّوائِرَ» السيئة أن تدور بكم و تحور حولكم‏ «2» جبرا لكسرهم- و لأقل تقدير- رجعا لما أنفقوه من غنيمة و سواها، و لكن «عليهم» أنفسهم‏ «دائِرَةُ السَّوْءِ» إذ يرجع إنفاقهم النفاق عليهم وزرا و وبالا، و لا تدور الدوائر المتربصة لهم على المؤمنين إلّا عليهم أنفسهم‏ «وَ اللَّهُ سَمِيعٌ» بقالهم «عليم» بحالهم و فعالهم، و هذه طبيعتهم الشريرة القاحلة الجاهلة إلّا من هدى اللَّه.

و لأن المغرم من الغرم و هو نزول نائبه بالمال، لازبة به، فقد خيّل‏

\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_

(1). من حديث مسلم قال حدثنا أبو بكر ابن أبي شيبة و أبو كريب قالا حدثنا أبو أسامة و ابن نمير عن هشام عن أبيه عن عائشة قالت: قدم ...

(2) الدوائر هي الحالات و الأزمنة التي تدور حول الإنسان بأعيانها و أشيائها و كأنها هيه و قد اختصت بالمواضع المكروهة التي تدور على الإنسان و تحيره أو تغيره.

الفرقان في تفسير القرآن بالقرآن، ج‏13، ص: 270

إلى هؤلاء أن الإنفاق في سبيل اللَّه نائبة لازبة لا مخلص عنها، ثم الدائرة هي الحالة التي تدور بين مختلف الناس، و تتغلب على الحالات السيئة التي تحيط بمن تدور عليه، و هنا «عَلَيْهِمْ دائِرَةُ السَّوْءِ» تختص بهم سيئاتهم، فقد تدور على المؤمنين دوائر هي ابتلاءات لهم فهي لهم خيّرة مهما تظهر بمظهر السيئة، بل و كضابطة كلّ ما يصيب المؤمن قضية إيمانه هو خير له مهما كان عليه صعبا ملتويا، و كلما يصيب غير المؤمن قضية فسقه فهو شر له مهما كان له سهلا وفقا لما يشتهيه.

إذا ف‏ «عَلَيْهِمْ دائِرَةُ السَّوْءِ» إخبار في موقف دعاء، و في تقديم الظرف حصر لدائرة السوء فيهم و حسر عن المؤمنين، فمهما تربص الضالون بالمؤمنين دوائر السوء فليس ليصيبهم إلّا خير، و عليهم أنفسهم دائرة السوء.

فلقد ردت عليهم دائرة السوء فلا تفلتهم، و تطبّق عليهم فلا تدعهم، و هكذا نرى المنافقين الجفات كيف يعيشون ضنك الحياة الجهنمية هنا قبل الجحيم هناك: «مَنْ أَعْرَضَ عَنْ ذِكْرِي فَإِنَّ لَهُ مَعِيشَةً ضَنْكاً وَ نَحْشُرُهُ يَوْمَ الْقِيامَةِ أَعْمى‏ ..».

وَ مِنَ الْأَعْرابِ مَنْ يُؤْمِنُ بِاللَّهِ وَ الْيَوْمِ الْآخِرِ وَ يَتَّخِذُ ما يُنْفِقُ قُرُباتٍ عِنْدَ اللَّهِ وَ صَلَواتِ الرَّسُولِ أَلا إِنَّها قُرْبَةٌ لَهُمْ سَيُدْخِلُهُمُ اللَّهُ فِي رَحْمَتِهِ إِنَّ اللَّهَ غَفُورٌ رَحِيمٌ (99) هؤلاء الأكارم بين أولئك اللئام هم نزر ندر حيث‏ «يُؤْمِنُ بِاللَّهِ وَ الْيَوْمِ الْآخِرِ» فلتة منهم في اللفتة إلى إيمان، و شذوذ عن البدوية البعيدة إلى منجزات الإيمان‏ «وَ يَتَّخِذُ ما يُنْفِقُ» في سبيل اللَّه‏ «قُرُباتٍ عِنْدَ اللَّهِ» فهناك إنفاق مغرم و هنا إنفاق مغنم، و علّ جمعية القربات رغم إفراد «ما ينفق» هي قضية جمعية النيات و الطويات الصالحة في مختلف مجالات الإنفاق في سبيل اللَّه.

هكذا «وَ صَلَواتِ الرَّسُولِ» حيث أمر أن يصلي عليهم في صدقاتهم: «وصل عليهم» «أَلا إِنَّها قُرْبَةٌ لَهُمْ» و هنا الإفراد علّه يعني‏

الفرقان في تفسير القرآن بالقرآن، ج‏13، ص: 271

جنس القربة الشاملة ل «قربات و صلوات» قربة لهم في الدارين حسب نياتهم و اندافاعاتهم الإيمانية، و من قربة لهم‏ «سَيُدْخِلُهُمُ اللَّهُ فِي رَحْمَتِهِ» جزاء وفاقا «إِنَّ اللَّهَ غَفُورٌ» عن قصوراتهم و تقصيرات لهم «رحيم» بهم.

فمهما كانت طبيعة الأعرابية بعض الجفوة و الغفلة، و لكن الإيمان باللَّه و اليوم الآخر و الإنفاق في سبيل اللَّه، هما حسنيان عظيمتان يستحقون بهما قربة و رحمة.

وَ السَّابِقُونَ الْأَوَّلُونَ مِنَ الْمُهاجِرِينَ وَ الْأَنْصارِ وَ الَّذِينَ اتَّبَعُوهُمْ بِإِحْسانٍ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمْ وَ رَضُوا عَنْهُ وَ أَعَدَّ لَهُمْ جَنَّاتٍ تَجْرِي تَحْتَهَا الْأَنْهارُ خالِدِينَ فِيها أَبَداً ذلِكَ الْفَوْزُ الْعَظِيمُ (100).

هنا زوايا ثلاث لهندسة الإيمان الصالح هي: «مِنَ الْمُهاجِرِينَ وَ الْأَنْصارِ وَ الَّذِينَ اتَّبَعُوهُمْ بِإِحْسانٍ» و هم كلهم‏ «السَّابِقُونَ الْأَوَّلُونَ» حيث الثلاث كلهم مصاديق لهم فلا تعنيان- إذا- سبقا زمنيا و أولية زمنية، إنما هما السبقة و الأولية في الصبغة الإيمانية في مثلث الزمان، فالذين اتبعوا السابقين الأولين من المهاجرين و الأنصار، أولئك هم مع هؤلاء على سواء «رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمْ وَ رَضُوا عَنْهُ وَ أَعَدَّ لَهُمْ جَنَّاتٍ ..» بدرجاتها حسب الدرجات.

فرغم ما يهواه الخليفة عمر و من ينحو منحاه لا رجاجة للمهاجرين على الأنصار لسبقهم عليهم في زمن الإيمان، و لا لهما فضل على الذين اتبعوهم بإحسان، فإن فواصل الزمان و المكان، و الموقعية التأريخية و الجغرافية أماهيه ليست بالتي تفضّل زاوية من هذه الثلاث على الأخرى اللّهم إلّا بسبقة الصبغة الإيمانية مهما كان صاحبها بعيدا زمانا و مكانا و نسبة عن الرسول (صلى اللَّه عليه و آله و سلم) و الذين معه‏ «1».

\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_

(1).

الدر المنثور 3: 269- أخرج ابن جرير و أبو الشيخ عن محمد بن كعب القرظي قال: مر عمر برجل يقرء: «وَ السَّابِقُونَ الْأَوَّلُونَ مِنَ الْمُهاجِرِينَ وَ الْأَنْصارِ ..» فأخذ عمر بيده فقال: من أقرأك هذا؟ قال: أبي بن كعب، قال: لا تفارقني حتى أذهب بك إليه فلما جاءه قال عمر: أنت أقرأت هذا هذه الآية هكذا؟ قال: نعم، قال: و سمعتها من رسول‏

الفرقان في تفسير القرآن بالقرآن، ج‏13، ص: 272

فحين يهوى الخليفة إسقاط الواو بين‏ «الْأَنْصارِ وَ الَّذِينَ اتَّبَعُوهُمْ بِإِحْسانٍ» ليجعل الأنصار من أتباع المهاجرين لأنه منهم، يصرخ صارخ الحق: أين الواو يا خليفة رسول اللَّه (صلى اللَّه عليه و آله و سلم)؟! و خلافا لما يهواه عمر نسمع الرسول (صلى اللَّه عليه و آله و سلم) يبجل الأنصار أكثر من المهاجرين بكثير لأنهم نصروه أكثر منهم و من ذلك‏

قوله (صلى اللَّه عليه و آله و سلم): لو لا الهجرة كنت امرء من الأنصار «1».

\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_

اللَّه (صلى اللَّه عليه و آله و سلم)؟ قال: نعم، قال: لقد كنت أرى أنا رفعنا رفعة لا يبلغها أحد بعدنا فقال أبي تصديق ذلك في أول سورة الجمعة «وَ آخَرِينَ مِنْهُمْ لَمَّا يَلْحَقُوا بِهِمْ‏، و في سورة الحشر: وَ الَّذِينَ جاؤُ مِنْ بَعْدِهِمْ يَقُولُونَ رَبَّنَا اغْفِرْ لَنا وَ لِإِخْوانِنَا الَّذِينَ سَبَقُونا بِالْإِيمانِ‏، و في الأنفال: وَ الَّذِينَ آمَنُوا مِنْ بَعْدُ وَ هاجَرُوا وَ جاهَدُوا مَعَكُمْ فَأُولئِكَ مِنْكُمْ».

و

فيه أخرج أبو الشيخ عن أبي أسامة و محمد بن إبراهيم التيمي قالا مر عمر بن الخطاب برجل و هو يقرأ «وَ السَّابِقُونَ الْأَوَّلُونَ مِنَ الْمُهاجِرِينَ وَ الْأَنْصارِ وَ الَّذِينَ اتَّبَعُوهُمْ بِإِحْسانٍ» فوقف عمر فلما انصرف الرجل قال: من أقرأك هذا؟ قال: أقرأنيها أبي بن كعب قال فانطلق إليه فانطلقا إليه فقال: يا أبا المنذر أخبرني هذا أنك أقرأته هذه الآية؟ قال: صدق تلقيتها من في رسول اللَّه (صلى اللَّه عليه و آله و سلم) قال عمر: أنت تلقيتها من في رسول اللَّه (صلى اللَّه عليه و آله و سلم)؟ قال فقال في الثالثة و هو غضبان: نعم و اللَّه لقد أنزلها اللَّه على جبرئيل (عليه السلام) و أنزلها جبرئيل (عليه السلام) على قلب محمد (صلى اللَّه عليه و آله و سلم) و لم يستأمر فيها الخطاب و لا ابنه فخرج عمر رافعا يديه و هو يقول: اللَّه أكبر اللَّه أكبر،

و

في تفسير الفخر الرازي 16: 171 روى‏ أن عمر بن الخطاب كان يقرأ و الأنصار الذين اتبعوهم بإحسان، فقال له أبي و اللَّه لقد أقرأنيها رسول اللَّه (صلى اللَّه عليه و آله و سلم) على هذا الوجه- بالواو- و انك لبيع القرظ يومئذ بالمدينة فقال عمر: صدقت شهدتم و غبنا و فرغتم و شغفنا.

(1).

المصدر أخرج أحمد عن أنس قال قال رسول اللَّه (صلى اللَّه عليه و آله و سلم) اللّهم اغفر للأنصار و لأبناء الأنصار و لأزواج الأنصار و لذراري الأنصار كرشي و عيبتي و لو أن الناس أخذوا شعبا و أخذت الأنصار لأخذت شعب الأنصار و لو لا الهجرة كنت امرأ من الأنصار،

و

فيه عن معاوية بن أبي سفيان سمعت رسول اللَّه (صلى اللَّه عليه و آله و سلم) يقول: من أحب الأنصار أحبه اللَّه و من أبغض الأنصار أبغضه اللَّه،

و

فيه عن مسلم قال قال رسول اللَّه (صلى اللَّه عليه و آله و سلم): آية الإيمان حسب الأنصار و آية النفاق بغض الأنصار.

و

فيه عن (صلى اللَّه عليه و آله و سلم) أنه قال: اللّهم صل على الأنصار و على ذرية الأنصار

الفرقان في تفسير القرآن بالقرآن، ج‏13، ص: 273

\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_

و على ذرية الأنصار،

و

عن أبي سعيد الخدري قال قال رسول اللَّه (صلى اللَّه عليه و آله و سلم): لو سلك الناس واديا و شعبا و سلكتم واديا و شعبا لسلكت واديكم و شعبكم، أنتم شعار و الناس دثار و لو لا الهجرة لكنت امرأ من الأنصار ثم رفع يديه حتى أتي لأرى بياض إبطيه فقال: اللّهم اغفر للأنصار و لأبناء الأنصار و لأبناء أبناء الأنصار، و قال (صلى اللَّه عليه و آله و سلم) ألا إن عيبتي التي آوي إليها أهل بيتي و ان كرشي الأنصار فاعفوا عن مسيئهم و اقبلوا من محسنهم، و قال (صلى اللَّه عليه و آله و سلم): لا يبغض الأنصار رجل يؤمن باللَّه و اليوم الآخر.

و

فيه أخرج الطبراني عن السائب بن يزيد أن رسول اللَّه (صلى اللَّه عليه و آله و سلم) قسم الفي‏ء الذي أفاء اللَّه بحنين في أهل مكة من قريش و غيرهم فغضب الأنصار فأتاهم فقال: يا معشر الأنصار قد بلغني من حديثكم في هذه المغانم التي آثرت بها أناسا أثالفهم على الإسلام لعلهم أن يشهدوا بعد اليوم و قد أدخل اللَّه قلوبهم الإسلام يا معشر الأنصار و لم يمن اللَّه عليكم بالإيمان و خصكم بالكرامة و سماكم بأحسن الأسماء أنصار اللَّه و أنصار رسوله و لو لا الهجرة لكنت أمرأ من الأنصار و لو سلك الناس واديا لسلكت واديكم أ فلا ترضون أن يذهب الناس بهذه الغنائم و النعم و البعير و تذهبون برسول اللَّه (صلى اللَّه عليه و آله و سلم)؟ فقالوا: رضينا، فقال: أجيبوني فيما قلت قالوا يا رسول اللَّه (صلى اللَّه عليه و آله و سلم) وجدتنا في ظلمة فأخرجنا اللَّه بك إلى النور و وجدتنا على شفا حفرة من النار فأنقذنا اللَّه بك و وجدتنا ضلالا فهدانا اللَّه بك فرضيا باللَّه ربا و بالإسلام دينا و بمحمد نبيا فقال: أما و اللَّه لو اجبتموني بغير هذا القول لقلت صدقتم، لو قلتم: ألم تأتنا طريدا فآويناك و مكذّبا فصدقناك و مخذولا فنصرناك و قبلنا ما رد الناس عليك، لو قلتم هذا لصدقتم، قالوا: بل للَّه و لرسوله المن و الفضل علينا و على غيرنا.

و

في نور الثقلين 2: 254 عن أصول الكافي علي بن إبراهيم عن أبيه عن بكر بن صالح عن القاسم بن بريد قال حدثنا أبو عمرو الزبيري عن أبي عبد اللَّه (عليه السلام) قال‏ قلت له: إن للإيمان درجات و منازل يتفاصل المؤمنون فيها عند اللَّه؟ قال: نعم، قلت:

صف لي رحمك اللَّه حتى أفهمه، قال: إن اللَّه سبق بين المؤمنين كما يسبق بين الخيل يوم الرهان ثم فضلهم على درجاتهم في السبق إليه فجعل كل امرء منهم على درجة لا ينقصه فيها من حقه و لا يتقدم مسبوق سابقا و لا مفضول فاضلا، تفاضل بذلك أوائل هذه الأمة و أواخرها و لو لم يكن للسابق إلى الإيمان فضل على المسبوق إذا للحق أواخر هذه الأمة أولها نعم و لتقدموهم إذا لم يكن لمن سبق إلى الإيمان الفضل على من أبطأ عنه و لكن بدرجات الإيمان قدم اللَّه السابقين و بالإبطاء من الإيمان أخر اللَّه المقصرين لأنا نجد من المؤمنين من الآخرين من هو أكثر عملا من الأولين و أكثرهم صلاة و صوما و حجا و زكوة

الفرقان في تفسير القرآن بالقرآن، ج‏13، ص: 274

و حين لا يجرأ عمر على هيبته و جرأته أن يسقط حرفا واحدا من القرآن، فكيف يجرأ مثل عثمان بن عفان أن يسقط أو يزيد سورا أو آيات؟ و اللَّه تعالى ضمن صيانة القرآن عن كل تحريف و تجديف بتأكيدات منقطعة النظير ك‏ «إِنَّا نَحْنُ نَزَّلْنَا الذِّكْرَ وَ إِنَّا لَهُ لَحافِظُونَ» (15: 9) و ما أشبه.

و هنا «السَّابِقُونَ الْأَوَّلُونَ» تشمل- فيما تشمل- سبقة هؤلاء الثلاث على هؤلاء الأعراب، فإن للقروية و البدو دورا في تأخر الإيمان على أية حال.

لذلك يلحق هؤلاء الأكارم من الأعراب ب‏ «إِنَّ اللَّهَ غَفُورٌ رَحِيمٌ» بعد «قربة لهم- و- في رحمته» و هنا التلحيق‏ «ذلِكَ الْفَوْزُ الْعَظِيمُ» و ذلك لعظيم الفوز في حقل الإيمان الصالح لغير الأعراب من السابقين الأولين.

ثم‏ «وَ الَّذِينَ اتَّبَعُوهُمْ بِإِحْسانٍ» ليست لتفضل المتبوعين على التابعين، فإن المقتدي هدى من قبله قد يفوقه أو يساويه أو ينقص عنه، فحين يقول اللَّه تعالى لرسوله (صلى اللَّه عليه و آله و سلم) «أُولئِكَ الَّذِينَ هَدَى اللَّهُ فَبِهُداهُمُ اقْتَدِهْ» (6: 90) لا يعني أنه أدنى منهم، و إنما

\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_

و إنفاقا و لو لم يكن سوابق يفضل بها المؤمنون بعضهم بعضا عند اللَّه لكان الآخرون بكثرة العمل مقدمين على الأولين و لكن أبي اللَّه عزّ و جلّ أن يدرك آخر درجات الإيمان أولها و يقدم فيها من أخر اللَّه أو يؤخر فيها من قدم اللَّه، قلت: أخبرني عما ندب اللَّه عزّ و جلّ المؤمنين إليه من لاستباق إلى الإيمان؟ فقال: قول اللَّه عزّ و جلّ: «وَ السَّابِقُونَ الْأَوَّلُونَ ...» فبدأ بالمهاجرين الأولين و الأنصار على درجة سبقهم ثم ثنى بالأنصار ثم ثلث بالتابعين لهم بإحسان فوضع كل قوم على قدر درجاتهم و منازلهم عنده ...

و

فيه في روضة الكافي علي بن إبراهيم عن ابن أبي عمير عن عمرو بن أبي المقدام قال سمعت أبا عبد اللَّه (عليه السلام) يقول: خرجت أنا و أبي حتى إذا كنا بين القبر و المنبر إذا هو بأناس من الشيعة فسلم عليهم ثم قال: إني و اللَّه لأحب ريحكم و أرواحكم فأعينوني على ذلك بورع و اجتهاد و اعلموا أن ولايتنا لا تنال إلا بالورع و الاجتهاد و من أئتم منكم بعبد فليعمل عمله، أنتم شيعة اللَّه و أنتم أنصار اللَّه و أنتم السابقون الأولون و السابقون الآخرون، السابقون في الدنيا و السابقون إلى الجنة.

الفرقان في تفسير القرآن بالقرآن، ج‏13، ص: 275

«فَبِهُداهُمُ اقْتَدِهْ» فإنها هدى اللَّه، دون هدى من سواهم فإنها متخلفة عن هدى اللَّه.

فهكذا «الَّذِينَ اتَّبَعُوهُمْ بِإِحْسانٍ» اقتداء بهداهم لأنها هدى اللَّه، و لكلّ درجات مما عملوا حسب الدرجات.

فلا تفضل فواصل الزمان و المكان أم أيا كان بين رعيل الإيمان، إنما هو فاضل الإيمان، فصلا بين أصل الإيمان و فصله، أم فصلا بين درجات الإيمان، فقد يجمع بين علي (عليه السلام) و سلمان في هذه السبقة السبغة الإيمانية، و بينهما في الإيمان فصل الزمان، و قد جمع علي (عليه السلام) بين سبقي الزمان و مكانة الإيمان‏ «1» ف‏ «الَّذِينَ مَعَهُ أَشِدَّاءُ عَلَى الْكُفَّارِ» إنما تعني المعية الرسالية، دون أية معية أخرى.

فقد يفوق مؤمنون- في زمننا أم فيما نستقبل- مؤمنين زمن الرسول (صلى اللَّه عليه و آله و سلم) حيث يحملون في إيمانهم معية رسالية فوق‏

\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_

(1).

في ملحقات إحقاق الحق (3: 386) أن الآية نزلت بحق علي و سلمان عن ثمانية من فطاحل العامة

و هم الثعلبي‏

في تفسيره المخطوط رواه بسند عن علي (عليه السلام) أنه قال: أنا عبد اللَّه و أخو رسوله و أنا الصديق الأكبر لا يقولها بعدي إلا كذاب مفتر صليت قبل الناس سبع سنين،

و

الموفق بن أحمد المكي في المقتل ص (40) و القرطبي في تفسيره و الهيثمي في الصواعق عن المحرقة ص (159) و مجمع الزوائد (9: 102) و خواند مير في حبيب السير (3: 11) و ابن تيمية في رسالة رأس الحسين ص (23) كلهم رووا أنه (عليه السلام) هو السابق الأول،

و

ابن مردويه في المناقب (كما في كشف الغمة 94) روى‏ أن السابقون الأولون علي و سلمان.

و

في الملحقات 14: 333- 334 مستدركا عما في (ج 3) و منهم ابن قايماز الذهبي في ميزان الاعتدال (1: 35) و العسقلاني في لسان الميزان (1: 227) و الأمر تسرى في أرجح المطالب (74 و 2 و 3) و الحسكاني في شواهد التنزيل (1: 254) و مما رواه عن الحسن بن علي (عليه السلام) أنه حمد اللَّه و أثنى عليه و قال: «السَّابِقُونَ الْأَوَّلُونَ» فكما أن للسابقين فضلهم على من بعدهم كذلك لعلي بن أبي طالب فضله على السابقين بسبقه السابقين،

و روى عن ابن عباس في الآية قال: نزلت في علي سبق الناس كلهم بالإيمان باللَّه و برسوله و صلى القبلتين و بايع البيعتين و هاجر الهجرتين ففيه نزلت هذه الآية.

الفرقان في تفسير القرآن بالقرآن، ج‏13، ص: 276

السابقين الأولين زمنا، و لذلك لما أنزلت هذه الآية

قال رسول اللَّه (صلى اللَّه عليه و آله و سلم): هذا لأمتي كلهم و ليس بعد الرضا سخط «1».

و في رجعة أخرى إلى الآية نجد الهجرة في اللَّه و النصرة للَّه هما الركنان الركينان في حقل الإيمان، فالمؤمن يتراوح بين مهاجرة بدين اللَّه و مناصرة في دين اللَّه.

فهنا «وَ الَّذِينَ اتَّبَعُوهُمْ بِإِحْسانٍ» تعني متابعة المهاجرين في الهجرة المناصرة و متابعة الأنصار في النصرة المهاجرة، فإنهما صبغتان سابغتان سابقتان في ميادين الإيمان.

و هنا الإتباع في كلا الهجرة و النصرة يحمل مثلثا من المواصفات، عطفا بسبقة و أولية، و ردفا «بإحسان» فالذين اتبعوهم بإحسان في السابقة و الأولية هم منهم أم و أعلى منهم إذا علو هم فيما هم فيه.

ذلك، و قد يتعلق «بإحسان» إضافة إلى‏ «الَّذِينَ اتَّبَعُوهُمْ» ب‏ «السَّابِقُونَ الْأَوَّلُونَ مِنَ الْمُهاجِرِينَ وَ الْأَنْصارِ» أيضا، فكما اتباعهم المرضي ليس إلّا بإحسان، كذلك المهاجرة و النصرة لا بد و أن تكونا بإحسان.

فالمؤمن أيا كان و أيان يعيش مهاجرة في دين اللَّه و نصرة لدين اللَّه و الدينين، و متابعة للمهاجرين و الناصرين، دونما اختصاص بزمان دون زمان.

فقد يشكل صرح الإسلام مهندسا بهذه الثلاث:

و السبعة السابغة في هذه الثلاث هي المرضية عند اللَّه مهما تأخر الزمن، و غيرها غير مرضية و إن سبق الزمن، فإنما القاعدة هنا هي أصل الإيمان بأبعاده، سواء أ كان متقدما أو متأخرا، إلا إذا كان في التقدم‏

\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_

(1). الدر المنثور 3: 271- أخرج ابن مردويه من طريق الأوزاعي حدثني يحيى بن أبي كثير و القاسم و مكحول و عبدة بن أبي لبابة و حسان بن عطية أنهم سمعوا جماعة من أصحاب النبي (صلى اللَّه عليه و آله و سلم) يقولون: لما أنزلت هذه الآية ...

الفرقان في تفسير القرآن بالقرآن، ج‏13، ص: 277

الزمني تقدم رتبي، كما و المتقدم الرتبي في المتأخر زمنا داخل في نطاق‏ «السَّابِقُونَ».

«السابقون الأولون من المهاجرين» «السابقون الأولون من الأنصار» «السابقون الأولون من الذين اتبعوهم بإحسان» محلّقة على مثلث الزمان منذ يوم البعثة إلى يوم البعث، و ليس التقدم إلّا للأسبق الأسبغ في المهاجرة الحسنة و النضرة الحسنة مهما بعد الزمان و المكان، فهنا لا تتحكم فواصل الزمان و المكان لفاصل الإيمان، إنما الحكم هنا لفاضل الإيمان مهما كان للمتأخرين في الزمان.

ثم الإتباع المحبور هنا بإحسان محظور هناك بغير إحسان، فمن إحسان الإتباع أن يكون على بصيرة تعني إتباع صراح الحق، و هو بغير إحسان أن يكون على عمى و عمه دون أية بصيرة، ف‏ «الَّذِينَ يَسْتَمِعُونَ الْقَوْلَ فَيَتَّبِعُونَ أَحْسَنَهُ أُولئِكَ الَّذِينَ هَداهُمُ اللَّهُ وَ أُولئِكَ هُمْ أُولُوا الْأَلْبابِ» (39: 18).

و هنا الباء في «بإحسان» تعني كل السببية و المصاحبة و الظرفية، اتباعا بسبب إحسانهم أولاء في المهاجرة و النصرة، و مصاحبا للإحسان معرفيا و عمليا، و في ظرف الإحسان بكل ملابساته الصالحة، و ليس من إتباعهم بإحسان حسن القول فيهم مهما كانوا محسنين، و لو أنه يشمل حسن القول فيهم لم يشمل المسيئين من المهاجرين و الأنصار الذين لا يرضى اللَّه عنهم.

ثم سواء أ كان السبق و الأولية هنا في الزمان مع سبق الإيمان و أوليته في الكيان أم دون زمان، فالسابقون الأولون من المهاجرين و الأنصار هم الرعيل الأعلى في حقلي الهجرة و النصرة أيا كانوا و في أي زمان، إذا ف‏ «الَّذِينَ اتَّبَعُوهُمْ بِإِحْسانٍ» هم من دونهم في الثانية، و هم- إضافة إليهم- من يفوقهم أو يساويهم في الأولى.

ف «من» على أي الحالين تبعيضية إذ ليس كل المهاجرين و الأنصار في القمة المرموقة المتبوعة من الإيمان حتى يصبحوا أئمة المؤمنين.

الفرقان في تفسير القرآن بالقرآن، ج‏13، ص: 278

ثم‏ «رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمْ وَ رَضُوا عَنْهُ» ليست لتشمل كافة المؤمنين، إنما هم القمة في الإيمان، «فَإِنَّ اللَّهَ لا يَرْضى‏ عَنِ الْقَوْمِ الْفاسِقِينَ» (9:) 96) ف‏ «لَيْسَ بِأَمانِيِّكُمْ وَ لا أَمانِيِّ أَهْلِ الْكِتابِ مَنْ يَعْمَلْ سُوءاً يُجْزَ بِهِ ..»

(4: 123).

إذا فلا يختص رضى اللَّه بالمهاجرين و الأنصار- الأصحاب- و التابعين، بل و لا تعمهم كلهم، إنما مرضات اللَّه تحلّق على كافة المؤمنين المهاجرين في اللَّه، المناصرين لدين اللَّه، تابعين و متبوعين، درجات حسب الدرجات و لا يظلمون نقيرا.

و إذا فلا دور لأفضلية أبي بكر و من أشبه لأصل المهاجرة و المناصرة، أم سبقه في الهجرة على علي (عليه السلام) حيث المقام بمكة بأمر الرسول (صلى اللَّه عليه و آله و سلم) لإدارة شؤون المسلمين المحطّمين أفضل من مصاحبة الرسول في الغار و إلى الهجرة، مهما كانتا- أيضا- بأمره (صلى اللَّه عليه و آله و سلم) حيث التضحية ليلة المبيت تفوق الصحبة في الغار.

وَ مِمَّنْ حَوْلَكُمْ مِنَ الْأَعْرابِ مُنافِقُونَ وَ مِنْ أَهْلِ الْمَدِينَةِ مَرَدُوا عَلَى النِّفاقِ لا تَعْلَمُهُمْ نَحْنُ نَعْلَمُهُمْ سَنُعَذِّبُهُمْ مَرَّتَيْنِ ثُمَّ يُرَدُّونَ إِلى‏ عَذابٍ عَظِيمٍ (101).

صحيح أن‏ «الْأَعْرابُ أَشَدُّ كُفْراً وَ نِفاقاً ..» كأكثرية ساحقة أو مطلقة، و لكن‏ «مِنْ أَهْلِ الْمَدِينَةِ مَرَدُوا عَلَى النِّفاقِ» أكثر من الأعراب، ف «منافقون» وصفا ل‏ «مِمَّنْ حَوْلَكُمْ مِنَ الْأَعْرابِ» تعني طليق النفاق، ثم‏ «مَرَدُوا عَلَى النِّفاقِ» وصفا ل‏ «مِنْ أَهْلِ الْمَدِينَةِ» تعني النفاق الطليق، و أين طليق النفاق من النفاق الطليق حيث‏ «مَرَدُوا عَلَى النِّفاقِ»: تجردا عن أي وفاق، فدخولا في أي نفاق، حيث المرد هو الجرد و هو هنا التجرد عن أصول الإيمان و فروعه.

فأنت الرسول «لا تعلمهم» علامة و علما إذ هم متسترون في نفاقهم بما مردوا، و إنما «نَحْنُ نَعْلَمُهُمْ» ف‏ «سَنُعَذِّبُهُمْ مَرَّتَيْنِ» مرة لأصل‏

الفرقان في تفسير القرآن بالقرآن، ج‏13، ص: 279

نفاقهم، و أخرى لغلظة حيث‏ «مَرَدُوا عَلَى النِّفاقِ» «ثُمَّ يُرَدُّونَ إِلى‏ عَذابٍ عَظِيمٍ» و ذلك ثالوث العذاب، فترى ما هما «مرتين» قبل‏ «عَذابٍ عَظِيمٍ»؟ هما عذاب في الدنيا و كما يروى‏ «1» و عذاب في البرزخ و من ثم عذاب عظيم في الأخرى.

ذلك، و قد تعني «مردوا» إلى‏ «مِنْ أَهْلِ الْمَدِينَةِ» «مِمَّنْ حَوْلَكُمْ مِنَ الْأَعْرابِ» حيث تعطف‏ «مِنْ أَهْلِ الْمَدِينَةِ» إلى «من حولكم ..»

فهما- إذا- «مَرَدُوا عَلَى النِّفاقِ» و مما يؤيده أن‏ «الْأَعْرابُ أَشَدُّ كُفْراً وَ نِفاقاً» فكيف تختص‏ «مَرَدُوا عَلَى النِّفاقِ» ب‏ «مِنْ أَهْلِ الْمَدِينَةِ» فهم- كما هنا- يتقدمون على‏ «أَهْلِ الْمَدِينَةِ» لأن نفاقهم أشد و أمرد.

وَ آخَرُونَ اعْتَرَفُوا بِذُنُوبِهِمْ خَلَطُوا عَمَلًا صالِحاً وَ آخَرَ سَيِّئاً عَسَى اللَّهُ أَنْ يَتُوبَ عَلَيْهِمْ إِنَّ اللَّهَ غَفُورٌ رَحِيمٌ (102).

«و آخرون» من الأعراب، لا هم من المنافقين العاديين، و لا الماردين على النفاق و الشقاق- و هما مشتركان في عدم الاعتراف بذنبهم نفاقا ماردا و سواه- «فَاعْتَرَفُوا بِذَنْبِهِمْ» في نفاقهم اعتراف التوبة أم لمّا يتوبوا و هم متحرون عنها، حيث الاعتراف بالذنب هو من تقدمات التوبة و ليس‏

\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_

(1).

الدر المنثور 3: 271 عن ابن عباس في الآية قال‏ قام رسول اللَّه (صلى اللَّه عليه و آله و سلم) يوم جمعة خطيبا فقال: قم يا فلان فاخرج فانك منافق فأخرجهم بأسمائهم ففضحهم و لم يكن عمر بن الخطاب شهد تلك الجمعة لحاجة كانت له فلقيهم عمر و هم يخرجون من المسجد فاختبأ منهم استحياء انه لم يشهد الجمعة و ظن الناس قد انصرفوا و اختبئوا هم من عمر و ظنوا أنه قد علم بأمرهم فدخل عمر المسجد فإذا الناس لم ينصرفوا فقال له رجل أبشر يا عمر فقد فضح اللَّه المنافقين اليوم فهذا العذاب الأول و العذاب الثاني عذاب القبر، و رواه مثله أبو مالك،

و

فيه عن أبي مسعود الأنصاري قال: لقد خطبنا النبي (صلى اللَّه عليه و آله و سلم) خطبة ما شهدت مثلها قط فقال أيها الناس إن منكم منافقين فمن سميته فليقم قم يا فلان يا فلان حتى قام ستة و ثلاثون رجلا ثم قال: إن منكم و إن منكم و ان منكم فسلوا اللَّه العافية فلقي عمر رجلا كان بينه و بينه إخاء فقال ما شأنك فقال أن رسول اللَّه (صلى اللَّه عليه و آله و سلم) خطبنا فقال كذا و كذا فقال عمر أبعدك اللَّه سائر اليوم.

الفرقان في تفسير القرآن بالقرآن، ج‏13، ص: 280

هو بنفسه التوبة، و هم قضية اعترافهم بذنبهم- تابوا أم لما يتوبوا- «خَلَطُوا عَمَلًا صالِحاً» قضية إيمان بعد اعترافهم‏ «وَ آخَرَ سَيِّئاً» إذ لمّا يتوبوا توبة نصوحا، أم تابوا و هم ناقصون فيها ناقضون إياها أحيانا «عَسَى اللَّهُ أَنْ يَتُوبَ عَلَيْهِمْ» فهم‏ «مُرْجَوْنَ لِأَمْرِ اللَّهِ إِمَّا يُعَذِّبُهُمْ وَ إِمَّا يَتُوبُ عَلَيْهِمْ» (9:) 106) فإن عذبهم فبما يستحقون، و إن تاب عليهم فبما اعترفوا و عملوا صالحا خليطا بآخر سيئا «إِنَّ اللَّهَ غَفُورٌ رَحِيمٌ» و قد تدل‏ «أَنْ يَتُوبَ عَلَيْهِمْ» أنهم تابوا.

فآيتا «عَسَى اللَّهُ» و «مُرْجَوْنَ لِأَمْرِ اللَّهِ» هما وسط عوان بين آيات تعد قاطع العذاب و أخرى تعد قاطع الرحمة و الثواب، فالرحمة هي قضية اعترافهم بذنبهم ليتوب عليهم في سيئاتهم بعد توبتهم، و العذاب هو قضية «آخَرَ سَيِّئاً» إذ لم يتوبوا أم لم تتم توبتهم و تطم، أم نقضوا توبتهم فتفلتت عنهم سيئات، فهم على أية حال من أهل النجاة بما اعترفوا و عملوا من الصالحات، و إنما الرجاء هنا بالنسبة ل‏ «آخَرَ سَيِّئاً» ف‏ «عَسَى اللَّهُ أَنْ يَتُوبَ عَلَيْهِمْ» عساها ترجح توبته عليهم، دون «إما يعذبهم أو يتوب عليهم» فإن عساها مرددة بين الأمرين.

و «عسى» هنا و «إما» هناك من اللَّه لا تعني ترددا و ترجيا للَّه، بل هما بيان لموقفهم من اللَّه، أنه بين هذين دون تحتم لأحدهما.

ذلك، و في رجعة أخرى إلى الآية، هنا عملا في‏ «خَلَطُوا عَمَلًا صالِحاً وَ آخَرَ سَيِّئاً» قد تعم عمل الجانحة إلى عمل الجارحة، فإن كلا من الإيمان و العمل الصالح حين يفرد عن قرينة يشمل قرينة، فكما العمل الصالح هو من الإيمان كذلك الإيمان هو من العمل الصالح، بل هو أقدم و أحرى أن يسمى عملا صالحا، فقد «خَلَطُوا عَمَلًا صالِحاً» عقيديا و عمليا و كذلك‏ «وَ آخَرَ سَيِّئاً» فلم يخلص إيمانهم و لا عملهم عن سوء، و لأنهم اعترفوا بذنبهم يوم الدنيا، حيث الاعتراف بعد الموت لا يفيد، بل و كلّ معترف بسيئاته شاء أم أبي، و إنما هو الاعتراف قبل الموت، مما يجعله كأنه تائب، فان التائب عن الذنب كمن لا ذنب له، و غير المعترف مذنب، و المعترف بذنبه عوان بينهما، و لذلك قد يتوب اللَّه عليه هنا بعد

الفرقان في تفسير القرآن بالقرآن، ج‏13، ص: 281

الموت إذا لم يكن مانع عن هذه التوبة الربانية، و هنا «عَسَى اللَّهُ» بيان لظروف مختلفة في بعضها يتوب اللَّه و في بعض لا يتوب، و كل قضية الرحمة الصالحة الربانية «إِنَّ اللَّهَ غَفُورٌ رَحِيمٌ».

و لو أن‏ «عَمَلًا صالِحاً وَ آخَرَ سَيِّئاً» اختصا بغير العقيدة و الطوية، ف «آخرون» هم غير العدول من المؤمنين و هم الأكثرية الساحقة منهم، إذ العدول قلة قليلة، و اللَّه يعد من رجحت حسناته على سيئاته، و من يجتنب كبائر السيئات، يعدهم و من أشبه، المغفرة و التكفير، فلا موقع ل‏ «عَسَى اللَّهُ أَنْ يَتُوبَ عَلَيْهِمْ» بل هو الذي وعد التوبة عليهم.

و لقد وردت روايات حول شأن نزولها «1» و لكنها كسائر القرآن ليست لتختص بمنزل خاص، فإنما العبرة بعموم اللفظ دون خصوص المورد.

و هنا «عَسَى اللَّهُ» نص في الرجاء، إلّا أن الرجاء المنصوص من اللَّه في العفو نص في العفو، فإن اللَّه لا يعفو إلّا فيما يصلح فيه العفو و يصح، و أما ما لا يصلح أو يصح فلا مورد فيه ل «عسى» و مما تلمح له «عسى» سلبيا أنهم قد يرجعون إلى ذنبهم و يموتون عليه، فكيف يعفى عنهم، فقد تعني «عسى» بما عنت، أنهم إن ماتوا على توبتهم فاللَّه تائب عليهم.

\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_

(1).

الدر المنثور 3: 272 عن ابن عباس في الآية قال: كانوا عشرة رهط تخلفوا عن رسول اللَّه (صلى اللَّه عليه و آله و سلم) في غزوة تبوك فلما حضر رجوع رسول اللَّه (صلى اللَّه عليه و آله و سلم) أوثق سبعة منهم أنفسهم بسواري المسجد و كان ممر النبي (صلى اللَّه عليه و آله و سلم) إذا رجع في المسجد عليهم فلما رآهم قال: من هؤلاء الموثقون أنفسهم؟ قالوا: هذا أبو لبابة و أصحاب له تخلفوا عنك يا رسول اللَّه (صلى اللَّه عليه و آله و سلم) أوثقوا أنفسهم و حلفوا أنهم لا يطلقهم أحد حتى يطلقهم النبي (صلى اللَّه عليه و آله و سلم) و يعذرهم، قال: و أنا أقسم باللَّه لا أطلقهم و لا أعذرهم حتى يكون اللَّه هو الذي يطلقهم رغبوا عني و تخلفوا عن الغزو مع المسلمين، فلما بلغهم ذلك قالوا: و نحن لا نطلق أنفسنا حتى يكون اللَّه هو الذي يطلقنا فأنزل اللَّه عزّ و جلّ: «وَ آخَرُونَ اعْتَرَفُوا بِذُنُوبِهِمْ خَلَطُوا عَمَلًا صالِحاً وَ آخَرَ سَيِّئاً عَسَى اللَّهُ أَنْ يَتُوبَ عَلَيْهِمْ»

و عسى من اللَّه واجب انه هو التواب الرحيم.

الفرقان في تفسير القرآن بالقرآن، ج‏13، ص: 282

و هنا مسائل مستفادة من آية الخلط:

العمل الصالح لا يحبط بالعمل السي‏ء اللّهم إلا فيما يستثنى بثابت النص و ناصعه، كالإشراك باللَّه و ما أشبه.

«عسى» من اللَّه حتم، و عساه يعني فيما يقول «عسى»- إضافة إلى ما مضى- تدليلا على أنه ليس ملزما بالرحمة غير المستحقة، و إنما هي تفضل يعبر عنه ب «عسى».

«اعترفوا» ماضيا دليل على سابق اعترافهم بذنبهم ثم‏ «أَنْ يَتُوبَ عَلَيْهِمْ» دليل مستقبل التوبة المرجوة عليهم، و علّ الفصل يعني تكميل التوبة حيث الاعتراف بالذنوب ليس نفسه التوبة، بل هو تقدمة لها.

خُذْ مِنْ أَمْوالِهِمْ صَدَقَةً تُطَهِّرُهُمْ وَ تُزَكِّيهِمْ بِها وَ صَلِّ عَلَيْهِمْ إِنَّ صَلاتَكَ سَكَنٌ لَهُمْ وَ اللَّهُ سَمِيعٌ عَلِيمٌ (103).

«خُذْ مِنْ أَمْوالِهِمْ» هؤلاء الذين اعترفوا بذنوبهم‏ «1» و غيرهم من‏

\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_

(1).

في قصة أبي لبابة يروي القمي في تفسيره ... فلما كان بعد ذلك و رسول اللَّه في بيت أم سلمة نزلت توبته فقال: يا أم سلمة قد تاب اللَّه على أبي لبابة فقالت يا رسول اللَّه (صلى اللَّه عليه و آله و سلم) أ فأؤذنه بذلك؟ فقال: لتفعلن فأخرجت رأسها من الحجرة فقالت يا أبا لبابة أبشر فقد تاب اللَّه عليك فقال: الحمد للَّه فوثب المسلمون ليحلوه فقال: لا و اللَّه حتى يحلني رسول اللَّه (صلى اللَّه عليه و آله و سلم) فجاء رسول اللَّه (صلى اللَّه عليه و آله و سلم) فقال يا أبا لبابة قد تاب اللَّه عليك توبة لد ولدت من أمك يومك هذا لكفاك فقال يا رسول اللَّه (صلى اللَّه عليه و آله و سلم) أ فأتصدق بمالي كله؟ قال: لا، قال: فبثلثيه؟

قال: لا قال فبنصفه؟ قال: لا قال: فبثلثه؟ قال: نعم، فأنزل اللَّه: و آخرون ...

خذ من أموالهم صدقة .. ألم يعلموا أن اللَّه هو يقبل التوبة.

أقول: و أبو لبابة هذا هو الذي خان رسول اللَّه (صلى اللَّه عليه و آله و سلم) حيث أرسله أمينا إلى بني قريظة لما حوصروا. فقالوا له يا أبا لبابة ما ترى أنزل على ما حكم محمد، فقال: أنزلوا و اعلموا أن حكمه فيكم هو الذبح و أشار إلى حلقه ثم ندم على ذلك فقال خنت اللَّه و رسوله و نزل من حصنهم و لم يرجع إلى رسول اللَّه (صلى اللَّه عليه و آله و سلم) و مر إلى المسجد و شد في عنقه حبلا ثم شده إلى الأسطوانة التي تسمى اسطوانة التوبة- إلى آخر القصة ..

الفرقان في تفسير القرآن بالقرآن، ج‏13، ص: 283

أصحاب الأموال «صدقة» هي الزكوة المفروضة، و لأن‏ «أَمْوالِهِمْ» جمع مضاف يفيد الاستغراق، إذا فمستغرق الأموال هي كلها مجال واسع لأخذ واجب الصدقة، دون اختصاص بالتسعة الشهيرة، فحتى لو دل دليل على ذلك الإختصاص لكان ناسخا لهذه الآية إذ لا تقبل ذلك التخصيص فإنه مستهجن، و إذ لا ناسخ لها في القرآن، بل الآيات الآمرة بالزكوة و الصدقات هي بين مستغرقة للأموال و صريحة في التخطي عن هذه التسعة «1» ثم السنة لو دلت على ذلك الإختصاص- و لا تدل- فليست لتنسخ القرآن على أية حال، لا سيما و أن قرابة مائة من الروايات تدل على تحليق الزكوة على كافة الأموال، و اليتيمة القائلة

«عفى رسول الله (صلى الله عليه و آله و سلم) عما سوى ذلك»

إما مطروحة أو مأولة، إذ ليس من شأن الرسول العفو عما فرضه اللَّه.

لذلك كله فهذه من عداد الآيات الدالة على تحليق الزكوة على كافة الأموال.

و القول إن‏ «مِنْ أَمْوالِهِمْ» تبعّض الأموال المأخوذة منهم لمكان «من» قرينة على ذلك التبعيض؟ مردود بأن المأخوذ على أية حال بعض من المال الزكوي، فلا يصح «خذ أموالهم» و إنما «من أموالهم» أي:

بعضا من كل الأموال، و لو عني البعض من البعض لكانت عبارته «خذ من بعض أموالهم».

و لأن «خذ» أمرا دليل الوجوب، فهو «من أموالهم» المفروض الأخذ منها، فهو- إذا- الزكوة المفروضة، أمّا شئت أن تسميه إذ لا مشاحة في الألفاظ.

و قد قدر ذلك البعض في البعض من الأموال ب 5/ 2- أو- 5- أو- 10 في المائة كضريبة لأقل تقدير، و من ثم ضريبة غير مستقيمة مستفادة

\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_

(1). كآية الأنعام: «وَ هُوَ الَّذِي أَنْشَأَ جَنَّاتٍ مَعْرُوشاتٍ وَ غَيْرَ مَعْرُوشاتٍ وَ النَّخْلَ وَ الزَّرْعَ مُخْتَلِفاً أُكُلُهُ وَ الزَّيْتُونَ وَ الرُّمَّانَ مُتَشابِهاً وَ غَيْرَ مُتَشابِهٍ كُلُوا مِنْ ثَمَرِهِ إِذا أَثْمَرَ وَ آتُوا حَقَّهُ يَوْمَ حَصادِهِ وَ لا تُسْرِفُوا إِنَّهُ لا يُحِبُّ الْمُسْرِفِينَ» (141).

الفرقان في تفسير القرآن بالقرآن، ج‏13، ص: 284

من آية العفو، و هو الزائد عن الحاجة المتعودة.

«صَدَقَةً تُطَهِّرُهُمْ وَ تُزَكِّيهِمْ بِها» تطهيرا لهم عن أدناس الأموال و الذنوب و البخل و طموحات الفقراء، و تزكية لهم بترفيع درجات، فقد تعني «تطهرهم» واجهة السلب: «لا إله» و «تزكيهم» واجهة الإيجاب «إلا اللَّه» فقد تحلق كلمة التوحيد على كافة الأحوال و الأموال دونما استثناء.

ثم‏ «وَ صَلِّ عَلَيْهِمْ» مزيدا للرحمة «إِنَّ صَلاتَكَ سَكَنٌ لَهُمْ» عما يعرضهم من بأس و بؤس في دفع الأموال و اندفاع الأحوال.

ذلك و قد

«كان رسول الله (صلى الله عليه و آله و سلم) إذا أتي بصدقة قال: اللهم صل على آل فلان فأتاه أبي بصدقته فقال: اللهم صل على آل أبي أوفى» «1».

ذلك، و ليس‏ «صَلِّ عَلَيْهِمْ» يختص بمن يأخذ من أموالهم صدقة، بل هو يعم المؤمنين على درجاتهم و كما يروى رحمته و صلواته الشاملة لهم‏ «2».

و ترى «خذ» تعني الأخذ البدائي، أم الأخذ عند الإعطاء، أم تعنيهما قضية طليق الأخذ الشامل لهما، فالذين يؤتون الصدقات المفروضة يأخذها رئيس الدولة الإسلامية، و الذين لا يؤتونها يبعث عمالها ليأخذوها

\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_

(1). الدر المنثور 3: 275- أخرج ابن أبي شيبة و البخاري و مسلم و أبو داود و النسائي و ابن ماجة و ابن المنذر و ابن مردويه عن عبد اللَّه ابن أبي أوفي قال: ...

(2)

المصدر أخرج ابن أبي شيبة عن جابر بن عبد اللَّه قال‏ أتانا النبي (صلى اللَّه عليه و آله و سلم) فقالت له امرأتي يا رسول اللَّه (صلى اللَّه عليه و آله و سلم) صل عليّ و على زوجي فقال صلى اللَّه عليك و على زوجك،

و

فيه أخرج ابن أبي شيبة عن خارجة بن زيد عن عمه يزيد بن ثابت و كان أكبر من زيد قال: خرجنا مع رسول اللَّه (صلى اللَّه عليه و آله و سلم) فلما وردنا البقيع إذا هو بقير جديد فسأل عنه فقالوا فلانة فعرفها فقال: أ فلا آذنتموني بها؟ قالوا: كنت قائلا فكبر هنا أن نؤذيك فقال: لا تفعلوا ما مات منكم ميت ما دمت بين أظهركم إلا آذنتموني به فإن صلاتي عليه رحمة.

الفرقان في تفسير القرآن بالقرآن، ج‏13، ص: 285

بحدودها و شروطها.

و ظاهر النسبة في «أموالهم» أن الصدقة حق متعلق بذمم أصحابها دون عيون الأموال، و لكن واجب الأخذ منها يجعل مستحقيها شركاء لأصحابها فيها، و لا فرق بين زوال المال المستحق قبل إخراج زكاتها، بين تعلق الحق بأعيانها أم بالذمة، فإن فرط ضمن على أية حال.

ثم الأموال تشمل الحقوق المالية مع عيون الأموال، لأنها من الأموال كما العيون.

و لأن‏ «تُطَهِّرُهُمْ وَ تُزَكِّيهِمْ» لا مورد لهما إلا البالغين، إذا فليست أموال غيرهم متعلقة للزكوات.

و لا بد أن يكون ذلك الأخذ مطهرا لهم و مزكيا، فالأخذ قهرا و غلظة غير مسموح، بل اللين المكين هو واجب الأخذ أدبيا.

و هنا «تُطَهِّرُهُمْ وَ تُزَكِّيهِمْ» خطابا للنبي (صلى اللَّه عليه و آله و سلم) يقرر أن الأخذ لا بد أن يكون من ناحية رئيس الدولة الإسلامية، و قد يحتمل أن «تظهرهم» تعني الصدقة ثم‏ «تُزَكِّيهِمْ بِها» تعني الآخذ، فطبيعة الحال في الصدقات أنها تطهر أصحابها، ثم الآخذ الرسولي أو الرسالي يزكي أصحابها بها بما يرفع به من نفسيتهم، أم إن «تطهرهم» تعم الآخذين إلى نفس الصدقة فإنهما مطهران.

ذلك، و هنا في أخذ الضرائب أدب بارع أن‏ «تُطَهِّرُهُمْ وَ تُزَكِّيهِمْ بِها وَ صَلِّ عَلَيْهِمْ إِنَّ صَلاتَكَ سَكَنٌ لَهُمْ» و هكذا يجب أن يراعى الأدب و الحنان في أخذ الصدقات، و من نماذجها البارعة بعد النموذج الرسولي ما

كتبه علي أمير المؤمنين إلى عمال الصدقات:

انطلق على تقوى اللَّه وحده لا شريك له، و لا تروّعنّ مسلما، و لا تجتازنّ عليه كارها، و لا تأخذنّ منه أكثر من حق اللَّه في ماله- فإذا قدمت على الحي فأنزل بمائهم من غير أن تخالط أبياتهم، ثم امض إليهم بالسكينة و الوقار حتى تقوم بينهم فتسلم عليهم، و لا تخدج بالتحية لهم، ثم تقول:

الفرقان في تفسير القرآن بالقرآن، ج‏13، ص: 286

عباد اللَّه! أرسلني إليكم ولي اللَّه و خليفته لآخذ منكم حق اللَّه في أموالكم، فهل للَّه في أموالكم من حق فتؤدوه إلى وليه؟ فإن قال قائل:

لا، فلا تراجعه، و إن أنعم لك منعم فانطلق معه من غير أن تخيفه أو توعده أو تعسفه أو ترهقه، فخذ ما أعطاك من ذهب أو فضة، فإن كان له ماشية أو إبل فلا تدخلها إلا بإذنه، فإن أكثرها له، فإذا أتيتها فلا تدخل عليها دخول متسلط عليه، و لا عنيف به، و لا تنفّرنّ بهيمة و لا تفزعنّها، و لا تسوءنّ صاحبها فيها، و اصدع المال صدعين، ثم خيّره، فإذا اختار فلا تعرّضنّ لما اختاره، ثم اصدع الباقي صدعين، ثم خيّره، فإذا اختار فلا تعرّضنّ لما اختاره، فلا تزال كذلك حتى يبقى ما فيه وفاء لحق اللَّه في ماله، فأقبض حق اللَّه منه، فإن استقالك فأقله، ثم اخلطهما، ثم اصنع مثل الذي صنعت أولا حتى تأخذ حق اللَّه في ماله، و لا تأخذنّ عودا، و لا هرمة، و لا مكسورة، و لا مهلوسة، و لا ذات عوار، و لا تأمننّ عليها إلّا من تثق بدينه رافقا بمال المسلمين حتى يوصّله إلى وليهم فيقسمه بينهم، و لا توكّل بها إلّا ناصحا شفيقا و أمينا حفيظا، غير معنّف و لا مجحف و لا ملغب و لا متعب، ثم أحدر إلينا ما اجتمع عندك، نصيّره حيث أمر اللَّه فإذا أخذها أمينك فأوعز إليه أن لا يحول بين ناقة و بين فصيلها، و لا يمصّر لبنها فيضرّ ذلك بولدها، و لا يجهدنّها ركوبا، و ليعدل بين صواحباتها في ذلك و بينها، و ليرفّه على اللّاغب، و ليستعين بالنقب و الظالع، و ليوردها ما تمر به من الغدر، و لا يعدل بها عن نبت الأرض إلى جواد الطرق، و ليروّحها في الساعات، و ليمهلها عند النّطاف و الأعشاب حتى تأتينا بإذن اللَّه بدّنا منقيات، غير متعبات و لا مجهودات، لنقسمها إلى كتاب اللَّه و سنة نبيه (صلى اللَّه عليه و آله و سلم) فإن ذلك أعظم لأجرك، و أقرب لرشدك إن شاء اللَّه‏ (الوصية 25).

و

من عهد له (عليه السلام) إلى بعض عماله و أمره أن لا يجبههم، و لا يعضههم، و لا يرغب عنهم تفضلا بالإمارة عليهم، فإنهم الإخوان في الدين، و الأعوان على استخراج الحقوق- و إن لك في هذه الصدقة نصيبا مفروضا، و حقا معلوما، و شركاء

الفرقان في تفسير القرآن بالقرآن، ج‏13، ص: 287

أهل مسكنة، و ضعفاء ذوي فاقة، و إنا موّفوك حقك فوفّهم حقوقهم، و إلّا فإنك من أكثر الناس خصوما يوم القيامة، و بؤسا لمن خصمه عند اللَّه الفقراء و المساكين، و السائلون و المدفوعون و الغارم و ابن السبيل، و من استهان بالأمانة، و رتع في الخيانة، و لم ينزّه نفسه و دينه منها، فقد أحل بنفسه في الدنيا الذّل و الخزي، و هو في الآخرة أذل و أخرى، و إن أعظم الخيانة خيانة الأمة، و أفظع الغش غش الأئمة و السلام‏ (العهد 36).

أَ لَمْ يَعْلَمُوا أَنَّ اللَّهَ هُوَ يَقْبَلُ التَّوْبَةَ عَنْ عِبادِهِ وَ يَأْخُذُ الصَّدَقاتِ وَ أَنَّ اللَّهَ هُوَ التَّوَّابُ الرَّحِيمُ (104).

أجل، إنه فقط «قابِلِ التَّوْبِ» (40: 3) لا سواه، فإنه هو المعصي دون سواه، فكيف يقبل التوبة من سواه، فالخرافة الجازفة المسيحية أن الأقاسسة يغفرون الذنوب و يتوبون على العصاة، إنها تعني لهم ربوبية أمام اللَّه، أم وكالة عن اللَّه في غفران الذنوب و قبول التوبات! فليس لأحد قبول التوبة حتى رسول اللَّه، فضلا عمن سواه.

و هنا «يَأْخُذُ الصَّدَقاتِ» تجعلنا نراعي كل حرمة و تبجيل لأيدي الفقراء، إذا فحق للمتصدق أن يسترجع ما تصدق و يقبّله ثم يرجعه‏ «1» كما

\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_

(1).

الدر المنثور 3: 275 عن أبي هريرة قال رسول اللَّه (صلى اللَّه عليه و آله و سلم): و الذي نفسي بيده ما من عبد يتصدق بصدقة طيبة من كسب طيب و لا يقبل اللَّه إلّا طيبا و لا يصعد إلى السماء إلّا طيب فيضعها في حق إلّا كانت كأنما يضعها في يد الرحمن فيربيها له كما يربي أحدكم فلوه أو فصيله حتى أن اللقمة أو التمرة لتأتي يوم القيامة مثل الجبل العظيم و تصديق ذلك في كتاب اللَّه العظيم: «أَ لَمْ يَعْلَمُوا أَنَّ اللَّهَ هُوَ يَقْبَلُ التَّوْبَةَ عَنْ عِبادِهِ وَ يَأْخُذُ الصَّدَقاتِ».

و

في نور الثقلين 2: 261 عن أمير المؤمنين (عليه السلام) حديث طويل و فيه‏ و إذا ناولتم السائل شيئا فسلوه أن يدعو لكم فإنه يجاب له فيكم و لا يجاب في نفسه لأنهم يكذبون، و ليرد الذي يناوله يده إلى فيه فيقبلها فإن اللَّه عزّ و جلّ يأخذها قبل أن تقع في يده كما قال عزّ و جلّ: «أَ لَمْ يَعْلَمُوا أَنَّ اللَّهَ هُوَ يَقْبَلُ التَّوْبَةَ عَنْ عِبادِهِ وَ يَأْخُذُ الصَّدَقاتِ».

و

فيه عن تهذيب الأحكام عن أبي عبد اللَّه (عليه السلام) قال: إن اللَّه لم يخلق شيئا إلا و له خازن يخزنه إلّا الصدقة فإن الرب يليها بنفسه و كان أبي إذا تصدق بشي‏ء وضعه في يد

الفرقان في تفسير القرآن بالقرآن، ج‏13، ص: 288

على الأخذ مثل ذلك.

ذلك لأن الآمر بالصدقة هو اللَّه، ففي أخذها و إيتاءها ملتقى يد اللَّه، و كما على مؤتيها كامل الحرمة عند إيتاءها، كذلك على آخذها حيث يأخذها من يد اللَّه، فهنا ملتقى رباني على طرفي الإيتاء و الأخذ أن يراعيا حرمة التصدق في سبيل اللَّه، و لأن الآخذ قد يحس بذلّ فقد يحق على المؤتي أن يسبقه إلى ذلك تطامنا لأمر اللَّه و تضامنا مع الآخذ و ترفيعا لمنزلته، إضافة إلى أن النص أن اللَّه‏ «يَأْخُذُ الصَّدَقاتِ» فليرجح جانب الآخذ لها على مؤتيها.

و صحيح أن الآخذ هنا هو رسول اللَّه (صلى اللَّه عليه و آله و سلم):

خذ من أموالهم، و لكنه أخذ بأمر اللَّه، فاللَّه هو الآخذ في الحق كما «إِنَّ الَّذِينَ يُبايِعُونَكَ إِنَّما يُبايِعُونَ اللَّهَ يَدُ اللَّهِ فَوْقَ أَيْدِيهِمْ» «وَ ما رَمَيْتَ إِذْ رَمَيْتَ وَ لكِنَّ اللَّهَ رَمى‏».

و قد يلمح قرن‏ «يَقْبَلُ التَّوْبَةَ» ب‏ «يَأْخُذُ الصَّدَقاتِ» بأن الصدقة هي من مصاديق التوبة، و لم لا؟ و هي تطهر و تزكي أصحابها!.

وَ قُلِ اعْمَلُوا فَسَيَرَى اللَّهُ عَمَلَكُمْ وَ رَسُولُهُ وَ الْمُؤْمِنُونَ وَ سَتُرَدُّونَ إِلى‏ عالِمِ الْغَيْبِ وَ الشَّهادَةِ فَيُنَبِّئُكُمْ بِما كُنْتُمْ تَعْمَلُونَ (105).

«قل» لكلا الصالحين و الطالحين «اعملوا» على مكانتكم، فليس العمل أيّا كان يذهب هباء منثورا، بل هو ثابت منشور في المسجلات‏

\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_

السائل ثم ارتده منه فقبله و شمه ثم رده في يد السائل.

و

فيه عن تفسير العياشي عن محمد بن مسلم عن أبي عبد اللَّه (عليه السلام) عن آبائه (عليهم السلام) قال قال رسول اللَّه (صلى اللَّه عليه و آله و سلم): خصلتان لا أحب أن يشاركني فيهما أحد، وضوئي فإنه من صلاتي و صدقتي من يدي إلى يد السائل فإنها تقع في يد الرب.

و

فيه‏ كان علي بن الحسين (عليهما السلام) إذا أعطى السائل قبل يد السائل فقيل له لم تفعل ذلك؟ قال: لأنها تقع في يد اللَّه قبل يد العبد و قال: ليس من شي‏ء إلا و كل به ملك إلا الصدقة فإنها تقع في يد اللَّه.

الفرقان في تفسير القرآن بالقرآن، ج‏13، ص: 289

الربانية، صوتية و صورية «فَسَيَرَى اللَّهُ عَمَلَكُمْ وَ رَسُولُهُ وَ الْمُؤْمِنُونَ» «فَسَيَرَى اللَّهُ» ما ستعملونه هنا «و رسوله» بما يشهده اللَّه «و المؤمنون» الأئمة هنا و غيرهم يوم يقوم الأشهاد، فمهما خفيت هنا رؤية اللَّه عن الجاهلين باللَّه فضلا عن رؤية رسول اللَّه، ثم و لم تكن هنا رؤية للمؤمنين باللَّه‏ «فَسَيَرَى اللَّهُ» كما كان يراه «و رسوله» كما كان يريه اللَّه «و المؤمنون» بعد أن لم يكونوا يرون مهما كان يراه أئمة المؤمنين كما الرسول (صلى اللَّه عليه و آله و سلم) «1» فالرؤية الربانية مستمرة هنا و يوم يقوم الأشهاد، بل و قبل العمل حيث يعلمه اللَّه من قبل و من بعد، و الرؤية الرسولية هي بعد العمل بإراءة اللَّه، و هكذا الرؤية الرسالية لعترته المعصومين (عليهم السلام)، و الرؤية لسائر المؤمنين هي يوم يقوم الأشهاد.

فلا تعني‏ «فَسَيَرَى اللَّهُ» أصل الرؤية بالحيطة العلمية، بل هي واقعها المشهود يوم الجمع لأهل الجمع فضلا عن اللَّه.

و هذه نبهة الغافلين و المتجاهلين كأن اللَّه لا يرى أعمالهم، فضلا عن رسوله و المؤمنين، و أما اللَّه تعالى شأنه ف: «إِنَّا كُنَّا نَسْتَنْسِخُ ما كُنْتُمْ تَعْمَلُونَ» (45: 29) فلا يفلت أي عمل من أي عامل هباء انمحاء في الهواء، بل الأعمال مسجلة في سجلاتها التي قررها اللَّه: «وَ كُلَّ إِنسانٍ أَلْزَمْناهُ طائِرَهُ فِي عُنُقِهِ وَ نُخْرِجُ لَهُ يَوْمَ الْقِيامَةِ كِتاباً يَلْقاهُ مَنْشُوراً. اقْرَأْ كِتابَكَ كَفى‏ بِنَفْسِكَ الْيَوْمَ عَلَيْكَ حَسِيباً» (17: 14): «يَوْمَ تَجِدُ كُلُّ نَفْسٍ ما عَمِلَتْ مِنْ خَيْرٍ مُحْضَراً وَ ما عَمِلَتْ مِنْ سُوءٍ تَوَدُّ لَوْ أَنَّ بَيْنَها وَ بَيْنَهُ أَمَداً بَعِيداً» (3: 30)، و هكذا «فَسَيَرَى اللَّهُ عَمَلَكُمْ وَ رَسُولُهُ وَ الْمُؤْمِنُونَ وَ سَتُرَدُّونَ إِلى‏ عالِمِ الْغَيْبِ وَ الشَّهادَةِ»: ردا إلى حسابه و جزاءه.

ذلك، فقد استعملت «سيرى» في مختلف معانيه و مصاديقه، مما يدل على جواز استعمال اللفظ في معان عدة، فإن رؤية اللَّه بعد رؤية

\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_

(1).

نور الثقلين 2: 262 عن العياشي عن بريد العجلي قال‏ قلت لأبي جعفر (عليهما السلام) في قول اللَّه‏ «اعْمَلُوا فَسَيَرَى اللَّهُ» «فقال: ما من مؤمن يموت و لا كافر يوضع في قبره حتى يعرض عمله على رسول الله (صلى الله عليه و آله و سلم) و علي فهلم إلى آخر من فرض الله طاعته على العباد»،

أقول: و هذا متظافر معنويا في روايات عدة.

الفرقان في تفسير القرآن بالقرآن، ج‏13، ص: 290

العلم في أصله هي رؤيته بما يرى الناس أنه كان يرى، ثم رؤيته حسابا للأعمال، و من ثم رؤية جزاء الأعمال، و هما منذ الموت، و «فَسَيَرَى اللَّهُ» تعمها كلها مهما كانت الرؤية الأولى دائمة خارجة عن «سيرى».

ثم رؤية الرسول هي رؤية الشهادة- بما تلقاه من الأعمال يوم يقوم الأشهاد-، و رؤية ما كتبه الكرام الكاتبون، و سائر المرئي مما تنطق به الجوارح و الأرض بفضائها.

و من ثم رؤية المؤمنين فإنها رؤية دون الرسول (صلى اللَّه عليه و آله و سلم) إلّا ما هي للأئمة من آل الرسول (صلى اللَّه عليه و آله و سلم).

و المستقبل المستفاد من «سيرى» هو لجمعية الرؤية إلّا ما كانت ظاهرة حاصلة من ذي قبل.

و قد تعني «سيرى» طليق مستقبل الرؤية في النشآت الثلاث، و من ثم «ثم تردون» هي رؤيته الأخيرة يوم الأخير ردا إلى جزاء الأعمال.

و «اعملوا» للصالحين تحريض على صالح الأعمال، و للطالحين تعجيز بمستقبل الأعمال، إذ لا يفلت عنه تعالى فالت و لا يعزب عازب، فكله لازب من صادق و كاذب.

«فَيُنَبِّئُكُمْ بِما كُنْتُمْ تَعْمَلُونَ» إنباء عمليا إظهارا لملكوت أعمالكم بعد ظهورها بكل مظاهرها المرئية: و

لو أن أحدكم يعمل في صخرة صمّاء ليس لها باب و لا كوّة لأخرج اللَّه عمله للناس كائنا ما كان‏ «1».

وَ آخَرُونَ مُرْجَوْنَ لِأَمْرِ اللَّهِ إِمَّا يُعَذِّبُهُمْ وَ إِمَّا يَتُوبُ عَلَيْهِمْ وَ اللَّهُ عَلِيمٌ حَكِيمٌ (106).

«و آخرون» هنا هم غير «آخَرُونَ اعْتَرَفُوا بِذُنُوبِهِمْ» لمكان «آخرون» بعد «آخرون» الأولون، فهم أولاء «إِمَّا يُعَذِّبُهُمْ وَ إِمَّا يَتُوبُ عَلَيْهِمْ» و الآخرون الأولون فقط «عَسَى اللَّهُ أَنْ يَتُوبَ عَلَيْهِمْ» دون‏ «أَوْ يُعَذِّبَهُمْ»

\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_

(1). الدر المنثور 3: 276 عن أبي سعيد عن رسول اللَّه (صلى اللَّه عليه و آله و سلم) قال: ..

الفرقان في تفسير القرآن بالقرآن، ج‏13، ص: 291

فهم- إذا- أبعد حالا و مآلا منهم، و لكن نفس «إما» تجويزا ل‏ «يَتُوبُ عَلَيْهِمْ» قد تفرض برحمته الواسعة أن يتوب عليهم، حيث الرحمة سابقة على العذاب ما كان إليها سبيل، و لم يكن العذاب مفروضا لكي يكون تركه مرفوضا في عدل اللَّه‏ «وَ اللَّهُ عَلِيمٌ» بأحوالهم «حكيم» بما يصنع بهم، فهناك لمن‏ «خَلَطُوا عَمَلًا صالِحاً وَ آخَرَ سَيِّئاً» «إِنَّ اللَّهَ غَفُورٌ رَحِيمٌ» قضية ذلك الخلط، و هنا «وَ اللَّهُ عَلِيمٌ حَكِيمٌ» قضية ما هو أدنى من ذلك الخلط، فمن هم- إذا- «آخَرُونَ مُرْجَوْنَ لِأَمْرِ اللَّهِ»؟.

هؤلاء .... ثم إنهم دخلوا في الإسلام فوحدوا اللَّه و تركوا الشرك و لم يعرفوا الإيمان بقلوبهم فيكونوا من المؤمنين فتجب لهم الجنة، و لم يكونوا على جحودهم فيكفروا فتجب لهم النار، فهم على تلك الحال‏ «إِمَّا يُعَذِّبُهُمْ وَ إِمَّا يَتُوبُ عَلَيْهِمْ» «1».

و أما المستضعفون الذين ليسوا من المؤمنين و لا الكافرين، فإن كان استضعافهم قصورا مطلقا فلا يستحقون عذابا مطلقا قضية عدم التقصير، و إن كانوا مستضعفين بتقصير فهم صنوف منهم من هم مرجون لأمر اللَّه، فليس المستضعفون ككل منهم‏ «2».

ذلك، فهم على أية حال بين الإيمان و الكفر، و بينهما منازل منهم‏ «آخَرُونَ مُرْجَوْنَ لِأَمْرِ اللَّهِ» و بينهما المستضعفون، و بينهما آخرون خلطوا عملا صالحا و آخر سيئا «3».

فبالكفر يستحق النار و بالإيمان يستحق الجنة، فالعوان بينهما لا

\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_

(1). نور الثقلين 2: 265 في أصول الكافي عن زرارة عن أبي جعفر (عليه السلام) في قول اللَّه تعالى: «وَ آخَرُونَ مُرْجَوْنَ لِأَمْرِ اللَّهِ ..» قال: ...

(2)

المصدر في تفسير العياشي قال حمران: سألت أبا عبد اللَّه (عليه السلام) عن المستضعفين؟ قال: هم ليسوا بالمؤمن و لا بالكافر و هم المرجون لأمر اللَّه.

(3)

نور الثقلين 2: 266 عن تفسير العياشي عن الحارث عن أبي عبد اللَّه (عليه السلام) قال: سألته بين الإيمان و الكفر منزلة؟ فقال نعم و منازل لو يجحد شيئا منها أكبه اللَّه في النار و بينهما آخرون ...

الفرقان في تفسير القرآن بالقرآن، ج‏13، ص: 292

يستحق نارا و لا جنة، و لأن دار الحساب لا تخلو من جنة أو نار، فهم- إذا- من أهل الجنة قضية رحمة اللَّه الواسعة، ثم المقصرين غير الكافرون مرجون لأمر اللَّه إما يعذبهم بما قصّروا، أو يتوب عليهم بما قصروا ف:

«إِنَّ الَّذِينَ تَوَفَّاهُمُ الْمَلائِكَةُ ظالِمِي أَنْفُسِهِمْ قالُوا فِيمَ كُنْتُمْ قالُوا كُنَّا مُسْتَضْعَفِينَ فِي الْأَرْضِ قالُوا أَ لَمْ تَكُنْ أَرْضُ اللَّهِ واسِعَةً فَتُهاجِرُوا فِيها فَأُولئِكَ مَأْواهُمْ جَهَنَّمُ وَ ساءَتْ مَصِيراً. إِلَّا الْمُسْتَضْعَفِينَ مِنَ الرِّجالِ وَ النِّساءِ وَ الْوِلْدانِ لا يَسْتَطِيعُونَ حِيلَةً وَ لا يَهْتَدُونَ سَبِيلًا فَأُولئِكَ عَسَى اللَّهُ أَنْ يَعْفُوَ عَنْهُمْ وَ كانَ اللَّهُ عَفُوًّا غَفُوراً» (4: 99).

فهؤلاء الآخرون‏ «عَسَى اللَّهُ أَنْ يَتُوبَ عَلَيْهِمْ» و هم بين من‏ «خَلَطُوا عَمَلًا صالِحاً وَ آخَرَ سَيِّئاً» و من هم‏ «مُرْجَوْنَ لِأَمْرِ اللَّهِ» و «عَسَى اللَّهُ» تقدم الأوّلين حيث الآخرون‏ «إِمَّا يُعَذِّبُهُمْ وَ إِمَّا يَتُوبُ عَلَيْهِمْ» قضية استحقاق للعذاب‏ «1».

و على أية حال هم التائبون لمكان‏ «إِمَّا يَتُوبُ عَلَيْهِمْ» حيث التوبة من اللَّه ليست إلّا بعد التوبة من العبد.

\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_

(1).

تفسير الفخر الرازي 16: 191 قال ابن عباس‏ نزلت هذه الآية في كعب بن مالك و مرارة بن الربيع و هلال بن أمية فقال كعب: أنا أخره أهل المدينة جملا فمتى شئت لحقت الرسول فتأخر أياما و أيس بعدها من اللحوق به فندم على ضيعه و كذلك صاحباه فلما قدم رسول اللَّه (صلى اللَّه عليه و آله و سلم) قيل لكعب: اعتذر إليه من ضيعك، فقال: لا و اللَّه حتى تنزل توبتي و أما صاحباه فاعتذر إليه (صلى اللَّه عليه و آله و سلم) فقال: ما خلفكما عني فقالا: لا عذر لنا إلا الخطيئة فنزل قوله تعالى: «وَ آخَرُونَ مُرْجَوْنَ لِأَمْرِ اللَّهِ» فوقهم الرسول (صلى اللَّه عليه و آله و سلم) بعد نزول هذه الآية و نهى الناس عن مجالستهم و أمرهم باعتزال نسائهم و إرسالهن إلى أهاليهن فجاءت امرأة هلال تسأل أن تأتيه بطعام فإنه شيخ كبير فإذن لها في ذلك خاصة و جاء رسول من الشام إلى كعب يرغبه في اللحاق بهم فقال كعب: بلغ من خطيئتي أن طمع فيّ المشركون، قال:

فضاقت على الأرض بما رحبت و بكى هلال بن أمية حتى خيف على بصره فلما مضى خمسون يوما نزلت توبتهم‏ «لَقَدْ تابَ اللَّهُ عَلَى النَّبِيِّ» و «عَلَى الثَّلاثَةِ الَّذِينَ خُلِّفُوا حَتَّى إِذا ضاقَتْ عَلَيْهِمُ الْأَرْضُ».

الفرقان في تفسير القرآن بالقرآن، ج‏13، ص: 293

[سورة التوبة (9): الآيات 108 الى 119]

لا تَقُمْ فِيهِ أَبَداً لَمَسْجِدٌ أُسِّسَ عَلَى التَّقْوى‏ مِنْ أَوَّلِ يَوْمٍ أَحَقُّ أَنْ تَقُومَ فِيهِ فِيهِ رِجالٌ يُحِبُّونَ أَنْ يَتَطَهَّرُوا وَ اللَّهُ يُحِبُّ الْمُطَّهِّرِينَ (108) أَ فَمَنْ أَسَّسَ بُنْيانَهُ عَلى‏ تَقْوى‏ مِنَ اللَّهِ وَ رِضْوانٍ خَيْرٌ أَمْ مَنْ أَسَّسَ بُنْيانَهُ عَلى‏ شَفا جُرُفٍ هارٍ فَانْهارَ بِهِ فِي نارِ جَهَنَّمَ وَ اللَّهُ لا يَهْدِي الْقَوْمَ الظَّالِمِينَ (109) لا يَزالُ بُنْيانُهُمُ الَّذِي بَنَوْا رِيبَةً فِي قُلُوبِهِمْ إِلاَّ أَنْ تَقَطَّعَ قُلُوبُهُمْ وَ اللَّهُ عَلِيمٌ حَكِيمٌ (110) إِنَّ اللَّهَ اشْتَرى‏ مِنَ الْمُؤْمِنِينَ أَنْفُسَهُمْ وَ أَمْوالَهُمْ بِأَنَّ لَهُمُ الْجَنَّةَ يُقاتِلُونَ فِي سَبِيلِ اللَّهِ فَيَقْتُلُونَ وَ يُقْتَلُونَ وَعْداً عَلَيْهِ حَقًّا فِي التَّوْراةِ وَ الْإِنْجِيلِ وَ الْقُرْآنِ وَ مَنْ أَوْفى‏ بِعَهْدِهِ مِنَ اللَّهِ فَاسْتَبْشِرُوا بِبَيْعِكُمُ الَّذِي بايَعْتُمْ بِهِ وَ ذلِكَ هُوَ الْفَوْزُ الْعَظِيمُ (111) التَّائِبُونَ الْعابِدُونَ الْحامِدُونَ السَّائِحُونَ الرَّاكِعُونَ السَّاجِدُونَ الْآمِرُونَ بِالْمَعْرُوفِ وَ النَّاهُونَ عَنِ الْمُنْكَرِ وَ الْحافِظُونَ لِحُدُودِ اللَّهِ وَ بَشِّرِ الْمُؤْمِنِينَ (112)

ما كانَ لِلنَّبِيِّ وَ الَّذِينَ آمَنُوا أَنْ يَسْتَغْفِرُوا لِلْمُشْرِكِينَ وَ لَوْ كانُوا أُولِي قُرْبى‏ مِنْ بَعْدِ ما تَبَيَّنَ لَهُمْ أَنَّهُمْ أَصْحابُ الْجَحِيمِ (113) وَ ما كانَ اسْتِغْفارُ إِبْراهِيمَ لِأَبِيهِ إِلاَّ عَنْ مَوْعِدَةٍ وَعَدَها إِيَّاهُ فَلَمَّا تَبَيَّنَ لَهُ أَنَّهُ عَدُوٌّ لِلَّهِ تَبَرَّأَ مِنْهُ إِنَّ إِبْراهِيمَ لَأَوَّاهٌ حَلِيمٌ (114) وَ ما كانَ اللَّهُ لِيُضِلَّ قَوْماً بَعْدَ إِذْ هَداهُمْ حَتَّى يُبَيِّنَ لَهُمْ ما يَتَّقُونَ إِنَّ اللَّهَ بِكُلِّ شَيْ‏ءٍ عَلِيمٌ (115) إِنَّ اللَّهَ لَهُ مُلْكُ السَّماواتِ وَ الْأَرْضِ يُحْيِي وَ يُمِيتُ وَ ما لَكُمْ مِنْ دُونِ اللَّهِ مِنْ وَلِيٍّ وَ لا نَصِيرٍ (116) لَقَدْ تابَ اللَّهُ عَلَى النَّبِيِّ وَ الْمُهاجِرِينَ وَ الْأَنْصارِ الَّذِينَ اتَّبَعُوهُ فِي ساعَةِ الْعُسْرَةِ مِنْ بَعْدِ ما كادَ يَزِيغُ قُلُوبُ فَرِيقٍ مِنْهُمْ ثُمَّ تابَ عَلَيْهِمْ إِنَّهُ بِهِمْ رَؤُفٌ رَحِيمٌ (117)

وَ عَلَى الثَّلاثَةِ الَّذِينَ خُلِّفُوا حَتَّى إِذا ضاقَتْ عَلَيْهِمُ الْأَرْضُ بِما رَحُبَتْ وَ ضاقَتْ عَلَيْهِمْ أَنْفُسُهُمْ وَ ظَنُّوا أَنْ لا مَلْجَأَ مِنَ اللَّهِ إِلاَّ إِلَيْهِ ثُمَّ تابَ عَلَيْهِمْ لِيَتُوبُوا إِنَّ اللَّهَ هُوَ التَّوَّابُ الرَّحِيمُ (118) يا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا اتَّقُوا اللَّهَ وَ كُونُوا مَعَ الصَّادِقِينَ (119)

الفرقان في تفسير القرآن بالقرآن، ج‏13، ص: 295

هنا آيات أربع تتحدث عن أخطر مشاكلة لعارم النفاق و مارده أن يتخذ بيت اللَّه إرصادا لمن حارب اللَّه و رسوله من قبل، يواجههم اللَّه بشديد النكير و التعبير، كما و يؤمر الرسول (صلى اللَّه عليه و آله و سلم) بإحراقه، و نراه لحد الآن غير عامر بأية عمارة:

وَ الَّذِينَ اتَّخَذُوا مَسْجِداً ضِراراً وَ كُفْراً وَ تَفْرِيقاً بَيْنَ الْمُؤْمِنِينَ وَ إِرْصاداً لِمَنْ حارَبَ اللَّهَ وَ رَسُولَهُ مِنْ قَبْلُ وَ لَيَحْلِفُنَّ إِنْ أَرَدْنا إِلَّا الْحُسْنى‏ وَ اللَّهُ يَشْهَدُ إِنَّهُمْ لَكاذِبُونَ (107).

فلذلك البنيان قواعد أربع لعينة- مهما سمي مسجدا- هي:

«ضرارا- كفرا- تفريقا- إرصادا» يكفي كل واحدة من هذه القواعد لكي يهدّم ذلك المسجد تهديما، للمحادّة و المشاقة الكافرة ضد بنيان الإيمان الرصين.

«و الذين» علّها عطف على السابقين من صنوف المنافقين لمكان‏

الفرقان في تفسير القرآن بالقرآن، ج‏13، ص: 296

الواو، و أنه ليس له خبر حتى نهاية الآيات الأربع، لكن الخبر على أية حال ضرورة ل «الذين» و علّه هو خبر لمبتدء محذوف هو «و من هؤلاء المنافقين الماردين ..» و ما أشبه، أم خبره «هم من مردة المنافقين» و ما أشبه، ثم لا فرق أن تكون الواو عاطفة أم استئنافية.

ف «ضرارا» هي الغاية الأولى لاتخاذ مسجد الضرار، مضارة بمسجد قبا الذي أسس على التقوى، و بأهله المؤمنين الآهلين للمحبة و الوداد، و ذلك الضرار هو من محاربة المسجد بالمسجد، هو من أخطر الضرار ضد كتلة الإيمان، فلتكن المساجد و سائر الأبنية الإيمانية متناصرة إلى توحيد الكلمة و كلمة التوحيد، و توحيد صفوف المؤمنين و توطيدهم بصفوفهم، فأما إذا كانت لهدف الضرار فلا قيام لها و لا إقامة لصلاة فيها.

و مهما كان التنديد الشديد هنا بمربع الشيطنات و لكن كل واحدة منها محظورة على حدها و مدها.

ف «ضرارا» هي ضابطة ألّا ضرار في الإسلام، و إنما هو مقابلها «تَعاوَنُوا عَلَى الْبِرِّ وَ التَّقْوى‏» ثم المعبر عنها «وَ لا تَعاوَنُوا عَلَى الْإِثْمِ وَ الْعُدْوانِ».

فكل إضرار و ضرار ممنوع في شرعة اللَّه، اللّهم إلّا الاعتداء بالمثل حسب الحدود المقررة في شرعة اللَّه.

و كما أن التعاون على البر و التقوى يعم كل النواميس الخمس، كذلك الضرار و التعاون على الإثم و العدوان يشملها كلها، و كلّ محبور أو محظور على حدّه.

فخلق جو الضرار، ابتداء ممن يضر بأخيه فيدفعه إلى الدفاع ثم هلم جرا، ذلك ضرار محظور في شرعة اللَّه، فحين تضر بغيرك و لا دفاع فهذا إضرار دون ضرار، فمحظور في أصله، و لكن الإضرار الذي يجلب الدفع اعتداء بالمثل أم يزيد، فمحظور في أصله و نسله حيث يخلف جو الضرار بين الجماهير، و ذلك تعاون على الإثم و العدوان.

و الحكم الضرري ليس من الإسلام ابتداء أو استمرارا، مما يحلق‏

الفرقان في تفسير القرآن بالقرآن، ج‏13، ص: 297

على سلب الشرعية عن كل حكم يخلّف ضررا على المسلمين فرادى و جماعات، اللّهم إلا الأحكام الضررية في موضوعاتها بدائيا كأصل دائمي أو أكثري، و من الأوّل الإنفاقات المجانية، و من الثاني الجهاد أمرا بالمعروف أو نهيا عن المنكر أو قتالا في سبيل اللَّه.

و أما الأحكام غير المبتنية على الضرر كلا أو في الأكثر فلا تحمل إضرارا فرديا أو جماعيا فليست إذا إسلامية، كتصبر الزوجة على حياة سيئة بئيسة مع زوجها سواء انضرت فقط هي بها أم هي حياة المضادّة المضارّة، و كما تؤيدها آيات الحظر عن الزواج الذي فيه ترك لحدود اللَّه، حيث الإبقاء عليه تثبيت لتركها فمعارضة بين حكمي اللَّه.

و هكذا تكون الصلاة المضرة و الوضوء المضر و الحج و الصوم المضران و ما أشبه، إذ إن اللَّه يريد بنا اليسر و لا يريد العسر، فالقول بأن الحالة الضارة الفلانية محكومة بحكم اللَّه، قول بالإضرار في حكم اللَّه.

ذلك، فلا يباح أي مباح فيه إضرار بالنفس أو بالغير، أمّا يغلب ضره على نفعه و كما يقول اللَّه في الخمر و الميسر «فِيهِما إِثْمٌ كَبِيرٌ وَ مَنافِعُ لِلنَّاسِ وَ إِثْمُهُما أَكْبَرُ مِنْ نَفْعِهِما» «يدعو لمن ضره أقرب نفعه» (22: 13) ففي الضر أو الإضرار دون أي نفع يكون الحظر أكثر.

و أما فعل الواجب أو ترك المحرم إذا كان في أحدهما إضرار بالغير كأصل فهو محرم دون ريب، إلّا إذا كان الغير ينضر به دونما مبرر، كالذي يغضب إذا أنت تصلي أو تؤدي فرضا آخر أو تترك محرما، إنما الضرر أو الإضرار المحظور هو الضرّ بحالة عاديّة غير عادية معتدية.

فكل مضرّ في شرعة اللَّه محرم حتى تعلّمه: «وَ يَتَعَلَّمُونَ ما يَضُرُّهُمْ وَ لا يَنْفَعُهُمْ» (2: 102) و هكذا المضارة في كل حقولها من حقل الزوجية: «وَ لا تُضآرُّوهُنَّ لِتُضَيِّقُوا عَلَيْهِنَّ» (65: 6) و «لا تُضَارَّ والِدَةٌ بِوَلَدِها وَ لا مَوْلُودٌ لَهُ بِوَلَدِهِ» (2: 233) و في المبايعة: «وَ أَشْهِدُوا إِذا تَبايَعْتُمْ وَ لا يُضَارَّ كاتِبٌ وَ لا شَهِيدٌ» (2: 282) و في الوصية: «مِنْ بَعْدِ وَصِيَّةٍ يُوصى‏ بِها أَوْ دَيْنٍ غَيْرَ مُضَارٍّ» (4: 12).

الفرقان في تفسير القرآن بالقرآن، ج‏13، ص: 298

ذلك، و الاستقراء الأحكامي يؤكد تحليق الحظر على كل ضر و إضرار من قبلنا، فترى- إذا- يحكم اللَّه بأحكام تضر بنا أو تجعل مضارة بيننا، و مهما كان في بعض الموضوعات كالأمر و النهي و الجهاد أضرار فهي مجبرة بمنافع دنيوية أو أخروية أم فيهما.

ذلك و لا فحسب هنا «ضرارا» بل «و كفرا» أن تكون الغاية لبناية المسجد الكفر باللَّه، محاولة لحمل جماعة على الكفر، و لآخرين على أن يكون لهم مكانا و مكمنا و ناديا.

و من ثم‏ «وَ تَفْرِيقاً بَيْنَ الْمُؤْمِنِينَ» باسم الإيمان، و أخيرا «إِرْصاداً لِمَنْ حارَبَ اللَّهَ وَ رَسُولَهُ مِنْ قَبْلُ» ليكون لهم مرصدا مقويا لساعد الكفر و مكسرا لساعد الإيمان.

فقد جاءه (صلى اللَّه عليه و آله و سلم) قوم من المنافقين فقالوا يا رسول اللَّه (صلى اللَّه عليه و آله و سلم) أ تأذن لنا فنبني مسجدا في بني سالم للعليل و الليلة المطيرة و الشيخ الفاني، فأذن لهم رسول اللَّه (صلى اللَّه عليه و آله و سلم) و هو على الخروج إلى تبوك فقالوا: يا رسول اللَّه لو أتيتنا فصليت فيه؟ فقال: أنا على جناح الطير فإذا وافيت إنشاء اللَّه أتيته فصليت فيه، فلما أقبل رسول اللَّه (صلى اللَّه عليه و آله و سلم) من تبوك نزلت هذه الآية في شأن المسجد و أبي عامر الراهب، و قد كانوا حلفوا لرسول اللَّه (صلى اللَّه عليه و آله و سلم) أنهم يبنون ذلك للصلاح و الحسنى فأنزل اللَّه هذه الآيات الأربع‏ «1».

\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_

(1). نور الثقلين 2: 266 في تفسير علي بن إبراهيم حول الآية ... و

في الدر المنثور 3:

276 عن ابن عباس في الآية قال: هم أناس من الأنصار ابتنوا مسجدا فقال لهم أبو عامر ابنوا مسجدكم و استمدوا بما استطعتم من قوة سلاح فإني ذاهب إلى قيصر ملك الروم فأتي بجند من الروم فأخرج محمدا و أصحابه فلما فرغوا من مسجدهم أتوا النبي (صلى اللَّه عليه و آله و سلم) فقالوا عند فرغنا من بناء مسجدنا فنحب أن تصلي فيه و تدعو بالبركة فأنزل اللَّه‏ «لا تَقُمْ فِيهِ أَبَداً ..»

و

فيه عن قتادة في الآية قال: إن نبي اللَّه (صلى اللَّه عليه و آله و سلم) بنى مسجدا بقبا فعارضه المنافقون بآخر ثم بعثوا إليه ليصلي فيه فأطلع اللَّه نبيه (صلى اللَّه عليه و آله و سلم) على ذلك.

الفرقان في تفسير القرآن بالقرآن، ج‏13، ص: 299

فهنا «ضرارا» خطوة أولى منافقة ضد الإيمان و المؤمنين، ثم «كفرا» هو ضد رسول الإيمان محاولة لإخراجه عن مهجره كما أخرج عن عاصمة دعوته ثم‏ «وَ تَفْرِيقاً بَيْنَ الْمُؤْمِنِينَ» بذلك الضرار أن يتفرقوا بعضهم عن بعض‏ «1» و بذلك الكفر أن يتفرقوا عن رسول اللَّه (صلى اللَّه عليه و آله و سلم)، و من ثم‏ «وَ إِرْصاداً لِمَنْ حارَبَ اللَّهَ وَ رَسُولَهُ مِنْ قَبْلُ» و هم أبو عامر الراهب و رهطه‏ «2» و من أشبه هؤلاء.

فاتّخاذ مسجد ضرارا و كفرا و ... هو من ضابطة ثابتة مدروسة من شيطنات المنافقين أن يحاربوا الدين بالدين و الدينين بالدينين، حربا ضارية مختلقة بين مظاهر الدين و أصله، فصلا للدينين عن الدين و للدّين عن الدينين.

ذلك‏ «وَ لَيَحْلِفُنَّ إِنْ أَرَدْنا إِلَّا الْحُسْنى‏»: النية الحسنى، و العملية الحسنى، فالبداية الحسنى و الغاية الحسنى، توسعة للضعاف و لأمكنة العبادة، و توفيرا على جموع المسلمين، «وَ اللَّهُ يَشْهَدُ إِنَّهُمْ لَكاذِبُونَ» في حلفهم.

و يا لمسجد الضرار من أخطار، فقد اتخذ على عهد الرسول (صلى اللَّه عليه و آله و سلم) كما نسمع اللَّه يقول، مكيدة على الإسلام و المسلمين، إضرارا بهم و كفرا باللَّه و برسوله، و ستر المتآمرين على‏

\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_

(1). و ذلك لأن المنافقين قالوا: نبني مسجدا فنصلي فيه و لا نصلي خلف محمد (صلى اللَّه عليه و آله و سلم) فإن أتانا فيه صلينا معه و فرقنا بينه و بين الذين يصلون في مسجده فيؤدي ذلك إلى اختلاف الكلمة و بطلان الألفة.

(2)

أبو عامر هذا والد حنظلة غسيل الملائكة، و سماه رسول اللَّه (صلى اللَّه عليه و آله و سلم) الفاسق و كان قد تنصر في الجاهلية و ترهب و طلب العلم فلما خرج رسول اللَّه (صلى اللَّه عليه و آله و سلم) عاداه لأنه زالت رياسته‏

و قال: لا أجد قوما يقاتلونك إلا قاتلتك معهم و لم يزل يقاتله إلى يوم حنين فلما انهزمت هوازن خرج إلى الشام و أرسل إلى المنافقين أن استعدوا بما استطعتم من قوة و سلاح و ابنوا لي مسجدا فإني ذاهب إلى قيصر و آت من عنده بجند فأخرج محمدا و أصحابه فبنوا هذا المسجد و انتظروا مجي‏ء أبي عامر ليصلي بهم في ذلك المسجد.

الفرقان في تفسير القرآن بالقرآن، ج‏13، ص: 300

المؤمنين، الكائدين لهم في الظلام و العتام، و التعاون ضدهم مع أعداءهم، و لمّا يقوى ساعد الجماعة المؤمنة في المدينة، فهو أول كيد لئيم ضد الإسلام و رسول الإسلام و الذين آمنوا معه.

و ذلك المسجد ليس ليقف عند ما اتخذ زمن الرسول (صلى اللَّه عليه و آله و سلم) بل هو لا يزال يتخذ في شتى الصور الكائدة، بنشاط ظاهر للإسلام و مكيدة باطنة لسحق الإسلام و تشويهه و تمويهه و تمييعه، ككل الأحزاب المتترسة و راء أسماء براقة، المتحاربة مع بعضهم البعض و كل باسم الإسلام، تتخذ على مدار الزمن في صورة أوضاع ترفع لافتة الدين عليها تترّسا وراءها ضده، و في صورة تشكيلات و تنظيمات و دعايات و ادعاءات تتحدث عن الإسلام، و لكنها تكمن محق الإسلام و محوه، و هذه شيطنة خطيرة ماكرة هي أخطر من الجاهرة.

و هنا الإذاعة القرآنية ترسم صورة حافلة بالحركة عن مصير كل مسجد ضرار يتخذ إلى جوار مسجد أسس على التقوى، لتقوى الطغوى و تضعف التقوى.

فكما المسلمون يد واحدة بألسنتهم و ألوانهم و قومياتهم و إقليمياتهم و طبقاتهم العدة، كذلك- و للحفاظ على صالح الوحدة- يحظر عليهم اختلاق مختلف الجمعيات بمختلف التسميات التي تفضل بعضهم عن بعض و لا سيما باسم الإيمان.

فلا تسمح لجماعة عدة أن تتسمى باسم «حزب الله» أما أشبه بتنظيم خاص متميز أم سواه، حيث تعد- إذا- سائر المسلمين خلاف حزب اللَّه فهم حزب الشيطان!.

و هكذا اختلال أسماء و سمات عامة إسلامية لجماعة خصوص كجمعية أنصار محمد (صلى اللَّه عليه و آله و سلم) و أنصار القرآن أو أنصار اللَّه، مما تجعل المسلمين شذر مذر، تناسيا للفاعليات و القابليات الإسلامية و الإيمانية و تغاضيا عنها إلى أسماء ليست لها مسميات خاصة.

ذلك، و كما أن التسمّي باسم الإيمان لغير المؤمن محظور، كذلك‏

الفرقان في تفسير القرآن بالقرآن، ج‏13، ص: 301

اختصاص اسم الإيمان و ما أشبه من أسماء عامة للمسلمين، ذلك الإختصاص بفرقة دون آخرين هو اختصاص ضرار، يعمل بين المسلمين تضادا خاويا عن أي أصل إلا مختلق هذه الأسماء المحتلة.

ذلك و الضرار بدركاته ليس إلا من الأشرار، و لا سيما المعنون بعناوين الأخيار، كالمسجد الضرار، و إمامة الجماعة الضرار، و تأسيس حفلات الضرار، و الدروس الضرار، فكلما كان الضرار أضر بالمسلمين و بالإسلام، كان أشر و أخطر، يجب على المسلمين الحياد عنه دفاعا صارما لكيلا يفشو بين المسلمين فيتفشى الفساد بينهم في أي من النواميس الخمس.

لا تَقُمْ فِيهِ أَبَداً لَمَسْجِدٌ أُسِّسَ عَلَى التَّقْوى‏ مِنْ أَوَّلِ يَوْمٍ أَحَقُّ أَنْ تَقُومَ فِيهِ فِيهِ رِجالٌ يُحِبُّونَ أَنْ يَتَطَهَّرُوا وَ اللَّهُ يُحِبُّ الْمُطَّهِّرِينَ (108).

نهي صارم عن القيام في مسجد الضرار، فلا تصلح أو تصح فيه صلاة من الرسول (صلى اللَّه عليه و آله و سلم) و الذين معه، فلما ذا- إذا- يبقى قائما على ساقه؟ أ لكي يستمر الضرار و الكفر و التفريق و الإرصاد؟

لذلك أمر رسول اللَّه (صلى اللَّه عليه و آله و سلم) بإحراقه بمن فيه و ما فيه حيث كان فيه ما فيه‏ «1»، ثم لم ير التاريخ الإسلامي بعد إحراقه عمارة و بنيانا في مكانه لأي غرض كان.

«لَمَسْجِدٌ أُسِّسَ عَلَى التَّقْوى‏ مِنْ أَوَّلِ يَوْمٍ» و هو مسجد قباء أول مسجدين في الإسلام‏ «2» أو مسجد النبي (صلى اللَّه عليه و آله و سلم)، أم‏

\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_

(1).

الدر المنثور 3: 276 عن أبي رهم كلثوم بن الحصين الغفاري‏ و كان من الصحابة الذين بايعوا تحت الشجرة .... فدعا رسول اللَّه (صلى اللَّه عليه و آله و سلم) مالك بن الدخشم أخا بني سالم بن عوف و معن بن عدي أحد بلعجلان فقال: انطلقا إلى هذا المسجد الظالم أهله فاهدما و حرقاه فخرجا سريعين حتى أتيا بني سالم بن عوف و هم رهط مالك بن الدخشم فقال مالك لمعن أنظرني حتى أخرج إليك فدخل إلى أهله فأخذ سعفا من النخل فأشعل فيه نارا ثم خرج يشتدان و فيه أهله فحرقاه و هدماه و تفرقوا عنه.

(2) تضاربت الروايات في المعني من‏ «لَمَسْجِدٌ أُسِّسَ عَلَى التَّقْوى‏» منها

المروي عنه (صلى‏

الفرقان في تفسير القرآن بالقرآن، ج‏13، ص: 302

هما و أمثالهما، و

قد يروى عنه (صلى اللَّه عليه و آله و سلم) أنه قال: هو مسجدي هذا، و في أخرى أنه مسجد قباء،

و الجمع بينهما أن قبا تنزيلها و مسجد النبي (صلى اللَّه عليه و آله و سلم) تأويلها، و من تأويلها كل مسجد أسس على التقوى، كما و من تأويل مسجد الضرار كل مسجد أسس على الطغوى.

فذلك المبني عن التقوى‏ «أَحَقُّ أَنْ تَقُومَ فِيهِ» فإن‏ «فِيهِ رِجالٌ يُحِبُّونَ أَنْ يَتَطَهَّرُوا» بطهر الإيمان و التقوى خلاف هؤلاء المنافقين الذين يحبون أن يندلسوا أو يدلّسوا «وَ اللَّهُ يُحِبُّ الْمُطَّهِّرِينَ».

فلمسجد التقوى أساسان اثنان: 1 «أُسِّسَ عَلَى التَّقْوى‏» و 2 «فِيهِ رِجالٌ يُحِبُّونَ أَنْ يَتَطَهَّرُوا»- طهارة تعاكس مربع الدناسة لأهالي مسجد الطغوى- «1»، كما لمسجد الطغوى اثنان آخران: أسس على الطغوى،

\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_

اللَّه عليه و آله و سلم) أنه مسجدي هذا،

و منها الجامع بينهما كما

في الدر المنثور 3:

277 عن أبي سعيد الخدري قال: اختلف رجلان رجل من بني خدرة و رجل من بني عمرو بن عوف في المسجد الذي أسس على التقوى فقال الخدري هو مسجد رسول اللَّه (صلى اللَّه عليه و آله و سلم) و قال العمري هو مسجد قباء فأتيا رسول اللَّه (صلى اللَّه عليه و آله و سلم) فسألاه عن ذلك فقال: هو هذا المسجد لمسجد رسول اللَّه (صلى اللَّه عليه و آله و سلم) و قال: في ذلك خير كثير يعني مسجد قباء، و رواه مثله بحذف ذيله سهل بن سهل الساعدي و أبي بن كعب و زيد بن ثابت.

و

فيه عنه (صلى اللَّه عليه و آله و سلم) قال: صلاة في مسجد قباء كعمرة

، و

روى بطرق عدة عنه (صلى اللَّه عليه و آله و سلم) أن قوله تعالى‏ «فِيهِ رِجالٌ ...» نزلت بشأن أهالي مسجد قبا

و

في نور الثقلين 3: 267 و في الكافي عن الحلبي عن أبي عبد اللَّه (عليه السلام) قال: سألته عن المسجد الذي أسس على التقوى قال: مسجد قبا، و في تفسير العياشي عن زرارة و حمران و محمد بن مسلم عن أبي جعفر و أبي عبد اللَّه (عليهما السلام) مثله.

(1).

في تفسير الفخر الرازي 16: 196 روى صاحب الكشاف‏ انه لما نزلت هذه الآية مشى رسول اللَّه (صلى اللَّه عليه و آله و سلم) و معه المهاجرون حتى وقف على باب مسجد قباء فإذا الأنصار جلوس فقال: أ مؤمنون أنتم؟ فسكت القوم، ثم أعادها، فقال عمر: يا رسول اللَّه إنهم لمؤمنون و أنا معهم فقال (صلى اللَّه عليه و آله و سلم) أ ترضون بالقضاء؟

قالوا: نعم، قال: أ تصبرون على البلاء؟ قالوا: نعم، قال: أ تشركون في الرخاء؟

الفرقان في تفسير القرآن بالقرآن، ج‏13، ص: 303

2 و فيه رجال يحبون أن يتدهوروا و يطغوا:

أَ فَمَنْ أَسَّسَ بُنْيانَهُ عَلى‏ تَقْوى‏ مِنَ اللَّهِ وَ رِضْوانٍ خَيْرٌ أَمْ مَنْ أَسَّسَ بُنْيانَهُ عَلى‏ شَفا جُرُفٍ هارٍ فَانْهارَ بِهِ فِي نارِ جَهَنَّمَ وَ اللَّهُ لا يَهْدِي الْقَوْمَ الظَّالِمِينَ (109).

فمن «بنيانه على تقوى من الله أنه‏

لما أسس رسول الله (صلى الله عليه و آله و سلم) المسجد الذي أسسه على التقوى كان كلما رفع لبنة قال: اللهم إن الخير خير الآخرة، ثم يناولها أخاه فيقول ما قال رسول الله (صلى الله عليه و آله و سلم) حتى تنتهي اللبنة منتهاها، ثم يرفع الأخرى فيقول: اللهم اغفر للأنصار و المهاجرة، ثم يناولها أخاه فيقول ما قال رسول الله (صلى الله عليه و آله و سلم) حتى تنتهي اللبنة منتهاها» «1».

هذا

«و كل عبادة مؤسسة على غير التقوى فهي هباء منثور»

طغوى‏ «2» فالمؤمنون الذين وضعوا المسجد على قواعد من الإيمان و أساس من الرضوان.

أذلك خير «أَمْ مَنْ أَسَّسَ بُنْيانَهُ عَلى‏ شَفا جُرُفٍ هارٍ فَانْهارَ بِهِ فِي نارِ جَهَنَّمَ»: قائم على حافة جرف منهار، على تربة مخلخلة مشرفة على الانهيار، فكأنهم وضعوه على شفا جرف هار متقوض، و أساس واه منتقض- إذا- فكأنما انهار بهم في نار جهنم، فأيهما خير في قسطاط الحق و العدل؟

فلنقف لحظات متطلعين إلى بناء التقوى و بناء الطغوى، التقوى الراسي المطمئن الراسخ، و الطغوى الجاسي المتزلزل الفاسخ،

\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_

قالوا: نعم قال: مؤمنون و رب الكعبة ثم قال: يا معشر الأنصار إنّ اللَّه أثنى عليكم فما الذي تصنعون في الوضوء؟ قالوا: نتبع الماء الحجر فقرأ النبي (صلى اللَّه عليه و آله و سلم): فيه رجال يحبون أن يتطهروا ..

(1). الدر المنثور 3: 279- أخرج أبو الشيخ عن الحسن قال: لما أسس ..

(2) نور الثقلين 2: 268 عن مصابح الشريعة قال الصادق (عليه السلام).

الفرقان في تفسير القرآن بالقرآن، ج‏13، ص: 304

المنزلق المتأرجح المتزحلق، المنهار في نار جهنم.

إنه مشهد عجاب، حافل بالحركة المثيرة المغيرة ليطمئن البناة على أساس التقوى على مسيرهم، إلى مصيرهم النور، في مواجهة دعاة الكفر و النفاق و الطغوى على مسيرهم إلى مصيرهم النار.

فهذان هما صراط الحق لأهليه، و صراط الباطل لأهليه،

«فهنيأ لأهل الرحمة رحمتهم، و شنيعا لأهل النار مثواهم» «1»

و زحمتهم.

ذلك، و لأن لأساس البنيان دور في كلا الحق و الباطل، فقد يقدّم الإمام علي (عليه السلام) لإمرة المؤمنين دون مناوئيه إذ أسس بنيانه (عليه السلام) على تقوى من اللَّه منذ عرف نفسه، و أسس بنيانهم على الشرك و الطغوى مهما آمنوا بعد، فتقوى اللَّه و رضوانه بادئان في تبني صرح الإيمان لأمير المؤمنين (عليه السلام) ثم طغواه و سخطه بادئان في تبني الخلفاء الثلاث و أضرابهم!.

و لقد ترتسم تقوى من اللَّه و رضوان كلمة لا إله إلّا اللَّه، فالتقوى هي واجهة السلب، و رضوان هو واجهة الإيجاب، فلما لم تتقى اللَّه ابتعادا عن سخطه، لم تحصل على رضوانه، و لأن عليا (عليه السلام) هو أول من أسلم فقد تقدم على من سواه في رسم كلمة التوحيد.

و لأن شفا الشي‏ء هي حرفه و طرفه، و الجرف هو منحرفه من منعطف الطين الواهي المشرف على السقوط، و الهار هو الانصداع من الخلف، فقد أسسوا هؤلاء الأنكاد بنيان مسجد الضرار على الطرف المنحرف الواهي المنصدع من الخلف بشفير جهنم‏ «فَانْهارَ بِهِ فِي نارِ جَهَنَّمَ وَ اللَّهُ لا يَهْدِي الْقَوْمَ الظَّالِمِينَ».

\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_

(1).

المصدر في أمالي الشيخ عن أمير المؤمنين (عليه السلام) أنه قال: ليس عبد من عباد اللَّه ممن أمتحن اللَّه قلبه بالإيمان إلا و هو يجد مودتنا على قلبه فهو محبنا و ليس عبد من عباد اللَّه ممن سخط اللَّه عليه إلا و هو يجد بغضنا على قلبه فهو مبغضنا فأصبح محبنا ينتظر الرحمة و كأن أبواب الرحمة قد فتحت له و أصبح مبغضنا على شفا جرف هار فانهار به في نار جهنم فهنيأ ...

الفرقان في تفسير القرآن بالقرآن، ج‏13، ص: 305

فقد و اللَّه رأيت أنا فسحة مسجد الضرار خاوية بين بنايات دون عمار فسألت عنها كيف لا يبنى عليها فكان الجواب كلمة واحدة كلما عمّر احترق و تهدّم‏ «1»!.

ذلك مشهد مشهد آخر يرسمه هذا التعبير العبير منقطع النظير لآثار مسجد الضرار في نفوس بناته الأشرار و بناة كل بنايات الضرار ضد صرح الإيمان:

لا يَزالُ بُنْيانُهُمُ الَّذِي بَنَوْا رِيبَةً فِي قُلُوبِهِمْ إِلَّا أَنْ تَقَطَّعَ قُلُوبُهُمْ وَ اللَّهُ عَلِيمٌ حَكِيمٌ (110).

فلقد انهار مسجد الضرار في جحيم النار، و لكن رمادا منه بعد قار في قلوب بناته و هو ريبة، قلوب اندغمت فيها ريبة ذلك البنيان دائبة ما هي باقية باغية «إِلَّا أَنْ تَقَطَّعَ قُلُوبُهُمْ» بهذه الريبة المصيبة «وَ اللَّهُ عَلِيمٌ» بما في قلوبهم «حكيم» بما هو فاعل بهم، و هم يخافون مع هذه الريبة إنزال ضروب العقوبات و المكاره بهم، أو بسط المؤمنين عليهم لما ظاهروهم من العناد و الشقاق، فهم أبدا بنفوسهم مستريبون، و عليها خائفون مشفقون،

\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_

(1). و من أشباه مسجد الضرار، قبر معاوية الضرار، فإنه خربة منذ قرون، رغم كونه في أوساط دمشق عاصمة حكومته، و حين نسأل عن أهل دمشق كيف نرى قبر معاوية خربة منتنة؟ نسمع الجواب كلمة واحدة: كل قائد سياسي من رؤساء الوزارات و سواهم صمم على تعميره أو أخذ يعمره دمّر هو نفسه قبل أن يعمّر، و منهم عبد السلام عارف من رؤساء الجمهورية العراقية حيث أخذ في جمع متبرعات لتعمير قبر معاوية فاحترقت طائرته بين بصرة و بغداد.

ذلك، و يقابله قبر معاوية بن يزيد إذ كان من الصالحين نسبيا و ينقل عنه أنه رقى المنبر بعد أبيه يزيد و قال: يا ليت كنت مضغة ساقطة و ما جلت هذا المجلس اغتصابا لحق أهل بيت رسول اللَّه (صلى اللَّه عليه و آله و سلم) فقد نرى قبره عامرا يزار، و قد اتفق كرارا أنه لما يسأل عن قبر معاوية، يشير جماعة من المتعصبين له إلى قبر معاوية بن يزيد، حفاظا على كرامة معاوية بن أبي سفيان حتى لا يرى قبره في عاصمته خربة نتنة، في حين نجد قبر رقية بنت الحسين (عليه السلام)- و لم يمض من عمرها إلّا ثلاث سنين- نجده بقرب قبر معاوية عامرا يزار، و قد وسّعوه أخيرا و كلفوا في توسعته ملايين من الليرات!.

الفرقان في تفسير القرآن بالقرآن، ج‏13، ص: 306

فلا يزالون على ذلك إلا أن تقطع قلوبهم، حسرة، و تزهق نفوسهم خيفة.

و هكذا يعيش صاحب الكيد الخادع الهارع، مزعزع العقيدة، حائر المكيدة، فهو جحيم من داخل، محروقا بجحيم نفسي و من خارج، مارج من نار، جهنم يصلونها و بئس القرار.

أ ترى ألّا توبة لهم حتى تقطّع قلوبهم موتا و فوتا؟ قد يعني تقطّع قلوبهم إلى موتهم مضطربين، حالتهم بعد توبتهم، أنهم كلما يذكرون فعلتهم تتقطع قلوبا تحزّنا على ما فعلوه، فقد لا يزالون في تقطع قلوبهم كافرين و مؤمنين، مهما يطمئنهم الإيمان فيقل ذلك التقطع قدر ماكن الإيمان، و إلى أن يقطّع الإيمان قلوبهم المقلوبة إلى قطاع صالح مطمئن، فتقلّب القلب الخاوي عن ذكر اللَّه هو اطمئنانه باللَّه، كما أن تقلب القلب المطمئن بذكر اللَّه هو إخلاده إلى الأرض، رضى بالحياة الدنيا و اطمئنانا بها.

فتقطّع القلوب بدوام الريبة بالموت أو المعيشة الضنك هو لمن يبقى على نفاق و كفره، و تقطّعها بزوال الريبة هو لمن آمن و عمل صالحا ثم اهتدى.

فللأولين بنيان الريبة في قلوبهم من ذلك البنيان المنهار الهار في النار، ريبة على ريبتهم إذ لم يفلحوا بكيدهم أو يفلجوا بميدهم إلّا أن تقطّع قلوبهم بموتهم فتزول الريبة حيث يكشف الغطاء، و للآخرين هدم لبنيان الريبة بتقطّع قلوبهم المظلمة إلى النيرة فتزول بذلك الريبة.

إِنَّ اللَّهَ اشْتَرى‏ مِنَ الْمُؤْمِنِينَ أَنْفُسَهُمْ وَ أَمْوالَهُمْ بِأَنَّ لَهُمُ الْجَنَّةَ يُقاتِلُونَ فِي سَبِيلِ اللَّهِ فَيَقْتُلُونَ وَ يُقْتَلُونَ وَعْداً عَلَيْهِ حَقًّا فِي التَّوْراةِ وَ الْإِنْجِيلِ وَ الْقُرْآنِ وَ مَنْ أَوْفى‏ بِعَهْدِهِ مِنَ اللَّهِ فَاسْتَبْشِرُوا بِبَيْعِكُمُ الَّذِي بايَعْتُمْ بِهِ وَ ذلِكَ هُوَ الْفَوْزُ الْعَظِيمُ (111).

هنا المشتري هو اللَّه، و المشترى به هو الحياة الدنيا: «أَنْفُسَهُمْ وَ أَمْوالَهُمْ» و المشترى هو الجنة: «فَلْيُقاتِلْ فِي سَبِيلِ اللَّهِ الَّذِينَ يَشْرُونَ الْحَياةَ الدُّنْيا بِالْآخِرَةِ وَ مَنْ يُقاتِلْ فِي سَبِيلِ اللَّهِ فَيُقْتَلْ أَوْ يَغْلِبْ فَسَوْفَ نُؤْتِيهِ‏

الفرقان في تفسير القرآن بالقرآن، ج‏13، ص: 307

أَجْراً عَظِيماً» (4: 74) «1».

فأنفس المؤمنين و أموالهم في هذه التجارة المربحة هي بمنزلة العروض المبيعة، و الأعواض المضمونة هي بمنزلة الأثمان المنقودة، و الصفقة رابحة خالصة غير فالسة و لا كالسة، لزيادة الأثمان على السلع، و إضعاف الأعواض على القيم.

و هنا الجنة جنتان جنة الجنان و جنة الرضوان، و مبتغى أهل اللَّه في الأصل هو الثاني: «وَ مِنَ النَّاسِ مَنْ يَشْرِي نَفْسَهُ ابْتِغاءَ مَرْضاتِ اللَّهِ وَ اللَّهُ رَؤُفٌ بِالْعِبادِ» (2: 207) إذ «رِضْوانٌ مِنَ اللَّهِ أَكْبَرُ» (9: 72).

و هنا «اشترى» منذ الفطرة إلى العقلية الإنسانية، إلى العقلية الإيمانية، و هم قابلون هذه التجارة الرابحة المربحة: «يا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا هَلْ أَدُلُّكُمْ عَلى‏ تِجارَةٍ تُنْجِيكُمْ مِنْ عَذابٍ أَلِيمٍ. تُؤْمِنُونَ بِاللَّهِ وَ رَسُولِهِ وَ تُجاهِدُونَ فِي سَبِيلِ اللَّهِ بِأَمْوالِكُمْ وَ أَنْفُسِكُمْ ذلِكُمْ خَيْرٌ لَكُمْ إِنْ كُنْتُمْ تَعْلَمُونَ» (61: 11).

ثم «أنفسهم» تعني إلى أنفسهم الذاتية، الذين يتعلقون بهم كأنفسهم نسبيا أو سببا، كما أن «أموالهم» تعم إلى الحاضرة، الأموال التي بإمكانهم الحصول عليها، مضحّين بكل طاقاتهم و إمكانياتهم ف‏ «يُقاتِلُونَ فِي سَبِيلِ اللَّهِ» ثم لهم إحدى الحسنيين «فيقتلون» و هي‏

\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_

(1).

الدر المنثور 3: 280- أخرج ابن جرير عن محمد بن كعب القرظي و غيره قال‏ قال عبد اللَّه ابن رواحة لرسول اللَّه (صلى اللَّه عليه و آله و سلم): اشترط لربك و لنفسك ما شئت، قال: اشترط لربي أن تعبدوه و لا تشركوا به شيئا و اشترط لنفسي أن تمنعوني مما تمنعون منه أنفسكم و أموالكم قالوا: فإذا فعلنا ذلك فما لنا قال: الجنة، قال: ربح البيع لا نقيل و لا نستقيل فنزلت هذه الآية، و فيه أخرج ابن أبي حاتم و ابن مردويه عن جابر بن عبد اللَّه قال: نزلت هذه الآية على رسول اللَّه (صلى اللَّه عليه و آله و سلم) و هو في المسجد فكبر الناس في المسجد فأقبل رجل من الأنصار ثانيا طرفي ردائه على عاتقه فقال يا رسول اللَّه أنزلت هذه الآية؟ قال: نعم فقال الأنصاري: بيع ربيح لا نقيل و لا نستقيل.

الفرقان في تفسير القرآن بالقرآن، ج‏13، ص: 308

حسنى الغلبة على أعداءهم «و يقتلون» كخطوة أخيرة حين لا يتمكنون أن يقتلوا أو يحافظوا على حياتهم فيقدّمون حياتهم لإحياء سبيل اللَّه و هي الحسنى الأخرى، و قد يجمعون بينهما أن يقتلوا ثم يقتلوا و هما على سواء لهم‏ «فِي سَبِيلِ اللَّهِ» و

عن النبي (صلى اللَّه عليه و آله و سلم) قال: «من سل سيفه في سبيل الله فقد بايع الله» «1».

و ذلك‏ «بِأَنَّ لَهُمُ الْجَنَّةَ» بمراتبها حسب مراتبهم في هذه التجارة، و عليا ها هي جنة الرضوان.

«وَعْداً عَلَيْهِ» إذ كتب على نفسه هذه الرحمة الغالية المتعالية «فِي التَّوْراةِ وَ الْإِنْجِيلِ وَ الْقُرْآنِ» فإن في هذه الكتب الثلاثة تشجيعات و ذكريات عن المقاتلين في سبيل اللَّه بما كتب اللَّه على نفسه‏ «بِأَنَّ لَهُمُ الْجَنَّةَ» و من هذه الجنة هنا إحدى الحسنيين.

«إِنَّ اللَّهَ اشْتَرى‏ ..» فمنهم من ينسى عهده توانيا عن القتال، و منهم الموفي بعهده «و من أوفى بعهده الذي عاهد عليه الله» يقال لهم:

«فَاسْتَبْشِرُوا بِبَيْعِكُمُ الَّذِي بايَعْتُمْ بِهِ» و بيعهم هنا مبيعهم: «أَنْفُسَهُمْ وَ أَمْوالَهُمْ» حيث بايعوا به‏ «بِأَنَّ لَهُمُ الْجَنَّةَ»- «وَ ذلِكَ هُوَ الْفَوْزُ الْعَظِيمُ».

هنا «فَيَقْتُلُونَ وَ يُقْتَلُونَ» تسوّي في حقل الجهاد بالأنفس فاعلية القتل و مفعوليته، فإن قتل و قتل فقد جمع بين الجهادين، و إن فاز بأحدهما فهو شهيد في جانب واحد، و على أية حال فالشهيد القتيل في سبيل اللَّه له درجة عند اللَّه عالية غالية، و إليكم مقتطفات مما

روي عن النبي (صلى اللَّه عليه و آله و سلم) بحق الشهداء في سبيل اللَّه: «لوددت أني أقتل في سبيل الله ثم أحيا ثم أقتل ..» «2»

و

«توكل‏

\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_

(1). الدر المنثور 3: 280- أخرج ابن مردويه عن أبي هريرة قال قال رسول الله (صلى الله عليه و آله و سلم): ..

(2) مفتاح كنوز السنة بخ- ل 56 ب 7 و 119، ل 9 ب 1 و نس- ل 25 ب 3 و 20 و مج- ك 24 ب 1 و ما- ل 21 ح 27 و 40 و حم- ثان ص 231 و 384 و 424 و 473 و 496 و 502.

الفرقان في تفسير القرآن بالقرآن، ج‏13، ص: 309

الله بالمجاهد في سبيله أن يدخله الجنة» «1»

و

«إن في الجنة مائة درجة أعدها الله للمجاهدين في سبيله» «2»

و

«تمني الشهيد أن يرجع إلى الدنيا فيقتل عشر مرات» «3».

و ترى «من أوفي» شرطية جزاءها «فاستبشروا»؟ و صالح الجزاء- إذا- «فليستبشر» ليوافق فاعل الشرط، إنّ «من اللَّه» قد تلمح أن «أوفى» أفعل تفضيل!.

أم هو استفهامية استفحامية و «أوفى» تفضيل؟ و فاصل «بعهده» بين المفضل و المفضل عليه لا يناسبه حيث الفصيح- إذا- «من أوفى من الله بعهده»! ثم لا موقع للفاء إذ لا شرط!.

قد تتحمل «من أوفى» كلا الشرطية و الاستفهام و أما «فاستبشروا» شرطا فتحوّل من الغياب إلى الخطاب «فاستبشروا أنتم الموفون ...» ثم‏

\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_

أقول و بيانا لهذه الرموز: بخ صحيح البخاري- مس صحيح مسلم- بد سنن أبي داود- تر سنن الترمذي- نس سنن النسائي- مج سنن ابن ماجة- مى سنن الدارمي- ما موطأ مالك- ز مسند زيد بن علي- عد طبقات ابن سعد- حم مسند أحمد بن حنبل- ط مسند الطيالسي- هش سيرة ابن هشام- قد مغازي الواقدي.

ثم: ك كتاب- ب باب- ح حديث- ص صفحة- ج جزء- ق قسم- قا قابل ما قبلها بما بعدها- م م م فوق العدد من جهة اليسار تدل على أن الحديث مكر مرات و الرقم الصغير فوق العدد من جهة اليسار يدل على أن الحديث مكرر بقدره في الصفحة أو في الباب.

(1). بخ- ل 56 ب 2 و ل 57 ب 8- مس- ل 33 ح 103 و 104- بد- ل 15 ب 9 و تر- ك 20 ب 1 و نس- ك 25 ب 14 و مج- ل 24 ب 1 و مى- ك 16 ب 2 و ما- ك 21 ح 2 و حم- ثان ص 231 و 384 و 398 و 399 و 424، 494.

(2) بخ- ك 56 ب 5 و مس- ك 33 ح 116 و مى- ك 16 ب 19 و حم- أول ص 266.

(3) بخ- ل 56 ب 6 و 21 و مس- ك ح 108 و 109 و 121 و تر- ك 20 ب 13 و 25 و ك 44 سورة 3 ح 18 و 19 و نس- ك 25 ب 33 و 34 و مج- ك 24 ب 16 و مى- ك 16 ب 17 و حم- ثالث ص 103 و 126 و 131 و 153 و 173 و 239 و 251 و 276 و 278 و 284 و 361، رابع ص 216، خامس ص 318 و 322 و ط- ح 1964 و قد- ص 126.

الفرقان في تفسير القرآن بالقرآن، ج‏13، ص: 310

«من اللَّه» هنا تعني: عهده النازل له من اللَّه، المعني من‏ «وَعْداً عَلَيْهِ حَقًّا ..».

و أما الاستفهام فلا، فاصل «أوفى» ينافيه، حيث يراد المعنيان، و لا أن الفاء لا موقع لها، حيث يفرّع الاستبشار- إذا- على ذلك الاشتراء و الوعد و الوفاء الأوفى.

فالمعنيان- إذا- معنيّان حيث يوافقان أدب اللفظ و حدب المعنى، و القرآن حمال ذو وجوه فاحملوه إلى أحسن الوجوه، و أحسنها الجمع بين الوجوه الحسنة مهما كانت درجات.

و إليكم تصريحات من كتابات الوحي بشرعة الجهاد:

1 في «نبوءت هيلد»: وحي الطفل: لحمان حطوفاه- النازل عليه قبل ميلاد الرسول (صلى اللَّه عليه و آله و سلم) بسبعين سنة، يقول عنه (صلى اللَّه عليه و آله و سلم) باللغة الأنقلوسية و هي العبرانية الرمزية:

«نهرا كد مطا و لات قص متيعبد قطاطاه و هواه طينا داملطا».

يشرق العالم لمّا يصل- و يخمد نيران الخلافات- و يوصل إلى القيامة الكبرى- و يحارب في سبيل اللَّه- و يبعث من أمة محرومة مهدومة «1».

ذلك، و في تصريحات متكررة في‏ «التَّوْراةِ وَ الْإِنْجِيلِ» و ملحقاتها أن الشرعة المحمدية هي الشرعة النارية حيث تحرق الفتن و المفتتنين و أنها تزيل نفسية الاستبداد و الاستكبار من أنفس المستكبرين، بالجهاد المتواصل، و تخضع الفراعنة أمام شرعة الحق-، و القيام بالسيف علم من أعلام القدسية الإيمانية للذين معه- و عصا قوته لا تعني إلا بسط العدل، و هدم بساط الظلم- و أنها من علائم الحمية و الغيرة-.

ثم توسع نطاق الجهاد في حقله الكتابي إلى حروب موسى و داود

\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_

(1). لقد فصلنا القول حول وحي الطفل في كتابنا (رسول الإسلام في الكتب السماوية) و بطيات الفرقان حسب المناسبات، و كذلك سائر الوحي بحق الجهاد الإسلامي و سائر ميزاته، فراجع.

الفرقان في تفسير القرآن بالقرآن، ج‏13، ص: 311

و شعيب (عليهم السلام) و استعداد المسيح (عليه السلام) للحرب و لكن تركه الحواريون فصلب بزعم جمع منهم جامحين‏ «1».

و نموذجا عاليا غاليا من وحي التوراة عن شرعة الجهاد النص التالي حيث يحمل بطيات البشارات الثلاث لنبوءات ثلاث، يحمل ميّزة للشرعة الأخيرة بارزة هي أنها الشرعة النارية، و إليكم النص بالأصل العبراني:

1 «وزئت هبر أخاه اشر برخ موشه إيش ها الوهيم ات بني يسرائيل لفني موتو و يومر 2 يهواه مسيني باو زارح مسعير لامو هوفيع مهر فاران و آتاه مر ببت قدش مي مينو اش دات لامو. (سفر التثنية 1- 2) 1 و هذه بركة باركها موسى رجل الله بني إسرائيل عند موته و قال 2 جاء الله من سيناء، تجلى من ساعير، تلعلع من جبل فاران: (حر) و ورد مع آلاف المقدسين و ظهر على يده اليمنى الشريعة النارية».

و نموذجا آخر هو من الإنجيل قول المسيح كما في (لوقا 12:

49): «جئت لألقي نارا على الأرمن. فما ذا أريد لو اضطرمت. ولي صبغة اصطبغها و كيف أنحصر حتى تكمل. أ تظنون أني جئت لألقي سلاما على الأرض. كلا أقول لكم بل انقساما ..».

و في (لوقا 22: 35- 37): «ثم قال لهم حين أرسلتكم بلا كيس و لا مزود و لا أحذية هل أعوزكم شي‏ء؟ فقالوا: لا فقال لهم لكن الآن من له كيس فليأخذه، و مزود كذلك و من ليس له فليبع ثوبه و يشتر سيفا لأني أقول لكم إنه ينبغي أن يتم في أيضا هذا المكتوب و أحصى مع أئمة. لأن ما هو من جهتي له انقضاء فقالوا يا رب هو ذا هنا سيفان.

فقال لهم: يكفي» «2».

اللّهم إنك علمت سبيلا من سبلك جعلت فيه رضاك و ندبت إليه أولياءك و جعلته أشرق سبلك عندك ثوابا و أكرمها لديك مآبا واجها إليك مسلكا ثم اشتريت فيه من المؤمنين أنفسهم و أموالهم بأن لهم الجنة يقاتلون‏

\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_

(1، 2). راجع كتابنا (رسول الإسلام في الكتب السماوية) تجد نصوصا و فيرة حول الجهاد.

الفرقان في تفسير القرآن بالقرآن، ج‏13، ص: 312

في سبيل اللَّه فيقتلون و يقتلون وعدا عليك حقا، فاجعلني ممن اشترى فيه منك نفسه ثم و في لك ببيعه الذي بايعك عليه غير ناكث و لا ناقض عهدا و لا مبدلا تبديلا «1».

«ألا حر يدع هذه اللماظة لأهلها، إنه ليس لأنفسكم ثمن إلا الجنة فلا تبيعوها إلا بها»- «فلا أموال بذلتموها للذي رزقها و لا أنفس خاطرتم بها للذي خلقها» «2».

و

«أول الجهاد الدعاء إلى طاعة الله عز و جل من طاعة العباد و إلى عبادة العباد من عبادة الله و إلى ولاية الله من ولاية العباد» «3».

و ترى لماذا «بِأَنَّ لَهُمُ الْجَنَّةَ» دون «بالجنة»؟ لأن «بالجنة» حتم لا مرد له و كأنها تقابل ذلك القتال باستحقاق أصيل، و لكن‏ «بِأَنَّ لَهُمُ الْجَنَّةَ» هو وعد الجنة و ليست هي هيه، فقد اشترى أنفسا خلقها و أموالا رزقها، فليس- إذا- إلا تلطفا في الدعوة و تعطفا على الخليقة، و كما يستقرضنا ربنا و يستعطينا، فوا خجلتاه إن عصيناه على عطفه و رحمته!.

فيا ويلاه! أين التراب و رب الأرباب، حيث الرب على عظمه يجعل نفسه مشتريا لنفس العبد و قد خلقها، و لماله و قد رزقه، ففي الحقّ الحقّ هو المشتري من نفسه و هو البائع لنفس و نفيس هما من خلقه، ثم «وعدا عليه» تجعله كأنه مديون‏ «بِأَنَّ لَهُمُ الْجَنَّةَ» لا تقبل إقالة و لا إحالة!، ثم يستشهد لثابت وعده بما أنزله‏ «فِي التَّوْراةِ وَ الْإِنْجِيلِ وَ الْقُرْآنِ».

\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_

(1).

نور الثقلين 2: 272 في الكافي عن أبي عبد اللَّه (عليه السلام) أن أمير المؤمنين (عليه السلام) كان إذا أراد القتال قال هذه الدعوات.

(2) هما في نهج البلاغة عن الإمام علي أمير المؤمنين (عليه السلام).

(3) و

في نور الثقلين 2: 269 في الكافي كتب أبو جعفر (عليهما السلام) في رسالة إلى بعض خلفاء بني أمية و من ذلك: من ضيع الجهاد الذي فضله اللَّه تعالى على الأعمال و فضل عامله على العمال تفضيلا في الدرجات و المغفرة و الرحمة لأنه ظهر به الدين و به يدفع عن الدين و به اشترى اللَّه من المؤمنين أنفسهم و أموالهم بالجنة بيعا مفلحا منجحا اشترط عليهم فيه حفظ الحدود و أول ذلك الدعاء إلى طاعة اللَّه عزّ و جلّ ...

الفرقان في تفسير القرآن بالقرآن، ج‏13، ص: 313

و إنها لبيعة رهيبة و بيع رهيب، في عنق كل مؤمن، لا تسقط عنها إلّا بسقوط إيمانه، فعونك اللَّه و عوذا منك إليك في الإيفاء بذلك العقد العقيد!.

و هكذا اللَّه‏

«يكرمهم على لسان الحقيقة و على لسان المعاملة، اشترى منهم الأجساد لمواضع وقوع المحبة من قلوبهم فأحياهم بالوصلة» «1».

التَّائِبُونَ الْعابِدُونَ الْحامِدُونَ السَّائِحُونَ الرَّاكِعُونَ السَّاجِدُونَ الْآمِرُونَ بِالْمَعْرُوفِ وَ النَّاهُونَ عَنِ الْمُنْكَرِ وَ الْحافِظُونَ لِحُدُودِ اللَّهِ وَ بَشِّرِ الْمُؤْمِنِينَ (112).

مواصفات تسع لأهل الجنة هي و الموفين بعهد اللَّه عشرة كاملة من صفات المؤمنين: «و من أوفي بعهده من الله: التائبون ...» فقراءة الجر «2» جرّ إلى غير المتواتر زعم أنها أوصاف لمجرور «بَشِّرِ الْمُؤْمِنِينَ» رغم أن الموصوف الأصيل الأقرب لفظيا و معنويا هو «من أوفى» و هؤلاء هم:

1 «التائبون» إلى اللَّه من ذنب و غير ذنب حيث التوبة لا تختص بذنب فإنها الرجوع إلى اللَّه على أية حال، و التوبة شعور بالندم على ما مضى- إن كانت عن ذنب- و توجه إلى اللَّه فيما بقي عن ذنب أم غير ذنب.

2 «العابدون» اللَّه دون سواه، و دون سمعة أو رئاء الناس، عابدون إياه عبادة و عبودية و إقرارا بالربوبية، العابدون معرفة و عقيدة و عملا للَّه و كما يترجمها الاتجاه إلى اللَّه بكل الكيان، و «العابدون» دون الذي يعبدون، للتدليل على استمرارية العبادة و العبودية للَّه على أية حال، لا فقط حال العبادات.

\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_

(1). مجلة العرفان العدد الثالث المجلد 61 ص 391 عن الإمام الصادق (عليه السلام).

(2)

نور الثقلين 2: 274 في روضة الكافي عن أبي بصير عن أبي عبد اللَّه (عليه السلام) قال: تلوت: التائبون .. فقال: لا، اقرأ «التائبين العابدين» إلى آخرها فسئل عن العلة في ذلك؟ فقال: اشترى من المؤمنين التائبين العابدين.

الفرقان في تفسير القرآن بالقرآن، ج‏13، ص: 314

3 «الحامدون» اللَّه دون سواه إلّا حمدا به للَّه، «الحمادون الذين يحمدون الله على السراء و الضراء «1» حمدا بأقوالهم و أحوالهم و أفعالهم لله» «2».

4 «السائحون» سيحا أنفسيا كالصيام‏ «3» و ما أشبه، و سيحا في سبيل اللَّه جهادا «4» و سواه و هو مأخوذ من سيح الماء الجاري، فالمؤمنون الموفون بعهودهم من اللَّه هم كالماء الجاري: فكما أن راكد الماء ينتن و يتعفن و جاريه ينظف و ينظّف، كذلك المؤمنون هم سائحون جارون في مجاري الصلاح و الإصلاح لأنفسهم و للآخرين، فمن الجري في أنفسهم الصوم حيث يطهّر القلب بجاري ماءه الحيوي، و منه في أنفسهم و من سواهم الجهاد في سبيل اللَّه و له مصاديق عدة.

كالسيح لطلب العلم في اللَّه، و كسب الإخوان في اللَّه، و السير في أرض اللَّه و كل سيح آفاقي و أنفسي في سبيل اللَّه، فالجامد الواقف ليس مؤمنا باللَّه، إنما هو الحركي السائح الكادح: «يا أَيُّهَا الْإِنْسانُ إِنَّكَ كادِحٌ إِلى‏ رَبِّكَ كَدْحاً فَمُلاقِيهِ» (84: 6).

و لقد ذكر الرسول (صلى اللَّه عليه و آله و سلم) مصداقا أنفسيا فرديا لذلك السيح هو الصيام، و مصداقا آفاقيا هو الجهاد في سبيل اللَّه، و هذا

\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_

(1). الدر المنثور 3: 281 عن ابن عباس قال قال رسول اللَّه (صلى اللَّه عليه و آله و سلم): ..

(2)

المصدر أخرج البيهقي في الشعب عن عائشة قالت: كان رسول اللَّه (صلى اللَّه عليه و آله و سلم) إذا أتاه الأمر يسرّه قال: الحمد للَّه الذي بنعمته تتم الصالحات و إذا أتاه الأمر يكرهه قال: الحمد للَّه على كل حال.

(3)

المصدر أخرج ابن جرير عن عبيد بن عمير قال‏ سئل النبي (صلى اللَّه عليه و آله و سلم) عن الساكنين قال: هم الصائمون، و رواه عن أبي هريرة و ابن مسعود عنه (صلى اللَّه عليه و آله و سلم).

(4)

المصدر أخرج ابن أبي حاتم و الطبراني و الحاكم و البيهقي في شعب الإيمان عن أبي أمامة أن رجلا استأذن رسول اللَّه (صلى اللَّه عليه و آله و سلم) في السياحة قال: إن سياحة أمتي الجهاد في سبيل اللَّه.

الفرقان في تفسير القرآن بالقرآن، ج‏13، ص: 315

يشمل كل حركة للسالكين إلى اللَّه.

فكما أن‏ «الْحافِظُونَ لِحُدُودِ اللَّهِ» تشمل كل حدوده، كذلك «السائحون» تشمل كل حركة ذات بركة في سبيل اللَّه.

و لماذا ذكرت الواو مرتين بين هذه التسع؟ علّه لأن الثلاث الأخيرة هي المتميزة الهامة التي تشمل سائر العشر المذكورة من ذي قبل، و أنها من المسؤوليات الجماعية، أم و تعني التسوية بين الآمرين و الناهين و الحافظين، فإن مسئولياتهم واحدة هي الحفاظ على حدود اللَّه.

«الرَّاكِعُونَ السَّاجِدُونَ» للَّه دون سواه حيث يختصان في مظاهر الاحترام باللَّه، و لأنهما أظهر مظاهر الصلاة فهي المعنية بهما كمصداق بارز بين مصاديقها، ثم هم راكعون للَّه ساجدون في كل أقوالهم و أحوالهم و أعمالهم، و هما- على اختلاف درجتهما- تشملان كافة درجات الخضوع للَّه في كل الحقول.

«الْآمِرُونَ بِالْمَعْرُوفِ وَ النَّاهُونَ عَنِ الْمُنْكَرِ» بشروطهما المسرودة في القرآن و السنة.

«وَ الْحافِظُونَ لِحُدُودِ اللَّهِ» علميا و عقيديا و عمليا، دون زيادة عليها أو نقيصة عنها، و هؤلاء هم أئمة الدين في كل المحاور، و سائر الأمة حسب درجاتهم، و لا يثبت الحد حتى يرفع سببه إلى الإمام ف‏

«إنما الهبة قبل أن يرفع إلى الإمام فإن انتهى إلى الإمام فليس لأحد أن يتركه» «1»

ذلك، و هذا التاسع يحلق على كل المحاور الثمانية الأولى فإن حدود اللَّه علميا و عقيديا و معرفيا و عمليا شخصيا و جماعيا و دعائيا، تشمل المسؤوليات الجماعية إلى الشخصية دون إبقاء لأية مسئولية، مهما اختلفت مراتب ذلك الحفظ رسوليا و رساليا.

\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_

(1).

المصدر في الكافي عن أبي عبد اللَّه (عليه السلام) قال: من أخذ سارقا فعفى عنه فذاك له فإن رفعه إلى الإمام قطعه فإن قال الذي سرق له: أنا أهب له لم يدعه الإمام حتى يقطعه إذا رفعه إليه و إنما الهبة قبل أن يرفع إلى الإمام و ذلك قول اللَّه عزّ و جلّ‏ «وَ الْحافِظُونَ لِحُدُودِ اللَّهِ».

فإن انتهى.

الفرقان في تفسير القرآن بالقرآن، ج‏13، ص: 316

«وَ بَشِّرِ الْمُؤْمِنِينَ» الموصوفين بهذه العشر ابتداء ب‏ «مَنْ أَوْفى‏ بِعَهْدِهِ» فتلك إذا عشرة كاملة في صفات الإيمان و قد جمعت كافة المسؤوليات الإيمانية فردية و جماعية.

و لأن المسؤوليات الجماعية التي تصنع الجماعة المسلمة ليست إلّا بعد تحقق الفردية، لذلك تقدمت هي عليها، تقديما للجمع بينهما «وَ مَنْ أَوْفى‏ بِعَهْدِهِ مِنَ اللَّهِ» و تأخيرا له‏ «وَ الْحافِظُونَ لِحُدُودِ اللَّهِ» و بينهما متوسطات بين فردية محضة أو جماعية محضة.

إن حدود اللَّه المحدودة في القرآن و السنة لها حفاظات حسب مختلف الملابسات لا حول عنها أبدا، اللّهم إلّا من حد إلى حد هو أهم منه حسب المقرر في شرعة اللَّه.

و هنا عديد قاصد «لِحُدُودِ اللَّهِ» وفقا بين الحافظين الأصليين لحدود اللَّه الأربعة على الإسلام، و ذكرها في القرآن بنفس العدد: «وَ مَنْ يَعْصِ اللَّهَ وَ رَسُولَهُ وَ يَتَعَدَّ حُدُودَهُ يُدْخِلْهُ ناراً خالِداً فِيها» (4: 4)- «وَ مَنْ يَتَعَدَّ حُدُودَ اللَّهِ فَقَدْ ظَلَمَ نَفْسَهُ» (65: 1).

و ترى ما ذا يعني الترتيب القاصد بين الست الأولى و الثلاث الأخرى؟

«التائبون» تعبيدة لصالح العبادة، سواء أ كانت توبة عن ذنب، أم توبة ارتقاء عن الحالة الحاضرة إلى أرقى منها و أعلى، حتى تحل العبادة موقعها الأعلى، تحلية عبد تخلية، حيث يتخلى عن ذنب أو نقص آخر ثم يتحلّى بالعبادة.

ثم «العابدون» تحلق على كافة العبادات، توحيدا لصالح العبادة للَّه بعد توحيد التوبة و الإنابة إلى اللَّه، إذا ف‏ «التَّائِبُونَ الْعابِدُونَ» هما عبارة أخرى عن: «لا إِلهَ إِلَّا اللَّهُ».

و لأن الأصل العبادة هو الحمد للَّه كما يحق له، ف «الحامدون» هي ثالثة الأوصاف للأوفياء المؤمنين، ثم الحمد العبادة و العبادة الحمد لا بد لهما من حراك و سيح دون جمود، فالسيح فيهما هو المرغوب المطلوب.

الفرقان في تفسير القرآن بالقرآن، ج‏13، ص: 317

و لأن الصلاة هي خير موضوع، حيث هي عمود الدين و عماد اليقين، ثم الركوع و السجود هما أظهر مظاهر العبودية في الصلاة، إذا ف‏ «الرَّاكِعُونَ السَّاجِدُونَ» هما مرحلتان أخيرتان مكملتان لمربع التوبة العبادة الحمد السيح.

و من السيح في الصلاة أن تكون في جماعات، قصدا إليها من كل مكان قريب أو غريب، توحيدا للصفوف، و توطيدا للألفة بجمع الألوف.

هذه هي الست الأولى التي تتبنى صناعة الإيمان الوفي لأشخاص المؤمنين، و من ثم الثلاث الأخيرة كمسؤوليات هامة جماعية لهؤلاء الذين تخطوا الخطوة الأولى، تقديما للأمر و النهي بما هما قائمتان لصرح الإسلام العام، و تأخيرا ل‏ «الْحافِظُونَ لِحُدُودِ اللَّهِ» كضابطة للحفاظ على حدود الفرد و الجماعية الربانية للأفراد و الجماعات، فالإيمان الوفي على تفاصيل مواصفاته يختصر بجمعي الصفات الفردية و الجماعية في‏ «الْحافِظُونَ لِحُدُودِ اللَّهِ» و هنا موقع البشارة السارة: «وَ بَشِّرِ الْمُؤْمِنِينَ».

ثم‏ «الْحافِظُونَ لِحُدُودِ اللَّهِ» تعم الفردية و الجماعية، بكل مراحل الحفظ: تعلما و اعتقادا و تعليما، و دعوة و دعاية لها، و حفظا عن التحريف و التعطيل و التجديف، و حفاظا على صالح التطبيق دون زيادة عليها أو نقيصة عنها.

إذا فالدعوة إلى سبيل اللَّه بالحكمة و الموعظة الحسنة و الجدال بالتي هي أحسن، و ما أشبه من المحافظة على حدود اللَّه، كل ذلك معني ب‏ «الْحافِظُونَ لِحُدُودِ اللَّهِ» و إذا «وَ بَشِّرِ الْمُؤْمِنِينَ» بهذه الرسالة السامية، تطبيقا لهذه الشروط الإيمانية.

ما كانَ لِلنَّبِيِّ وَ الَّذِينَ آمَنُوا أَنْ يَسْتَغْفِرُوا لِلْمُشْرِكِينَ وَ لَوْ كانُوا أُولِي قُرْبى‏ مِنْ بَعْدِ ما تَبَيَّنَ لَهُمْ أَنَّهُمْ أَصْحابُ الْجَحِيمِ (113) وَ ما كانَ اسْتِغْفارُ إِبْراهِيمَ لِأَبِيهِ إِلَّا عَنْ مَوْعِدَةٍ وَعَدَها إِيَّاهُ فَلَمَّا تَبَيَّنَ لَهُ أَنَّهُ عَدُوٌّ لِلَّهِ تَبَرَّأَ مِنْهُ إِنَّ إِبْراهِيمَ لَأَوَّاهٌ حَلِيمٌ (114).

الفرقان في تفسير القرآن بالقرآن، ج‏13، ص: 318

هنا روايات مختلقة قضية العصبية العمياء المذهبية أن رسول اللَّه (صلى اللَّه عليه و آله و سلم) استغفر لعمه و أبويه المشركين و قد ماتوا مشركين، فلكي يمس من كرامة أبوي النبي (صلى اللَّه عليه و آله و سلم) و أبي علي (عليه السلام) مسوا من كرامته هو (صلى اللَّه عليه و آله و سلم) أن خالف أمر ربه في ذلك الاستغفار الاستهتار!.

فلقد نهاه اللَّه تعالى أن يستغفر للمنافقين في آيات عدة مضت، فضلا عن المشركين الرسميين الذين ماتوا على إشراكهم باللَّه، و استحال غفرانه لهم بقوله: «إِنَّ اللَّهَ لا يَغْفِرُ أَنْ يُشْرَكَ بِهِ وَ يَغْفِرُ ما دُونَ ذلِكَ لِمَنْ يَشاءُ» (4: 48) و 116) فكيف- إذا- يستغفر النبي (صلى اللَّه عليه و آله و سلم) للمشرك معارضا لما قرره اللَّه من سلبية الغفران في حقل الشرك؟.

و ترى كيف يفترى على رسول الهدى (صلى اللَّه عليه و آله و سلم) الذي يعارض المشركين و هو مأمور بالإعراض عنهم: «اتَّبِعْ ما أُوحِيَ إِلَيْكَ مِنْ رَبِّكَ لا إِلهَ إِلَّا هُوَ وَ أَعْرِضْ عَنِ الْمُشْرِكِينَ، وَ لَوْ شاءَ اللَّهُ ما أَشْرَكُوا وَ ما جَعَلْناكَ عَلَيْهِمْ حَفِيظاً وَ ما أَنْتَ عَلَيْهِمْ بِوَكِيلٍ» (6: 107).

ففي هذه و في مكيات أخزى أمر بمفاصلة المشركين و الإعراض عنهم، و عدم الاستغفار لهم، ثم هو يستغفر لوالديه اللذين ماتا مشركين؟! أم و لعمه أبي طالب الذي مات مشركا؟! كلّا، إن المشرك هو المفتري على الرسول تلك التخلّفة النكراء، و المفتري على عمّه و على والديه الذين ماتوا موحدين، أنهم ماتوا مشركين!.

فوا عجباه بينما يقول اللَّه: «إِنَّهُ مَنْ يُشْرِكْ بِاللَّهِ فَقَدْ حَرَّمَ اللَّهُ عَلَيْهِ الْجَنَّةَ وَ مَأْواهُ النَّارُ وَ ما لِلظَّالِمِينَ مِنْ أَنْصارٍ» (4: 48) رغم ذاك يسمح رسول اللَّه (صلى اللَّه عليه و آله و سلم) لنفسه أن يستحل- لأبويه و عمه المشركين-! الجنة باستغفار لهم؟! داخلا في أنصار هؤلاء الظالمين!.

و بينما اللَّه يحرم موادة من حادّ اللَّه و رسوله، و أحدّه الإشراك باللَّه‏

الفرقان في تفسير القرآن بالقرآن، ج‏13، ص: 319

و نكران رسوله: «إِنَّ الَّذِينَ يُحَادُّونَ اللَّهَ وَ رَسُولَهُ أُولئِكَ فِي الْأَذَلِّينَ‏ ... لا تَجِدُ قَوْماً يُؤْمِنُونَ بِاللَّهِ وَ الْيَوْمِ الْآخِرِ يُوادُّونَ مَنْ حَادَّ اللَّهَ وَ رَسُولَهُ وَ لَوْ كانُوا آباءَهُمْ أَوْ أَبْناءَهُمْ أَوْ إِخْوانَهُمْ أَوْ عَشِيرَتَهُمْ ..» (58: 22) رغم ذاك يوادّ الرسول أبويه و عمه خروجا بذلك عن الإيمان باللَّه و اليوم الآخر؟!.

و بينما اللَّه يقول: «إِنَّمَا الْمُشْرِكُونَ نَجَسٌ» (9: 28) «وَ الرُّجْزَ فَاهْجُرْ» (74: 5) رغم ذاك يقرب الرسول أقرباءه المشركين إليه و يستغفر لهم!.

و حين يقترف أمثال هذه الذنوب العظام فكيف يقول اللَّه عنه‏ «لَقَدْ كانَ لَكُمْ فِي رَسُولِ اللَّهِ أُسْوَةٌ حَسَنَةٌ لِمَنْ كانَ يَرْجُوا اللَّهَ وَ الْيَوْمَ الْآخِرَ وَ ذَكَرَ اللَّهَ كَثِيراً» (33: 21) و هي أسوة طليقة غير محدودة، بينما يحدد الأسوة بإبراهيم بغير استغفاره لأبيه و هو معذور في استغفاره له: «قَدْ كانَتْ لَكُمْ أُسْوَةٌ حَسَنَةٌ فِي إِبْراهِيمَ وَ الَّذِينَ مَعَهُ إِذْ قالُوا لِقَوْمِهِمْ إِنَّا بُرَآؤُا مِنْكُمْ وَ مِمَّا تَعْبُدُونَ مِنْ دُونِ اللَّهِ كَفَرْنا بِكُمْ وَ بَدا بَيْنَنا وَ بَيْنَكُمُ الْعَداوَةُ وَ الْبَغْضاءُ أَبَداً حَتَّى تُؤْمِنُوا بِاللَّهِ وَحْدَهُ إِلَّا قَوْلَ إِبْراهِيمَ لِأَبِيهِ لَأَسْتَغْفِرَنَّ لَكَ وَ ما أَمْلِكُ لَكَ مِنَ اللَّهِ مِنْ شَيْ‏ءٍ رَبَّنا عَلَيْكَ تَوَكَّلْنا وَ إِلَيْكَ أَنَبْنا وَ إِلَيْكَ الْمَصِيرُ» (60: 4) و من قضايا البراءة- الأصلية- ترك الاستغفار لمن يتبرأ منه حيث هنا «فَلَمَّا تَبَيَّنَ لَهُ أَنَّهُ عَدُوٌّ لِلَّهِ تَبَرَّأَ مِنْهُ» و من قبل استغفر له و لمّا يتبين له أنه عدوّ للَّه، حيث لمّع له و لمّح قوله: «وَ اهْجُرْنِي مَلِيًّا» كأنه يعده فرصة مليا ليكفر في أمره علّه يجدّد أمره، فاعتبره وعدا للإيمان فوعده الاستغفار ثم استغفر له و لمّا يتبين له أنه عدو للَّه.

فما لهم أولاء المفترين على اللَّه و على رسوله، أنه استغفر للذين ماتوا مشركين، تخلفا عن شرعة الإيمان باللَّه، فضلا عن رسالة اللَّه!.

أم كيف يفترى على رسول الهدى (صلى اللَّه عليه و آله و سلم) أنه كان يستغفر لأبويه و عمه المشركين! و هم ماتوا في العهد المكي، يستغفر طوال تسع سنين أو يزيد حتى نزلت هذه الآية في السنة التاسعة، و هو كان منهيا عن موادتهم و الاستغفار لهم منذ بداية الدعوة؟!.

و حين يبرّر هنا استغفار إبراهيم لأبيه أنه كان قبل ما تبيّن له أنه من‏

الفرقان في تفسير القرآن بالقرآن، ج‏13، ص: 320

أصحاب الجحيم، فكيف يبرّر- بعد- استغفار محمد (صلى اللَّه عليه و آله و سلم) لأبويه و عمه بعد ما تبين له أنهم من أصحاب الجحيم إذ ماتوا مشركين؟!.

أجل‏ «ما كانَ لِلنَّبِيِّ وَ الَّذِينَ آمَنُوا أَنْ يَسْتَغْفِرُوا لِلْمُشْرِكِينَ وَ لَوْ كانُوا أُولِي قُرْبى‏ مِنْ بَعْدِ ما تَبَيَّنَ لَهُمْ أَنَّهُمْ أَصْحابُ الْجَحِيمِ»- ف «ما كان» تضرب إلى أعماق الماضي تحريما عريقا لذلك الاستغفار الاستهتار، فلا سبيل- إذا- للمفتري على النبي (صلى اللَّه عليه و آله و سلم) أن يقول: إنما حرم من بعد ما استغفر، و لو كان حلا من ذي قبل لم يعتذر لإبراهيم في استغفاره أنه ما كان يتبين له أن أباه من أصحاب الجحيم، و «ما كان» ضاربة إلى أعماق الزمن الرسالي، أن النبوة و الإيمان يمنعان من الاستغفار للمشركين على مدار الزمن الرسالي دونما استثناء، حيث علّق السلب بوصف النبوة و الإيمان، و كما يدل عليه الإستدراك لإبراهيم و ليس معنيا بشخص النبي هنا.

إذا فكيف يستغفر النبي (صلى اللَّه عليه و آله و سلم) لأبويه و عمه الميتين على الشرك و قد تبين له من ذي قبل أنهم من أصحاب الجحيم! ثم كيف يعتذر لإبراهيم و لا يعتذر لمحمد (صلى اللَّه عليه و آله و سلم) و هو أول العابدين و أفضل النبيين؟!.

و حين يعد اللَّه الميتين على الشرك أليم العذاب في مئات الآيات، فالاستغفار لهم- إذا- يعني أن يخلف اللَّه وعده و هو خارج عن أدنى الآداب الإيمانية فضلا عن الأدب الرسالي لمن هو في أعلى قمم الرسالة.

و تبيّن كون المشرك و من أشبه هو من أصحاب الجحيم قد يكون بتبين اللَّه كالذين يقول عنهم: «سَواءٌ عَلَيْهِمْ أَ أَنْذَرْتَهُمْ أَمْ لَمْ تُنْذِرْهُمْ لا يُؤْمِنُونَ» أم بموتهم و هم مشركون.

فالمشرك- فضلا عن سواه من الكفار- الذي يرجى إيمانه، أم لم يتبين أنه يموت مشركا ليكون من أصحاب الجحيم، إنه يجوز أن يستغفر له فضلا عن المتحري عن إيمان، أو الذي يلمح بوعده الإيمان، و هكذا

الفرقان في تفسير القرآن بالقرآن، ج‏13، ص: 321

يعتذر ربنا لإبراهيم عن استغفاره لأبيه: «وَ ما كانَ اسْتِغْفارُ إِبْراهِيمَ لِأَبِيهِ إِلَّا عَنْ مَوْعِدَةٍ وَعَدَها إِيَّاهُ» و تراها موعدة لإبراهيم وعدها إياه؟ و الموعدة المحرمة لا تبرر إيفاءها! أم هي موعدة أبيه وعدها إياه؟ و لا تتبين موعدته من‏ «وَ اهْجُرْنِي مَلِيًّا»! و حتى لو أنها كانت تتبين موعدته منها، فلأنها لا واقع لها فلا يصلح إخبارا بها من اللَّه أنه‏ «وَعَدَها إِيَّاهُ»!.

إنها موعدة إبراهيم وعدها إياه بقوله‏ «سَأَسْتَغْفِرُ لَكَ رَبِّي إِنَّهُ كانَ بِي حَفِيًّا» إذ تلمح لمحة التحري عن إيمان من قوله‏ «وَ اهْجُرْنِي مَلِيًّا» (19:) 46) و على هامشها موعدة آزر إياه أن يتحرى.

فلو أنه مصرّ على رجمه حيث قال «لأرجمنك» ما كان يقول دون فصل‏ «وَ اهْجُرْنِي مَلِيًّا» إذا فمليّ الهجر دون دوامه، و هيمان إبراهيم لإيمان آزر، هما خيّلا إليه أنه يعني بملي هجره مليّ تفكيره و تروّيه فيما يدعوه إليه‏ «1» فلذلك أم و للعطف عليه أن يهديه اللَّه بما يستغفر له، وعده أن يستغفر له فور وعده الذي خيل إليه‏ «2»: «قالَ سَلامٌ عَلَيْكَ سَأَسْتَغْفِرُ لَكَ رَبِّي إِنَّهُ كانَ بِي حَفِيًّا» (47) ثم استغفر له- و لمّا يتبين أنه كاذب في لمحة الوعد-: «وَ اغْفِرْ لِأَبِي إِنَّهُ كانَ مِنَ الضَّالِّينَ» (26: 86).

و لأن وعد الاستغفار و تحقيقه ما كان حققا في الواقع مهما كان هو معذورا فيهما، فقد خرج فيه إبراهيم عن أن يؤتسى: «قَدْ كانَتْ لَكُمْ أُسْوَةٌ حَسَنَةٌ فِي إِبْراهِيمَ‏ ... إِلَّا قَوْلَ إِبْراهِيمَ لِأَبِيهِ لَأَسْتَغْفِرَنَّ لَكَ» (60: 4) و إن كان قاصرا في العلم‏ «أَنَّهُ عَدُوٌّ لِلَّهِ» حيث القاصر لا يؤتسى في قصوره‏

\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_

(1).

نور الثقلين 2: 275 في تفسير القمي في الآية قال: قال إبراهيم لأبيه: إن لم تعبد الأصنام استغفرت لك، فلما لم يدع الأصنام تبرأ منه إبراهيم.

(2)

المصدر في تفسير العياشي عن إبراهيم بن أبي البلاد عن بعض أصحابه قال قال أبو عبد اللَّه (عليه السلام): ما يقول الناس في قول اللَّه عزّ و جلّ: «وَ ما كانَ اسْتِغْفارُ إِبْراهِيمَ لِأَبِيهِ إِلَّا عَنْ مَوْعِدَةٍ وَعَدَها إِيَّاهُ» قلت: يقولون: إبراهيم وعد أباه ليستغفر له قال: ليس هو هكذا و إن إبراهيم وعده أن يسلم فاستغفر فلما تبين أنه عدو للَّه تبرأ منه، أقول: وعده يعني آزر أن يسلم ..

الفرقان في تفسير القرآن بالقرآن، ج‏13، ص: 322

كما المقصر، و مهما كان القاصر معذورا دون المقصر، و لكن اللَّه ليس ليأمر أن يؤتسى إمام فيما هو قاصر.

و هكذا تبرر ساحة إبراهيم عن خاطئ الاستغفار لأبيه أنه استغفر له بما وعده إياه و «فَلَمَّا تَبَيَّنَ لَهُ أَنَّهُ عَدُوٌّ لِلَّهِ» فهو من أصحاب الجحيم «تبرأ منه» فلم نسمعه بعد حتى آخر عمره و خلاص أمره أن يستغفر له، اللّهم إلّا لوالديه حين كان يرفع القواعد من البيت و إسماعيل بقوله: «رَبَّنَا اغْفِرْ لِي وَ لِوالِدَيَّ وَ لِلْمُؤْمِنِينَ يَوْمَ يَقُومُ الْحِسابُ» (14: 41).

ذلك، و الأب هو أعم من الوالد، فقد يعني العم كما: «قالُوا نَعْبُدُ إِلهَكَ وَ إِلهَ آبائِكَ إِبْراهِيمَ وَ إِسْماعِيلَ وَ إِسْحاقَ إِلهاً واحِداً» (2: 133) حيث يعد إسماعيل من آباء يعقوب و هو عمه.

أم جدا لأم حيث يعد «عيسى» (عليه السلام) من ذرية إبراهيم‏ «.. وَ مِنْ ذُرِّيَّتِهِ داوُدَ وَ سُلَيْمانَ وَ أَيُّوبَ وَ يُوسُفَ وَ مُوسى‏ وَ هارُونَ وَ كَذلِكَ نَجْزِي الْمُحْسِنِينَ. وَ زَكَرِيَّا وَ يَحْيى‏ وَ عِيسى‏ وَ إِلْياسَ كُلٌّ مِنَ الصَّالِحِينَ» (6: 85).

فلأن جد الأم والد كما جد الأب فضلا عن الوالد، دون العلم إذ ليس والدا بأي وجه، فالقصد من «أبيه» غير والده في مثلثه، إنما هو عمه.

و إنما عبر عن عمه في ثمانية موارد ب «أبيه» تأشيرا إلى المحتد القمة التوحيدية لإبراهيم حيث تربى في جو الشرك و بيت الإشراك، و تحت الولاية التربوية لآزر الذي كان مكان والده، و لم يتأثر بوصمة الشرك، بل و عارض آزر معارضة صارحة صارخة دونما أية مساهلة.

ذلك، و قد يسمى بالأب من لا صلة له نسبية بأولاده، كما

يروى عن النبي (صلى اللَّه عليه و آله و سلم) قوله لعلي (عليه السلام): «أنا و أنت أبوا هذه الأمة فمن عقنا فعليه لعنة الله»

«أنا و هو أبوا هذه الأمة»

«أنا و أنت أبوا هذه الأمة» «1».

\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_

(1). ملحقات إحقاق الحق 4: 100، 227 و 7: 216 و 15: 518- 519 و 5: 95 و 20: 230.

الفرقان في تفسير القرآن بالقرآن، ج‏13، ص: 323

و لو أن والده في «والدي» هو أبوه آزر، لكان في ذلك مس من كرامة العصمة الربانية حيث أخبر تعالى أنه: «تَبَرَّأَ مِنْهُ» و الاستغفار ينافيه! و هكذا العصمة الإبراهيمية حيث كانت براءته مفروضة فتركها مرفوض في شرعة اللَّه.

فقد كان إبراهيم يستغفر لوالديه عند رفع قواعد البيت و هو في أخريات عمره الطويل، و مات أبوه آزر في شبابه، فلا يعني من‏ «رَبَّنَا اغْفِرْ لِي وَ لِوالِدَيَّ» أباه آزر و قد تبين له- من ذي قبل- بموته مشركا أنه من أصحاب الجحيم‏ «1» «إِنَّ إِبْراهِيمَ لَأَوَّاهٌ حَلِيمٌ» أواه إلى اللَّه راجعا إليه عن خطأه غير العامد «حليم» مع أبيه المشرك حتى يلتقط من‏ «وَ اهْجُرْنِي مَلِيًّا» أنه واعده التحري عن الحق، فالأوّاه هو كثيره الأوه و اللّهف و التّلهّب في الدعاء، و الرجوع إلى اللَّه‏ «2».

فقد تعني‏ «مَوْعِدَةٍ وَعَدَها إِيَّاهُ» كلتا الموعدتين، الأولى موعدة آزر إبراهيم أن يتحرى، و الثانية موعدة إبراهيم آزر لنفس الموعدة أن يستغفر له، بفارق أن موعدة إبراهيم كانت واقعة دون آزر، و قد استغفر له، ثم‏

\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_

(1).

نور الثقلين 2: 274- أبو إسحاق الهمداني عن الخليل عن أبي عبد اللَّه (عليه السلام) قال: صلى رجل إلى أجنبي فاستغفر لأبويه و كانا ماتا في الجاهلية فقلت تستغفر لأبويك و قد ماتا في الجاهلية؟ قال: فقد استغفر إبراهيم لأبيه، فلم أدر ما أرد عليه فذكرت ذلك للنبي (صلى اللَّه عليه و آله و سلم) فأنزل اللَّه‏ «وَ ما كانَ اسْتِغْفارُ إِبْراهِيمَ ..» قال: لما مات تبين أنه عدو للَّه فلم يستغفر له.

(2)

تفسير الفخر الرازي 16: 211 يروى‏ أن زينب تكلمت عند الرسول (صلى اللَّه عليه و آله و سلم) بما يغير لونه فأنكر عمر فقال (صلى اللَّه عليه و آله و سلم): دعها فإنها أواهة قيل يا رسول اللَّه (صلى اللَّه عليه و آله و سلم) و ما الأواهه؟ قال: الداعية الخاشعة المتضرعة،

و

في الدر المنثور 3: 285 عن جابر أن رجلا كان يرفع صوته بالذكر فقال رجل لو أن هذا خفض صوته فقال رسول اللَّه (صلى اللَّه عليه و آله و سلم): دعه فإنه أواه‏

و

فيه عن عقبة بن عامر أن رسول اللَّه (صلى اللَّه عليه و آله و سلم) قال‏ لرجل يقال له ذو البجادين إنه أوّاه و ذلك أنه كان يكثر ذكر اللَّه و الدعاء،

و

فيه عن أبي ذر قال: كان رجل يطوف بالبيت و يقول في دعائه: أوّه أوّه فقال رسول اللَّه (صلى اللَّه عليه و آله و سلم):

إنه لأوّاه.

الفرقان في تفسير القرآن بالقرآن، ج‏13، ص: 324

لمّا تبين له أنه عدو للَّه تبرأ منه و لم يستغفر له، و إنما استغفر لوالديه و للمؤمنين رافضا أباه آزر، و أما أن تعني- فقط- وعد إبراهيم إياه، فهو لا يبرر الاستغفار، إنما يبرره عدم تبنيه أنه عدو للَّه حسب النص، ثم آزر هو أقرب مرجعا أدبيا كما هو أقرب في «مليا» وعدا مليا.

و هنا المختلقة الزور أن الآية ليست «لوالدي» بل هي «لولدي» إسماعيل و إسحاق و الحسن و الحسين (عليهم السلام) «1» إنها ليست إلّا من المجاهيل الذين لا يتدبرون القرآن، ففيما تبدو لهم ظاهرة بدائية من آية أنها تخالف ما يعتقدون يبتدرون بفرية تحريف الآية بكل توسّع و سخاء حمقاء، و اللَّه تعالى منهم و من أمثالهم من المختلقين الزور براء.

وَ ما كانَ اللَّهُ لِيُضِلَّ قَوْماً بَعْدَ إِذْ هَداهُمْ حَتَّى يُبَيِّنَ لَهُمْ ما يَتَّقُونَ إِنَّ اللَّهَ بِكُلِّ شَيْ‏ءٍ عَلِيمٌ (115).

هنا «هداهم» بما اهتدوا فليس‏ «لِيُضِلَّ قَوْماً» إلّا إذا ضلوا، و هدى اللَّه هي الهدى الكاملة «حَتَّى يُبَيِّنَ لَهُمْ ما يَتَّقُونَ» على ضوء هداه، ف‏

«يعرفهم ما يرضيه و ما يسخطه» «2»

فإن ضلوا بعد هداه و بيانه أضلهم جزاء وفاقا بما ضلوا.

و «ما كان» تحلّق هذه السلبية على فسيح زمن التكليف، فحين‏

\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_

(1).

نور الثقلين 2: 27 في تفسير العياشي عن جابر قال: سألت أبا جعفر (عليه السلام) عن قول اللَّه‏ «رَبَّنَا اغْفِرْ لِي وَ لِوالِدَيَّ» قال: هذه كلمة صحفها الكتاب إنما كان استغفاره لأبيه عن موعدة وعدها إياه و إنما كان‏ «رَبَّنَا اغْفِرْ لِي وَ لِوالِدَيَّ» يعني إسماعيل و إسحاق و الحسن و الحسين و اللَّه ابنا رسول اللَّه (صلى اللَّه عليه و آله و سلم)!.

(2)

نور الثقلين 2: 276 في كتاب التوحيد عن أبي عبد اللَّه (عليه السلام) في الآية قال: حتى يعرفهم ..

و

فيه عن أصول الكافي عن شاهديه بن عبد اللَّه الجلاب قال: كتب إلى أبو الحسن (عليه السلام) في كتاب: أردت أن تسأل عن الخلف بعد أبي جعفر (عليه السلام) و قلقت لذلك فلا تنعم فإن اللَّه عزّ و جل لا يضل قوما بعد إذا هداهم حتى يبين لهم ما يتقون و صاحبكم بعدي أبو محمد ابني و عنده ما تحتاجون إليه يقدم ما يشاء اللَّه و يؤخر ما يشاء ما ننسخ من آية أو ننسها قد كتبت بما فيه بيان و قناع لذي عقل يقظان.

الفرقان في تفسير القرآن بالقرآن، ج‏13، ص: 325

يهدي اللَّه قوما بما اهتدوا و عملوا لها، فاللَّه مستمر في هداهم مبينا لهم ما يتقون، و هو من هداهم، فإذا ضلوا بعد هدى اللَّه و بيانه فقد يضلهم، و:

«ذلِكَ بِأَنَّ اللَّهَ لَمْ يَكُ مُغَيِّراً نِعْمَةً أَنْعَمَها عَلى‏ قَوْمٍ حَتَّى يُغَيِّرُوا ما بِأَنْفُسِهِمْ» (8: 53).

و هنا «حَتَّى يُبَيِّنَ لَهُمْ ما يَتَّقُونَ» يعني- كأصل- كتاب الوحي و على هامشه السنة الرسولية، و لأن السنة تختلط بسواها فقد يخفى بيانها، فلا بد من كون الكتاب بيانا صارحا ليكون حجة كافية، فلو أن القرآن محرّف، أم ليس بيانا كافيا بنفسه، فلا عذاب إذا و لا إضلال على من يخالف شرعة اللَّه، بسناد عدم البيان الوافي في كتاب اللَّه.

إِنَّ اللَّهَ لَهُ مُلْكُ السَّماواتِ وَ الْأَرْضِ يُحْيِي وَ يُمِيتُ وَ ما لَكُمْ مِنْ دُونِ اللَّهِ مِنْ وَلِيٍّ وَ لا نَصِيرٍ (116).

له الولاية الطليقة في مطلق الكون تكوينا و تشريعا، إحياء و إماتة، للأرواح هدى و ضلالا، و للأجساد حيث‏ «يُحْيِي وَ يُمِيتُ» تعنيهما كليهما، و لا سيما حياة الهدى و ضلال الردى اللتين يتحدث عنهما.

ثم‏ «وَ ما لَكُمْ مِنْ دُونِ اللَّهِ مِنْ وَلِيٍّ» يلي أموركم‏ «وَ لا نَصِيرٍ» ينصركم في الهزاهز.

لَقَدْ تابَ اللَّهُ عَلَى النَّبِيِّ وَ الْمُهاجِرِينَ وَ الْأَنْصارِ الَّذِينَ اتَّبَعُوهُ فِي ساعَةِ الْعُسْرَةِ مِنْ بَعْدِ ما كادَ يَزِيغُ قُلُوبُ فَرِيقٍ مِنْهُمْ ثُمَّ تابَ عَلَيْهِمْ إِنَّهُ بِهِمْ رَؤُفٌ رَحِيمٌ (117).

هنا قلوب كادت تزيغ فتوبة اللَّه عليها هي الرجوع بالرحمة المطمئنة لها، و قلوب ما كادت تزيغ و هي قلب النبي (صلى اللَّه عليه و آله و سلم) و الناحين منحاه، فلا تعني التوبة عليهم معنى واحدا لكي تعني في النبي (صلى اللَّه عليه و آله و سلم) توبة عليه في زيغ اعتراه.

فقد يتوب على الساحة المعصومة فهي التسديد في ساعة العسرة، و أخرى على غير المعصومين و هم غير مأثومين إذ «كادَ يَزِيغُ قُلُوبُ» طمأنة لها عما كاد، و ثالثة يتوب على من تاب إلى اللَّه من زيغ واقع و ضيق‏

الفرقان في تفسير القرآن بالقرآن، ج‏13، ص: 326

مانع: «فَمَنْ تابَ مِنْ بَعْدِ ظُلْمِهِ وَ أَصْلَحَ فَإِنَّ اللَّهَ يَتُوبُ عَلَيْهِ» (5: 39) و رابعة يتوب عليهم ليتوبوا، ثم أخرى قبولا لتوبتهم في عظائم الذنوب كما:

وَ عَلَى الثَّلاثَةِ الَّذِينَ خُلِّفُوا حَتَّى إِذا ضاقَتْ عَلَيْهِمُ الْأَرْضُ بِما رَحُبَتْ وَ ضاقَتْ عَلَيْهِمْ أَنْفُسُهُمْ وَ ظَنُّوا أَنْ لا مَلْجَأَ مِنَ اللَّهِ إِلَّا إِلَيْهِ ثُمَّ تابَ عَلَيْهِمْ لِيَتُوبُوا إِنَّ اللَّهَ هُوَ التَّوَّابُ الرَّحِيمُ (118).

فالتوبة على النبي واحدة هي مستمرة تسديدا له بما عصم اللَّه و لا سيما في ساعة العسرة، فمن الجهالة غيار «عَلَى النَّبِيِّ» ب «بالنبي» كما فى مختلقة «1».

\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_

(1).

نور الثقلين 2: 277 في تفسير القمي قوله عزّ و جل: لقد تاب اللَّه بالنبي ... قال الصادق (عليه السلام) هكذا نزلت‏

، أقول: و لا معنى لتوبة اللَّه بالنبي فإنه يتوب دونما وسيط اللهم إلّا بما يستغفر النبي، و لكن النصر «عَلَى النَّبِيِّ» كما بيناه، و

فيه عن الإحتجاج للطبرسي عن أبان بن تغلب عن أبي عبد اللَّه (عليه السلام) انه قرأ: «لقد تاب الله بالنبي ..» قال ابان: فقلت له يا ابن رسول اللَّه إن العامة لا تقرأ كما عندك؟ قال:

و كيف تقرأ يا أبان؟ قال قلت: إنها تقرأ: «لَقَدْ تابَ اللَّهُ عَلَى النَّبِيِّ ..» فقال: ويلهم و أي ذنب كان لرسول اللَّه (صلى اللَّه عليه و آله و سلم) حتى تاب اللَّه عليه منه إنما تاب اللَّه به على أمته.

أقول: لقد جاء «تاب على» في آيات عدة كما في دعاء إبراهيم‏ «وَ تُبْ عَلَيْنا إِنَّكَ أَنْتَ التَّوَّابُ الرَّحِيمُ» (2: 128) و في نبينا (صلى اللَّه عليه و آله و سلم): «فَسَبِّحْ بِحَمْدِ رَبِّكَ وَ اسْتَغْفِرْهُ إِنَّهُ كانَ تَوَّاباً» (110: 3) و هكذا «عَفَا اللَّهُ عَنْكَ ..» و ما أشبه، و لكل معنى صالح لساحة النبوة القدسية دون أي غيار في هذه الآيات.

و

في المجمع قد روي عن الرضا (عليه السلام) «بالنبي» و قراءة علي بن الحسين و أبي جعفر و جعفر بن محمد (عليهم السلام) «خالفوا» بدلا عن «خلفوا».

و

في تفسير العياشي عن فيض المختار قال قال أبو عبد اللَّه (عليه السلام) كيف تقرأ هذه الآية «وَ عَلَى الثَّلاثَةِ الَّذِينَ خُلِّفُوا» قال قلت: «خلفوا» قال: لو خلفوا لكانوا في حال طاعة- و زاد الحسين بن مختار عنه: لو كان «خلفوا» ما كان عليهم من سبيل و لكنهم خالفوا عثمان و صاحباه أما و اللَّه ما سمعوا صوت كافر و لا قعقعة حجر إلا قالوا أتانا فسلط اللَّه عليهم الخوف حتى أصبحوا

، قال صفوان قال أبو عبد اللَّه (عليه السلام) كان أبو لبابة أحدهم يعني في‏ «وَ عَلَى الثَّلاثَةِ الَّذِينَ خُلِّفُوا».

الفرقان في تفسير القرآن بالقرآن، ج‏13، ص: 327

و التوبة على من كاد أن تزيغ قلوبهم مرتان، توبة لاطمئنان بعد ما كادت تزيغ، و أخرى‏ «ثُمَّ تابَ عَلَيْهِمْ» مزيدا للرحمة و الحنان‏ «إِنَّهُ بِهِمْ رَؤُفٌ رَحِيمٌ» و لا حاجة فيهما إلى توبة العبد مهما تاب كما كان النبي (صلى اللَّه عليه و آله و سلم) توبة إلى اللَّه على أية حال.

ثم التوبة على من عصى هي مشروطة بأن يتوب إلى اللَّه حتى يتوب اللَّه عليه، و هي في الذنوب المتعددة غير المتعدية، و من ثم على أمثال‏ «الثَّلاثَةِ الَّذِينَ خُلِّفُوا» حيث التوبات لهم أربع، توبة اللَّه عليهم ليصلحوا لرحمة كما «وَ عَلَى الثَّلاثَةِ» عطفا على‏ «لَقَدْ تابَ» و أخرى عليهم ثانية ليتوبوا، ثم ثالثة هي توبتهم إلى اللَّه، و من ثم رابعة ليتوب اللَّه عليهم غفرا لعظيم الذنب.

فتوبات اللَّه على عباده نوبات، كما و توبات العبد نوبات، و لا تعني كلها معنى واحدا، حتى إذا سمعنا اللَّه يقول: «لَقَدْ تابَ اللَّهُ عَلَى النَّبِيِّ» نحسبها توبة عن عصيان، أم يقال: كانت الآية «بالنبي»! كما و أن الذنب ذنبان، ذنب يستوخم عقباه في العقبى و هو أوخم عصيان، و ذنب يستوخم عقباه في الأولى و منه قمة إيمان، كذنب الرسول (صلى اللَّه عليه و آله و سلم) في‏ «لِيَغْفِرَ لَكَ اللَّهُ ما تَقَدَّمَ مِنْ ذَنْبِكَ وَ ما تَأَخَّرَ» فإنه ذنب الرسالة القدسية الأخيرة بملابساتها و عرقلاتها من قبل المناوئين إياها حيث سترها اللَّه بفتح العاصمة الرسالية.

و هؤلاء الثلاثة الذين خلفوا هم كعب بن مالك و هلال بن أمية و مرارة بن ربيعة، و كلهم من الأنصار، و لم يكونوا هم من المنافقين‏ «1»

\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_

(1).

الدر المنثور 3: 286- أخرج ابن مردويه عن أنس بن مالك قال: لما نزل رسول اللَّه (صلى اللَّه عليه و آله و سلم) بذي أوان خرج عامة المنافقين الذين كانوا تخلفوا عنه يتلقونه فقال رسول اللَّه (صلى اللَّه عليه و آله و سلم) لأصحابه: لا تكلمنّ رجلا تخلف عنا و لا تجالسوه حتى آذن لكم فلم يكلموهم فلما قدم رسول اللَّه (صلى اللَّه عليه و آله و سلم) المدينة أتاه الذين تخلفوا يسلمون عليه فأعرض عنهم و أعرض المؤمنون عنهم حتى أن الرجل ليعرض عنه أخوه و أبوه و عمه فجعلوا يأتون رسول اللَّه (صلى اللَّه عليه و آله و سلم) و يعتذرون بالجهد و الأسقام فرحمهم رسول اللَّه (صلى اللَّه عليه و آله و سلم)

الفرقان في تفسير القرآن بالقرآن، ج‏13، ص: 328

و إنما «خلفوا» بما خلفتم أموالهم و أهلوهم، خلفتهم عن اللحوق برسول اللَّه (صلى اللَّه عليه و آله و سلم) في غزوة تبوك، ف «خلّفوا» إذا عن توبة اللَّه عليهم حيث التخليف في اللغة هو التأخير، فقد أخروا عما أخروا بما أخروا «حَتَّى إِذا ضاقَتْ عَلَيْهِمُ الْأَرْضُ بِما رَحُبَتْ» تأسفا على ذلك التخلف العارم عن رسول اللَّه (صلى اللَّه عليه و آله و سلم) ثم‏ «وَ ضاقَتْ عَلَيْهِمْ أَنْفُسُهُمْ» تحزنا على ما خلّفوا «وَ ظَنُّوا أَنْ لا مَلْجَأَ مِنَ اللَّهِ إِلَّا إِلَيْهِ» ثم بعد هذه الثلاثة التي هي من مؤهّلات التوبة «تابَ عَلَيْهِمْ لِيَتُوبُوا» إليه‏ «إِنَّ اللَّهَ هُوَ التَّوَّابُ الرَّحِيمُ».

فهؤلاء الثلاثة ابتلوا بثلاثة كل واحدة منها تكفي لأهليتهم للتوبة، فقد «ضاقَتْ عَلَيْهِمُ الْأَرْضُ» أرض العشرة السليمة مع المسلمين حيث رفضوهم و اعتزلوهم كما رفضهم رسول اللَّه (صلى اللَّه عليه و آله و سلم) «ضاقت بما رحبت» من أموال و أهلين تركوا الجهاد لها و لهم، فضاقت‏

\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_

فبايعهم و استغفر لهم و كان ممن تخلف عن غير شك و لا نفاق ثلاثة نفر الذين ذكر اللَّه تعالى ...

و

فيه أخرج ابن المنذر و ابن أبي حاتم و أبو الشيخ عن الحسن قال: لما غزا رسول اللَّه (صلى اللَّه عليه و آله و سلم) تبوك تخلف كعب بن مالك و هلال بن أمية و مرارة بن الربيع، قال:

أما أحدهم فكان له حائط حين زها قد فشت فيه الحمرة و الصفرة فقال غزوت و غزوت و غزوت مع النبي (صلى اللَّه عليه و آله و سلم) فلو أقمت العام في هذا الحائط فأصبت منه فلما خرج رسول اللَّه (صلى اللَّه عليه و آله و سلم) و أصحابه دخل حائطه فقال: ما خلّفني عن رسول اللَّه (صلى اللَّه عليه و آله و سلم) و ما استبق المؤمنون في الجهاد في سبيل اللَّه إلّا ضن بك أيها الحائط، اللّهم إني تصدقت به في سبيلك، و أما الآخر فكان قد تفرق عنه من أهله ناس و اجتمعوا له فقال غزوت مع رسول اللَّه (صلى اللَّه عليه و آله و سلم) و غزوت فلو أني أقمت في أهلي فلما خرج رسول اللَّه (صلى اللَّه عليه و آله و سلم) و أصحابه قال: ما خلفني عن رسول اللَّه (صلى اللَّه عليه و آله و سلم) و ما استبق إليه المجاهدون في سبيل اللَّه إلا ضنّ بكم أيها الأهل، اللّهم إن لك علي أن لا أرجع إلى أهلي و مالي حتى أعلم ما تقضي في، و أما الآخر فقال: اللّهم إن لك علي أن ألحق بالقوم حتى أدركهم أو انقطع فجعل يتتبع الدقع و الحزونة حتى لحق بالقوم فأنزل اللَّه‏ «لَقَدْ تابَ اللَّهُ‏ .. و على الثلاثة الذين خلفوا.

الفرقان في تفسير القرآن بالقرآن، ج‏13، ص: 329

عليهم أنفسهم» بتلك العزلة و الندامة عن تلك التخلّفة العارمة «1»، ثم انقلبوا و انعزلوا إلى اللَّه حيث‏ «ظَنُّوا أَنْ لا مَلْجَأَ مِنَ اللَّهِ إِلَّا إِلَيْهِ» و بهذه الخطوات الثلاث التي هي من مؤهّلات التوبة «ثُمَّ تابَ عَلَيْهِمْ لِيَتُوبُوا إِنَّ اللَّهَ هُوَ التَّوَّابُ الرَّحِيمُ».

ذلك، و زيغ قلوب فريق منهم الذي كاد، علّه نوع نفرة منهم لتلك السفرة الشاقة البعيدة في الرمضاء، و ما أشبه من هذه الحوادث و الوساوس و الهواجس، فأدركهم اللَّه بتوبته عليهم جزاء ما أقدموا على الخروج رغم تلك المروج، و إتباعهم الرسول (صلى اللَّه عليه و آله و سلم) في ساعة العسرة العسيرة، فجعلها اللَّه عليهم بتوبته سهلة يسيرة، فلاتباع الحق في ساعة العسرة موقعه العالي في ميزان اللَّه، يستحق صاحبه به أن يتوب اللَّه عليه برحمة خاصة راصّة.

[سورة التوبة (9): الآيات 120 الى 129]

ما كانَ لِأَهْلِ الْمَدِينَةِ وَ مَنْ حَوْلَهُمْ مِنَ الْأَعْرابِ أَنْ يَتَخَلَّفُوا عَنْ رَسُولِ اللَّهِ وَ لا يَرْغَبُوا بِأَنْفُسِهِمْ عَنْ نَفْسِهِ ذلِكَ بِأَنَّهُمْ لا يُصِيبُهُمْ ظَمَأٌ وَ لا نَصَبٌ وَ لا مَخْمَصَةٌ فِي سَبِيلِ اللَّهِ وَ لا يَطَؤُنَ مَوْطِئاً يَغِيظُ الْكُفَّارَ وَ لا يَنالُونَ مِنْ عَدُوٍّ نَيْلاً إِلاَّ كُتِبَ لَهُمْ بِهِ عَمَلٌ صالِحٌ إِنَّ اللَّهَ لا يُضِيعُ أَجْرَ الْمُحْسِنِينَ (120) وَ لا يُنْفِقُونَ نَفَقَةً صَغِيرَةً وَ لا كَبِيرَةً وَ لا يَقْطَعُونَ وادِياً إِلاَّ كُتِبَ لَهُمْ لِيَجْزِيَهُمُ اللَّهُ أَحْسَنَ ما كانُوا يَعْمَلُونَ (121) وَ ما كانَ الْمُؤْمِنُونَ لِيَنْفِرُوا كَافَّةً فَلَوْ لا نَفَرَ مِنْ كُلِّ فِرْقَةٍ مِنْهُمْ طائِفَةٌ لِيَتَفَقَّهُوا فِي الدِّينِ وَ لِيُنْذِرُوا قَوْمَهُمْ إِذا رَجَعُوا إِلَيْهِمْ لَعَلَّهُمْ يَحْذَرُونَ (122) يا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا قاتِلُوا الَّذِينَ يَلُونَكُمْ مِنَ الْكُفَّارِ وَ لْيَجِدُوا فِيكُمْ غِلْظَةً وَ اعْلَمُوا أَنَّ اللَّهَ مَعَ الْمُتَّقِينَ (123) وَ إِذا ما أُنْزِلَتْ سُورَةٌ فَمِنْهُمْ مَنْ يَقُولُ أَيُّكُمْ زادَتْهُ هذِهِ إِيماناً فَأَمَّا الَّذِينَ آمَنُوا فَزادَتْهُمْ إِيماناً وَ هُمْ يَسْتَبْشِرُونَ (124)

وَ أَمَّا الَّذِينَ فِي قُلُوبِهِمْ مَرَضٌ فَزادَتْهُمْ رِجْساً إِلَى رِجْسِهِمْ وَ ماتُوا وَ هُمْ كافِرُونَ (125) أَ وَ لا يَرَوْنَ أَنَّهُمْ يُفْتَنُونَ فِي كُلِّ عامٍ مَرَّةً أَوْ مَرَّتَيْنِ ثُمَّ لا يَتُوبُونَ وَ لا هُمْ يَذَّكَّرُونَ (126) وَ إِذا ما أُنْزِلَتْ سُورَةٌ نَظَرَ بَعْضُهُمْ إِلى‏ بَعْضٍ هَلْ يَراكُمْ مِنْ أَحَدٍ ثُمَّ انْصَرَفُوا صَرَفَ اللَّهُ قُلُوبَهُمْ بِأَنَّهُمْ قَوْمٌ لا يَفْقَهُونَ (127) لَقَدْ جاءَكُمْ رَسُولٌ مِنْ أَنْفُسِكُمْ عَزِيزٌ عَلَيْهِ ما عَنِتُّمْ حَرِيصٌ عَلَيْكُمْ بِالْمُؤْمِنِينَ رَؤُفٌ رَحِيمٌ (128) فَإِنْ تَوَلَّوْا فَقُلْ حَسْبِيَ اللَّهُ لا إِلهَ إِلاَّ هُوَ عَلَيْهِ تَوَكَّلْتُ وَ هُوَ رَبُّ الْعَرْشِ الْعَظِيمِ (129)

\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_

(1).

تفسير الفخر الرازي 16: 218 ثم إن رسول اللَّه (صلى اللَّه عليه و آله و سلم) نهى عن مجالسة هؤلاء الثلاثة و أمر بمباينتهم حتى أمر بذلك نساءهم فضاقت عليهم الأرض بما رحبت و جاءت امرأة هلال بن أمية و قالت يا رسول اللَّه (صلى اللَّه عليه و آله و سلم) لقد بكى هلال حتى خفت على بصره حتى إذا مضى خمسون يوما أنزل اللَّه تعالى‏ «لَقَدْ تابَ اللَّهُ‏ ... وَ عَلَى الثَّلاثَةِ ..» فعند ذلك خرج رسول اللَّه (صلى اللَّه عليه و آله و سلم) إلى حجرته و هو عند أم سلمة فقال: اللَّه أكبر قد أنزل اللَّه عند أصحابنا فلما صلى الفجر ذكر ذلك لأصحابه و بشرهم بأن اللَّه تاب عليهم فانطلقوا إلى رسول اللَّه (صلى اللَّه عليه و آله و سلم) و تلا عليهم ما نزل فيهم فقال كعب: توبتي إلى اللَّه تعالى أن أخرج مالي صدقة فقال: لا- قلت: فنصفه، قال: لا، قلت: فثلثه، قال: نعم.

الفرقان في تفسير القرآن بالقرآن، ج‏13، ص: 331

يا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا اتَّقُوا اللَّهَ وَ كُونُوا مَعَ الصَّادِقِينَ (119).

الصادقون هنا هم الصادقون في إيمانهم بأيمانهم و سواها من قالاتهم و حالاتهم و فعالاتهم، ف‏ «مِنَ الْمُؤْمِنِينَ رِجالٌ صَدَقُوا ما عاهَدُوا اللَّهَ عَلَيْهِ ..» صدقا طليقا حقيقا بصالح الإيمان.

فالكون مع الصادقين في كينونة الصدق هو من معارج تقوى اللَّه، و هنا مدارج ثلاث:

«آمَنُوا- اتَّقُوا اللَّهَ- وَ كُونُوا مَعَ الصَّادِقِينَ» فمن كمال الإيمان هو تقوى اللَّه عمليا كما آمنتم لفظيا و قلبيا، تقوى عن كل ما لا يرضاه اللَّه، ثم من كمال التقوى هو الكون مع الصادقين‏ «1» و هم أئمة المؤمنين المتقين‏

\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_

(1).

في الدر المنثور 3: 290 عن ابن مسعود قال قال رسول اللَّه (صلى اللَّه عليه و آله‏

الفرقان في تفسير القرآن بالقرآن، ج‏13، ص: 332

الصادقين، فهم- لأكمل مصداق- أئمة الدين‏ «1» و كما تظافر به الحديث‏

\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_

و سلم): «عليكم بالصدق فإن الصدق يهدي إلى البر و ان البر يهدي إلى الجنة و إن الرجل ليصدق حتى يكتب عند الله صديقا و إياكم و الكذب فإن الكذب يهدي إلى الفجور و إن الفجور يهدي إلى النار و إن الرجل ليكذب حتى يكتب عند الله كذابا»

و

فيه عن أسماء بنت يزيد أن رسول اللَّه (صلى اللَّه عليه و آله و سلم) خطب فقال: ما يحملكم على أن تتبايعوا على الكذب كما يتتابع الفراش في النار كل الكذب يكتب على ابن آدم إلا رجل كذب في خديعة حرب أو إصلاح بين اثنين أو رجل يحدث امرأته ليرضيها،

و

عن أبي بكر أن رسول اللَّه (صلى اللَّه عليه و آله و سلم) قال: الكذب مجانب للإيمان،

و

عن سعد بن أبي وقاص عن النبي (صلى اللَّه عليه و آله و سلم) قال: يطبع المؤمن على كل شي‏ء إلا الخيانة و الكذب،

و

عن أبي برزة عن النبي (صلى اللَّه عليه و آله و سلم) قال: الكذب يسود الوجه و النميمة عذاب القبر،

و

عن أسماء بنت عميس قالت‏ كنت صاحبة عائشة التي هيأتها فأدخلتها على النبي (صلى اللَّه عليه و آله و سلم) في نسوة فما وجدنا عنده قرى الأقداح من لبن فتناوله فشرب منه ثم ناوله عائشة فاستحيت منه فقلت: لا تردي يد رسول اللَّه (صلى اللَّه عليه و آله و سلم) فأخذته فشربته ثم قال: ناولي صواحبك فقلت لا نشتهيه فقال: لا تجمعن كذبا و جوعا فقلت إن قالت إحدانا لشي‏ء تشتهيه لا نشتهي أ يعد ذلك كذبا فقال: إن الكذب يكتب كذبا حتى الكذيبة تكتب كذيبة،

و

عن الحسن بن علي (عليهما السلام) سمعت رسول اللَّه (صلى اللَّه عليه و آله و سلم) يقول: دع ما يريبك إلى ما لا يريبك فإن الصدق طمأنينة و إن الكذب ريبة،

و

عن ابن عباس قال قال رسول اللَّه (صلى اللَّه عليه و آله و سلم): في خطبته: إن أعظم الخطيئة عند اللَّه اللسان الكاذب‏

ذلك و من طرائق الالتزام بالصدق ما

يروي‏ أن واحدا جاء إلى النبي (صلى اللَّه عليه و آله و سلم) و قال: إني رجل أريد أن أؤمن بك إلا أني أحب الخمر و الزنا و السرقة و الكذب و الناس يقولون إنك تحرم هذه الأشياء و لا طاقة لي على تركها بأسرها فإن قنعت مني تبرك واحد منها آمنت بك فقال (صلى اللَّه عليه و آله و سلم): أترك الكذب فقبل ذلك ثم أسلم فلما خرج من عند النبي (صلى اللَّه عليه و آله و سلم) عرضوا عليه الخمر فقال: إن شربت و سألني الرسول (صلى اللَّه عليه و آله و سلم) عن شربها و كذبت فقد نقضت العهد، و إن صدقت أقام الحد علي فتركها ثم عرضوا عليه الزنا فجاء ذلك الخاطر فتركه و كذا السرقة فعاد إلى رسول اللَّه (صلى اللَّه عليه و آله و سلم) و قال: ما أحسن ما فعلت لما منعتني عن الكذب انسدت أبواب المعاصي علي و تاب عن الكل.

(1). الدر المنثور 3: 290- أخرج ابن مردويه عن ابن عباس في الآية قال: مع علي بن أبي طالب (عليه السلام) و أخرج ابن عساكر عن أبي جعفر مثله.

الفرقان في تفسير القرآن بالقرآن، ج‏13، ص: 333

عن المعصومين (عليهم السلام).

ذلك، و لأن‏ «الَّذِينَ آمَنُوا» تعم كافة المؤمنين بدرجاتهم، ف «الصادقون» فيهم هم الرعيل الأعلى منهم بطبيعة الحال، و كما

يروى عن رسول اللَّه (صلى اللَّه عليه و آله و سلم) إجابة عن سؤال: يا رسول اللَّه (صلى اللَّه عليه و آله و سلم) أ عامة هذه الآية أم خاصة، فقال: أما المأمورون فعامة المؤمنين أمروا بذلك، و أما الصادقون فخاصة لأخي علي و أوصيائي من بعده (عليهم السلام) إلى يوم القيامة .. «1».

فقد تعني الصادقون الصديقين في أخرى‏ «وَ مَنْ يُطِعِ اللَّهَ وَ الرَّسُولَ فَأُولئِكَ مَعَ الَّذِينَ أَنْعَمَ اللَّهُ عَلَيْهِمْ مِنَ النَّبِيِّينَ وَ الصِّدِّيقِينَ وَ الشُّهَداءِ وَ الصَّالِحِينَ وَ حَسُنَ أُولئِكَ رَفِيقاً» (4: 69) و لأن‏ «الَّذِينَ آمَنُوا» يحلق على طول الزمان و عرض المكان فلا بد لهم أن يكونوا مع الصادقين على طول الخط، فهم- إذا- المعصومون من الأمة، حيث الأمر بالكون مع غير المعصوم إغراء بالجهال، و جمع «الصادقين» دليل عديد المعصومين فلا تختص العصمة- إذا- في هذه الأمة بشخص الرسول (صلى اللَّه عليه و آله و سلم) و لم يذهب أحد من الأئمة إلى عصمة الخلفاء أو الأئمة الأربعة، و قد ذهبت جماعة منهم إلى عصمة الأئمة الإثني عشر، فليكونوا هم‏

\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_

(1).

نور الثقلين 2: 280 في كتاب كمال الدين و تمام النعمة باسناده إلى سليم بن قيس الهلالي عن أمير المؤمنين (عليه السلام) أنه قال في أثناء كلام له في جمع من المهاجرين و الأنصار في المسجد أيام خلافة عثمان: أسألكم باللَّه أ تعلمون أن اللَّه عز و جلّ لما أنزل‏ «يا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا اتَّقُوا اللَّهَ وَ كُونُوا مَعَ الصَّادِقِينَ» فقال سلمان يا رسول اللَّه عامة ... قالوا اللّهم نعم.

أقول: و ممن روى تفسير الصادقين بهم (عليهم السلام): الثعلبي في تفسيره (219) و الگنجي في كفاية الطالب (111) و السبط ابن الجوزي في التذكرة (20) و صاحب كتاب شرف النبي (صلى اللَّه عليه و آله و سلم) في مناقب الكاشي، و الخركوشي في شرف المصطفى بنقل ابن شهر آشوب في كفاية الخصام (348) و أبو يوسف يعقوب بن سفيان في نفس المصدر (347) و الخطيب الخوارزمي و السيوطي في الدر المنثور 3:

290 و الترمذي في مناقب مرتضوي (43) و الشوكاني في تفسيره 2: 295 و الألوسي في روح المعاني 11: 41 و القندوزي في ينابيع المودة (119).

الفرقان في تفسير القرآن بالقرآن، ج‏13، ص: 334

المعصومين، و إلّا فلا مصداق إذا للصادقين، ثم و معيتهم كما المعية مع الرسول (صلى اللَّه عليه و آله و سلم) لا تختص بحضورهم، بل الأصل فيها هي معية سنتهم الثابتة الموافقة لكتاب اللَّه، و إنما أمر المؤمنون في تقواهم بهذه المعية لأنهم يخطئون و يجهلون فلا بد لهم- إذا- من سناد يسندهم و مولى يليهم في كل أقوالهم و أحوالهم و أعمالهم، و هؤلاء هم المعصومون الذين لا يجوز عليهم الخطأ، و إلا فلا طائل تحت الكون معهم و هم كأمثالنا يخطئون!، و القول إن «الصادقين» لا يجب أن يكونوا أشخاصا خصوصا فإن إجماع الأمة معصوم صادق، هو زخرف من القول و غرر من الغرور قضية الدور المصرح أن يكون الراجع و المرجع كلاهما كل الأمة!، و إذا عني من إجماع الأمة الضرورة القطعية الإسلامية، فهو الكاشف قطعيا عن سنة الصادقين المعصومين.

ما كانَ لِأَهْلِ الْمَدِينَةِ وَ مَنْ حَوْلَهُمْ مِنَ الْأَعْرابِ أَنْ يَتَخَلَّفُوا عَنْ رَسُولِ اللَّهِ وَ لا يَرْغَبُوا بِأَنْفُسِهِمْ عَنْ نَفْسِهِ ذلِكَ بِأَنَّهُمْ لا يُصِيبُهُمْ ظَمَأٌ وَ لا نَصَبٌ وَ لا مَخْمَصَةٌ فِي سَبِيلِ اللَّهِ وَ لا يَطَؤُنَ مَوْطِئاً يَغِيظُ الْكُفَّارَ وَ لا يَنالُونَ مِنْ عَدُوٍّ نَيْلًا إِلَّا كُتِبَ لَهُمْ بِهِ عَمَلٌ صالِحٌ إِنَّ اللَّهَ لا يُضِيعُ أَجْرَ الْمُحْسِنِينَ (120) وَ لا يُنْفِقُونَ نَفَقَةً صَغِيرَةً وَ لا كَبِيرَةً وَ لا يَقْطَعُونَ وادِياً إِلَّا كُتِبَ لَهُمْ لِيَجْزِيَهُمُ اللَّهُ أَحْسَنَ ما كانُوا يَعْمَلُونَ (121).

هنا بركات سبع تقابل دركات سبع قضاء عليها في حركات في سبيل اللَّه، يوصف بها الذين مع رسول اللَّه (صلى اللَّه عليه و آله و سلم) ف «ما كان» تستأصل كل تخلف عن رسول اللَّه فيما يأمر أو ينهى على طول خط الرسالة منذ بزوغها إلى يوم الدين، ثم‏ «وَ لا يَرْغَبُوا بِأَنْفُسِهِمْ عَنْ نَفْسِهِ» تستأصل كل رغبة قلبية عنه، فعلى المؤمنين أن يعيشوا رهن إشارته، و يرغبوا فيه فوق رغبتهم في أنفسهم، سواء في ذلك أهل المدينة و من حولهم من الأعراب أم سائر أهالي المدن و حولهم من الأعراب: سكان البوادي، و ذكر «لِأَهْلِ الْمَدِينَةِ وَ مَنْ حَوْلَهُمْ مِنَ الْأَعْرابِ» يعني ذكر الأقرب إليه مكانا فالأقرب، و هنا «لا يَرْغَبُوا بِأَنْفُسِهِمْ عَنْ نَفْسِهِ» تعني لا ينبغي لهم أن يكرموا أنفسهم عما يبذل النبي (صلى اللَّه عليه و آله و سلم) فيه‏

الفرقان في تفسير القرآن بالقرآن، ج‏13، ص: 335

نفسه، و لا يحفظوا منهجهم في المواطن التي تحضر فيها نهجه، اقتداء به و اتباعا لأثره.

ذلك، و هم الذين تبنّوا هذه الحركة المباركة الإسلامية بمناصرة المهاجرين، فهم أهلوها الأقربون، فهم بها و لها و لهذا الدين الجديد كأس و أثافي، فقد آووا رسول اللَّه (صلى اللَّه عليه و آله و سلم) و نصروه و عزروه و اتبعوا النور الذي أنزل معه، فباتوا يمثلون القاعدة الصلبة الرصينة المتينة للإسلام في الجزيرة كلها، و إلى كل المعمورة، و كذلك القبائل الضاربة من حول المدينة منذ أسلمت و باتت تؤلف الحزام الخارجي للقاعدة، فهؤلاء و هؤلاء ليس لهم أن يتخلفوا عن رسول اللَّه (صلى اللَّه عليه و آله و سلم) و لا أن يرغبوا بأنفسهم عن نفسه في صالح الإسلام و دولته.

ذلك، و لكنه ليس يختص بهم حيث التكاليف الإيمانية عامة لا تختص بفريق دون آخرين.

فقد تحلق طاعة الرسول (صلى اللَّه عليه و آله و سلم) فيما يفعل أو يقول، و الرغبة فيه، تحلقان على كل عصر و مصر من ساكني القصور إلى ساكني الأكواخ، حيث التكليف رسالي تعم كل زمان و مكان و أيا كان من المكلفين إلى يوم الدين و أيان.

و لقد كان الرسول (صلى اللَّه عليه و آله و سلم) يقود الأمة إلى كل خير و هو السباق إليه، و من‏

قوله في السرايا التي كان يتركها: «و الذي بعثني بالحق لو لا ضعفاء الناس ما كانت سرية إلا كنت فيها» «1».

ذلك، و لا يعني التخلّف عن رسول اللَّه إلّا التخلف عن أمره، فإذا نهى عن الخروج معه كان الخروج معه تخلفا عنه، كما أن عدم الخروج‏

\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_

(1). الدر المنثور 3: 292- أخرج ابن أبي حاتم من طريق عمرو بن مالك عن أصحاب رسول اللَّه (صلى اللَّه عليه و آله و سلم) قال: لما نزلت هذه الآية «ما كانَ لِأَهْلِ الْمَدِينَةِ ..» قال رسول اللَّه (صلى اللَّه عليه و آله و سلم): ..

الفرقان في تفسير القرآن بالقرآن، ج‏13، ص: 336

معه حين يأمر به تخلف عنه.

ثم‏ «لا يَرْغَبُوا بِأَنْفُسِهِمْ عَنْ نَفْسِهِ» تعني لا تحجبهم أنفسهم بمشتهياتها و رغباتها أن يرغبوا لها عنه (صلى اللَّه عليه و آله و سلم) فالباء هنا للسببية و المصاحبة: لا تكن أنفسهم سببا للرغبة عنه و لا مصاحبة لها، بل عليهم أن يقدّموا رغباته على رغباتهم ف‏ «مَنْ يُطِعِ الرَّسُولَ فَقَدْ أَطاعَ اللَّهَ».

و ليست الآية لتأمر بالقتال معه (صلى اللَّه عليه و آله و سلم) و إنما الائتمار بأمره (صلى اللَّه عليه و آله و سلم) مهما كان قعودا، كما للقاصرين و العجّز و غير المحتاج إلى حضورهم، أم خروجا و هو لقدر الكفاءة، فلا تنافي آية النفر- التالية- حتى تنسخ بها.

هذا، و ذلك التأليب و التأبيب بمن يتخلف عن رسول اللَّه أو يرغب بنفسه عن نفسه، و ذلك التشجيع بطاعته و ولايته الطليقة، كل ذلك يرجع إلى صالحهم أنفسهم كمؤمنين بهذا الدين، ف:

«ذلِكَ بِأَنَّهُمْ لا يُصِيبُهُمْ ظَمَأٌ وَ لا نَصَبٌ وَ لا مَخْمَصَةٌ فِي سَبِيلِ اللَّهِ وَ لا يَطَؤُنَ مَوْطِئاً يَغِيظُ الْكُفَّارَ وَ لا يَنالُونَ مِنْ عَدُوٍّ نَيْلًا إِلَّا كُتِبَ لَهُمْ بِهِ عَمَلٌ صالِحٌ إِنَّ اللَّهَ لا يُضِيعُ أَجْرَ الْمُحْسِنِينَ».

فظمأ في سبيل اللَّه في الهاجرة الحارقة و نصب في سبيل اللَّه تعبا ناصبا، و مخمصة في سبيل اللَّه جوعا مدقعا، و وطأة في سبيل اللَّه موطئا يغيظ الكفار، و نيلا من عدو اللَّه في سبيل اللَّه في نفس أو نفيس، كلّ‏ «كُتِبَ لَهُمْ بِهِ عَمَلٌ صالِحٌ» في مخمسه.

و من ثم‏ «وَ لا يُنْفِقُونَ نَفَقَةً صَغِيرَةً وَ لا كَبِيرَةً» في سبيل اللَّه‏ «وَ لا يَقْطَعُونَ وادِياً» في سبيل اللَّه‏ «إِلَّا كُتِبَ لَهُمْ» به عمل صالح‏ «لِيَجْزِيَهُمُ اللَّهُ» بهذه الوفرة الغالية «أَحْسَنَ ما كانُوا يَعْمَلُونَ» و هو هنا هذه السبعة المباركة لهؤلاء السالكين إلى اللَّه.

و لقد أثر ذلك البلاغ البالغ في قسم من المؤمنين لحد عزموا على‏

الفرقان في تفسير القرآن بالقرآن، ج‏13، ص: 337

النفير في سبيل اللَّه فحددهم عند حده، إخراجا لهم عن جزره و مده قائلا:

وَ ما كانَ الْمُؤْمِنُونَ لِيَنْفِرُوا كَافَّةً فَلَوْ لا نَفَرَ مِنْ كُلِّ فِرْقَةٍ مِنْهُمْ طائِفَةٌ لِيَتَفَقَّهُوا فِي الدِّينِ وَ لِيُنْذِرُوا قَوْمَهُمْ إِذا رَجَعُوا إِلَيْهِمْ لَعَلَّهُمْ يَحْذَرُونَ (122).

هنا يقتسم المؤمنون إلى قسمي القاعدين للتفقه في الدين و الخارجين النافرين لصيانة الدين في جبهات الحرب، مما يدل على واجب التفقه في الدين وجوبا عينيا دونما أية وقفة، حيث الحرب أحيانية، و هي على بالغ فرضها ضد أعداء الدين واجب كفائي، فكما الفتنة أكبر و أشد من القتل، فالتفقه في الدين حفاظا على صالح العقيدة الصامدة أوجب من القتال، حيث العدو المقاتل يشكّل خطرا على الأبدان، و الداعية المضلة تشكل خطرا على العقيدة و الأرواح في الأديان، فالحفاظ على الروحية الإيمانية أولى من الحفاظ على الدماء و أوجب.

و لأن النفر- و إن كان في الاستنفار العام- لا يعم كافة المؤمنين، ضرورة بقاء المعذورين، و آخرين يتفقهون في الدين، لذلك‏ «وَ ما كانَ الْمُؤْمِنُونَ لِيَنْفِرُوا كَافَّةً» نفرا جماعيا للكف عن دين اللَّه، و حين لا يمكن و لا يجوز أن ينفر المؤمنون كافة «فَلَوْ لا نَفَرَ مِنْ كُلِّ فِرْقَةٍ مِنْهُمْ طائِفَةٌ» و الفرقة هي الجماعة الفارقة بينها و بين جماعة أخرى بمختلف الأشغال و المسؤوليات، و مختلف الطاقات و الإمكانيات، و مختلف الأواصر و القرابات، فرق مجتمعة على دين اللَّه، مفترقة فيما يفرق بعضهم عن بعض في هذه و ما أشبه.

و طائفة من كل فرقة، جمع منها مرابطة تطوف حول الآخرين مراسة في حراسة عليهم، حفاظا على الدينين بنواميسهم و بلادهم، فالذين بإمكانهم ذلك التطواف، عليهم ذلك النفر حفاظا على الحدود و الثغور الظاهرة، ثم الباقون‏ «لِيَتَفَقَّهُوا فِي الدِّينِ» بردح النفر لهؤلاء «وَ لِيُنْذِرُوا قَوْمَهُمْ» الطائفين النافرين‏ «إِذا رَجَعُوا إِلَيْهِمْ لَعَلَّهُمْ يَحْذَرُونَ» المحاذير

الفرقان في تفسير القرآن بالقرآن، ج‏13، ص: 338

و المحاظير بما يتفقهون عندهم، و هي الحدود و الثغور المعرفية و العقيدية و العملية.

فهنا «ليتفقهوا» لا ترجع- فقط- إلى النافرين، فإن مجال النفر هو الجهاد و ليس التفقه في الدين، فالمحور الذي تحور حوله الآية هو «المؤمنون» و- إذا- ف «ليتفقهوا» هم غير النافرين.

ذلك، و إن تكن جبهات الحرب أيضا مجالات لعملية التفقه في الدين، و لكنها ليست إلّا على هوامش الجهود من المتفقهين الرسميين للدّين، فهم الأساتذة الأولون في إنذار النافرين، مهما تلمذوا عليهم هؤلاء تفقها عمليا للجهاد في سبيل اللَّه.

و في إرجاع ضمير الجمع في «ليتفقهوا»- فقط- إلى النافرين جمع لمسؤولية التفقه مع الجهاد فيهم، و سلب لهما عن الباقين، رغم أن مجال التفقه للباقين أوسع بكثير من النافرين.

ذلك، و قد يعنى من ضمير الجمع كلا الباقين‏ «1» و النافرين‏ «2» مهما

\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_

(1). الدر المنثور 3: 292- أخرج أبو داود في ناسخه و ابن أبي حاتم و ابن مردويه عن ابن عباس قال: نسخ هؤلاء الآيات: انفروا خفافا و ثقالا ... قوله: و ما كان المؤمنون لينفروا كافة، يقول: لينفر طائفة و لتمكث طائفة مع رسول اللَّه (صلى اللَّه عليه و آله و سلم) فالماكثون مع رسول اللَّه (صلى اللَّه عليه و آله و سلم) هم الذين يتفقهون في الدين و ينذروا إخوانهم إذا رجعوا إليهم من الغزو لعلهم يحذرون ما نزل من بعدهم من قضاء اللَّه في كتابه و حدوده، أقول: و أخرجه مثله عن عبد اللَّه بن عبيد بن عمير.

(2)

نور الثقلين 2: 282 عن الكافي عن يعقوب بن شعيب قال‏ قلت لأبي عبد اللَّه (عليه السلام) إذا حدث على الإمام حدث كيف يصنع الناس؟ قال: أين قول اللَّه عزّ و جلّ: «فَلَوْ لا نَفَرَ مِنْ كُلِّ فِرْقَةٍ مِنْهُمْ طائِفَةٌ ..» قال: هم في عذر ما داموا في الطلب و هؤلاء الذين ينتظرونهم في عذر حتى يرجع إليهم أصحابهم،

و

فيه عنه عن عبد الأعلى قال: سألت أبا عبد اللَّه (عليه السلام) عن قول العامة: إن رسول اللَّه (صلى اللَّه عليه و آله و سلم) قال: من مات و ليس له إمام مات ميتة جاهلية؟ قال:

الحق و اللَّه، قلت: فإن إماما هلك و رجل بخراسان لا يعلم من وصيه لم يسعه ذلك؟

قال: لا يسعه، إن الإمام إذا هلك وقعت حجة وصيه على من هو معه في البلد و حق‏

الفرقان في تفسير القرآن بالقرآن، ج‏13، ص: 339

كان الأولون هم الأصلاء و الآخرون هم الهوامش لاختلاف، مجال التفقه بينهما.

فلأن التفقه في الدين جهاد كمال القتال، فقد يصدق على الخارجين لذلك أنهم من النافرين ف «لو لا نفر» لكلا الجهاد القتال، و الجهاد التفقه في الدين، ف «طائفة من كل فرقة» هي القادرة على التطواف حول كل فرقة، حفاظا عقيديا و ثقافيا، أو حفاظا على الثغور الإسلامية.

فالتفقه في الدين فرض على كل قاعد و نافر مهما اختلفت مراتبه و مجالاته حسب اختلاف الملابسات، فعلى الذي لم يتفقه من نبعته عليه أن يتفقه عمن تفقه ما لا يصل إلى النبعة، و من تفقه قليلا فعليه أن يتفقه ممن تفقه أكثر منه، فلا حدّ- إذا- للتفقه في الدين، و هو على فرضه الأعياني يجب أن يكون متعاونا عليه بين المؤمنين أجمع، و لكن النفر للجهاد ليس فرضا على الأعيان و حتى في الاستنفار العام قضية أنه غير مستطاع لكافة المؤمنين، و التفقه في الدين من المستطاع لهم أجمعين مهما اختلفت درجاته و مجالاته.

ذلك، ف «طائفة» هي بين طائفة النفر للتفقه في الدين و أخرى‏

\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_

النفر على من ليس بحضرته إذا بلغهم إن اللَّه عزّ و جلّ يقول: «فَلَوْ لا نَفَرَ ..»

و

فيه عن عيون الأخبار في باب العلل التي ذكر الفضل بن شاذان أنه سمعها من الرضا (عليه السلام) فإن قال: فلم أمر بالحج؟ قيل العلة الوقادة و طلب الزيادة- إلى أن قال:

مع ما فيه من التفقه و نقل الأخبار الأئمة (عليهم السلام) إلى كل صقع و ناحية كما قال اللَّه عزّ و جلّ: فو لا نفر ... «و ليشهدوا منافعهم»

و

فيه عن العلل عن عبد اللَّه المؤمن الأنصاري قال: قلت لأبي عبد اللَّه (عليه السلام): إن قوما يروون أن رسول اللَّه (صلى اللَّه عليه و آله و سلم) قال: اختلاف أمتي رحمة؟ فقال: صدقوا، فقلت: إن كان اختلافهم رحمة فاجتماعهم عذاب؟ قال: ليس حيث تذهب و ذهبوا، إنما أراد قول اللَّه عزّ و جلّ: «فَلَوْ لا نَفَرَ ..» فأمرهم أن ينفروا إلى رسول اللَّه (صلى اللَّه عليه و آله و سلم) و يختلفوا إليه فيتعلموا ثم يرجعوا إلى قومهم فيعلموهم، إنما أراد اختلافهم من البلدان لا اختلافا في دين اللَّه إنما الدين واحد، و فيه عنه عن عبد الأعلى قال قلت لأبي الحسن (عليه السلام) إن بلغنا وفات الإمام كيف نصنع؟ قال: عليكم النفير، قلت: النفير جميعا؟ قال: إن اللَّه يقول‏ «فَلَوْ لا نَفَرَ ..».

الفرقان في تفسير القرآن بالقرآن، ج‏13، ص: 340

طائفة النفر للجهاد للحفاظ على الدينين، فقه علمي للقاعدين، و فقه عملي للنافرين، و لكي يتفقه المؤمنون كلا الفقهين، فعلى كلّ من القاعدين و النافرين أن يفقه الآخرين.

و على أية حال فالتفقه في الدين بحاجة إلى حركة فقهية سواء للقاعدين أو النافرين، فإنه منهج حركي لا يفقه إلا من تحرك به، لذلك نسمع الإمام الصادق (عليه السلام) يقول فيمن لزم بيته و لم يتعرف إلى أحد من إخوانه: و كيف يتفقه هذا في دينه؟.

فالفقاهة العملية التي ندرسها من خلال جبهات الحروب في سبيل اللَّه هي من حصائل الفقاهة العلمية، ثم الفقاهة العلمية هي أيضا بحاجة إلى فقاهة عملية تكافلا و تكاملا للمتفقه بين الفقاهتين.

نحن نجزم بالتجارب بأن الذين لا يندمجون في الفقه الحركي، تفرغا لدراسة الدين في الكتب و الحوزات بصورة باردة جامدة، هؤلاء لم يتفقهوا في الدين كما يصح، فكيف يقودون الحركة الإسلامية السامية في حقول الجهاد بمختلف صوره؟.

ثم التفقه في الدين لا يختص بالفقه الأصغر و هو فقه الأحكام، بل و الفقه الأكبر و هو أحرى من جهات شتى، لأنه أصول المعارف الدينية، و هي لا تقبل التقليد، و التفقه في الفقه الأكبر يسهّل التفقه في الفقه الأصغر دون عكسه.

و هل الدين يختص بأحكامه الفرعية دون قواعده و أثافيّه حتى يختص التفقه في الدين بها دونها؟ و لأن الفقه هو التوصل بعلم حاضر إلى علم غائب فالتفقه إذا هو التكلّف في هذا الحقل قدر المستطاع، ف‏

«تفقهوا في الدين فإنه من لم يتفقه في الدين فهو أعرابي» «1».

\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_

(1).

الكافي عن الإمام الصادق (عليه السلام) و فيه عن المفضل بن عمر قال سمعت أبا عبد اللَّه (عليه السلام) يقول: عليكم بالتفقه في دين اللَّه و لا تكونوا أعرابا فإنه من لم يتفقه في دين اللَّه لم ينظر اللَّه إليه يوم القيامة و لم يزك له عملا،

و

فيه عن أبان بن تغلب‏

الفرقان في تفسير القرآن بالقرآن، ج‏13، ص: 341

ذلك، و إذا دار الأمر بين التفقه في الدين و الجهاد دون إمكانية الجمع بينهما فالمتعين هو التفقه فإنه يتبني إيمان المتفقه و المجاهدين و لا عكس، و الحفاظ على فقاهة الإيمان أوجب من الحفاظ على نفوس المؤمنين، ثم و كلّ من طائفة التفقه و الجهاد ينوب عن الآخر، فللمجاهدين من أجر المتفقهين و للمتفقهين أجر الشهداء فإن «مداد العلماء أفضل من دماء الشهداء» حيث الشهادة في سبيل اللَّه ترسمها مداد العلماء، مدا لها إلى الشهادة و سواها من الحيويات الإيمانية.

ثم فی قوله تعالی «ينذروا» و «لَعَلَّهُمْ يَحْذَرُونَ» لا مجال لرجاء الحذر إلّا بعد واجب أو راجح قبول الإنذار، حيث الطائفة المتفقهة سواء أ كانت الباقية أو النافرة هي جماعة فيها مجالة القبول للمنذرين، بحجة الكتاب و السنة الصالحة للتقبل، و قد أمرنا ألّا نقف ما ليس لنا به علم، و لعل «لعلّ» هنا تعني ترجيين اثنين: ترجى الحذر برجاء الحجة في ذلك الإنذار الإعذار، و ترج ثان بعد واقع الحجة فيه.

فعلى المنذر أن ينذر بما يملكه من حجج الحق، فإن حقت الحجة للمنذرين فهناك واجب الحذر عما منه ينذرون. و لأن التفقّه يحمل الحجة على مادة الإنذار، فالمنذرون- إذا-

\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_

عن أبي عبد اللَّه (عليه السلام) قال: لوددت أن أصحابي ضربت رؤوسهم بالسياط حتى يتفقهوا،

و

فيه عنه (عليه السلام) قال له رجل: جعلت فداك رجل عرف هذا الأمر لزم بيته و لم يتعرف إلى أحد من إخوانه، قال فقال: و كيف يتفقه هذا في دينه،

و

عن الخصال عن الحارث الأعور قال قال أمير المؤمنين (عليه السلام) ثلاث بهن يكمل المسلم: التفقه في الدين و التقدير في المعيشة و الصبر على النوائب،

و

عنه عن موسى بن أكيل قال سمعت أبا عبد اللَّه (عليه السلام) يقول: لا يكون الرجل فقيها حتى لا يبالي أيّ ثوبية ابتذل و بما سدّ فورة الجوع.

الفرقان في تفسير القرآن بالقرآن، ج‏13، ص: 342

ينذرون بتلك الحجة التي تثبت مادة الإنذار، اجتهادا أو تقليدا صالحين.

و لمكان الفرض المستفاد من‏ «لِيَتَفَقَّهُوا فِي الدِّينِ» نرى واجب التفقه على الذين عليهم أن يفقّهوا، أثقل مادة و كيفية من واجبة على الباقين، على أنهم سواء في واجب أصل التفقه قدر القناعة الذاتية، ثم المفروض على الآخرين التفقه في تقبل ذلك الفقه بأذن صاغية و قلوب واعية، فإن بلغت لهم حجته تقبلوه، و إلا فإلى من في إنذاره حجة دون أية وقفة في حقل التعلم.

و هكذا يبشّر عباد صالحون في حقول المعرفة الدينية: «فَبَشِّرْ عِبادِ الَّذِينَ يَسْتَمِعُونَ الْقَوْلَ فَيَتَّبِعُونَ أَحْسَنَهُ أُولئِكَ الَّذِينَ هَداهُمُ اللَّهُ وَ أُولئِكَ هُمْ أُولُوا الْأَلْبابِ» (39: 18).

و هكذا شأن الفروع الفقهیة كما تقول آية الذكر: «فَسْئَلُوا أَهْلَ الذِّكْرِ إِنْ كُنْتُمْ لا تَعْلَمُونَ بِالْبَيِّناتِ وَ الزُّبُرِ» (16: 44):اسألوهم بالبينات و الزبر إن كنتم لا تعلمون بالبينات و الزبر و هم أهل الذكر بالبينات و الزبر.

فقد ينحصر القبول في حقل الدين بالكتاب و السنة القطعية، اجتهادا تفصيليا هو الاجتهاد، أم إجماليا هو التقليد، فليكن التقليد أيضا بالاجتهاد قدر المستطاع، فالمسلمون كلهم متفقهون في الدين دونما استثناء مهما اختلفت الفاعليات و القابليات.

و حين يجب على غير النافرين إلى الجهاد أن يتفقهوا في الدين بوجه صالح مقبول، كذلك على النافرين إذا رجعوا إليهم أن يتفقهوا منهم بوجه صالح مقبول و هو إتباع علم أو أثارة من علم، و دونما تقليد أعمى.

و أصل الفقه و أثافيه أحكاميا و عقيديا و سياسيا و عسكريا و سواها من‏

الفرقان في تفسير القرآن بالقرآن، ج‏13، ص: 343

الفقه الإسلامي إنما هو القرآن و على هامش منه من رموزه وباطنه السنة القطعية، فالمشي وراء سائر الأدلة المتخيلة، و لا سيما المجانية للكتاب و السنة، إنه سفاهة و ليس فقاهة.

ذلك، و الآيات القرآنية كهذه و ما أشبه، و من كتابات السماء «1» و الروايات هي فوق حد الإحصاء، بكلمة واحدة هي فرض العلم دينيا فرض عين، و دنيويا فرض كفاية.

و مما

يروى عن رسول الهدى (صلى اللَّه عليه و آله و سلم) قوله: «من جاءه الموت و هو يطلب العلم ليحيى به الإسلام كان بينه و بين الأنبياء درجة واحدة في الجنة» «2».

و

«نوم مع علم خير من صلاة مع جهل» «3»

- و

«إذا جاء الموت إلى طالب العلم و هو على هذه الحال مات شهيدا» «4»

و

«طالب العلم أفضل عند الله من المجاهدين، و المرابطين، و الحجاج، و المعتمرين، و المعتكفين، و المجاورين، استغفرت له الشجر و البحار و الرياح و السحاب و النجوم و النبات و كل شي‏ء طلعت عليه الشمس» «5»

- و

«من أراد أن ينظر إلى عتقاء الله من النار فلينظر إلى العلماء» «6»

-

\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_

(1). فمما في كتب السماء ما ينقله في منية المريد عن الإنجيل في السورة السابعة عشرة منه:

«ويل لمن سمع بالعلم و لم يطلبه كيف يحشر مع الجهال إلى النار، أطلبوا العلم و تعلموه فإن العلم إن لم يسعدكم لم يشقكم، و إن لم يرفعكم يضعكم، و إن لم يغنكم لم يفقركم، و إن لم ينفعكم لم يضركم، و لا تقولوا: نخاف أن نعلم فلا نعمل، و لكن قولوا: نرجو أن نعلم و نعمل، و العلم يشفع لصاحبه، و حق على الله أن لا يخزيه، إن الله يقول يوم القيامة: يا معشر العلماء ما ظنكم بربكم؟ فيقولون: ظننا أن ترحمنا و تغفر لنا، فيقول تعالى: فإني قد فعلت، إني استودعتكم حكمتي لا لشر أردته بكم، بل لخير أردته بكم، فادخلوا في صالح عبادي إلى جنتي و رحمتي» (العوالم 2- 3:

125).

(2) العوالم (2- 3: 131) نقلا عن منية المريد للشهيد الثاني.

(3) المصدر 132.

(4) المصدر (133) عن أبي ذر قال: باب من العلم تتعلمه أحب إلينا من ألف ركعة تطوعا و قال سمعنا رسول اللَّه (صلى اللَّه عليه و آله و سلم) يقول: إذا جاء الموت ..

(5) المصدر عن عيون المعجزات و إرشاد الديلمي عن النبي (صلى اللَّه عليه و آله و سلم).

(6) المصدر (133).

الفرقان في تفسير القرآن بالقرآن، ج‏13، ص: 344

و

«تعلموا العلم فإن تعلمه حسنة، و مدارسته تسبيح، و البحث عنه جهاد، و تعليمه من لا يعلمه صدقة، و بذله لأهله قربة، لأنه معالم الحلال و الحرام، سالك بطالبه سبيل الجنة، و مؤنس في الوحدة، و صاحب في الغربة، و دليل على السراء و الضراء، و سلاح على الأعداء، و زين الأخلاء، يرفع الله به أقواما يجعلهم في الخير أئمة يقتدى بهم، ترمق أعمالهم، و تقتبس آثارهم، و ترغب الملائكة في خلتهم، لأن العلم حياة القلوب، و نور الأبصار من العمى، و قوة الأبدان من الضعف، و ينزل الله حامله منازل الأنبياء، و يمنحه مجالس الأبرار في الدنيا و الآخرة، بالعلم يطاع الله و يعبد، و بالعلم يعرف الله و يوحد، و به توصل الأرحام، و يعرف الحلال و الحرام، و العلم إمام العقل و العقل وزيره، يلهمه الله السعداء، و يحرمه الأشقياء» «1».

و

عن الإمام أمير المؤمنين (عليه السلام): «... إن العلم ذو فضائل كثيرة، فرأسه التواضع، و عينه البراءة من الحسد، و أذنه الفهم، و لسانه الصدق، و حفظه الفحص، و قلبه حسن النية، و عقله معرفة الأسباب بالأمور، و يده الرحمة، و همته السلامة، و رجله زيادة العلماء، و حكمته الورع، و مستقره النجاة، و فائدته العافية، و مركبه الوفاء، و سلاحه لين الكلام، و سيفه الرضا، و قوسه المداراة، و جيشه محاورة العلماء، و ماله الأدب، و ذخيرته اجتناب الذنوب، و زاده المعروف، و مأواه الموادعة، و دليله الهدى، و رفيقه صحبة الأخيار» «2».

و

عنه (عليه السلام): العلم أفضل من المال بسبعة: الأوّل: أنه ميراث الأنبياء و المال ميراث الفراعنة، الثاني: العلم لا ينقص بالنفقة و المال ينقص بها، الثالث: يحتاج المال إلى الحافظ و العلم يحفظ صاحبه، الرابع: العلم يدخل في الكفن و يبقى المال، الخامس: المال يحصل للمؤمن و الكافر و العلم لا يحصل إلا للمؤمن خاصة، السادس:

\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_

(1). المصدر 133 عن تحف العقول قل النبي (صلى اللَّه عليه و آله و سلم): ..

(2) المصدر 135 تحف العقول عن أمير المؤمنين (عليه السلام) في حديث ..

الفرقان في تفسير القرآن بالقرآن، ج‏13، ص: 345

جميع الناس يحتاجون إلى صاحب العلم في أمر دينهم و لا يحتاجون إلى صاحب المال، السابع: العلم يقوي الرجل على المرور على الصراط و المال يمنعه‏ «1».

و

عنه (صلى اللَّه عليه و آله و سلم): «طالب العلم بين الجهال كالحي بين الأموات» «2»

و

عنه (صلى اللَّه عليه و آله و سلم): «أعلم الناس من جمع علم الناس إلى علمه و أشجع الناس من غلب هواه، و أكثر الناس قيمة أكثرهم علما، و أقل الناس قيمة أقلهم علما» «3».

و

عنه (صلى اللَّه عليه و آله و سلم): «من خرج يطلب بابا من علم ليرد به باطلا إلى حق أو ضلالة إلى هدى كان عمله ذلك كعبادة متعبد أربعين عاما» «4».

و

عن الباقر (عليه السلام): «عالم ينتفع بعلمه أفضل من عبادة سبعين ألف عابد» «5».

و

عنه (صلى اللَّه عليه و آله و سلم): «الأنبياء قادة، و الفقهاء سادة، و مجالستهم زيادة» «6».

و

عنه (صلى اللَّه عليه و آله و سلم): «اللهم ارحم خلفائي- ثلاث مرات- قيل له: يا رسول الله (صلى الله عليه و آله و سلم) و من خلفاءك؟

قال: الذين يأتون من بعدي و يروون حديثي و سنتي فيعلمونها الناس من بعدي» «7».

\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_

(1). المصدر 138 منية المريد عنه (عليه السلام).

(2) المصدر 143 عن أمالي الطوسي.

(3) المصدر 143 مكارم الأخلاق.

(4) المصدر 148- أمالي الطوسي.

(5) المصدر 149.

(6) المصدر 167- أمالي الطوسي.

(7) المصدر 174 عيون أخبار الرضا (عليه السلام).

الفرقان في تفسير القرآن بالقرآن، ج‏13، ص: 346

و هنا «حديثي» قبل «سنتي» و قرنه، لا ريب أنه يعني القرآن:

«فَبِأَيِّ حَدِيثٍ بَعْدَ اللَّهِ وَ آياتِهِ يُؤْمِنُونَ» (45: 6) فكما النبي (صلى اللَّه عليه و آله و سلم) مزدوج الشخصية الرسولية من الكتاب و السنة، كذلك الذين يخلفونه من معصومين (عليهم السلام) و سواهم، إنما هم يروون كتاب اللَّه و سنة رسوله (صلى اللَّه عليه و آله و سلم) رواية صادقة حاذقة حادقة إلى الحق المرام من الثقلين.

و

قال (صلى اللَّه عليه و آله و سلم): «.. و من خرج من بيته يلتمس بابا من العلم كتب الله له بكل قدم ثواب (ألف) شهيد من شهداء بدر» «1»

و

قال (صلى اللَّه عليه و آله و سلم): «سألت جبرئيل (عليه السلام) فقلت: العلماء أكرم عند الله أم الشهداء؟ فقال: العالم الواحد عند الله أكرم من ألف شهيد فإن اقتداء العلماء بالأنبياء، و اقتداء الشهداء بالعلماء» «2».

و

قال (صلى اللَّه عليه و آله و سلم): «إذا كان يوم القيامة وزن مداد العلماء بدماء الشهداء فيرجح مداد العلماء على دماء الشهداء» «3».

و

قال (صلى اللَّه عليه و آله و سلم): «طلب العلم فريضة على كل مسلم و مسلمة» «4»

و

عن الصادق (عليه السلام): «طلب العلم فريضة على كل حال» «5».

ذلك، و لأن الفقه أخص من العلم، حيث الفقه هو التوصل بعلم حاضر إلى علم غائب، لذلك أصبح الفقه و التفقه في الدين من ميزات العلم البارعة و كما في متواتر الحديث:

\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_

(1). المصدر 176 جامع الأخبار.

(2) المصدر 176 عن عيون المعجزات.

(3) المصدر 185- أمالي الطوسي.

(4) المصدر 197- غوالي اللئالي عنه (صلى اللَّه عليه و آله و سلم).

(5) المصدر 200- بصائر الدرجات.

الفرقان في تفسير القرآن بالقرآن، ج‏13، ص: 347

«متفقه في الدين أشد على الشيطان من ألف عابد» «1»

و

«لكل شي‏ء عماد، و عماد هذا الدين الفقه» «2».

يا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا قاتِلُوا الَّذِينَ يَلُونَكُمْ مِنَ الْكُفَّارِ وَ لْيَجِدُوا فِيكُمْ غِلْظَةً وَ اعْلَمُوا أَنَّ اللَّهَ مَعَ الْمُتَّقِينَ (123).

صحيح أن‏ «قاتِلُوهُمْ حَتَّى لا تَكُونَ فِتْنَةٌ وَ يَكُونَ الدِّينُ كُلُّهُ لِلَّهِ» (8:) 39) تعم الذين يلونكم و البعيدين عنكم، إلّا أن القدر المستطاع قبل قيام صاحب الإمر بالدولة الإسلامية العالمية، ليس المستطاع قبله إلا قتال الذين يلونكم‏ «3» و كما الإنذار و الدعاية الإسلامية آخذان في خطواتهما من الأقربين الملاصقين، كذلك القتال، فهما الحد الأدني و الخطوة الأولى من الناحيتين السلبية و الإيجابية الممثلة لكلمة التوحيد، سلبا للكفر و إيجابا للإيمان.

ذلك‏ «وَ لْيَجِدُوا فِيكُمْ غِلْظَةً» تحذروهم- أولاء و سواهم من الكفار- عن النيل منكم، فلا بد للمؤمنين إضافة إلى واقع القتال قوة إرهابية عادلة ترهب أعداء اللَّه: «وَ أَعِدُّوا لَهُمْ مَا اسْتَطَعْتُمْ مِنْ قُوَّةٍ ..» (8: 60).

ثم‏ «وَ اعْلَمُوا أَنَّ اللَّهَ مَعَ الْمُتَّقِينَ» في القتال و الغلظة، اتقاء عن الإفراط و التفريط، مشيا على معتدل الجادة في سبيل اللَّه كما أمر اللَّه، و بصورة جادة.

\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_

(1). المصدر 245 غوالي اللئالي قال رسول اللَّه (صلى اللَّه عليه و آله و سلم): ...

(2) المصدر 245 بصائر الدرجات عن أبي جعفر (عليه السلام).

(3)

نور الثقلين 2: 285 في تفسير القمي في الآية قال: يجب على كل قوم أن يقاتلوا ممن يليهم ممن يقرب من بلاءهم و لا يجوزوا ذلك الموضع.

و

في الدر المنثور 3: 293- أخرج ابن أبي حاتم و أبو الشيخ عن جعفر بن محمد (عليهما السلام) انه سئل عن قتال الديلم فقال: قاتلوهم فإنهم من الذين قال اللَّه تعالى: قاتلوا الذين يلونكم من الكفار،

و

فيه ابن مردويه عن ابن عمر أنه سئل عن غزو الديلم فقال سمعت رسول اللَّه (صلى اللَّه عليه و آله و سلم) يقول: «قاتِلُوا الَّذِينَ يَلُونَكُمْ مِنَ الْكُفَّارِ» قال: الروم.

الفرقان في تفسير القرآن بالقرآن، ج‏13، ص: 348

فحين تشكّل دولة إسلامية بغياب صاحب الأمر عجل اللَّه تعالى فرجه الشريف، فلا عليها و لا لها إلّا أن تقاتل جيرانها الأقربين من الكفار المقاتلين المفسدين، اتقاء عن التجاوز عنهم إلى الآخرين، حيث الكفر ملة واحدة، فقد يجنّد جنوده دفعة واحدة و حملة فاردة لاجتثاث الدولة الإسلامية التي غاية قوتها الحفاظ على نفسها من بأس الذين يلونهم من الكفار.

ذلك، و لأن‏ «الَّذِينَ آمَنُوا» لا تختص بدولة إسلامية، و هم مبعثرون في المعمورة، فعليهم القتال الدائب قدر المستطاع بصورة متواصلة سوما للعذاب على الكفار المفسدين الخطرين عليهم، حتى تعبّد الطريق لدولة المهدي (عليه السلام) العالمية.

فهنالك للمجموعة المسلمة مثلث من الجهاد في مثناه: دعائيا و حربيا، فالضلع الأوّل‏ «الَّذِينَ يَلُونَكُمْ مِنَ الْكُفَّارِ» لكل دولة أو دويلة أو مجموعة أو منظمة إسلامية سليمة، و الثاني أن تتعاون كافة المجموعات الإسلامية في شتى أنحاء المعمورة، مترابطين مع بعضهم البعض و مرابطين و كما قال اللَّه تعالى: «وَ إِذْ تَأَذَّنَ رَبُّكَ لَيَبْعَثَنَّ عَلَيْهِمْ إِلى‏ يَوْمِ الْقِيامَةِ مَنْ يَسُومُهُمْ سُوءَ الْعَذابِ ..» و الثالث و الأخير- و هو من حصائل ذلك الجهاد الإسلامي المتكافل و فصائله- هو تأسيس الدولة الإسلامية العالمية بقيادة صاحب الأمر و ولي العصر حجة بن الحسن العسكري عجل اللَّه تعالى فرجه و سهل مخرجه، و أما الحرب الباردة الدعائية فلا حد لها إلا كافة الدعايات الكافرة، أن نحاربها بألسنتنا و أقلامنا.

و قيلة القائل الغائل إنها منسوخة ب‏ «قاتِلُوا الْمُشْرِكِينَ كَافَّةً» منسوخة بأن «كافة» هي وصف للمقاتلة المستفادة من «قاتلوا» فلتكن مقاتلة كافّة بأسهم عن المسلمين، تكفهم عنهم و تجعلهم في أمن منهم، فهم- إذا- «الَّذِينَ يَلُونَكُمْ مِنَ الْكُفَّارِ» يلونكم جوار المكان و الحدود الجغرافية- أم و يلونكم جوار البأس مهما كانوا بعيدين، و هما ليسا إلّا قتال الدفاع، دون هجوم بدائي أيّا كان.

و لقد كانت سنة الحروب للقائد الرسولي (صلى اللَّه عليه و آله‏

الفرقان في تفسير القرآن بالقرآن، ج‏13، ص: 349

و سلم) هكذا في خطوات، من‏ «أَنْذِرْ عَشِيرَتَكَ الْأَقْرَبِينَ» في العهد المكي حربا عقيدية، تبنيا لأعضاء الدولة و أعضادها في المدينة، و إلى حرب المشركين المدنيين ثم المكيين ثم سائر الجزيرة و إلى الشام و الروم، حيث الجمع بين كل الأعداء في حرب واحدة منذ البداية، انسحاق لأصل الدعوة بمجموعتها الدينين، ما لم يفعله قائد القوات الرسولية في زمنه فضلا عمن سواه!.

فلمحاربة الأعداء الأقربين، و لا سيما الدخلاء الداخليين، تقدم حسب كل التكتيكات الحربية، كما و هي أقل مؤنة و أكثر معونة و أوجب دفعا للخطر الحادق الحاذق.

ثم‏ «الَّذِينَ يَلُونَكُمْ مِنَ الْكُفَّارِ» إن كانوا أقوياء، كان تعرّضهم لدار الإسلام أكثر و تبرزهم أخطر من البعيدين، فهم أولى بالدفع ممن سواهم، و إن كانوا ضعفاء كان استيلاءهم عليهم أسهل، و إبقاءهم على حالهم اشتغالا بالبعيدين يخلق لهم مجالا للاستعداد، و على أية حال ف‏ «لَقَدْ كانَ لَكُمْ فِي رَسُولِ اللَّهِ أُسْوَةٌ حَسَنَةٌ لِمَنْ كانَ يَرْجُوا اللَّهَ وَ الْيَوْمَ الْآخِرَ وَ ذَكَرَ اللَّهَ كَثِيراً» (33: 21) فقد ابتدأ في كلا الغزو و الدعوة بالأقربين، مراعيا سياسة الخطوة الخطوة حتى ملك الجزيرة بكاملها، ثم إلى غير الجزيرة من الروم و ما أشبه، سنة سارت عليها الفتوحات الإسلامية. تواجه من يلون دار الإسلام مرحليا، فلما أسلمت الجزيرة أو كادت، و لم تبق إلا فلول منعزلة لا تؤلف طاقة خطرة بعد فتح مكة، كانت غزوة تبوك على أكناف الروم، ثم انساحت الجيوش الإسلامية إلى الروم و فارس إلى أن وحّدت الرقعة الإسلامية و تواصلت حدودها ببعضها البعض، فإذا هي كتلة ضخمة شاسعة الأرجاء، واسعة الأنحاء، متماسكة الأطراف، ثم لم تمزقها إلّا الحدود المختلفة المختلقة المتخلّفة بين ديار الإسلام فأصبحت دويلات فشكلت ويلات على المسلمين أجمع.

ذلك، و ترى‏ «وَ لْيَجِدُوا فِيكُمْ غِلْظَةً» تعني الخشونة و الفظاظة التي تنافي في صالح الدعوة؟ إنها غلظة رهيبة في القوات المسلحة و سائر الاستعدادات أمام المحاربين دون سائر الكفار فضلا عن المؤمنين، فقد

الفرقان في تفسير القرآن بالقرآن، ج‏13، ص: 350

تعني «غلظة» منكرة، الغلظة التي لا بد منها أمام المعاندين، فلا تنافي اللينة في الدعوة و الرحمة في الدعاية ف‏ «لا تُجادِلُوا أَهْلَ الْكِتابِ إِلَّا بِالَّتِي هِيَ أَحْسَنُ إِلَّا الَّذِينَ ظَلَمُوا مِنْهُمْ» (29: 46) فحين لا تؤثر الرحمة إلا زحمة فهنالك الغلظة أمام غلظة، حيث الرحمة أمام الظالم المعاند العامد، إنها زحمة و قسوة على المظلوم، فهي- إذا- غلظة أمام غلظة، بلا هوادة و لا تميّع و لا تراجع، إنها قوة و صلابة و مهابة «حَتَّى لا تَكُونَ فِتْنَةٌ وَ يَكُونَ الدِّينُ كُلُّهُ لِلَّهِ».

ذلك، و كما أن الرأفة و الرحمة في الدعوة الربانية من تقوى اللَّه، كذلك الغلظة في محالها من تقوى اللَّه، فالرأفة مكان الغلظة كما الغلظة مكان الرأفة هما خارجتان عن تقوى اللَّه إلى الطغوى على حكم اللَّه.

و

لقد كانت الحروب الإسلامية بقيادة القائد الرسولي أو الرسالي، مبنية على تقوى اللَّه: «فَإِنَّ اللَّهَ يُحِبُّ الْمُتَّقِينَ» فلا يحب الطاغين.

و لقد كان رسول اللَّه (صلى اللَّه عليه و آله و سلم) إذا أمر الأمير على جيش أو سرية أوصاه في خاصته بتقوى اللَّه تعالى و من معه من المسلمين خيرا ثم قال: اغزوا باسم اللَّه، في سبيل اللَّه، قاتلوا من كفر باللَّه، اغزوا و لا تغلوا و لا تغدروا و لا تمثّلوا و لا تقتلوا وليدا، فإذا لقيت عدوك من المشركين فادعهم إلى ثلاث خصال، فإن أجابوك فاقبل منهم و كف عنهم و أدعهم إلى الإسلام، فإن أجابوك فاقبل منهم و كف عنهم، ثم أدعهم إلى التحول من دارهم إلى دار المهاجرين، و أخبرهم أنهم إن فعلوا ذلك فلهم ما للمهاجرين و عليهم ما عليهم، فإن أبوا أن يتحولوا منها فأخبرهم أنهم يكونون كأعراب المسلمين يجري عليهم حكم اللَّه تعالى الذي يجري على المؤمنين، و لا يكون لهم من الغنيمة شي‏ء إلّا أن يجاهدوا مع المسلمين، و إن هم أبوا فسلهم الجزية، فإن أجابوك فاقبل منهم و كف عنهم، فإن أبوا فاستعن باللَّه تعالى عليهم و قاتلهم ... «1».

\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_

(1).

أخرجه مسلم و أبو داود و الترمذي، و أخرج أبو داود عن رجل من جهينة أن رسول اللَّه (صلى اللَّه عليه و آله و سلم) قال: لعلكم تقاتلون قوما فتظهرون عليهم فيتقونكم بأموالهم‏

الفرقان في تفسير القرآن بالقرآن، ج‏13، ص: 351

إذا فلا تعني الغلظة معهم إلّا في ضوء التقوى، و ليست هي الوحشية و البربرية مع الأطفال و النساء و الشيوخ و سائر العجّز غير المحاربين، إنما هي الخشونة التي لا تميّع الحركة و لا تفسح مجالا لأعداء الدين أن يهاجموا المؤمنين، فهذا الدين- كما هو اللَّه- «أرحم الراحمين في موضع العفو و الرحمة و أشد المعاقبين في موضع النكال و النقمة».

ذلك، و أحرى من الدفاع و الحرب الحارة الحارقة، الدفاع و الحرب الباردة و هي الدّعائية بعد تقديم البراهين البينة الدّعائية.

و هنا خطوات أولاها و أولادها الدعوة الداخلية بمختلف واجهاتها، كيلا ينصدم المسلمون بدعايات مضللة يحملها المتظاهرون بالإسلام، و من ثم سائر المهاجمين على المقدسات الإسلامية السامية.

فهؤلاء الربانيون الحافظون لحدود اللَّه هم ثقات الإسلام و حصونه، الذين يصدون الهجمات الهمجات المضلّلة للمسلمين.

\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_

دون أنفسهم و ذراريهم فيصالحونكم على صلح، فلا تصيبوا منهم فوق ذلك فإنه لا يصلح لكم.

و

عن العرياض ابن سارية قال: نزلنا مع رسول اللَّه (صلى اللَّه عليه و آله و سلم) قلعة خيبر و معه من معه من المسلمين و كان صاحب خيبر رجلا ماردا متكبرا فأقبل النبي (صلى اللَّه عليه و آله و سلم) فقال: يا محمد! لكم أن تذبحوا حمرنا و تأكلوا ثمرنا و تضربوا نساءنا؟

فغضب رسول اللَّه (صلى اللَّه عليه و آله و سلم) و قال: يا ابن عوف أركب فرسك ثم ناد:

إن الجنة لا تحل إلّا لمؤمن و أن اجتمعوا للصلاة فاجتمعوا ثم صلى بهم ثم قال فقال:

أ يحسب أحدكم متكئا على أريكته، قد يظن أن اللَّه تعالى لم يحرم شيئا إلا ما في القرآن، ألا و إني قد وعظت و أمرت و نهيت عن أشياء، إنها لمثل القرآن أو أكثر و إن اللَّه لم يحل لكم أن تدخلوا بيوت أهل الكتاب إلا بإذن و لا ضرب نسائهم و لا أكل ثمارهم إذا أعطوا الذي عليهم.

و رفع إليه (صلى اللَّه عليه و آله و سلم)- بعد إحدى المواقع- إن صبية قتلوا بين الصفوف فحزن حزنا شديدا فقال بعضهم: ما يحزنك يا رسول اللَّه (صلى اللَّه عليه و آله و سلم) و هم صبية للمشركين، فغضب النبي (صلى اللَّه عليه و آله و سلم) و قال ما يعني: إن هؤلاء خير منكم، إنهم على الفطرة، أو لستم أبناء المشركين، فإياكم و قتل الأولاد إياكم و قتل الأولاد.

الفرقان في تفسير القرآن بالقرآن، ج‏13، ص: 352

وَ إِذا ما أُنْزِلَتْ سُورَةٌ فَمِنْهُمْ مَنْ يَقُولُ أَيُّكُمْ زادَتْهُ هذِهِ إِيماناً فَأَمَّا الَّذِينَ آمَنُوا فَزادَتْهُمْ إِيماناً وَ هُمْ يَسْتَبْشِرُونَ (124) وَ أَمَّا الَّذِينَ فِي قُلُوبِهِمْ مَرَضٌ فَزادَتْهُمْ رِجْساً إِلَى رِجْسِهِمْ وَ ماتُوا وَ هُمْ كافِرُونَ (125).

رجعة في نهاية السورة إلى تتمات من مواصفات المنافقين و الكافرين، أنهم‏ «إِذا ما أُنْزِلَتْ سُورَةٌ» يتساءلون هازئين أنفسهم و المؤمنين‏ «أَيُّكُمْ زادَتْهُ هذِهِ إِيماناً» و الجواب الحاسم القاصم ظهورهم‏ «فَأَمَّا الَّذِينَ آمَنُوا فَزادَتْهُمْ إِيماناً» على إيمانهم‏ «وَ هُمْ يَسْتَبْشِرُونَ» ببشائرها «وَ أَمَّا الَّذِينَ فِي قُلُوبِهِمْ مَرَضٌ» و ريبة رجسة «فَزادَتْهُمْ رِجْساً» بمزيد كفرهم‏ «إِلَى رِجْسِهِمْ» من كفرهم‏ «وَ ماتُوا وَ هُمْ كافِرُونَ»-: «وَ نُنَزِّلُ مِنَ الْقُرْآنِ ما هُوَ شِفاءٌ وَ رَحْمَةٌ لِلْمُؤْمِنِينَ وَ لا يَزِيدُ الظَّالِمِينَ إِلَّا خَساراً».

أجل و قضية اختلاف القلوب سعة و ضيقا هي اختلاف انعكاس القرآن عليها، فالظاهر القلب، المنشرح الصدر، المتحري عن الحق يزيدهم القرآن إيمانا كلما نزلت آياته البينات أو تليت عليه، ف‏ «إِنَّمَا الْمُؤْمِنُونَ الَّذِينَ إِذا ذُكِرَ اللَّهُ وَجِلَتْ قُلُوبُهُمْ وَ إِذا تُلِيَتْ عَلَيْهِمْ آياتُهُ زادَتْهُمْ إِيماناً وَ عَلى‏ رَبِّهِمْ يَتَوَكَّلُونَ» (8: 2).

و النجس القلب و رجسه الضال الشاك‏ «1»، و الضيّق الصدر يزداد به ضلالا و رجسا إلى رجسه: «فَمَنْ يُرِدِ اللَّهُ أَنْ يَهْدِيَهُ يَشْرَحْ صَدْرَهُ لِلْإِسْلامِ وَ مَنْ يُرِدْ أَنْ يُضِلَّهُ يَجْعَلْ صَدْرَهُ ضَيِّقاً حَرَجاً كَأَنَّما يَصَّعَّدُ فِي السَّماءِ كَذلِكَ يَجْعَلُ اللَّهُ الرِّجْسَ عَلَى الَّذِينَ لا يُؤْمِنُونَ» (6: 125).

ف‏ «رِجْساً إِلَى رِجْسِهِمْ» تعني ضلالا على ضلالهم، حيث سمي الضلال هنا رجسا، و هو مرض القلب، ف‏

«بتمام الإيمان دخل المؤمنون الجنة، و بالزيادة في الإيمان تفاضل المؤمنون بالدرجات عند الله، و بالنقصان دخل المفرطون النار» «2»

و

الإيمان يبدو لمظة- نقطة بيضاء-

\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_

(1).

نور الثقلين 2: 286 في تفسير العياشي عن زرارة بن أعين عن أبي جعفر (عليه السلام) في‏ «رِجْساً إِلَى رِجْسِهِمْ» يقول: شكا إلى شكهم.

(2)

نور الثقلين 2: 285 في أصول الكافي عن أبي عمرو الزبيري عن أبي عبد اللَّه‏

الفرقان في تفسير القرآن بالقرآن، ج‏13، ص: 353

في القلب كلما ازداد الإيمان ازدادت اللمظة «1».

أَ وَ لا يَرَوْنَ أَنَّهُمْ يُفْتَنُونَ فِي كُلِّ عامٍ مَرَّةً أَوْ مَرَّتَيْنِ ثُمَّ لا يَتُوبُونَ وَ لا هُمْ يَذَّكَّرُونَ (126).

ألا يرون الحق ناصعا ناصحا تترى عليهم آياته‏ «أَ وَ لا يَرَوْنَ أَنَّهُمْ يُفْتَنُونَ ..» و من هذه الفتنة الحروب المستجدة في كل عام مرة أو مرتين و هم فيها مخلّفون، و منها السورة التي تفضحهم بما في قلوبهم‏ «ثُمَّ لا يَتُوبُونَ وَ لا هُمْ يَذَّكَّرُونَ».

فلقد كانت الفتنة الربانية تتواتر عليهم عاما مرة و عاما مرتين، كشفا لسترهم الستير و تركا لهم للنفير، و انتصارا للمؤمنين دونهم، فتحسرا لهم و تكسرا حيث ينتصرون دونهم، و ما أشبه من صور الفتنة، و منها:

وَ إِذا ما أُنْزِلَتْ سُورَةٌ نَظَرَ بَعْضُهُمْ إِلى‏ بَعْضٍ هَلْ يَراكُمْ مِنْ أَحَدٍ ثُمَّ انْصَرَفُوا صَرَفَ اللَّهُ قُلُوبَهُمْ بِأَنَّهُمْ قَوْمٌ لا يَفْقَهُونَ (127).

«سورة» هي بصورة عامة تعني المسوّر باستقلال المعني، آية مستقلة، أم آيات مستقلات، أم سورة مصطلحة، أم سور مترابطات، أم القرآن كله.

و آياتها على الترتيب: «وَ إِذا أُنْزِلَتْ سُورَةٌ أَنْ آمِنُوا بِاللَّهِ وَ جاهِدُوا مَعَ رَسُولِهِ» (9: 68) إذ تعني عناية مستقلة تعني واجب الإيمان و الجهاد، إن في آية أم في آيات.

\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_

(عليه السلام) في حديث طويل قال: إن اللَّه تبارك و تعالى فرض الإيمان على جوارح ابن آدم و قسمه عليها و فرقة فيها و بين ذلك، قلت: قد فهمت نقصان الإيمان و تمامه فمن أين جاءت زيادته؟ قال: قول اللَّه عزّ و جلّ: «و إذا ما أنزلت سورة ... إلى رجسهم» و قال: نحن نقص عليك نبأهم بالحق انهم فتية آمنوا بربهم و زدناهم هدى و لو كان كله واحدا لا زيادة فيه و لا نقصان لم يكن لأحد منهم فضل على أخيه و لاستوت النعم فيه و لا استوى الناس و بطل التفضيل و لكن ...

(1). نهج البلاغة عن الإمام علي أمير المؤمنين (عليه السلام).

الفرقان في تفسير القرآن بالقرآن، ج‏13، ص: 354

ثم‏ «سُورَةٌ أَنْزَلْناها وَ فَرَضْناها وَ أَنْزَلْنا فِيها آياتٍ بَيِّناتٍ» (24: 1) إذ تعني سورة النور برمتها.

ثم آيات عدة تجمعها سورة أم عناية واحدة مهما كانت في سورة أم سور: «فَأْتُوا بِسُورَةٍ مِنْ مِثْلِهِ ..» (2: 23).

و من ثم القرآن كله: «قُلْ فَأْتُوا بِسُورَةٍ مِثْلِهِ وَ ادْعُوا مَنِ اسْتَطَعْتُمْ مِنْ دُونِ اللَّهِ ..» (10: 38) فإن ضمير الغائب في مثله راجع إلى القرآن كله، فقد تعني: فأتوا بمجموعة مثل المجموعة القرآنية.

و هنا «سورة» قد تعني التي‏ «تُنَبِّئُهُمْ بِما فِي قُلُوبِهِمْ»- ضمن سائر ما عنت من السور- لمحة من‏ «هَلْ يَراكُمْ مِنْ أَحَدٍ» حتى يعرفكم بما يعرفكم اللَّه بمخابئ قلوبكم‏ «ثُمَّ انْصَرَفُوا» عنها كما هم منصرفون عن سائر السور «صَرَفَ اللَّهُ قُلُوبَهُمْ» عن القرآن جزاء بما صرفوا «بِأَنَّهُمْ قَوْمٌ لا يَفْقَهُونَ» الحقّ رغم تواتر آياته و توافر بيناته.

هؤلاء المقلوبة قلوبهم تتغير ألوانهم تغيظا على نزول القرآن و لا سيما السور التي تفضحهم، ثم يقول بعضهم لبعض: «هَلْ يَراكُمْ مِنْ أَحَدٍ» بغيار لونه و القلق الظاهر على صفحة وجهه‏ «ثُمَّ انْصَرَفُوا» لكيلا يسمعوا القرآن و لا يراهم أحد بغيار ألوانهم فيعرفوا بنفاقهم من جهتين أم واحدة.

أم هم في ثالوث من قلقهم ثالثة أنهم يستهزءون بالقرآن عند نزوله، متخفين من أن يراهم أحد فيتساءلون خائفين ذعرين‏ «هَلْ يَراكُمْ مِنْ أَحَدٍ» أم و رابع أنهم يريدون الخروج عند نزول سورة فيتساءلون‏ «هَلْ يَراكُمْ مِنْ أَحَدٍ» تخرجون، «ثُمَّ انْصَرَفُوا» زعما منهم أنه لا يراهم من أحد، حيث تلوح لهم غرة من المؤمنين و انشغال بال، فإذا هم يتسللون على أطراف الأصابع في حذر «ثُمَّ انْصَرَفُوا» تلاحقهم من العين التي لا تغفل و لا تنشغل دعوة قاصمة تناسب فعلتهم المريبة.

إلى هنا- و السورة تتم بعد آيتين- سمعنا مواصفات للمنافقين تحتل زهاء نصف و زيادة من آيات السورة، ثم‏

نسمع الإمام عليا أمير المؤمنين (عليه السلام) يصفهم على ضوء القرآن قائلا:

الفرقان في تفسير القرآن بالقرآن، ج‏13، ص: 355

و أوصيكم عباد اللَّه بتقوى اللَّه و أحذركم أهل النفاق، فإنهم الضالون المضلون، و الزالون المزلون، يتلونون ألوانا، و يفتنون افتنانا، و يعمدونكم بكل عماد، و يرصدونكم بكل مرصاد، قلوبهم دوية، و صفاحهم نقية، يمشون الخفاء، و يدبون الضراء، و صفهم دوائر، و ذكرهم شفاء، و فعلهم الداء العياء، حسدة الرخاء، و مؤكدو البلاء، و مقنّطو الرجاء، لهم بكل طريق صريع، و إلى كل قلب شفيع، و لكل شجو دموع، يتقارضون الثناء، و يتراقبون الجزاء، إن سألوا ألحفوا، و إن عدلوا كشفوا، و إن حكموا أسرفوا، قد أعدوا لكل حق باطلا، و لكل قائم مائلا، و لكل حيّ قاتلا، و لكل باب مفتاحا، و لكل ليل مصباحا، يتوصلون إلى الطمع باليأس ليقيموا به أسواقهم، و ينفقوا به أعلاقهم، يقولون فيشبّهون، و يصفون فيموّهون، قد هوّنوا الطريق، و أضلعوا المضيق، فهم لمّة الشيطان، و حمة النيران، أولئك حزب الشيطان‏ «أَلا إِنَّ حِزْبَ الشَّيْطانِ هُمُ الْخاسِرُونَ» (الخطبة 185).

هؤلاء المنافقون الأنكاد

«زرعوا الفجور، و سقوه الغرور، و حصدوا الثبور» «و الله ما أرى عبدا يتقى تقوى تنفعه حتى يخزن لسانه، و إن لسان المؤمن من وراء قلبه، و إن قلب المنافق من وراء لسانه، لأن المؤمن إذا أراد أن يتكلم بكلام تدبره في نفسه، فإن كان خيرا أبداه، و إن كان شرا و أراه، و إن المنافق يتكلم بما أتى على لسانه، لا يدري ما ذا له و ما ذا عليه» (الخطبة 174).

«رجل منافق مظهر للإيمان، متصنع للإسلام، لا يتأثم و لا يتحرج، يكذب على رسول الله (صلى الله عليه و آله و سلم) متعمدا.

و قد أخبرك الله عن المنافقين بما أخبرك، و وصفهم بما وصفهم به لك، ثم بقوا بعده، فتقربوا إلى أئمة الضلالة و الدعاة إلى النار بالزور و البهتان، فولوهم الأعمال، و جعلوهم حكاما على رقاب الناس، فأكلوا بهم الدنيا، و إنما الناس مع الملوك و الدنيا إلا من عصم الله» (الخطبة 208).

الفرقان في تفسير القرآن بالقرآن، ج‏13، ص: 356

لَقَدْ جاءَكُمْ رَسُولٌ مِنْ أَنْفُسِكُمْ عَزِيزٌ عَلَيْهِ ما عَنِتُّمْ حَرِيصٌ عَلَيْكُمْ بِالْمُؤْمِنِينَ رَؤُفٌ رَحِيمٌ (128).

«كم» هنا تعني كافة المؤمنين بمن معهم من سائر الناس المخاطبين بالقرآن، و هنا مواصفات خمس لهذا الرسول تشجّع على إتباعه:

«رَسُولٌ مِنْ أَنْفُسِكُمْ» فلو كان الرسول إلى الناس من غير الناس لكان في ترك اتباعه عذرا «1» ف‏ «لَقَدْ مَنَّ اللَّهُ عَلَى الْمُؤْمِنِينَ إِذْ بَعَثَ فِيهِمْ رَسُولًا مِنْ أَنْفُسِهِمْ» فهو من أنفس الناس بشرا مثلهم‏ «2» ثم هو من أنفس الناس فإنه من أنفس و أنفس المؤمنين و كما

يروي عنه (صلى اللَّه عليه و آله و سلم) أنه قال: «إذا أراد الله أن يبعث نبيا نظر إلى خير أهل الأرض قبيلة فيبعث خيرها رجلا» «3».

أجل إنه «من أنفسكم» و من أنفسكم، فقد نسب نفسه بسلسلة الآباء إلى نزار ثم‏

قال: «و ما افترق الناس فرقتين إلا جعلني الله في خيرهما فأخرجت من بين أبوي فلم يصبني شي‏ء من عهد الجاهلية، و خرجت من نكاح و لم أخرج من سفاح من لون آدم حتى انتهيت إلى أبي و أمي فأنا خيركم نفسا و خيركم أبا»

فقد تعني «من أنفسكم» من جنس أنفسكم و خلقكم إنسانا كما أنتم لتكونوا إليه أسكن، و إلى القبول منه أمكن، ثم و اعتبارا بمنطلق دعوته تعني من قبيلكم و عشيرتكم، و من ثم اعتبارا بصالح شخصه تعني من‏

\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_

(1).

الدر المنثور 3: 294- أخرج ابن مردويه عن أنس قال: قرأ رسول اللَّه (صلى اللَّه عليه و آله و سلم) «لَقَدْ جاءَكُمْ رَسُولٌ مِنْ أَنْفُسِكُمْ» فقال علي بن أبي طالب (عليه السلام) يا رسول اللَّه ما معنى «أنفسكم» فقال رسول اللَّه (صلى اللَّه عليه و آله و سلم): أنا أنفسكم نسبا و صهرا و حسبا ليس في و لأخي آبائي من لدن آدم سفاح كلها نكاح.

(2) المصدر أخرج بن سعد عن قتادة قال: ذكر لنا أن رسول اللَّه (صلى اللَّه عليه و آله و سلم) قال: ...

(3)

المصدر أخرج البيهقي في الدلائل و ابن عساكر عن أنس قال: خطب النبي (صلى اللَّه عليه و آله و سلم) فقال: أنا محمد بن عبد اللَّه ...

و

فيه أخرج ابن سعد و البخاري و البيهقي في الدلائل عن أبي هريرة أن رسول اللَّه (صلى اللَّه عليه و آله و سلم) قال: بعثت من خير قرون بني آدم قرنا فقرنا حتى كنت من القرن الذي كنت فيه.

الفرقان في تفسير القرآن بالقرآن، ج‏13، ص: 357

أنفس المؤمنين و أنفسهم إيمانا، أم هو من أرواحكم فإن للأرواح جوانب أعمقها الفطر و القلوب، فهو قلب لكل الأرواح المؤمنة.

ذلك، فقد

يحق له (صلى اللَّه عليه و آله و سلم) قوله: «آدم و جميع خلق الله تستظل بظل لوائي» «1».

«عَزِيزٌ عَلَيْهِ ما عَنِتُّمْ» ثقيل عليه ما تعبتم حيث العنت هو الوقوع في مشقة و مكروه، فيعز عليه أن تعنتوا و تعاندوا فتحرموا الثواب و تستحقوا العقاب.

«حَرِيصٌ عَلَيْكُمْ» على إيصال الخيرات إليكم، حريص على أيمانكم رأفة بكم و إشفاقا عليكم.

«بِالْمُؤْمِنِينَ رَؤُفٌ رَحِيمٌ».

و هنا «من أنفسكم» دون «منكم» هي أشد حساسية و أعمق صلة و أدل على نوعية الوشيجة التي تربطهم به، فهو بضعة من أنفس الناس و أنفسهم لأنه من المؤمنين قبل الرسالة.

فَإِنْ تَوَلَّوْا فَقُلْ حَسْبِيَ اللَّهُ لا إِلهَ إِلَّا هُوَ عَلَيْهِ تَوَكَّلْتُ وَ هُوَ رَبُّ الْعَرْشِ الْعَظِيمِ (129).

«فَإِنْ تَوَلَّوْا» بعد هذه المواصفات الرسولية و الرسالية، و بعد كل الآيات البينات الدالة على صدقك‏ «فَإِنْ تَوَلَّوْا» عنك تصديقا برسالتك أو طاعة لك فلا تأسف على توليهم‏ «فَقُلْ حَسْبِيَ اللَّهُ» ربّا لا سواه‏ «لا إِلهَ إِلَّا هُوَ» فإنما هو لا سواه متكئ و متوكل عليه: «عليه» لا سواه‏ «تَوَكَّلْتُ وَ هُوَ رَبُّ الْعَرْشِ الْعَظِيمِ» الذي جعلني على عظيم عرش النبوة و الرسالة الختمية العالمية.

و هكذا يجب أن يكون الداعية إلى اللَّه، يلقي حججه كما أمره اللَّه ثم لا يأسف على توليهم مهما يفرح بتصديقهم.

\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_

(1). ملحقات إحقاق الحق 4: 495 و 15: 483- 487 و 20: 323- 324.

الفرقان في تفسير القرآن بالقرآن، ج‏13، ص: 358

و هكذا يعيش رسول الهدى جامعا بين صلابة المواجهة لأعداء اللَّه، و ليونته مع سائر عباد اللَّه، فقد حارب الأعداء طوال ثمان سنين من العهد المدني- باستثناء سنة أولى و أخرى أخيرة- حاربهم زهاء (65) مرة، ففي كل خمسين يوما كانت له حرب غير ماضية و مستقبلة، و هو في نفس الوقت‏ «بِالْمُؤْمِنِينَ رَؤُفٌ رَحِيمٌ».